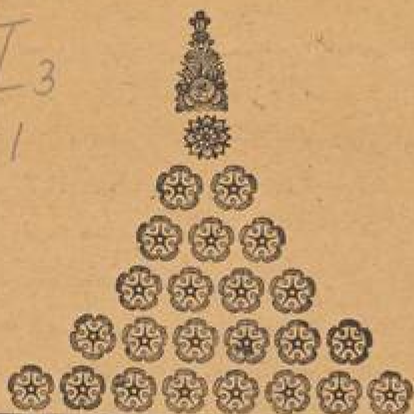
Ibn Sallām al-Bāhilī,
Abu al-Hasan Salām ibn
'Abd Allah.
Kitāb al-dhakhā'ir wa-al-
a'lāq

كتاب الذخائر والاعلاق في آداب النفوس
ومكارم الاخلاق تأليف الامام
أبي الحسن سلام بن عبد الله
ابن سلام الباهلي
الاشبيلي نفعنا
الله به
آمين

فهرست كتاب الذخائر والاعلاق في آداب النفوس ومكارم الاخلاق

فصل

﴿تم الفهرست﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

ان خير ما افتتح به كتاب واستنجح به طلاب واستنجز به ثواب واستدفع به عذاب
واعتمد به صواب حمد الله العزيز الوهاب الهادى المرشد التواب الذى صير عيون
الافكار عن تصور كنه جلاله مغموضه وجعل أيدى العقول عن الوصول الى معرفة
كماله مقبوضه وأثبت العلم بوجود ربوبيته حتما وأوجب التواضع لعزته والخضوع
لكبريائه حكما فتعالى الله الملك المعبود الواحد الفرد الصمد المجيد القادر على ما يشاء
الفعال لما يريد الذى خلق الانسان من علق ثم صوره من مضغة فانتظم واتسق ثم
أخرجه طفلا فتنفس ونطق ثم ألهمه الى ما تقدم له فى علمه وسبق فمن شاء خذل ومن
شاء وفق فتبارك الله أحسن من خلق وأكرم من رزق لا يسأل عما يفعل وهم يسألون
واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه
ترجعون أحمده على ترادف آلائه وحسن بلائه وأسأله الصلاة على خاتم أنبيائه
ومبلغ أنبائه وصفوة أوليائه ونخبة أحبائه محمد نبىّ الرحمة وكاشف الغمة وشفيع
الامة ومتمم النعمة المؤيد بالعصمة الناطق بالحكمة امام الهدى وقامع العدى
ودافع الردى الذى لا ينطق عن الهوى وعلى أهل بيته الطاهرين وصحابته المنتخبين
وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى أهل الطاعة أجمعين من أهل السموات والارضين
(أما بعد) أيها الولىّ الحميم والصفىّ الكريم أعزك الله بالطاعه واستعملنا
وإياك

واياك بالرضى والقناعة فانني لما رأيت الامور الشرعية والاحوال الدينية والمعاني العقلية والاسباب المرضية قد نص الله عز وجل عليها في كتابه العزيز المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم أنطق بها أنبياءه حكمة بالغه وأرسلها بوحيه على ألسنتهم مواعظ نابغه ونعما سابغه ثم شرح لها صدور أولي النهى ونور بها قلوب من آمن به واهتدى فصدرت عنهم بها احكام مرفوعه وامثال موضوعه ونوادر مجموعه وفقر مسموعه خشعت لسماعها قلوب العارفين وأقرت بتصديقها أفئدة المطيعين ودانت بتحقيقها نفوس المتقين وشهد بصحتها عقول العابدين فاستنارت بأنوارها القلوب وابتهجت لحسن آثارها النفوس ولهجت بها الالسن وقرت بها الاعين واستظهرت بحكمها النحل وانتهجت الى الخيرات بوضوحها السبل واستمرت بتقييد شواردها العنايه واستقر على علم شواهدها المحافظة والرعاية وعظم بها اشتغال أهل المعرفة والدرايه وكثر لها استعمال أهل التقى والهداية فجعلوها نصب عيونهم وحديث نفوسهم وشغل جواهرهم ومواقع مواردهم ومصادرهم لدلالتها على سبيل الخير وحملها على أحوال الطاعة والبر فسارت لذلك مسير الرياح في الآفاق وزادت على وضوح النيرات في الاشراق فأردت مستمدا بعون الله عزت قوته وجلت قدرته أن أجمع من معلومها ومأثورها وأثبت من مذكورها ومشهورها وأورد من منظومها ومنثورها مع ما أندب اليه من مكارم الاخلاق ودواعيها وأحمل عليه من الرفض لذامها ومساويها ما يكسب في العاجل جمالا ويحسن في الآجل مآلا ويبعث على ارادة المزيد ويزيد في حرص المستزيد فلعلي أفوز بأجر المرشد المفيد بفضل الله الحميد المجيد ولقد كاد أن يقعدني على مذهبي ويصدني عن بغيتي منه ومطلبي قول بعض المتقدمين عقل المرء مدون في كتبه مترجم بخط يده وقال أيضا بعضهم من صنف فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف لكنه نهض بي حرص المدل ان أبذل جهد المقل على انني شرعت فيه عند استيفاء الكبر ومكابدة الغير ومشاهدة العبر فأي ذهن يتقاص الى صواب وأي قلب يدعو الى الاقتضاب والله يسلك بنا أوضح سبيل ويصرفنا عن مواقع التغيير والتبديل بعزته * ولا يعدم كتابنا هذا أن ينظر فيه عالم عاقل أو جاهل متجاهل فأما الجاهل فقد كفانا الكلام في شانه والتهمم بمكانه لقصور علمه وعطول فهمه وأما العالم العاقل فاذا عرف بعلمه الاغراض والمقاصد وكشف بفهمه الناقص والزائد لا يرى أن يعيبه لنقص ظهر اليه أو خلل اطلع عليه فانه لا يصح الكمال لمخلوق على حال وانما خص به نفسه ذو الجلال ولا بد للناظر فيه أن يستفيد منه ما لم يكن عنده فلا يمكنه أن ينسب الي التقصير فيما لم يكن عندي فان للعلوم غايات لا يدركها المخلوق وللمعارف رايات لا بد فيها من سابق ومسبوق والله ولي التسديد والتوفيق والهادي الى سواء الطريق وبه أستعين على صدق اليقين وعليه اعتمد فيما اعتقد واليه آوي فيما أنوي ومنه أستهدي بما يهدي وبه اعتصم مما يصم له المنتقو الطول وبيده القوة والحول لا رب سواه * ولما رأيت من شرط هذه التآليف وضبط هذه

التصانيف القصد بها الى التهذيب والترتيب والاعتماد فيها على التفصيل والتبويب ليتصل الخبر بمثله و يقترن الاثر بشكله ويوازن الشئ بعدله و يضاف الفرع الى أصله فلا يبعد على طالبه مكانه ولا يتعذر على من ناداه اتيانه قسمته على أربعة عشر بابا يقتضى كل باب التحلى بالسجية الكريمة والتخلى عن الخلة الذميمة وبالله التوفيق ومنه العون وهو ولى الكلاءة والصون (الباب الاول) فى ترجيح العقل وخصائصه وتجريح الهوى ونقائصه الباب الثانى فى اكتساب العلم وفضائله واجتناب الجهل وحامله الباب الثالث فى استصحاب الطاعة لكمالها واجتناب المعاصى ومآلها الباب الرابع فى حسن الصبر وعواقبه وقبح الجزع ومعايبه الباب الخامس فى ايثار الزهد والورع والاقصار عن الرغبة والجشع الباب السادس فى حب العدل وفضله و بغض الجور وأهله الباب السابع فى استنجاح الحلم ومصالحه واطراح السفه ومقابحه الباب الثامن فى اظهار الصدق ومنافعه وانكار الكذب ومصارعه الباب التاسع فى مدح الكرم وأربابه وذم البخل واسبابه الباب العاشر يشتمل على خمسة فصول تتعلق بالافعال الشرعية وتومى الى الافعال المرضية الباب الثانى عشر يحتوى على خمسة فصول لا يقتضيها الشرع وقد ورد فيها النهى والمنع الباب الثالث عشر يشتمل على أنواع الادب وفنون من حكم النظم والنثر الباب الرابع عشر يختص بلمع من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم واخباره وجمل من مآثره الحميدة وآثاره صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم

﴿الباب الاول فى ترجيح العقل وخصائصه وتجريح الهوى ونقائصه﴾

العقل ابدك الله سلطان القرائح ومصباح الجوانح ومفتاح المصالح ورأس العلوم وسبب ادراك المعلوم ومادة الفهم و ينبوع الحكمة وهو القطب الذى عليه هذه الخليقة ورأس مبانيهم فى الحقيقة وأصل التفرقة بين أحوالهم المعلومة واختلاف مذاهبهم المحمودة والمذمومة وبه وقع التكليف للآدميين وهو الموصل الى صلاح الدنيا والدين وهو سبب الاهى وسر من أسرار تدبيره شريف يضعه الله تعالى عند من أراد كرامته من عباده وقضى له بحسن العاقبة فى معاده روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل وأهل العقل هم المخاطبون وهم المكلفون قال الله سبحانه ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الى قوله لآيات لقوم يعقلون وقال عز من قائل ان فى ذلك لآيات لأولى النهى وقال هل فى ذلك قسم لذى حجر وهذا كثير فى كلام الله يضمن غيرما آية من كتاب الله و بالعقل استظهر المرء على كثير مما غاب عنه واستطلع على جل مما يحجب عنه مما يمكن عرفانه ولا يتعذر على أرباب البصائر بيانه من غير حركة جارحة ولا حاجة الى اقتراب ولا مماسة لان الجوارح كلها مفترقة فيما خلقت وجعلت سبب الوصول اليه القرب والمماسة فالمحتاج منها الى القرب السمع والبصر والانف والمحتاج منها الى المماسة اعضاء المباشرة والذوق فسبحان الخالق المدبر القاسم المقدر لا رب سواه

*(فصل)

﴿فصل﴾ وقد تفاوض الناس في تسمية العقل وماهيته ومحله وأطالوا في ذلك الكلام وكشفوا فيه عن مواطن الافهام وخبطوا فيه خبط عشوا وأكثروا فيه النجوى ومابلغوا الاستيعاب وبسطوا القول فيه على مقادير افهامهم وانتهوا من الخوض في أوهامهم الى مبلغ ادراكهم فما تخلص فيه كلام عن الاعتراض ولا سلمت مبانيه من الانتقاص وذلك لدقته عن الاوهام وبعد مراقيه عن الافهام فانه أمر لا يصل أحد الى معرفة حقيقته من ذات نفسه ولا يدرك كشف سر رتبته بالاقتباس من علم غيره اذ ليس من العلوم المدركة بالتعلم المحوقة بالتدبر والتفهم وانما أدرك ما أدرك من العقل بالعقل فهو من الاسباب اللطيفة والاسرار الخفية الشريفة وضعه الله تعالى عند من شاء من عباده فشهد له به ثم علمه العبد بالمشاهدة من نفسه بما أظهره الله عليه من منافعه ومضاره وحسن نظره لدينه ودنياه واستظهار ذلك كله بالقول والعمل واستجلابه الى نفسه والى غيره بحسن التدبير وصحة النظر فعلم بذلك انه عاقل

﴿فصل﴾ فأما اشتقاقهم لاسمائه وهي العقل واللب والحجا والحجر والنهى فقالوا سمي عقلا لانه يعقل صاحبه عن ركوب شهواته ومنه أخذ عقال الناقة فكما يمنعها عن الشرود والنفار كذلك العقل يمنع صاحبه عن اتيان المكاره والمضار وقال عامر بن عبد القيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقال بعض العلماء العاقل من عقل لسانه الا عن ذكر الله والجاهل من جهل قدر نفسه وقيل عقل المرء عقاله وعمله كماله وقيل العقل يملك أعنة الشهوات فمن لم يعقله عقله عن شهوته لم ينفعه علمه وقيل العقل هو عقال النفس وقيل سمي لبا لانه صفوة الروح ولبابه وخالصه ولب كل شئ خالصه ومحضه وقالوا سمي الحجا لاصابة الحجة به والاستظهار على جميع المعاني بحجته ومنه يقال حاجيته فحجوته اذا ناظرته فابكته ويقال يحجى أن يفعل هذا أي خليق به وما أحجاه أي ما أخلقه وقالوا سمي حجرا لانه يحجر عن ركوب المناهي ومنه يقال حجر الحاكم على فلان وحجر الوالد على ولده اذا منعه ويقال الانسان اذا كان ضابطا لنفسه رابط الجاش مالكا لاربه انه لذو حجر وكذلك يقال للحصن حجر لانه يتحصن به من الطوارق والحاجور الملاذ الذي يلاذ به والحجر الحرم وقالوا يسمى النهى جمع نهية وهو العقل لانه اليه ينتهي الذكاء والمعرفة والنظر وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدي الى صلاح الدنيا والآخرة ولذلك قيل نهي الوادي ونهيه وهو مبلغ ما ينتهي اليه السيل منه

﴿فصل﴾ وأما اختلافهم في كنه العقل وماهيته فقال بعضهم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ويفرق بين الامور المشتبهات وهذا غير مقنع لان الجوهر عند أهل الكلام ما قام بنفسه وان كان أقل الاجزاء وقد سئل بعض أهل العلم عن الجوهر والجسم فقال هما على الحقيقة اسمان متعاوران لمسمى واحد والعقل لا يكون جسما وانما هو عرض تحمله النفس يعبر به عن المعرفة الصحيحة التي توجب التزام الفضائل وتقتضي حمل المكارم وترفض المكاره وتجتنب المآثم وتبعث على فعل الخير وتهدي الى طريق البر وقد قال أفلاطون ما ليس له غاية ليس له شخص وما ليس له شخص ليس له صورة وما ليس له صورة

ليس له تقدير وهذه من صفات الكمال فشبهها العقل لانه سبب لكمال المرء والله أعلم
وقالوا العقل هو ادراك العلوم الضرورية من وجهين أحدهما ما يكون علمه ثابتا في
النفس مثل أن يكون عالما بوجود نفسه وانه لا يخلو من وجود وعدم وحدوث وقدم وان
الاثنين أكثر من الواحد وان الفوق ضد الاسفل وان الظلمة خلاف النور وما شاكل هذا
والثاني ما يدرك بالحواس كالمرئيات المدركة بالبصر والاصوات المدركة بالسمع والروائح
المدركة بالشم والمطعومات المدركة بالذوق والملموسات المدركة بالمباشرة وهذا الوجه ظاهر
الاستحالة فان هذه الحواس كلها مجموعة في البهائم وقد حجبت عن العقل جملة وأيضا فان الله
سبحانه قد خلق الاكمه والابرص ومنع من شاء حاسة الشم ولا يمتنع من ذلك أن يكون عاقلا
وقالوا هو ادراك الاشياء على ما هي عليه من حقائق معانيها وصحة مبانيها وهذه صفة
حسنة كاملة ومرتبة شريفة عالية تدل على كمال العقل واجتماع شمل المعرفة غير انها
حال لا تقتضي لصاحبها النقص منها ولا توجب لحاملها التأخر عنها الا ان ادراك الاشياء على
ما هي عليه من حقائق معانيها وصحة مبانيها لا يصح له ادراك البعض منها دون استيفاء
جميعها وعند ذلك تصح المعرفة ويثبت العلم ويستوفي حقيقة الادراك والعقل انما هو
درجات ينقص ويزيد ويذهب ويعود وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وقل رب
زدني علما فقد بعد من هذا الوجه والله أعلم * وقالوا هو اصابة الرأي وادراك البيان لقول
الله عز وجل يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون وقوله تبارك وتعالى
قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون وقال عز وجل من قائل فاستمع لما يوحى أي اعقل ما تسمع
وتقول ان تكلمت أعقلت ما أعقلت لك أي فهمت ما أوردته عليك ولا محالة ان المفهوم
من كل شيء ما قيده العقل وقالوا هو معرفة تكون في الانسان تزيد باكتساب العلوم وتظهر
عند افادة المعلوم وليس كذلك لان المعرفة انما تكون عنه وتنبعث منه فهو أسها
لا نفسها وسببها لا عينها

﴿فصل﴾ وأما اختلافهم في محله وتحديد مستقره فمنهم من قال محله الدماغ لاشرافه على
البدن ولان الرأس مقر الحواس واحتج انه متى حدث في الدماغ حادث بطل العقل واختل
بمقدار الحادث فيه وهذا شيء نجده في جميع الاعضاء اذا افرط الألم الحادث النازل
بها وأخرج صاحبها عن حد الاحتمال ذهل العقل واختل الذهن بقدر حال العرض وقوته
وان وجدنا ذلك في الرأس أشد منه في سائر الاعضاء لما ذكرناه من شرفه واشرافه ومع
هذا فقد رأينا معاينة وتأولنا مشاهدة من ذهب عقله لمصاب عظيم نزل به وخطب
جسيم جرى عليه كذهاب المال وفقد الحبيب وعند افراط الحب أو انعكاس حال
من غير تدبير يخرج صاحبها من العافية الى البلاء او لمنظر بشيع ومشهد كريه
فظيع مثل الذي يفعل بأهل الجرائم اذا جاوزوا بهم التنكال حد القصاص كالصلب والرمي
بالسهام والتمثيل بقطع الاوصال وسمل الاعين وخلع الالسن فلقد رأينا من فقد عقله
عند مصابه بهذه النوائب وما لحق الدماغ شيء يغيره ولا وصل اليه شيء يؤثر فيه وقالوا محله
القلب وهذا والله أعلم هو الموجود بصحة النظر والمعلوم بصحة الاثر لانه سلطان البدن

نحن فيه التأويل وحققه التنزيل وعضدته السنن المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال تبارك وتعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقال عز من قائل ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها وقال لنبيه عليه السلام فان يشأ الله يختم على قلبك وقال جل وعز نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين وهذا كثير فى كتاب الله وفى حديث عطاء عن ميمونة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تبارك وتعالى ان العبد يتحبب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت رجله التى يمشي بها ويده التى يبطش بها ولسانه الذى يتكلم به وقلبه الذى يعقل به ان سألنى أعطيته وان دعانى أجبته فأضاف سبحانه كل جارحة الى ماخلقها له كان الصدر كناية عن القلب لانه محله قال الله جل ذكره أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدري ويسر لى أمرى وقال تعالى لنبيه عليه السلام ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك ومثل ذلك كثير فى كتاب الله تعالى وقال بعض الحكماء الصدر ساحة القلب كان ذكر القلب كناية عن النور الموضوع فيه الذى اليه الاشارة بقول الله عز وجل ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وانما أشار الى الموضع فيه والمراد أيضا بقوله تعالى لتنذر من كان حيا أى من كان عاقلا وقيل من كان مؤمنا وكذلك فسر فى الآيتين والله أعلم وتكلم بعض أهل العلم فى العقل والشرع هل وضعا معا فى حال واحدة أم سبق أحدهما الآخر فمنهم من قال وضعا فى حال ومنهم من قال ان العقل هو السابق وهذا أمر ليس به خفاء ولا عليه غطاء وقد قدمنا ان بالعقل وجب التكليف وهل قبل ماجاء به الانبياء وعلم صحة مابعثوا به الا بالعقل وهل كانوا قبل ذلك الا كفارا كالصحابة وغيرهم وهم أهل العقول السنية والاذهان الذكية ولذلك قبلوا الشرع ودانوا به وهذا مما لا يحتاج الى تبيان ولا يفتقر الى برهان وكل واحد من هذه الطائفة المتكلمة فى العقل لم ينكب عن القصد ولا عدل عن الرشد ولا انحرف كل الانحراف عن السنن كلامه ولا طاشت عن موقع الهدف سهامه لان كل ماوصفوه وجميع ماصنفوه فى دلائل العقل وشواهده ودواعيه وفوائده وقد قال سواهم غير هذه الاقوال مما هى أبعد من الصحة وأقرب الى المحال اضربنا عنها لمخافة التطويل والخروج فيما قصدناه عن سواء السبيل

﴿فصل﴾ واصح الاقوال وأصوبها وأشبهها بالحق وأقربها وأحقها بالتفضيل وأوجهها ان العقل نور موضوع فى القلب كنور البصر فى العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من اشكالها شئ كذلك اذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة وكما تدرك بنور البصر شواهد الامور كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور فعمى البصر كعمى القلب ولا فرق قال الله العظيم وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى أى بينا لهم وأراد بالعمى عمى القلب والله أعلم وقال عز من قائل فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الاعمى من عمى بصره انما الاعمى من عميت بصيرته ﴿فصل﴾ وقد شبه القلب فى

جسد الانسان بالمصباح والعقل بمنزلة النار المتعلقة به وسائر الجسد كالبيت فاذا تعلقت النار بالمصباح ضاء البيت واستنارت جوانبه وان طفئت النار بقى المصباح مطروحا لافائدة فيه ولهذا أشار بعض العلماء فى قوله اذا ذكرنا القلب فلسنا نريد به اللحم الصنوبرى المعلق بين الاضلاع فانا نجده للبهائم والاموات وانما نريد به السريرة الموضوعة فيه

﴿فصل﴾ وقد انتهيت بحمد الله تعالى وحسن عونه مما أوردناه فى هذا الباب الى مقدمات كافيات يكثر بها الاستدلال وتقوم للناظر فيها المدبر لها مقام الاحتفال وكلام العلماء أكثر من ان يدركه الاحصا ويستوفيه الاستقصا ونرجع الى ماشرطناه من ذكر الحكم المأثوره والامثال المشهوره والفقر المنظومة والمنثورة فأولها بالتقديم وأحقها بالتكريم والتعظيم ماصدر منها عن النبى الكريم المخصوص بالبينات المنزه عن البهتان المبعوث بالقرآن الداعى الى خير الاديان الناطق بالبلاغه المعجزة فى الالفاظ الموجزه كما قال عليه السلام أعطيت جوامع الكلم فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم قسم الله العقل ثلاثة اجزاء فمن كن فيه كمل عقله ومن لم تكن فيه فلا عقل له وهى حسن المعرفة بالله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر على أمر الله قال الله تعالى أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قام اليه رجل من بنى مجاشع فقال يارسول الله ألست أفضل قومى فقال له ان كان لك عقل فلك فضل وان كان لك خلق فلك مروءة وان كان لك مال فلك حسب وان كان لك تقا فلك دين والى هذا نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قال خير حسب الرجل ماله وشرفه دينه وأصله عقله ومروءته خلقه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل النور فى القلب انشرح وانفسح قيل له يارسول الله هل لذلك من علامة قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الفوت وروى ان جبريل أتى آدم عليهما السلام فقال له انى أتيتك بثلاث فاختر واحدة قال وماهى قال العقل والحياء والدين قال اخترت العقل فخرج جبريل عليه السلام الى الحياء والدين فقال لهما ارجعا فقد اختار العقل عليكما فقالا انا أمرنا ان نكون مع العقل حيث كان وقال بعض الحكماء العقل رأس مال الجسد وبه يعرف المرء فيفيد ادراك المعانى وصحة النظر وصواب الرأى ويكتسب أدب النفس ومكارم الاخلاق وهو ينبوع الفضائل ومادة العلوم ومعدن الخيرات فطوبى لمن منحه وبؤسى لمن منعه وقال غيره الحكمة صورة العقل والعقل هو المؤيد لاحكامها المؤدى الى معرفة نتائجها المبرهن لما يخفيه مضارها الدال على غامض اسرارها السفير بينها وبين القلوب المخلص لجميع الانباء من كدر الظنون والاهواء وقيل فى منثور الحكم العقل آيته سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم ومن كلام بعض الحكماء الهمم العليه والقرائح الذكيه توصل القلوب الى نسيم هذا العقل الروحانى فتدرك من الاسرار الخفية عن الابصار المحيطة بالاقطار ماتشاهد به العبر وتفارق به الكدر فتعيش الارواح عيش الابد الذى لا يبيد وتعاين الحقائق فى دار الخلود اذا تقدم السابق المجدود وتأخر الشقى المحدود وتفوز النفوس بالحظ النفيس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحق يأتى

وعليه نور فعليكم ببشائر القلوب وقال صلى الله عليه وسلم ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد واذا فسدت فسد الجسد ألا وانها القلب فهذا دليل على ان القلب هو ملاك الابدان وسلطان جوارح الانسان وقطب تدور عليه رحى الجثمان فاذا صفى من اكداره واستنار بانواره كان أرفق رفيق وأصدق صديق يدعو الى الحقيق ويهدى الى سواء الطريق كما انه اذا تكدر صفوه وطفى ضوءه وأظلم جوه كان أخبث صاحب وعدو ناصب يدعو الى اقتراف المصائب ويقود الى سوء العواقب ويحط الى أوضع المراتب وفى ذلك يقول العباس بن الاحنف

قلبى الى ما ضرنى داع * يكثر أوجالى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى اذا * كان عدوى بين اضلاعى

ومن الدليل على ان القلب سلطان البدن ومالك جميع ما فيه من متحرك وساكن ان جميع ما فيه من عروق نافضة وأورام حادثه وآلام طارقه لها ضربان القلب كانها مجيبة له لتعلق جميعها به وقال بعض الحكماء ليس شئ أفضل من طهارة القلب وليس فوق طهارة القلب الا الصدق وليس فوق الصدق الا النور فاذا اكتنفه النور بلغه درجة الرضى فى الملكوت وفسر بعضهم حسن تدبير الله فى بريته وبين لطف أحكامه فى تقدير مشيئته فقال ان البدن مفتقر فى تأدية أفعاله الى تدبير النفس وان النفس مفتقرة فى اختيارها الى ارشاد العقل فتحصل من ذلك انه ليس فوق العقل فاتح الا الهداية الالهيه وهى سببه واليها منتسبه فالطبيعة محيطة بالاجسام احاطة التحريك لها والنفس محيطة بالطبيعة احاطة التدبير لها والعقل محيط بالنفس احاطة الارشاد والهداية فسبحان المقدر المدبر لارب غيره *(فصل)* واعلم ان العقل ينقسم قسمين طبيعى معتاد وهو الاصل ومكتسب مستفاد وهو الفرع وفى ذلك يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع * فلا ينفع مسموع
اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

فالطبيعى المعتاد هو العقل الصحيح على التحقيق وهو النور الذى ذكرنا ولا ينبغى ان يكون مطلقا من غير اضافة الى شخص وهو بمنزلة الشعاع من الشمس والنور من العين والمكتسب المستفاد هو الذى تحصل بالمكنة وكثرة التجارب ومرور الايام والليالى بالمواهب والنوائب وقد قال بعض الحكماء أصل الامور العقل وفرعها التجارب وقال بعضهم كل شئ مفتقر الى العقل والعقل مفتقر الى التجارب وقال بعض الادباء بعيون التجارب ترى صور العواقب وقال ابن المعتز العقل غريزية عونها التجربة وقال بعض الحكماء أربع محتاج الى أربع الحسب الى الادب والسرور الى الامن والقرابة الى المودة والعقل الى التجارب وهذا تقسيم حسن وليس العقل المكتسب بمنفصل عن العقل الغريزى بل هو نتيجته يزيده قوة وينميه ويشيد أركان مبانيه فانه لا يصح ان بممارسة الامور وتقلب الدهور وملاقاة الخطوب والمحذور تحدث بذاتها عقلا حتى يكون العقل لها عقلا ألا ترى الى النوكى والمجانين والعتاه والمخبولين وهم المعروضون لنوائب الزمان وتصاريف

الحدثان لبعدهم عن الصيانة وانتصابهم بالامتهان فانهم لا يخلدون الى راحة ولا يتمكنون من رفاهية بل شعارهم الجولان وآثارهم التحول من مكان الى مكان ومالذلك تأثير في أحوالهم ولا يفتقدون به عن مراتب أقوالهم وأفعالهم فاذا كان المرء قد حلب أشطر دهره وجرت عليه ضروب خيره وشره مع عقل تمكن في صدره أبدا في جميع أحواله ويزيد من الخبر في أقواله وأفعاله ولذلك ماعدت العرب آراء الشيوخ واعتمدت في النوازل على مشورة الكهول لما يوجد فيهم من اصابة الرأى وجودة الحدس واتقان المعرفة وصحة النظر مع مامنحوا من حسن الاختيار وسمت الوقار وان ضعفت منهم القوى وخمدت نيران الذكا وفي ذلك يقول شاعرهم في المعنى

لئن فقدوا الشباب فرب عقل * أفادوه على مر الليالى
خبت نار الذكاء فأججوها * بآراء أحد من العوالى

وله أيضا

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الايام في كرها عقلا

وقال بعض الحكماء من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وفي ذلك يقول ابن المعتز

وما ينتقص من شباب الرجال * يزد في نهاها وألبابها

وقد عدل قوم عن هذا المهيع ونزعوا غير هذا المنزع وسلكوا في مذاهبهم غير هذا المسلك وأهواء الناس غاية لا تدرك فجعلوا الشباب أوفر الحظوظ من الفطنة وأكبر السهام من التأيد والمنصور بما قصرت عن مقاومتهم الكهول ولجأت اليهم في كثير من تنقيح الفروع والاصول لتوقد افهامهم وحضور اذهانهم فانه قد يوجد فيهم من حسن الفطنة وذكاء الذهن وسرعة الخاطر مايدل على وفور غريزة العقل ويبين حقيقة الفضل ولهذا انظر قول الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا
ولو ان السنين تقسمته * حوى الآباء أنصبة البنينا

حكى عن أبي قتيبة ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بفتيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهرب الصبيان حين نظروا الى عمر الا عبد الله فقال له عمر لم تهرب مع أصحابك فقال له يا أمير المؤمنين لم تكن على ريبة فأخافك ولم يكن في الطريق ضيق فاوسع عليك فانظر الى حضور هذا الذهن وذكاء هذا الخاطر الذي يقصر عنه كثير من الكهول وقيل انه لما ولد للرشيد ابنه عباس ابن رائطة وكان شديد السمرة كره لذلك مكانه وقصر عن الحاقه بسائر بنيه عنانه ثم اتفق ان تنبأ في عهد الرشيد رجل سخيف فبلغ أمره الرشيد فاحضره بين يديه وأجلسه وجعل يعظه ويفنده وينكر عليه فعله ويهدده وجميع ابناء الرشيد مصطفون بين يديه بينهم عباس لم يجاوز العشر فابى ذلك الشقى المتنبي الا التمادي في غيه وقد بولغ في زجره ونهيه فلم ينته فامر الرشيد بتجريده وضربه فلما باشر السوط جسده جعل يضطرب ويدعو ويقوم ويقعد فقال عباس ان كنت كما زعمت فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فاستطار لها الرشيد استبشارا واستقبالا واهتز لها المجلس استحسانا واستنبالا وقال ابني والله ثم رفع منزلته وأكرم مثواه وألحقه في الرتبة بسواه وذكر في

بعض الروايات انه لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قدم عليه الوفد من كل بلد فتقدم اليه وفد أهل الحجاز فاشرأب منهم غلام غرللكلام فقال له عمر يا غلام ابتكلم من هو أسن منك فقال يا أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد أجاد له الاختيار ولو ان الامور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك فقال له عمر صدقت تكلم فهذا هو السحر الحلال ثم سأل عمر عن سن الغلام فقيل هو ابن عشر سنين وفي مثل هذه الشواهد من النبل دلائل على وفور العقل وبراهين تبين حقيقة الفضل * روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أوصيكم بالشبان خيرا فانهم أرق أفئدة ألا وان الله تعالى أرسلني شاهدا ومبشرا ونذيرا فخالطني الشبان وفارقني الشيوخ * قال الزهري كان مجلس عمر بن الخطاب رضى الله عنه مغتصا من العلماء والقراء كهولا وشبانا وربما استشارهم فكان يقول لا يمنع أحدكم حداثة سنه ان يشير برأيه فان الرأى ليس على حداثة السن ولا على قدمه ولكنه أمر يضعه الله حيث يشاء وقالت الحكماء عليكم بآراء الاحداث ومشورة الشباب فان لهم اذهانا تفل النواصل وتحطم الذوابل ومن أقوالهم آراء الشباب خضرة نضرة لم يهتصر غصنها هرم ولا أذوى زهرتها قدم ولا خمد من ذكائها بطول المدة ضرم وفى مثل ذلك يقول بعض الشعراء

عليكم بآراء الشباب فانها * نتائج عقل لم تنل قدم العهد
فروع ذكاء تستمد من النهى * بأنور فى اللأواء من قمر السعد

ولا محالة ان لكل لطائفة من الفريقين حظا مقسوما من العقل ونصيبا معلوما من الفضل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وجميع ما ذكروه من وفروعين مما جمع فى الانسان من صحة الرأى وذكاء الذهن واتقان المعرفة وحسن الشيم وأدب النفس ومكارم الاخلاق انما هى كلها نتائج العقول وفروع تلك الاصول فسبحان من لا يشارك فى تدبير خلقه ولا ينازع فى تقسيم رزقه ومن كلام الحكماء العقول مواهب والآداب مكاسب وفى توشح هذه الفروع وتشعب هذه الغصون يقول بعض الشعراء وقد عزيت الى على ابن أبي طالب رضى الله عنه

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والنفس تعلم فى عيني محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها
ولست عمرى فى حال أصدقها * ولا أرى الرشد الا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء العقل أمير والخصال رعية فان قوى عليها أطاعته وان ضعف عنها خالفته وقد شبه الجسم بمدينة والعقل بملك يديرها وقواه وحواسه جنوده وأعوانه وجوارحه رعيته والنفس الامارة بالسوء عدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى هلاك رعيته وشيعته وأتباع من الشهوات فصار الجسد كثغر وموضع جهاد ورباط فان هو ضيع ثغره وأهمل رعيته غلبته النفس وقويت عليه بجنود شهواتها فاهلكته وأهلكت جنوده وان هو جاهدها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها كان ذلك سببا لبقاء ملكه وعمارة حصونه فحمد آثار جهاده وجاء فى بعض الآثار ان الله تعالى يقول

يوم القيامة للعبد يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك * وعن عطاء بن يسار عن كعب الاحبار انه قال القلب ملك واللسان ترجمان واليدان جناحان والرجلان بريدان والرحمة فى الكبد والضحك فى الطحال والنفس فى الرئة والمكر فى الكلى فاذا طاب الملك طابت جنوده واذا خبث خبثت جنوده وقال سقراط لا يكون العاقل عاقلا حتى يغلب جميع شهوات الجسد وكان يقول لتلاميذه يا بنى اعقلوا ما أنتم فيه فان كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا فان كنتم لا تحسنون الحذر منها فاجعلوها شوكا وانظروا حيث تضعون أقدامكم واجتنبوا جميع الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا محجوبة عن الله تعالى ومن الحكم المنثورة كل رأى يستأذن فيه العقل فهو صواب والناس انما تفاضلوا فى أحوالهم بقدر حظهم من العقل لا بظهور عزه ولا بكمال بزه فان العقل كامن فى الانسان كمون النار فى الزند فاذا قدحه الانسان بالاختبار أورى وان ترك توارى وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وكم من فتى شاخص عقله * وقد تعجب العين من شخصه
وآخر تحسبه جاهلا * ويأتيك بالامر من فصه

وقالت الحكماء حسن الصورة الجمال الظاهر وحسن العقل الجمال الباطن وقال بعضهم العقل عين النفس كما ان السراج عين الضوء والنفس سراج البدن كما ان الشمس ضياء العالم وقال عبد الحميد الكاتب من كان كلامه أكثر من عقله كان كلامه عليه ومن كان عقله أكثر من كلامه كان كلامه له وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الرجل على عقله وقال بعض العلماء المرء يتصرف بين ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فعقل يدبره وعلم ينوره وفكرة صحيحة تنهض به الى المشاهدة والمهلكات دنيا تزين له ونفس امارة تحدثه وشيطان غوى يوسوسه وقال غيره من كان العقل رائده هداه ومن كان الدهر واعظه كفاه ومن كان الفكر طبيبه شفاه ومن كان اليقين شعاره حماه ومما قلت فى هذا المعنى

اذا كان عقل المرء رائد فعله * تكنفه الاحسان من كل جانب
وسهل الطافا صعاب أموره * وقرب تدبير اللبين الجوانب
ومن صحب الدنيا ولاقى صروفها * أفادته علما من علوم التجارب
فأصبح ذا حزم ورأى موفق * موقى بفضل الله سوء العواقب

(فصل) واعلم وفقك الله انه لا يستحق الانسان ان يسمى عاقلا حتى تخرجه القوة الكاملة الى حد العقل الوافر فتغلب القوة الشهوانية الباعثة على ركوب اللذات والقوة الغضبية الباعثة على الحركة والاستشاطة فتستفيد المعرفة الصحيحة التامة التى توجب عرفان الاشياء على حدودها والتمييز بين أحوالها والتفصيل لمجملها والتجميل لمفصلها فيأخذ نفسه بحكم كمال العقل والاعراض عن معرض الشهوات وان كان هواه هو الغالب عليه المالك له كان علمه ظنا وتحقيقه وهما ورجع حكمه الى طبعه الذى هو أملك به فصار أصم أعمى فانما جعلت لنا هذه الاسماع والابصار وركبت فينا هذه القرائح والافكار لنستعمل معانيها فى صلاح أنفسنا ونصرف قواها فى تدبير منافعها وتهذيب طبايعنا ونخرجها من حد النقص الى حد

الكمال

الكمال فلم نرض عند ذلك من العلم الا بارفعه ومن العمل الا بانفعه ومن جميع الافعال الا باحسنها *(فصل)* واعلم ان النفس قد ركبت فيها ثلاث قوى عقلية وغضبية وشهوانية فالعقلية هي الذي يتقاد بها صاحبها الى الحقائق ويتحاشى البواطل ويقف عند الحكم ويرجع الى قبول الامر والنهي ويرى الحسن فيتبعه ويرى القبيح فيمتنعه والغضبية هي التي تحمل صاحبها على الحمية والانفة وتزين له الغلبة والقهر وتحبب له الاستيلاء وربما أفضت به الى العجب والكبر (والشهوانية) هي التي تزين لصاحبها ركوب الشهوات وتقحم به بحور اللذات وتضجعه في مهاد الغفلات فتنام بصيرته عن نظر العواقب حتى يصير غرضا للنوائب فاذا كانت القوة العقلية هي الغالب على طباعه لم يأخذ من سائر القوى الا ما لابد منه ولا غنى عنه من غير ركوب حرج ولا خروج عن طاقة ولهذه الثلاث قوى ثلاث حركات حركة معتدلة وهي العقلية وحركة تطلب الزيادة وحركة تميل الى النقصان فان خرجت عن حد الاعتدال الى الزيادة كانت شرها وحرصا وتهافتا واستشاطة وان هي مالت الى النقصان كانت غبا وبلادة وأحدثت ضعفا ومهانة ولذلك قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال في جميع الامور والتوسط في كل الاحوال فان الزيادة عيب والنقصان عجز ولهذا قال عليك بأوسط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا *(فصل)* وكذلك جميع حالات الانسان راجعة الى ثلاث منازل عليا ووسطى وسفلى ذكرها الله عز وجل في كتابه وجعلها مراتبا لعباده فقال عز من قائل وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم ثم نص الله تعالى أحوالهم وقص مآلهم فقال سبحانه فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم وأما قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير فانما المقصود به أمة محمد الذين آمنوا بكتابه *(فصل)* وكذلك وجد العقل المركب في الانسان ينقسم على ثلاث درجات فالدرجة الاولى وهي أجلها وأعلاها وأحقها بالتفضيل وأولاها التي افضت باهلها الى الحسنى وقضت لهم بالحظ الاسنى حملتهم على رفض الدنيا فسمت بهم الى المراتب العليا فهم قد تخلصوا من أكدارها واغتسلوا من أقذارها فكلما تعرضت لهم شهوة أعرضوا عنها وفروا فرار الآبق منها كما انهم اذا أصابتهم من الزمان نائبة أو نالتهم من تصاريفه حادثة تلقوا بالصبر الجميل احتمالها واستسهلوا احتمالها لنيل الراحة الابدية التي لا نفاد لها والسعادة الدائمة التي لا انقضاء لأمدها فهم قد شغلوا قلوبهم بالنظر وأتعبوا خواطرهم بالفكر ونصبوا اجسامهم للعمل واستعملوا جوارحهم في الخدمة واعتصموا بحبل الله وأخلصوا دينهم لله ولم يشغلهم شيء عن عبادة الله ولا ألهتهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فاولئك المتشبهون بالملائكة وهي درجة الانبياء ومن اصطفى من الاولياء وأما الدرجة الثانية وهي الوسطى فمبنية على الاعتدال والتوسط في جميع الاحوال وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوسطها وجاء في تفسير قول الله عز وجل وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي خيارا عدولا فهي

وان لم تنهض بهم الى التشجر فقد حمتهم عن التأخر حملتهم على النظر فى أحوال الدنيا وتحسين أسباب الحيا فاولعتهم بالكسب والتجارة وشغفتهم بتثمير الاموال والعمارة وألزمتهم النظر فى العواقب وقنعوا فى كل الاحوال بسلامة الجانب فهم يقيمون الفروض و يؤدون الحقوق و يقفون عند ما أمروا به و ينحرفون عما نهوا عنه و يلتزمون الطاعة ولا يفارقون الجماعة فهم وان عرفوا حق المعرفة دنياهم فلم يجهلوا كل الجهل أخراهم فتشبهوا بالملوك الناظرين لانفسهم ورعاياهم الآخذين بالحزم فى أحوال دينهم ودنياهم وأما الدرجة الثالثة وهى السفلى فهى المذمومة المواقع القبيحة الصنائع البعيدة عن جميع المنافع منعت أهلها الاحسان وحملتهم على الخذلان فأورثتهم الخسران فهم يصرفون عقولهم فى المكر والخديعة و يشغلون خواطرهم بالدهاء والخلابة ليأكلوا أموال الناس بالباطل قد آثروا العاجل الزائل على الآجل الطائل وقد قال بعض العلماء شرار الناس من يتفقهون لغير الدين و يتعلمون لغير العمل فما لهم فى غير الدنيا من أمل فتراهم أبدا يتهافتون على أسباب حطام الدنيا كأنهم انما خلقوا فيها للبقاء لا يتقون النار ولا يرقبون العار يستنبطون ضروب المناكر و يتعمقون فى ارتكاب الكبائر فكلما قبح الامر كانوا به أعجب وكلما شنع المنكر كان عندهم ألذ وأعذب قد غلبت عليهم الاخلاق الدنية واستولت عليهم الطبائع البهيمية فلبسوا أثواب الجهالة وركبوا خيل الضلالة وجروا فى ميدان البطالة ولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون فهم المتشبهون بالثعالب والذئاب بل هم شر من الخنازير والكلاب ونعوذ بالله من سوء المآب وهذه الطائفة تعتقد ان ماهى عليه نوع من أنواع المعرفة وباب من أبواب الفطنة ووجه من وجوه النظر وما أبعدهم عن الحق لان الانسان اذا ركب طريقا من طرق البطر وقد حجبت عنه عاقبته فلا يدرى أيفضى به الى خير أم الى شر فهو من أمره على خطر ومن بصيرته على عمى ومن تعرفه على غرر فكيف به اذا كان الامر ظاهر الفساد مذموم الاصدار والايراد فتلك نهاية النقصان وغاية الحرمان ونعوذ بالله من موافقة الخذلان ومتابعة الشيطان ﴿فصل﴾ وارادة النفس أيضا تنقسم على قسمين ارادة نفسانية وارادة جسمانية فالنفسانية هى التى تكون فى الخواطر والفكر وهى التى تصور المعانى وتستخيل الامور فتميل الى موافقها من رشاد أو عناد والجسمانية هى التى تكون من الحواس الخمس النظر والسماع والشم والذوق واللمس فتصرفها النفس أيضا فيما جبلت عليه من خير أو شر فينبغى للعاقل ان يحفظ جهده منها و يستعين بالله عز وجل عليها بأخذ نفسه بالقهر لها و يبذل جهده فى جهادها والاقتدار عليها ومنعها من جميع الشهوات المعترضة اليها فعساه بفضل الله تعالى ان يتخلص منها فاذا كان يحتمل لصلاح هذه الاجسام الكى وقطع العروق و بط الاورام وشرب الادوية الكريهة تعين علينا اصلاح هذه النفس أضعاف ذلك لشرفها وفضلها على الجسم فكيف وعلاج النفس لمن وفق الله أقل مؤنة وأيسر مضضا وأقرب محاولة وأحمد عاقبة وقد قال بعض الحكماء العاقل يترك ما يحب ليستغنى عما يكره وما أحسن قول الشاعر

اذا

اذا المرء أعطى نفسه كل شهوة * لمحة ايام تبيد وتنفد
لها باله لا يحتمى عن حرامها * لمحة ما يبقى وما يتخلد

فجهاد النفس هو الجهاد الاكبر وبه جاء الاثر روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أعدى أعدائك اليك نفسك التي بين جنبيك فمن الحق ان يستعين المؤمن بالله عز وجل من شر نفسه قبل ان يستعين من شر غيره فان شر نفسه يؤخذ به وشر غيره يؤخذ عليه والعاقل كل العاقل من ميز نفسه وعرف قدره ونظر في الحقيقة وأمعن الفكرة الصحيحة وعلم ان جوارحه قد ركبت فيها جميع الشهوات وان طباعه قد جلبت اليها صنوف اللذات فلا يقدر على قصرها ولا يتمكن من صرفها وقهرها الا بالمجاهدة وملك الشهوات بخطام التقوى وما أشد وما أصعب أما ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقال بعض الحكماء لصاحب له استصلح نفسك بعقلك واجعل نظرك وتفكرك بمنزلة المرآة تدرك بها ما التبس من أمرك ومن كلام بعضهم اكمل الناس عقلا أغلبهم للهوى وأملكهم للشهوة وقال هرمس العاقل لا تدعه ذنوبه أن يفرح بمحاسنه لما يظهر من محاسبته نفسه وقال أفلاطون العقل صفاء القلب والنفس والجهل كدرها ومن كلام بعض الحكماء لا مال أوفر من العقل ولا فقر أشد من الجهل ولا قرين أفضل من حسن الخلق ولا فائدة أشرف من التوفيق ولا ميراث أنفع من الادب ولا رأى أحسن من المشورة ولا سجية أكرم من حسن العادة وقال بعض الحكماء من فضل العقل انه لا يستفاد بثمن ولا يغتصب من أحد وفي منثور الحكم مجالسة أهل العقول عمارة القلوب وسأل المنصور المسيب بن زهير فقال له ما مادة العقل قال مجالسة العقلاء وما أحسن قول بعض الشعراء في هذا المعنى

وما بقيت من اللذات الا * مجالسة الرجال ذوى العقول
وقد كانوا اذا ذكروا قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

وقال بعض الحكماء الفهم شعاع العمل والادب صورته ومن كلام بعضهم من وفر عقله ميز نفسه وحسن خلقه ودخل نصيب الشاعر على عبد الملك بن مروان وكان عبدا أسود غير مقبول الصورة فانشده ممتدحا فاحسن وبالغ فاتقن فاستحسن عبد الملك شعره وأجزل صلته وأكرم منزلته ثم دعا بالغداء فأكل معه ثم قال له هل لك بما يتنادم عليه فقال نصيب يا أمير المؤمنين ألا ترى الى بشرتي سوادا ووجهي غير حسن وانت في منصب وانما بلغني الى مجالستك ومؤاكلتك عقلي فأنا أكره أن يدخل عليه ما يفسده فأعجبه كلامه فاعفاه ومن كلام ارسطاطاليس انما تفاضل الناس بالعقول لا بالاصول وقالوا العاقل لا يحسد ولا يحقد ولا يخادع ولا يمارى ولا يلاحى ولا يجازى الا بالخير ففضله كامل وخيره شامل ومما قلت في هذا المعنى

اذا تم عقل المرء تمت فضائله * وقام على الاحسان منه دلائله
فلا تنكره الابصار ماهو فاعله * ولا تنكر الاسماع ماهو قائله

وقيل في بعض الحكم لو تصور العقل لضاء معه الليل ولو تصور الجهل لاظلم معه نهار وقال بعض الحكماء اذا اجتمع العقل والعلم في الرجل فقد استطاب المحيا وسما الى الرتبة العليا وجمع خير الآخرة والدنيا واذا اكتنفه الجهل والهوى فقد ضل وغوى وتمنى ما انتشر

وطوى فكان الموت أحق به وأولى وما أحسن قول عبد الوهاب فى هذا المعنى

ما وهب الله لامرئ هبة * أحسن من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فان عدما * فان فقد الحياة أشبه به

وقيل لبعض الحكماء من أولى الناس بالرحمة قال رجل عاقل بر يريد برسلطان فاجرورجل عاقل اضطر الى صحبة جاهل ورجل حليم احتاج الى لئيم قيل له فتى تضيع أمور الناس قال اذا كان الرأى عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا يجود به ووصف بعض البلغاء العقل فقال العقل أصل المعرفة ومعدن العلم وينبوع الحكمة وهو مشحذ الذهن وصيقل القريحة وبه يصح النظر ويجزل الرأى ويحسن التدبير وهو رأس الفضائل ورأس مال الفواضل به وصلوا الى معرفة الله تعالى ومعرفة الملائكة والرسل فان الملائكة وسائط بين الله تعالى وبين رسله والرسل وسائط بينه وبين خلقه وكل ذلك انما أدركه بالعلم وأدركوا العلم بالعقل فهو المؤدى الى خير الدنيا والآخرة ومن الحكم المنثورة بالعقل عرفت الامور واستديم السرور ووقى المحذور وقال بعض خطباء العرب من وهبه الله العقل بكماله ومنحه علم عظمته وجلاله ثم ستره بجلباب ماله وعافاه بجميع أحواله فذلك الذى اختصه بجزيل انعامه وافضاله وقضى له بالسعادة فى دنياه وعاقبة مآله ومما قلت فى هذا المعنى

العقل أفضل كل صاحب * وأعز مطلوب لطالب * العقل أزين بالرجا ل من الملابس والمراكب * فالعقل نيل العز من رب العطايا والمواهب * مازال أرباب النهى * يتلمسون ذرى المراتب * فلفضلهم واسبقهم * ولعلهم تسرى الركائب * ويجد فى ركض الجياد وضرب آباط النجائب * ركبوا مناهج هديهم * وتجنبوا سوء العواقب * فهم النجاة الآمنون من الطوارق والنوائب * وكذا فى حشر القيامة لا تراع لهم جوانب * فتراهم قد بوؤا دار الخلود مع الكواعب * وكيف لا يكون العقل أجل موجود فى البرية وأشرف موضوع فى هذه الخلقة الآدمية وبه يصير الانسان خليفة الله فى أرضه على عباده ومن أجله ينال السعادة الأبدية فى معاده روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه اذا تقرب الناس الى خالقهم بأبواب البر فتقرب اليه بعقلك يا على فتسبقهم بالدرجات وقال كعب الاحبار ان الرجل ليستكثر من أعمال البر ويبلغ صنائع المعروف ومكابدة سهر الليل وظمأ الهواجر ولعله لا يساوى عند الله جيفة حمار قيل له كيف ذلك يا أبا اسحاق قال لقلة عقله وسوء رعيته وان الرجل لينام الليل ويفطر النهار لا يعرف بشئ من البر ولا صنائع المعروف ولعله عند الله من المقربين قيل له وكيف ذلك قال بما قسم الله له من العقل فان الله فرض على عباده أن يعرفوه وان يطيعوه ويعبدوه وانما عرفه وأطاعه وعبده العاقلون

(فصل) ومن شرف العقل وفضله على جميع الموضوعات فى الانسان ان أعظم الحيوان خلقا وأقواها يدا وأشدها بأسا وأكثرها جرأة اذا رأى ابن آدم هابه وفر منه وخاف مكانه وخشى استيلاءه منه عليه لاحساسه انه قادر عليه بلطف حيلته وحسن تدبيره وقوة تمييزه فهو والله أعلم شعاع العقل الظاهر عليه المتوسم فيه الذى تميز به من سائر الحيوان لان العقل

موجود

موجود فى الطفل بالفطرة قبل حصول معلومه فى تركيب خلقته قبل ظهوره كما توجد الحبة فى السنبلة قبل زرعها والنار فى الحجر قبل قدحه والماء فى الارض قبل استنباطه فكل ذلك موجود بالقوة معلوم بالعادة وكم أراد كثير من الكفارة قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمازعموه وتوهموه فلما وقعت أعينهم عليه فرقوا منه وهابوا مكانه وداخلهم الرعب وتراآى لهم النور النبوى فى وجهه وأدركتهم هيبة التأييد الالاهى فاوجست نفوسهم ووجلت قلوبهم وانقلبوا بقدرة الله خائبين خاسرين * روى ان فاطمة رضى الله عنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تبكى فقال لها ما يبكيك يا بنية فقالت مالى لا أبكى يا أبت وهؤلاء القوم من قريش فى الحجر يتعاقدون عليك باللات والعزى لو قد رأوك لقتلوك فليس منهم رجل الا وقد عرف نصيبه من دمك قال ائتينى بوضوء فتوضأ وخرج عليهم فلما رأوه قالوا ها هو وهذا ثم طأطؤا رؤسهم وسقطت أذقانهم بين أيديهم فلم يرفعوا اليه أبصارهم فتناول قبضة من التراب فحصبهم بها وقال شاهت الوجوه فما أصاب رجلا منهم حصاة منها الا قتل يوم بدر كافرا وقالت الحكماء بنور العقل تظهر الحقائق وتنكشف السرائر وتلوح خفيات الامور فيعبد الله تعالى على حقيقة العلم به وقال بعضهم ما تزين أحد بزينة أفضل من العقل ولا لبس ثوبا أجمل من العلم فانه ما عرف الله تعالى الا بالعقل ولا أطيع الا بالعلم وقيل لبعض العلماء بم يعرف العاقل انه كامل العقل قال اذا علم عمل واذا عمل تواضع واذا نظر اعتبر واذا صمت تفكر واذا تكلم ذكر واذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا جهل عليه حلم واذا سئل بذل واذا نطق صدق

﴿فصل﴾ واعلم انه لم يدرك الانسان ما أدرك من المعرفة بالله تعالى ولا وصل الى ما وصل من الايمان به والطاعة له والالتزام لحدوده بمجرد العقل خاصة دون الواسطة من غيره التى يفتح له المغلق وتنهج له الطرق لانه ليس للعقل نفوذ فى مغيبات الامور بذاته الا بعد التوسط والاستدلال وانما يصح له بتحقيق النظر وحسن التدبر وصحة التفكر حتى اذا طهرت له الحائل ولاحت له البوارق واستوضحت له الطرق واستبانت له الدلائل نفذ اذ ذاك بذاته فى معرفة غوامضها وجال بنوره فى عوارضها فكشف بصحة النظر أسرارها وعرف بحسن التدبر اخبارها فصار العلم عنده علم حقيقة قد سلم من التقليد وعرى من الالتباس فعبد الله تعالى على حقيقة العلم به وهذه الواسطة هى النبوة التى علم بصحة براهينها وقوة شواهدها ان الكفر بالله والخروج عن طاعة الله سم قاتل وداء داخل وان الايمان به والاقرار بوحدانيته والتزام حدوده ترياق ذلك السم ودواء ذلك الداء فان الانبياء صلوات الله عليهم اطباء القلوب المريضة وأساة النفوس السقيمة بما أظهر الله على أيديهم من الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة وأنزل عليهم من الكتب البينات والآيات المعجزات وأظهر لهم من الكرامات التى لا تصدر الا عن القوة الالاهية والقدرة الملكوتية كما ان حذاق الاطباء هم العلماء بعلل الابدان واصلاح الامزجة العارفون باحوال الطبائع المعتدلة والمختلفة وكل ذلك بوساطة الانبياء الذين أدركوا ذلك من علمهم واقتبسوه من أنوارهم بما أطلعهم الله تعالى على معرفة منافع الاشياء ومضارها المتركبة فى جواهر الارض من نباتها واحجارها بانوا

الموذوعة فيها الا بمجرد عقولهم ولا ادراك علمهم لان أدوية الابدان المركبة من النبات والجواهر
لا يصح ان يدرك معرفة الخاصية التى جعل الله فيها بذكاء عقل ولا بوفور علم وانما الذى
أدركوا منها بالعلم ووصلوا اليه بذكاء الفهم بحسن التدبر وقوام التركيب وترتيب الاجزاء
عند معرفتهم بقدر القدرة المركبة فيها بالتجربة لها وأما الطبع الموضوع فى خلقتها
والتخصيص المودوع فى قواها المحجوب عن الخلق ممنوع من الادراك ألا ترى الى قول الله تعالى
تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ولو كانت تأثيرها فى حسن تدبيرهم لها
ولطف معالجتهم اياها لاستوت جميع النباتات والجواهر فى النفع والضرر ورجعت منافعها
فى مجاوراتهم لها وانصرفت قواها فى حسن تدبيرهم اياها كما انه لو رام أحد من خلق الله تعالى ان
يستنبط من علمه ويستخرج من فضل نظره وطيبه طباعا غير المعلوم أو يميز عقاقيرا غير المرسوم
كان الصانع يصنع ثوبا لم يصنعه غيره أو يصوغ آنية لم يصغها سواه لم يقدر للخواص المركبة فى
المخلوقات والاسرار المودعة فى الجواهر والنباتات التى لا تدرك بكثرة علم ولا بذكاء فهم روى
فى بعض الآثار ان موسى عليه السلام اعتل فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له ان
دواء هذه العلة معلوم عندنا مجرب وانا نتداوى به فنبرأ فقال لهم انى لا أتداوى حتى يعافينى
ربى من غير دواء فطالت علته وأوحى الله اليه ياموسى أتريد ان تبطل حكمتى بتوكلك على من
أودع العقاقير منافعها ومضارها غيرى فعلم ان مسبب الاسباب هو الذى وضع المسببات فى
جميع الاشياء الظاهرة لحكمته وتبيينا لمشيئته فلزمنا ان نقلد على هذا التمثال أهل العلم
والفقهاء والمتقدمين العارفين بالحدود القائمين بالسنن فى علاج هذه القلوب المعتلة بما لزمهم
من تقليد النبوة المنزل عليها من الملكوت كما لزمنا أيضا تقليد المتقدمين من الاطباء فى علاج
الابدان المريضة بما لزمهم من تقليد من فوقهم الى الانبياء الذين استقر ذلك كله عندهم من
العلم الالاهى الذى سبق جميع المعلومات وكان العقاقير المخصوصة والادوية المركبة
لصلاح الامزجة وتعديل الطبائع يفضل بعضها بعضا فى قوة الفعل وحسن المنفعة ولها
أوزان ومقادير وكيفيات وكميات بحسب الخاصية المركبة فيها فكذلك أحوال العبادة
والتشرع وامور الديانة والتورع يفضل بعضها على بعض ولها حدود ومقادير تختلف لاسرار
لا نعلمها وأحكام لا ندركها ألا ترى الى الصلوات كيف وضعها الله تبارك وتعالى فى أوقات
معلومة وقصرها على رتب محدودة فاختلفت فى مواقيتها وأعداد ركوعها وسجودها ولم
يجعلها صفة واحدة وجعل صلاة الليل جهرا وصلاة النهار سرا وهل ذلك الا لسر قد انفرد
بعلمه وسبب جرى به سابق حكمه ألا ترى الى يوم الجمعة كيف فضل سائر الايام وشهر رمضان
كيف فضل سائر الشهور وليلة القدر كيف فضلت سائر الليالى وبيت الله الحرام كيف فضل
ائر بقاع الارض وذلك كله للاختصاص المذكور الذى لم يطلع عليه غير الله سبحانه أو من
لعه الله عليه من نبى مرسل أو ملك مقرب فيكفى بالعقل فائدة ان يدرك التصديق
يع الى التسليم والتصديق بما رزق صاحبه من التفهم وصحة التدبر بما ألقاه اليه
القلوب بهداية علام الغيوب لارب غيره ولا معبود سواه

ل ﴿ فى تجريح الهوى ونقائصه ﴾ الهوى عصمك الله معبود له سلطان شديد

يخدمه

يخرج منه شيطان مريد لمن عبد أوثانه وأطاع سلطانه واتبع شيطانه ختم الله على قلبه وحرم الرشاد من ربه فاصبح صريع غيه غريق ذنبه قال الله عز من قائل أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وقال سبحانه ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين وقال تبارك اسمه وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وهذا كثير فى كتاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فالمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والحكم بالعدل فى الرضا والغضب والاقتصاد فى الرضى والغضب فى الفقير والغنى والمهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال الشعبى انما سمى هوى لانه يهوى بصاحبه وقال بعض الحكماء الهوى خادع الالباب صارف عن الصواب يخرج صاحبه من الصحيح الى المعتل ومن الصريح الى المحتمل فهو أعمى مبصر أصم يسمع كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم وسئل عليه السلام أى الجهاد أفضل فقال جهادك هواك وقال صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة رضى الله عنهم رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فجعل المجاهدة بالسيوف الجهاد الاصغر ومجاهدة النفس الجهاد الاكبر وقال ارسطاطاليس على قدر بصيرة العقل يرى الانسان الاشياء فمن سلم عقله من الهوى يراها على حقائقها والنفس الكدرة المشبعة لهواها ترى الاشياء على طبعها وقيل كان على خاتم بعض الحكماء من غلب هواه على عقله افتضح وفى مقصورة ابن دريد

وآفة العقل الهوى فمن علا * على هواه عقله فقد نجا

وقال بعض الحكماء اذا بدهك أمران لا تدرى فى أيهما الصواب فانظر أيهما أقرب الى هواك فخالفه فان الصواب فى مخالفة الهوى وفى هذا المعنى يقول محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه

اذا حار أمرك فى معنيين * ولم تدر حيث الخطا والصواب
فخالف هواك فان الهوى * يقود النفوس الى ما يعاب

وقال العباس رضى الله عنه اذا اشتبه عليك رأيان فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وأصله ان الامر الخفيف يسهل عليك موقعه ويقرب موضعه وتخف مؤنته وتأتى معونته فيشره المرء اليه وتحرص النفس عليه والامر الثقيل يصعب موقعه ويبعد موضعه وتبطى معونته فتكسل النفس عنه وتكره التعب به فهى لا تسرع الاجابة اليه وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال اقدعوا هذه الانفس فانها طلعة تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرئ وان الباطل خفيف وبئ وترك الخطيئة أيسر من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة ولذة ساعة أورثت حزنا طويلا وقال لقمان لابنه يا بنى أول ما أحذرك من نفسك فان لكل نفس هوى وشهوة فان أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها فان الشهوة كامنة فى القلب كمون النار فى الحجر ان قدح أورى وان ترك توارى وقال بعضهم

اذا ما أجبت النفس فى كل دعوة * دعتك الى الامر القبيح المحرم

وقال الاصمعى كان عبد الملك بن مروان كثيرا ما ينشد وقيل انه لهشام بن عبد الملك

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

وكان المعتصم يقول اذا نظر الهوى بطل الرأى ومن كلام ابن صيفى آفة الرأى الهوى وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بناظره ونظر العاقل بخاطره وفى منثور الحكم العقل صديق والهوى عدو وقال بعض الصالحين الهوى مركب ذميم يسير بك فى ظلمات الفتن ومرتع وخيم يقعدك فى مواطن المحن فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات والقعود فى مواطن الخطيآت وقال بعض الشعراء

واعلم بانك لن تسود ولن ترى * طرق الرشاد اذا اتبعت هواكا

وقيل فى بعض الحكم أشرف العلماء من عصى مراده ولم يعط الهوى قياده وكانوا يقولون أيدى العقل تمسك أعنة الهوى وعيون البصائر تدرك أعمال البر والتقى ومن أمثالهم من تملكه هواه خسر دنياه وأخراه وقيل عبد الهوى أذل من عبد الرق ومنهم من فرق بين هوى الشهوات وهوى الحب وقال ان هوى الحب يعرض أهل الآداب وذوى الالباب ولم يزل موجودا فى اجلة العظماء وأكابر العلماء والفضلاء على بعدهم عن موافقة الشهوات وركوب الدنيات وفى مثل ذلك يقول ابو منصور الثعالبى هوى الحب داء قديم لم تسلم منه قروم الاقدمين وأئمة الأمم واعلام الاسلام وهوى الشهوات لا يفارق أهل الجهالة المتمسكين بعرى الضلالة والبطالة وهما وان افترقا فى حال فقد جمعتهما الارادة المركبة فى النفس الكامنة فى قلوب الجن والانس وقد حفظت فى هذه التفرقة حكم فمنها قول بعضهم طاعة سلطان الحب محبوبة وان جار وطاعة سلطان الشهوة مجنوبة مخافة النار وقال غيره الساعد لشهوات نفسه وان كرم مذموم والمكابد لسطوات حبه اذا عصم مرحوم وهذا كلام حسن ومن قولهم فى المعنى

اذا شئت اتيان المحامد كلها * ونيل الذى ترجوه من رحمة الرب
فخاف هوى النفس المسيئة انه * لأعدى وأردى صفقة من هوى الحب
هما سببا حتف الفتى غير ان فى * هوى الحب مهما عف بعدا عن الذنب
وحل المعاصى فى هوى النفس فاعتمد * خلاف الذى تهواه ان كنت ذا لب

وكلاهما مغلوب عليه صاحبه محذور عليه جانبه متوقعة عليه عواقبه لان جميع الشهوات والحب أرداها وأشدها على المرء وأغراها مركبة فى جميع النفوس طبعا لا يفارقها أصلا فاذا قهر الانسان سلطان حبه وملك أعنة قلبه فركب العفاف سجية ولم يرض التشبث وان تمكن بدنية حياء من ربه وخوفا من مواقع ذنبه فقد قدر الله حق قدره كما أن مالك نفسه عن شهواتها وصارفها عن مواقعة لذاتها وهو قادر على تمكينها من ارادتها قد بلغ الغاية من الطاعة وبذل فى ارضاء خالقه جهد الاستطاعة وكلاهما من نفسه فى الجهاد الاكبر قد فاز من التقى بالحظ الاوفر وهى من أجل مراتب العبادة ومن مات منها على حالة فقد نال الشهادة وقال أفلاطون فى الانسان أربع طبائع العقل والهوى والعفة والشهوة فالعقل يعاتب الهوى والهوى يقاتل العقل والعفة تعاتب الشهوة والشهوة تقاتل العفة والانسان مسلط على مشيئته فمن [illegible]ل خيرا جوزى به ومن عمل شرا كوفى عليه ودعا رجل لرجل فقال هناك الله بما أعطاك

وجعل

وجعل رايك غالبا لهواك ولا شغلك بدنياك عن أخراك وقال بطليموس أعدل الناس من أنصف عقله من هواه ومن كلام الحكماء أعص الهوى وخالف النساء واصنع ماشئت وأرفع درجات المؤمن وأصلح حالات الورع الدين أن يموت مجاهدا لنفسه

﴿فصل﴾ قاهرا لشهوته مكابد الشيطانه والحرب بينهما تارة له وتارة عليه فان تملك النفس قسرا وقمع سلطان الهوى وشيطان الصبا فهو درجة عالية لا تنبغي الا لنبي أوولي وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وله شيطان وان الله قد أعانني على شيطاني وقال في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ماسلك عمر فجا الا سلك الشيطان فجا غيره ولا يزال الانسان المطيع لهواه المهمل لصلاح دينه ودنياه منتظر الصلاح مرجو الخير والفلاح مالم يجاوز حد الفتوة الى حد الاكتهال فان سلطانه عند ذلك قوي وشيطانه غوي وان خرج عن سن الحداثة ولم يسلك سنن الصلاح والدماثة فقد قطع أسباب الرجاء منه ووصل علائق اليأس عنه وقد أعيا داؤه وعز دواؤه وتعذر على المعاني شفاؤه وفي مثل ذلك قال الشاعر

اذا ما المرء جرب ثم مرت * عليه الار بعون من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فعالا * فليس بلاحق أجرى الليالي

ومن أمثال الحكماء في ذلك ما أقبح الجهل بالكهل وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كثيرا ماينشد

اذا المرء أفنى الاربعين ولم يكن * له دون مايأتي حياء ولاستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى * ولومد أسباب الحياة له الدهر

وقال الفضل بن العباس

لقد تحكم الايام من كان جاهلا * ويردي الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحمد الناس الفتى وهو مخطئ * ويعذل في الاحسان وهو مصيب

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق أبغض خلق الله اليه اذحرمه أعز الاشياء عليه وقال صلى الله عليه وسلم خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر فقال وعزتي وجلالي لاركبتك الا في أحب الخلق الي وخلق الحمق فقال له أقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر فقال وعزتي وجلالي لاركبتك الا في أبغض الخلق الي وهذا الحديث أدخله الترمذي رحمه الله وقال بعض الحكماء الاحمق يتبع هواه فجانبه والعاقل يمنع اذاه فصاحبه وقال عدي بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن مقتدي

وقال صالح بن عبد القدوس ولأن يعادي عاقلا خير له * من أن يكون له صديق أحمق
وقال غيره من الشعراء وبغضك للتقي أقل ضرا * وأسلم من مودة ذي الفسوق

ومن أمثال الحكماء من غلب هواه على عقله غرق في بحر جهله وقال أفلاطون من اشتد حرصه غلب خرصه ومن ضعف عقله أطاع هواه وقيل في بعض الحكم الهوى عدو الحسنات وخصم الحسنات وقال بعض الحكماء الزم مخالفة النفس فانها أمارة بالسوء مالها وتحب ماعليها ولا يجور عن القصد من اتهم عقله أواستغش هواه وفي مثل ذا

عبد الله بن المعتز لم يفرج غماً من كربة * كهوى يعصى وعقل يستشار
وقال غيره وقد أصاب رأيه عين الصواب * من استشار عقله في كل باب
وقدر أى ان الهوى مهما يجاب * يدعو الى سوء العواقب والعقاب
ومما قلت في المعنى
اذا شئت أن تحظى وان تبلغ المنى * فلا تسعد النفس المطيعة للهوى
وخالف بها عن مقتضى شهواتها * واياك أن تحفل بمن ضل أو غوى
ودعها وما تدعو اليه فانها * لامارة بالسوء من هم أو هدى
لعلك أن تنجو من النار انها * لقاطعة الامعاء نازعة الشوى

وقال عبد الله بن المبارك علامة الايمان غلبة العقل على الهوى وعلامة النفاق غلبة الهوى على العقل فمن غلب عقله على هواه طلب الآخرة ورفض الدنيا ومن غلب هواه على عقله طلب الدنيا وترك الآخرة وقال أيضاً خير الناس رجل وزن نفسه فجعل العقل ما بينه و بين هواه فما سكن اليه العقل أخذ به وما نفاه العقل نبذه فهو الذى عرف مساويه ومحاسبة نفسه ومخالفة هواه فلم يزل في التحول والانتقال حتى صار في حزب الله وشر الناس رجل وزن نفسه حتى عرف الفضل أين يخرج فقهره هواه وتملكته شهوته فهو الطريح بين الدارين ليس له في الآخرة من خلاق الا أن يتفضل الله برحمته جعلنا الله واياك ممن ائتمن عقله فأحرز خيره وفضله ولا جعلنا ممن اتبع هواه فخسر دنياه واخراه

﴿ الباب الثاني في اكتساب العلم وفضائله واجتناب الجهل ورذائله ﴾

العلم فهمنا الله واياك أفضل مكتسب وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقتنى وأطيب ثمرة تجتنى به يتوصل الى معرفة الحقائق ويتوسل الى نيل رضا الخالق وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها وأكرم فروعه وأزكاها لا يضيع أبداً صاحبه ولا يفتقر كاسبه ولا يخيب مطالبه ولا تنحط مراتبه والعلم لا يوصل الى معرفة فضله وجلالة قدره الا بالعلم كما لا يجهل شرف مكانه وعلو شأنه الا أهل الجهل لقصور افهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواقعه وهو واسم من اسماء الله عز وجل وصفة من صفاته * روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أوحى الله تعالى ذكره الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم غير ان علم الانسان لا يقترن بعلم الله تعالى ولا يحمل عليه ولا يتصف به ولا يضاف اليه ولا هو منه في رسم ولا وسم سوى مشاركة في الاسم من غير تناسب ولا تقارب لان علم المخلوقين انما يكون بالتعلم والتبصر والتذكر والتدبر وأخذ البعض عن البعض ولذلك وقع الاختلاف وتفرقت المذاهب وتشعبت الطرق وتباينت الفرق وعلم الله سبحانه هو الذى سبق جميع المعلومات قبل كونها وتقدم جميع الموجودات قبل ثبوت عينها فجميع الاشياء كلها مستفادة من علم الله تعالى لانه سابق لها وعلم الانسان مستفاد من الاشياء لانها سابقة له ألا ترى الى قوله عز من قائل وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فلما أظهر الله الاشياء من مكنون علمه وأبانها عن حكمه لم يستتر عنه شئ بحجاب ولا يعرف عنده بظهور ولا اقتراب وهو خلق الحجاب والمحجوب

والمحجوب وقدر البعيد والقريب فعلم مافوق السموات السبع الى مالا غاية له وعلم ماتحت الارضين السبع الى مالا نهاية بعده ولولا قوله تبارك وتعالى ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء وقال عز ذكره وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأوقع هدى الاشياء لانتفى عنا العلم لاسيما بقوله والله يعلم وأنتم لا تعلمون *(فصل)* وأما علم الانبياء عليهم السلام الذى لا يدرك بطلب ولا يتوصل اليه بحيلة ولا سبب فهو تخصيص منه تبارك اسمه بما شاء من علمه بوحى ينزله عليهم أو بالهام يقرره فى نفوسهم ويمثله فى خواطرهم فيعلمهم ماشاء من علمه ويطلعهم على ماشاء من مغيبات حكمه فيكشف لهم الغطاء عن حقيقة الاشياء على ماهى عليه فيعرفونها مشاهدة بالبصيرة الباطنة فيخبرون عن صحة تثبت لهم بها تقليد المنزل عليهم من الملائكة ثم يكون الالهام المقرر فى نفوسهم الواصل اليهم من النور الالهى فذلك ثلاث مقامات وحى وكشف والهام والالهام يشركهم فيه الاولياء لا يتجاوزونه وهى التفرقة بين الانبياء والاولياء وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى وقال الله جل جلاله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا وقول ابراهيم عليه السلام لابيه يا أبت قد جاءنى من العلم مالم يأتك وقول يعقوب عليه السلام لبنيه وأعلم من الله مالا تعلمون فهذا تخصيص منه تبارك اسمه لانبيائه عليهم السلام ولم يجعله علما كافيا ألا ترى الى افتقار موسى عليه السلام الى الخضر فى قوله هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا وعلم جميع الخلق لا يقع من المحجوب منهم المغيب عنهم الا كالنقطة من البحر أو كالخردلة فى ظلمات الارض فسبحان من أحاط بجميع الاشياء علمه ونفذ فى جميع المخلوقات حكمه فعلم الانبياء صلوات الله عليهم من غير تعلم ولا واسطة بشر وعلم سواهم بالتعلم وواسطة البشر وحسبنا من علم النبى عليه السلام وفقهه وحكمه المرفوعة وحكمه من غير مطالعة ولا تعلم الا مطالعة الحق الموضوع فى قلبه وموافقة الصدق المنعوت فى روحه ولو رام أحد أن ينال تلك الدرجة من العلم بأتم ما يكون من البحث والمطالعة والقوة على التعلم بامتداد العمر ومواصلة الطلب ما بلغ أيسر أجزائه ولا استنار بكوكب من نجوم سمائه

(فصل) وطلب العلم وفقنا الله واياك فرض واجب على كل مسلم لا بد منه ولا عذر له فى التقصير عنه من أمر دينه ودنياه والقيام بالمفروض عليه من صلاته وصيامه وزكاته والتزام حدود حلاله وحرامه ومالا يتم الاسلام الا به ولا يقوم الشرع الا بمعرفته وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وقال عليه السلام الفقه فى الدين فرض على كل مسلم فتعلموا وعلموا ولا تموتوا جهالا وكما يجب على كل مسلم علم مالا يسعه جهله كذلك يجب على العالم بذل ما عنده من علمه ولا يسعه منعه لقول الله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقوله عز من قائل ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يأخذ الميثاق على الجاهل أن يتعلم حتى أخذ الميثاق على العالم أن يعلم وقال صلى الله عليه وسلم من كتم علما يح

أنجاه الله بلجام من نار يوم القيامة وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فإذن أنت علمت ما جهلت وحفظت ما علمت ﴿فصل﴾ واعلم ان العلم متقدم الوجود على العمل لان العمل لا يكون الا بعد العلم وهو ثبات صورة المعلوم وتصور أشخاص المعاني في نفس العالم والايمان هو الذي يوجب العلم لانه متقدم الوجود عليه ألا ترى ان الانبياء عليهم السلام انما قالوا أولا بالدعوة الى الاقرار بما جاءت به والتصديق الى ما دعت اليه مما صححته الدلائل وصدقته الآيات وكان غائبا عن تصور الاوهام وتدبر الافهام فاذا أقروا بالالسنة طلبوا بالتصديق فاذا صدقوا صح الايمان فاذا صح الايمان دعوا الى العلم المؤدي الى معرفة الواجب عليهم الباعث على القيام باللازم لهم من شرائع دينهم وتوابع دنياهم * روى عن جندب انه قال كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غلمانا حزاورة يعلمنا الايمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به ايمانا وعن القاسم قال سمعت عبد الله بن عمر يقول لقد عشنا برهة من دهرنا وان أحدنا ليتعلم الايمان قبل القرآن وذلك لان أول الايمان سماع بالآذان فاذا وعت وجب الاقرار باللسان فاذا أقر أخذ بتصديق القلب فاذا صدق طلب بالعلم فاذا علم خرج من ظلمة الجهل الى نور الهدى لانه ليس للسمع ولا للنطق حقيقة في نفع ولا ضر الا بصحة ثبوت المعرفة في القلب فان العلم ينقسم قسمين ظاهر وباطن فالظاهر سماع بالاذن ونطق باللسان وعمل بالجوارح والباطن تصديق القلب وصحة اليقين وثبوت المعرفة فاذا صدق القلب استنار بنور الهدى الذي هو من هبات الله عز وجل لان الهدى لا يدرك بنوع علم ولا بحضور فهم والله يقول عز من قائل قل ان الهدى هدى الله وقال جل وعز ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها وقال تبارك اسمه ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وقال سبحانه من يهد الله فهو المهتدي وهذا كثير في كتاب الله العزيز فاذا اجتمعت الهداية مع العلم تأيد المرء في جميع أحواله وتزيد من الخير في أقواله وأفعاله وبعد عن عوارض الارتياب وقوى في كل الاسباب لانه لا يعبد الله عز وجل على حقيقة الايمان به الا بالعلم كما لا يعصى الا بالجهل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لمداد جرت به اقلام العلماء أحب الى الله من دماء الشهداء لان باقلامهم تقام الفرائض وتحيى السنن وذلك اذا اتقوا الله تعالى فلم يختاروا دنياهم على أخراهم ودخل صلى الله عليه وسلم المسجد فاذا هو بمجلسين في أحدهما قوم يذكرون الله وفي الآخر قوم يتفقهون في الدين فقال عليه السلام كل المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه أما هؤلاء فيذكرون الله ويسألونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما فجلس الى مجلس الفقه وقال صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم فاذا ظن أن قد علم فقد جهل وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا

(فصل) * وللعلم شروط لا يكمل الا بها ولا يتوصل اليه الا باستعمالها وهي عشرة فأولها خلاص النية من الالتباس وتطهير الباطن من الادناس والقصد به وجه الله الكريم اب وابتغاء ما عنده من جزيل الثواب قال الله العزيز الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا

بالله

بالله وأخلصوا دينهم لله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات فاذا اخلصت السريرة قويت البصيرة وكان العلم نافعا فى الدنيا والآخرة وكما لا تصلح الصلاة والعبادة الا بطهارة الظاهر كذلك لا يصلح العلم الا بطهارة الباطن وقد تبين ان الطهارة ليست مقصورة على الظاهر دون الباطن يقول الله عز وجل انما المشركون نجس لانه قد يطهر ظاهر المشرك ولا فائدة فى تطهيرا الظاهر دون الباطن وقال بعض السلف رضى الله عنهم العلم من الله والعمل مع الله وان الرجل ليطلب العلم لغير الله فيرده العلم الى الله فان العلم يأبى ان يكون الا لله وهو الذى يسمى علما وقال بعض العلماء من طلب العلم لوجه الله لم يزل معانا ومن طلبه لغير وجه الله لم يزل مهانا ولا محالة انه من قصد بعلمه طريق الهداية فما قصر عن نهاية ومن قصد به مجرد الرواية لم يتسم برسم المعرفة والدراية ويحصل من دنياه على المحافظة والرعاية فقد نكب عن مقتضاه وأسخط خالقه وما أرضاه (والثانى) اختيار العلم المؤدى الى السعادة الابدية والحياة المرضية الهنية وهو علم الديانة المنقذ من الجهالة والضلالة وان كانت العلوم مرتبطة بعضها ببعض كالعالم بلغة العرب التى نزل بها القرآن وبها يستبين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكعلم النحو الذى يرتبط به الكلام وتتأدى المعانى وكعلم الحساب الذى به يستخرج أقسام الفرائض وما أشبه ذلك فيجب على كل طالب العلم ان يجعل معرفتها سلما الى الارتقاء الى أشرف العلوم مرتبة وأكثرها منفعة فانه من تعلم النحو ليكون نحويا وتعلم اللغة ليكون لغويا وتعلم الحساب ليكون فرضيا فقد ضل رأيه وخاب سعيه وهى أقرب ان تسمى صناعة من أن تسمى علما فان جميع الصناعات علم بما لا يعلمه غيره روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى وقد فصلها محمد بن ادريس الشافعى رحمه الله فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه جل مقداره ومن تعلم الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم الغريب رق طبعه ومن لم يعز نفسه لم ينفعه علمه (والثالث) انتقاء العلماء واختيار الاتقياء الفقهاء فهم الدواء لجميع الادواء روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا تجلسوا عند كل عالم الا الى عالم يدعوكم من خمس الى خمس من الشك الى اليقين ومن الرياء الى الاخلاص ومن الغش الى النصيحة ومن الرغبة الى الزهد ومن الكبر الى التواضع وقال الحسن بن على رضى الله عنهما من أكثر مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه وفتق مراتق ذهنه وسره ما وجد من الزيادة فى نفسه وكانت له ولاية لما يعلم وافادة لما تعلم وأنشدوا للشبلى فقال

لقاء ذوى الآداب أنس ورفعه * وتلقيح آداب وعلم تجارب
وفى تركهم من غير عذر غباوة * وما ليس يرضاه لبيب لصاحب

وقال أرسطاطاليس يحتاج طالب العلم الى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة والخامسة وهى تمامها وكمالها معلم ناصح وروى عن بعض السلف انه قال أيامى أربعة فاليوم الذى أجالس فيه من هو أعلم منى فذلك يوم فائدة وتعلم واليوم الذى أجالس فيه من هو مثلى فذلك يوم مناظرة ومحاضرة واليوم الذى أجالس فيه طالبا متعلما يوم تبصرة وتذكرة واليوم الذى

أجالس فيه جاهلا فذلك يوم ثكل ومكابدة (والرابع) الاجتهاد فى طلب العلم والبحث عنه بكل حيلة وسبب وحمل التعب فيه والنصب قال الله عز وجل فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب علما فأدركه كتب له كفلان من الاجر ومن طلب علما فلم يدركه كتب له كفل من الاجر وقد قال موسى عليه السلام لفتاه عند طلب الخضر عما علم رشدا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يسير فى طلب الحديث الواحد مسيرة الايام وكان ابن القاسم رحمه الله قد لزم مالكا رضى الله عنه فى طلب العلم نحو العشرين سنة وهو متغرب عن بلده نازح عن أهله وولده حتى مات مالك رضى الله عنه ومن كلام بعض العلماء يحسن بالمرء التعلم ما امتدت به الحياة (والخامس) التواضع فى العلم وترك العجب والمباهاة به قال الله سبحانه سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آفة العلم الخيلاء ومن أمثال الحكماء من تواضع فى الطلب تسامى فى الرتب ومن كلامهم من لم يجلس فى الصغر حيث يكره لم يجلس فى الكبر حيث يحب وقال بعض العلماء أشدكم تواضعا أكثركم علما وقد شبه العالم المتواضع بالارض المطمئنة السهلة فكما يجلب اليها الماء كذلك يجلب العلم للمتواضع وقيل لبعض الحكماء بم يعرف الحكيم انه صار حكيما قال اذا لم يكن لما أصاب من العلم معجبا ولم يستفزه الغضب عند الذم ولا داخله الكبر عند المدح ومن الحكم المنثورة من تواضع بعلمه رفعه الله ومن تكبر بعلمه وضعه الله وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه ذللت طالبا فعززت مطلوبا (والسادس) ترك التقدم به والظهور من أجله والتحكم بسببه قال الله عز وجل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم العلم ليباهى به السفهاء ويمارى به العلماء دخل النار وقال صلوات الله عليه وسلامه اطلبوا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب أهله فان أحدكم لا يدرى متى يحتاج اليه أومتى يحتاج الى ما عنده وليحذر أن يطلبه لمراء أورياء فان الممارى به مهجور لا ينتفع والمرائى به محقور لا يرتفع * وقال بعض العلماء من تعلم العلم للمباهات فقد غرق فى بحر الخطيئات وتعرض لحلول النقمات وكان على دينه من أعظم الآفات * ومن أمثال الحكماء من طلب العلم للرياسة فقد عدم التوفيق والسياسة (والسابع) الانصات وحسن الاستماع قال جل ثناؤه ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ وقال لقمان عليه السلام حسن الاستماع من العلم وقال بعض العلماء اذا جالست العالم فكن لأن تسمع أحرص منك ان تتكلم وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول ولا تقطع على أحد حديثه وكان أعرابى يجالس الشعبى فيطيل الصمت فقال له الشعبى ألا تتكلم قال بل أنصت فأفهم وأصمت فأسلم وقال بعض العلماء حد حسن الاستماع امهال المتكلم والاقبال عليه حتى يسير فى جميع حديثه وفى ذلك يقول بعض الشعراء

واذا تكلم عالم فانصت له * واسمع مقالته لكيما تفهما

وقال ارسطاطاليس يؤتى الناطق من سوء فهم السامع وقال أيضا اذا فاتك العلم فالزم الصمت وقال لاخير فى الحياة الا لاحد رجلين عالم ناطق أوصموت واع وقال بعض العلماء من فاته العلم

فليكن

فليكن رأس ماله الانصات فانه أمان من تحريف الكلام وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول وقال بعض الشعراء

عجبت لادلال الغبي بنفسه * وصمت الذى قد كان بالقول أعلما
وللصمت خير للغبي وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

(والثامن) حسن السؤال قال الله عز ذكره فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن السؤال نصف العلم وقال عليه السلام العلم خزائن مفتاحها السؤال وقال صلى الله عليه وسلم ليس من اخلاق المؤمن الملق الا فى طلب العلم وقال سعيد بن جبير من أحسن ان يسأل أحسن ان يتعلم وقال غيره من رق وجهه عند السؤال رق علمه بين الرجال وقال بعض الحكماء لسليمان عليه السلام من ترك السؤال غرق فى الجهل وقال ارسطاطاليس من سأل علم ومن تنكر سلم وقال بعض البلغاء من حسن أدب المتعلم الخضوع للعالم وحسن التخدم ومواصلة الملق وقلة التعلل وكثرة الاقبال والطاف السؤال (والتاسع) ترك الجدال والمراء قال الله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وقال تبارك اسمه وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون والنهى عنه كثير فى كتاب الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى رياض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلا الجنة وقال عليه السلام لا يجادل الا منافق أو مرتاب وقال لقمان المراء مفتاح اللجاج واللجاج مفتاح الاثم وقال الاوزاعى اذا أراد الله بقوم سوأ أعطاهم الجدال ومنعهم العمل وقال حاتم الاصم اذا جاءت مسئلة جدال أسلمها اليهم واخترت السلامة وقال بعض العلماء الجدال أقل أقسام العلم فائدة لان القصد به افحام الخصم وان خرج صاحبه عن حقيقة العلم ومن أقوالهم الجدال والمراء سيبان لكشف الغطاء وقالوا اذا ازدحم الجواب خفى الصواب (والعاشر) العمل بمقتضى العلم وهو سره ومعناه وفائدته العظمى لمن توخاه قال الله تبارك وتعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أى يحكمونه علما ويوفونه عملا وقال عز من قائل اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم وقال عليه السلام ان أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه يوم القيامة فمن علم علما وعمل به كان كشجرة يانعة أثمرت طيبا ومن علم علما ولم يعمل به كان كشجرة مورقة لا تثمر كما قال الله سبحانه مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ومن الحكم المنثورة العمل ثمرة العلم وروى عبد الله بن وهب ان الخضر قال لموسى عليهما السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك وزرا ولغيرك نورا * كان نقش خاتم الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما علمت فاعمل وقد أجمع العلماء على فضل من علم العلم وعمل به على من علمه ولم يعمل به كفضل من لبس التاج على من صاغه والثوب على من حاكه وسئل الزهرى ايما أفضل العلم أم العمل فقال العلم لمن جهل والعمل لمن علم وهذا احسن من القول جدا ومن كلام الحكماء علم لا يعمل به كنز لا ينفق منه وقيل أول العلم الصمت وثانيه الاستماع وثالثه الحفظ ورابعه العمل به وخامسه نشره وهو تمامه وكماله ومن الحكم المنثورة طلب العلم عبادة وتعلمه

حسبة وتذكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه صدقة وبذله لاهله قربة وانا العمل به حياة القلوب وادراك المطلوب فهذه العشرة وفقنا الله واياك هي قواعد العلم وأركانه وفروعه المتوشحة وأغصانه ودلائله الواضحة وبرهانه وقد أبان الله عز وجل فضل العلم على الجهل بقوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال عز ذكره يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومثل هذا كثير في كتابه ووصف على بن أبي طالب رضي الله عنه علماء الدين فقال هم الاقلون عددا الاعظمون قدرا بهم يحفظ الله حجته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باشروا روح اليقين فاستلانوا ما استخشن المترفون وأنسوا بما استوحش الجاهلون صحبوا الدنيا بارواح معلقة بالرفيق الاعلى هاه هاه شوقا اليهم وقال رضي الله عنه ما قطع ظهري في الاسلام الا رجلان عالم فاجر ومبتدع ناسك فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه وكان السلف الاول يتعوذون بالله من العالم الفاجر العالم بالسنة وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا وذلك لان العلم هو الباعث على العمل والموجب للعبادة والموضح لسبيل التقى والجامع لاشتات الخيرات وربما قصر العابد عن كثير مما يجب عليه لخلوه من العلم وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث العالم والعابد يوم القيامة فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم اثبت حتى تشفع للناس وقال عليه السلام ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب

﴿فصل﴾ والعلوم كثيرة والمعارف جمة وأنواعها مختلفة وبعضها أشرف من بعض وتحصيل الاحاطة بها مما لا يمكن وقال ارسطاطاليس ليس طلبي للعلم لبلوغ قاصيته ولا استيلاء على غايته ولكن التماسا لما لا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه فاذا لم يكن للاحاطة به سبيل ولا لغايته وصول فيجب على الطالب ان يختار من العلم أرفعه ويستعمل من العلم أنفعه ومما قلت في هذا المعنى

يا طالب العلم في دنياه مجتهدا * ان العلوم لأشجار لها ثمر
بالفهم تجني فمنها الحلو مطعمه * لا لغو فيها ولا بؤسى ولا ضرر
وان منها لما تشجى عواقبه * ويجتنى الدهر منه السم والصبر
فاختر لنفسك علما ان عملت به * يوما يكون لك الآثار والأثر
ودع اقاويل أقوام تشككهم * فيما أرادوه منها الرأى والنظر
لا تستقيم لهم فيها احتجاجهما * ولا يصدقها التنزيل والاثر

وله أيضا

يا طالب العلم للدنيا وزينتها * من رام قصد لنفيه بئس ما فعلا
علمت علما ولم تعمل بموجبه * فقد ضللت وأضللت الذى جهلا
وقد تبوأت في الدارين منزلة * الخزى والذل فيها حظ من نزلا
طوبى لعبد حوى علما أراد به * وجه الاله فوفاه له عملا

وما زال العلم من الانسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيي الجسد بالروح كذلك يحيي صاحب العلم

العلم في الناس بعلمه ويعظم قدره فيهم ويجل خطره عندهم وقال بعض العلماء أعظم الاشياء منفعة عند العقلاء الادب والعلم لانهما يستمتع بهما صاحبهما مدة حياته ويحسن بهما ذكره ويورثاه في الآخرة النعيم الدائم ولا يلحقهما بلاء ولا نقص مع كثرة الاستمتاع بهما وكل منافع الدنيا انما هي رهائن فناء وودائع تلف وقال بطليموس ما مات من أحيا علما ومن كلام العلماء العلم شرف من غير تقدم ومال من غير تجارة لا يخاف على حامله ضياع ولا يعدم منه انتفاع وقال الادب أفضل من الحسب لان الرجل ينطق به فيعرف قبل حسبه ومن قعد به نسبه نهض به أدبه وقال بعضهم

رأيت العز في أدب وعقل * وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه * له وجه وليس له لسان

وقال غيره

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

وقيل ان الحكمة تنبت شجرة في القلب يمدها العقل وتثمر في اللسان والى هذا نظر قول الاعور

وكائن ترى من ساكت لك معجب * زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ومن كلام بعض العلماء عليكم بالعلم فانه يقومكم صغارا ويقدمكم كبارا وقال بعض السلف رضي الله عنهم اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه العلم خير من المال لان العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه وقالوا العلم طبيب الدين والمال داء الدين فاذا رأيتم الطبيب يجر الداء لنفسه فكيف يداوي غيره وقيل لبعض الحكماء لم لا تجمع المال والعلم قال لعز الكمال لانهما اذا اجتمعا كناسترا الدنيا وسبب لذة المحيا ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الدنيا بالاموال والآخرة بالاعمال وفي منثور الحكم علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان لم يكن لك مال كان لك مالا وان كان لك مال كان لك جمالا وقيل لبزرجمهر ما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نرى الاغنياء على أبواب العلماء قال لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم ﴿فصل﴾ والعلم عظيم في نفسه وحامله عزيز في قومه ان قال فكلامه مرفوع وان أمر فأمره مسموع لا ينافس فيما دق ولا يخالف فيما شق يغضي لجلالته ويغضي لهابته ولذلك عظمت صغار سقطاته لانها محدودة وكثرت قلائل هفواته لانها معدودة فصارت زلته نادرة الدهر وهفوته بيضة العقر كما قال المهابي

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها * كفى المرء فضلا أن تعد معايبه

فاذا تكيفت كبيرها صغيرها وكثير يسيرها فهو كالسفينة تغرق فيغرق معها خلق كثير ولا شئ أضر على الجاهل من زلة العالم لانه يلزمها حجة ويتمسك بها عروة فيخسر من حيث يحسب انه يربح ويغرق وهو يظن انه ينجو وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أخاف على أمتي زلة العالم وجدال المنافق لان المنافق يجادل بالباطل ليدحض به الحق وليس من أذنب

واحتج لنفسه وجادل على ذنبه كمن اعترف بذنبه ولازم نفسه واعتذر من خطيئته فانه أقرب للعفو وأرجى للرحمة * (فصل) * وبالعلم اعتصم الملوك من الظلم وامتنعوا من الجور وعدلوا فى أحكامهم وأقسطوا فى أقسامهم فتسددت آراؤهم وحسنت فى كل الاحوال انحاؤهم فصاروا أئمة هدى يقضون بالحق وبه يعدلون وقال بعض الحكماء العلم زين فى الحضور وعز فى السفر وانيس فى الوحدة وجمال فى المحافل وداع الى المكارم وسبب الى نجح السعى وما زال صاحبه رفيع القدر وان تواضع وقيل خير العلماء من عمل بعلمه ولم يبخل بتعليمه وأظهر التواضع وفى بعض الحكم من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار ومن لم يكن حكيما لم يزل سقيما وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه قيمة كل امرئ مايحسن وقال أيضا عليه السلام الناس ابناء مايحسنون أخذه ابن طبا طبا فقال

فيالائمى دعنى أغالى بهمتى * فقيمة كل الناس مايحسنونه

ومن كلام بعض الحكماء العلم وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شرف والعلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس ومن الحكم المنثورة كل عز لم يؤكده علم مذلة وكل علم لم يؤكده عقل مضلة وقيل كم من ذليل أعزه علمه وكم من عزيز أذله جهله وفى ذلك يقول ابن عبد العزيز

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

ومن أمثال الحكماء من لم ينفعه العلم لم يأمن ضرر الجهل وقال بعضهم اذا علمت فلا تنظر من دونك من الجهال ولكن انظر من فوقك من العلماء وافرح بما لم تنطق به من الخطا مثل فرحك بما لم تسكت عنه من الصواب وقيل ان ابليس لعنه الله قال لا شئ أغيظ على من العالم ان تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بعلم وسكوته عندى أغيظ من كلامه وذلك لان الكلام يتوقع معه العثار فيترجاه ابليس و ينتظره والسكوت لا يتوقع منه ذلك وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ماعبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد وذلك لان العابد انما يحمى نفسه و يسعى فى خلاص ذاته والفقيه يعلم فيخلص نفسه و يعلم فيخلص غيره ومن العلماء من فضل حق العالم على حق الوالد لان الوالد انما هو ساع فى صلاح دنيا الولد والعالم ساع فى صلاح دنياه واخراه وفى مثل ذلك يقول بعض الشعراء

وللعلم فضل ليس يبلغه * حنو أم ولا يحويه عطف أب
هذا يدبر فى الدنيا معيشته * وذا يمكنه فى أرفع الرتب

وقال آخر

يافاخر السفهاء بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب * لان جعلنا عوارض التلف
من علم الناس كان خير أب * وهو أبو الروح لا أبو النطف

وقيل للاسكندر مابال تعظيمك لمؤدبك أكثر من تعظيمك لابيك قال لان أبى سبب حياتى الفانية ومعلمى سبب حياتى الباقية ولما دخل على الواثق مؤدبه بالغ فى اكرامه فقيل له يا أمير المؤمنين من هذا قال أول من فتق لسانى بذكر الله وادنانى من رحمة الله وقال بعض العلماء للعالم فى تعليم العلم تذكير من النسيان وأفضل من ذلك مايرجوه من ثواب الرحمن وقال بعضهم

فى

فى تعليم العلم ارغام للعدى وخروج من ظلمة الجهل الى نور الهدى وقيل التعليم احياء اموات وادراك فوات وعصمة من الآفات واصلاح من غياهب الجهل وظلم الضلالات وتعليم العلم صدقة من العالم على المتعلم من أفضل الصدقات وقربة يتقرب بها الى خالق الارض والسموات لان صدقات المتاع تنفد مع الاستمتاع بها والعلم يتجدد ويتزيد عند الاستمتاع به فخيره دائم أبدا ونفعه مستمر أبدا مع ما للعالم والمتعلم من ذخور الاجر والثواب وعظيم النفع يوم الحساب روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده وروى عنه صلى الله عليه وسلم عن ابن مسعود انه قال تعلموا وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل وما هو يارسول الله قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة وقال بعض العلماء من تصدق بعلمه أغنى من اقلال وأطلق من عقال وهدى من ضلال وأرضى ذا الجلال وأخرج من حد النقص الى حد الكمال ولقد قلت فى هذا المعنى

أيها العالم اللبيب تصدق * ان بذل العلوم خير نوال
صدقات المتاع تفنى سريعا * وهى تنمى على مرور الليالى
تلك تهدى للمدنى بلغة العيش وتشجى بحمل ذل السؤال
وعطاء العليم يغنى من الفقر ويهدى من موبقات الضلال
ثم ان السؤال فى العلم عز * وسؤال الندى من الاذلال

وقيل ان للنفس أربع خصال هى كمال حدها وللجسم أربع خصال هى حد كماله فخصال النفس العلم والعدل والشجاعة والحلم وخصال الجسم الجمال والصحة والقوة وتمام الخلقة فنظير الجمال العلم ونظير القوة الشجاعة ونظير الصحة العدل ونظير التمام الحلم وهذه الخصال قد يجمعها الله عز وجل لمن أراد كماله من خلقه وقد يعطى ما يشاء منها لمن يشاء فنسأل الله حسن الموهبة * (فصل) * واعلم ان جميع ما ارتسم فى الكتب وخط فى الصحف من العلم انما هى صفاته وفصوص من الحكم وتصوير المعانى واثبات الاصول وايقاع الفصول وليس بنفس العلم الاحقيقة ذاته لان الخط لو كان نفس العلم لعلمه كل من قرأه وأفاده كل من تصفحه وقبله كل من نظر اليه وغنى الناس به عن العلماء وحقيقة العلم انما هى نور يقذفه الله سبحانه فى قلب من يشاء وأمر يضعه فى جبلته من صفاء الذهن وقوة المعرفة وجودة القريحة وحسن النظر وصحة الفكر فتفتح له أبواب الهداية وتنتهج له طرق المعرفة فيستفيد علم اليقين و ينكشف له سرائر المعانى وتصح الدلائل وتقوى عنده البراهين فيتم له العلم وتكمل عنده المعرفة بحسن القبول ومصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم علمان علم ثابت فى القلب وعلم ثابت فى اللسان وهو حجة الله تعالى على عباده فالصحيفة انما هى صورة مثبوتة وشخص مجسم روحه العلم ونفسه الفهم ومدبره العقل وقوته اليقين وجوارحه الدلائل وحواسه البراهين فاذا اجتمعت أحدثت حركات هى أعمال البر وبها تتم خلقة العلم ان شاء الله عز وجل وقال بعض أهل العلم العلم علمان علم طبيعى وهو الاصل لما ركب الله تعالى فى صاحبه من قوة الفهم وصحة النظر وعلم مكتسب محفوظ وهو الفرع والشئ لا يتفرع الا عن أصل والاصل لا ينمى الا باتصال المادة وفى ذلك يقول بعض الشعراء

فلم نر فرعا طال الا باصله * ولم نر بدء العلم الا تعلما

وقال ارسطاطاليس غير منتفع بالعلم ومستمتع بالحكمة قلب مرتبط بطلب الدنيا والمعيشة وارتياد المكسب * روى عن ابن مسعود انه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا فان العالم كلما ازداد علما ازداد من الله قربا ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء وطالب الدنيا كلما ازداد مالا ازداد طغيانا ثم قرأ ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وقال أفلاطون النار لا ينقصها ما أخذ منها لكن تخمد اذا لم تجد حطبا وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس لكن سبب تعطيله بخل العلماء به فاياك والبخل بما تعلم ولما حضرته الوفاة جمع أصحابه وقال لهم يا اخواني ما أدرى ما أقول لكم غير اني خرجت الى الدنيا مضطرا وها انا أخرج منها مكرها وما بلغ من على اكثر من علمي باني لست بعالم أخذ قوله خرجت الى الدنيا مضطرا وها انا أخرج منها مكرها العباس بن الاحنف فقال

أقمنا مكرهين بها فلما * ألفناها خرجنا كارهينا

وذلك انا لما جبلنا على حب الدنيا فسرنا اقبالها وساءنا ادبارها فنحن نكره فراقها والذي جاء فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قيل ان ذلك عند المعاينة وقرب فراق الدنيا فيرى العبد الصالح البشرى الصالحة فيحب لقاء الله ويحب الله لقاءه ويرى العبد المسيء البشرى السيئة فيكره لقاء الله فيكره الله لقاءه وقيل لقيس بن ساعدة ما افضل العلم قال وقوف المرء عند علمه قيل فما افضل المعرفة قال معرفة المرء بنفسه قيل فما افضل المروءة قال استبقاء الرجل ماء وجهه قيل فما افضل المال قال ما قضى به حق واستدفع به مكروه ومن كلام الحكماء من استخف بالسلطان ذهبت دنياه ومن استخف بالعلماء ذهبت أخراه ومن استخف بالاخوان ذهبت معونته وقيل العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما تزل القطر عن الصفاة وروى ان الله جل وعز أوحى الى عيسى عليه السلام أن عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى وقال الشاعر

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالعلم منك وينفع التعليم
تصف الدواء لذى السقام من الضنا * كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا * نصحا وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال بعض السلف قالت الحكمة التمسنى فان لم تجدنى فاعمل باحسن ما تعلم فاذا فعلت فانا معك ومن كلام العلماء العلم أنفس الاعلاق وأشرف الاعراق واكرم منتسب وانفع لمقتنيه من الفضة والذهب فانهما يبيدهما الانفاق ولا ينفعانك الا عند الفراق وقال ابن المعتز العلم جمال لا يخفى ونسب لا يجفى والعلم لا ينقص مع الابذال ولا يفارقك فى حال من الاحوال ومن أمثالهم من لم يقتن العلم ذخيرة لم تزل نفسه فقيرة وقال بعض الحكماء لابنه يا بنى ان شئت ان تكون غنيا وتعيش هنيا وتموت رضيا فاقتن العلم فانه خير كله لا يعييك فضله ولا يؤدك حمله ولا ينقصك

يتقصل بذلك ومما قلت

أجل ما يقتني يوما ويكتسب * وينتقى من حلى الدنيا وينتخب
علم رفيع عميم النفع قد رفعت * لحامليه بآناف العلى رتب
ان عاش عاش حميدا ساميا أبدا * لا يستضام ولا يشنا فيجتنب
وان يمت فثناء شائع حسن * وبعده رحمة ترجى وترتقب

وقالت الحكماء العلم نور زاهر لمن استضاء به وقوت هنى علمن تقوت به ترتاح به الانفس اذاهو غذاها وتفرح به الافئدة اذاهو قواها وهو الدليل على الخير والعون على المروءة وصاحب فى الغربة ومونس فى الخلوة وصلة فى المجالس وشرف فى النسب وقيل لازدشير ايها الملك أى الكنوز أعظم قدرا وأجل منفعة قال العلم الذى خف محمله ولم تمكن مفارقته وخفى مكانه فأمن من السرق وهو فى الملأ جمال وفى الوحدة أنس يرأس به الخسيس ولا يقدر حاسدك عليه على انتزاعه منك قيل له فالمال قال ليس كذلك محمله ثقيل والهم به طويل ان كنت فى ملأ شغلك بالفكرة فيه وان كنت خاليا أتعبتك توابعه وقال أفلاطون ذهاب العلماء خراب العالم وهذا ناظر الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب أهله وقال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء وروى عنه صلوات الله عليه انه قال عليكم بخلفائى قالوا ومن خلفاؤك يارسول الله قال الذين يحيون سنتى يعلمونها عباد الله وقال صلى الله عليه وسلم مثل العلماء فى الارض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فاذا طمست النجوم أوشك ان تضل الهداة وقال عليه السلام مانحل والد ولده أفضل من أدب حسن وقال صلى الله عليه وسلم لأن يؤدب أحد كم ولده خيرله من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع ومن كلام بقراط العلم دين يدان به البارى يكتسب به المرء طاعة ربه فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته وهو سلم للعلو ومرتقى للسمو فمن عدمه فقد عدم القرب من بارئه وقال بعض العلماء خذوا من الدنيا ثلاثا من الكنوز العلم ومن الزاد التقوى ومن الاعمال العبادة وقيل العقل خليل المؤمن والعلم وزيره والدين دليله والصبر عماده والتقوى زاده والى الجنة معاده *(فصل)* واعلم انه لا يجب أن يدعى عالما من حفظ الاساطير وهو لا يفهم معانيها ولا يحكم مبانيها فلم يحصل الا على هذر الكلام ولا وصل من الفهم الى فائدة الاستفهام حتى اذا قعد فى بحبوحة مجلسه واحتبى من فضول ملبسه هدرت شقاشقه ولمعت بخلب القول بوارقه فاذا استكشفته عن غامضة وسألته الجمع بين متعارضة تبلد وتلدد وانسل عن ثياب المعرفة وتجرد وأما العالم الذى يحمل اسم العلم عن حقيقته من جعل العقل عماد عنايته وجعل الدين منار هدايته وتقدم بفهم مكنون يستفتح به من العلم ما استبهم وذهن يوضح منه ما استعجم ونهض بقريحة تكشف مكنون اسراره وقعد بفطنة تعلم مواقع ايراده واصداره مع لزوم ما قدمناه من شروطه وأحكامه وامتثال ما بيناه من اتقانه واحكامه فاذا وقعت النازلة قاس عليها بدليل راشد وبناها على أس ممهد القواعد فانقاد له صعبها انطباعا واستقل باعبائها اضطلاعا ففتق منها ما رتق وفتح منها ما انغلق فانقشعت له ظلماؤها واستوى عنده أرضها وسماؤها فصار كالبازى فى الخاطر لا تمر به سانحة ولا بارحة

الا اقتنصها واختلسها أو الاسد الحادر لا تعرض له فرصة ولا فريسة الا انتهزها وافترسها فلذا هذا يجب ان يدعوه العالم عالما وقال سهل العلماء ثلاثة عالم بالله وعالم لله وعالم بحكم الله فالعالم بالله هو العارف الموفق والعالم لله هو العالم بعلم الاخلاص والمعاملات والعالم بحكم الله هو العالم بتفصيل الحلال والحرام *(فصل)* وقول المرء لا أدري فيما لا يدري باب عظيم من أبواب العلم وحظ جسيم من حظوظ المعرفة قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله صح عن أبي الدرداء رضي الله عنه انه قال قول لا أدري نصف العلم وقيل ملاك العلم ثلاثة آية محكمة وحديث مسند وقول لا أدري وعن خالد بن خداش قال قدمت على مالك بن أنس رحمة الله عليه من العراق بأربعين مسألة قال في اثنين وثلاثين منها لا أدري وروى عن مالك رحمه الله انه قال جنة العالم لا أدري فاذا أخطأها أصيبت مقاتله أخذه ابن دريد فقال

ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وقال محمد بن أبي حازم

من تحلى بغير ما هو فيه * فضحته شواهد الامتحان

ومن أمثال الحكماء من طلب الفضل بغير أدب خرج من السلامة الى العطب وقال أزدشير الادب زيادة في العقل ومنبهة للرأي ومكسبة للصواب وقال بعض الحكماء الادب الصالح يعين الطبيعة ويقوي القريحة ويديم موادها ويحيي مواتها ويزيد في نشاطها ويبعث الى انبساطها لانه بمنزلة الغذاء الذي به يكون النمو والزيادة وقالوا في منثور الحكم من يجرب يزدد علما ومن يؤمن يزدد يقينا ومن يتسنن يعمل جاهدا ومن يحرص يزدد قوة ومن يكسل يزدد فترة ومن يتردد يزدد شكا ففائدة العلم العمل وفائدة الدين اليقين كان آفة العلم الكسل وهو الباعث للنسيان وآفة الدين التردد وهو المسهل لطريق العصيان وقال الشاعر

لو كان علم المرء أوقارا الجمل * لم ينتفع الا بتحسين العمل

فاعمل لدار الخلد من قبل الاجل * مادام عمرك ممتدا في مهل

واحذر هديت من التردد والكسل * فهما يفيدان الندامة والزلل

(فصل) ولكل صنف من العلوم قريحة تتشابه في أصل الخلقة تقريرا وطبيعة تقابله في وضع الجملة احكاما وتدبيرا والا كان الناظر فيه متعوبا بما لا يدرك والطالب ساعيا فيما لا يلحق وصار معملا ذهنه في ما لا فائدة له فيه ومتعبا نفسه فيما لا عائدة منه عليه فاذا كانت القريحة قوية التناسب للذي يرومه والطبيعة كثيرة الاشتراك لما يعالجه تنبه الخاطر وقوي الذهن وتمكن الفهم واتسعت المعرفة فقبل ما تلقى من ذلك الباب ونفذ في الصنف الذي طلب من الآداب واستقل بما تحمل منه ولم يعجز في حال عنه فان كان نفوذه الى بعضها أكثر من بعض فبقدر مناسبة الطبيعة وحسب مقابلة القريحة واخراج ميل النفس اليه وحمل الطبع عليه وكذلك في جميع الاعمال والله أعلم وكم من منهمك في العلوم والآداب طالب لها بكل الوجوه والاسباب لم ينفذ منها الا فيما وافق طبيعته وناسب جملته وقد يوجد من الناس من يعرض على العلم ويشره الى الآداب فتراه الدهر كثير الطلب جامعا للكتب مواصلا للتعب من غير فهم يعتد به في فن منها ولا قريحة تعينه عليها فيجهد نفسه والطبيعة تقعده ويتعب جسمه والحرمان يبعده فلا هو عن الطلب يمتنع ولا هو بالذي يجمع ينتفع كما قال بعض الشعراء

اما

أما لو أعي كل ما أسمع * واحفظ من ذاك ما أجمع * ولم استفد غير ما قد جمعت
لقيل هو العالم المقنع * ولكن نفسي الى كل شي * من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت * ولا أنا من جمعه أشبع * وأحضر بالجهل في موضع
وعلمي في الكتب مستودع * اذا لم أكن واعيا حافظا * فجمعي للكتب لا ينفع
ومن كان في علمه هكذا * يكن دهره القهقرى يرجع

من قول العلماء العلم ماء بر معك الوادي وعمر بك النادي بصرنا الله واياك بمنافع العلوم وجعل لنا منها أوفر حظ مقسوم ولا سلك بنا سبيل الجهل المذموم فهو العزيز العليم لا رب غيره

(فصل في اجتناب الجهل وحامله) الجهل حماك الله رأس الفضائح ومعدن القبائح ومضمار العثار ومعيار الشنار وسبب الخمول ودليل التخلف وداعية المقت ان نطق صاحبه تعرض للخزي والذم وان تصرف صاحبه في حال سقط لليدين والفم وهو دليل على غلظ الطبع وجود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس وخبث الطينة ونعوذ بالله من شر كل خليقه ونسأله ارشاده وتوفيقه وقد عصم الله منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال عز من قائل خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين وقال سبحانه ولو شاء لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين وذم الجهل كثير في كتاب الله تعالى روى عن وهب بن الورد المكي أنه قال لما قال الله عز وجل لنوح عليه السلام اني أعظك أن تكون من الجاهلين بكى ثلاثمائة سنة حتى سقط جدول خديه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا رذل الله عبدا أحظر عليه العلم وقال عليه السلام لا فقر أشد من الجهل وقال بعض العلماء لا يحملنك ما ترى من اقبال النعمة على الجاهل على الرغبة في الجهل ولا ادبارها عن العالم على الرغبة عن العلم فان اقبالها على الجاهل اتفاق واقبالها على العالم استحقاق وليس مستحق النعمة ومستوجبها كحاملها بغير استحقاق وقيل لابزرجمهر ما أعجب الاشياء قال نجح الجاهل واكداء العالم وفي مثل ذلك يقول محمود الباهلي

لا تعجبن لجاهل * نال الغنى من غير كده * ولعاقل لا يكتسب * فلعله يسعى بجده

ومن أقوال العلماء نعمة العالم تظهر دلائله وفضائله ونعمة الجاهل تظهر عيوبه وذنوبه وقال رجل من الجهال لسقراط الحكيم ما أشد فقرك فقال له يا ابن أخي لو علمت الفقر لأشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لسقراط وقال عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة على مزبلة وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على العالم وأرادت عقوبته حبسته مع الجاهل وكانوا يقولون أشد حوادث الدنيا عالم يجري عليه حكم الجاهل وقال أكثم بن صيفي ويل للعالم من الجاهل وقيل لعيسى عليه السلام من أدبك فقال ما أدبني أحد لكنني رأيت جهل الجاهل فجانبته وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ولا تصحب أخا الجهل * واياك واياه * فكم من جاهل أردى * حليما حين واخاه

وقال ارسطاطاليس العالم يعرف نقص الجاهل لانه قد كان جاهلا والجاهل لا يعرف فضل العالم لانه لم يك عالما ومن أمثال العلماء من جهل شيأ عاداه وفي ذلك يقول ابن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعاب العلم من هو جاهله

وقال بعض الحكماء اذا جهل الجاهل وعلم أنه جاهل فهو مرحوم يستوجب الاقالة واذا جهل وظن أنه قد علم فهو مذموم وأتم جهالة وقال الخليل بن أحمد الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسئلوه ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدري و يدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاصرفوه وقيل لبزرجمهر مالكم لا تعاقبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى بان يبصروا ولا الصم بأن يسمعوا ولما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن نظمه الخليل فقال

لا يكون العلي مثل الدني * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من العليم العلي

ومن أمثال الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس الجهال حقر وفي بعض الحكم من جالس الجهال فليستعد للقيل والقال وقيل أشد المصائب الاعراض عن العالم والاعتراض فيه للجاهل وقال سقراط ستة لا تفارقهم الكآبة الحقود والحسود وحديث عهد بغنى وغني يخشى الفقر وطالب رتبة يصغر قدره عندها ومجالس لاهل العلم وليس منهم وقال ارسطاطاليس من لم يرفع قدر نفسه عن قدر الجاهل رفع الجاهل قدره عليه وفي ذلك يقول صالح بن عبد القدوس وان عناء أن تعلم جاهلا * فيحسب جهلا انه منك أعلم
روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب وقال عيسى عليه السلام لا تطرحوا الدر تحت أرجل الخنازير يعني العلم عند الجهال وقال أيضا عليه السلام لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وقال محمد بن ادريس الشافعي

أأنثر درا بين سارحة النعم * وأنظم ياقوتا لراعية الغنم
ومن منح الجهال علما أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومن أمثالهم في ذلك تعليم الغبي شؤم ومنع الذكي لؤم وقال بعضهم ما زال معلم الجاهل يشقى ويقل عمله ومعلم الذكي يرقى ويكثر فهمه ومن منثور الحكم من عرف بالجهل فهو لكل قبيحة أهل وقال أبو العباس الناشئ

واذا بليت بجاهل متحامل * حسب المحال من الامور صوابا
أوليتهمني السكوت وربما * كان السكوت عن القبيح جوابا

وقال بعض العلماء ما زال العاقل يشقى بعقله لحسن نظره وصحة تفكره وما زال الجاهل ينعم بجهله لقلة نظره وعطول تفكره وقال ارسطاطاليس العاقل لا يلازم شهوة الطمع لعلمه بزوالها والجاهل يظن انها خالدة فهو يتلذذ بها و يبقى عليها فهذا يشقى بعقله وهذا ينعم بجهله أخذه عبد الله بن المعتز فقال

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وأخذه أيضا أبو الطيب المتنبي

وحلاوة الدنيا لجاهلها * ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال البحترى أرى العلم يؤسى فى المعيشة للفتى * ولا عيش الا ما حباك به الجهل
وقال محمد بن ادريس بن محمد الشافعى رحمه الله

ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
ان الذى رزق اليسار فلم يصب * أجرا ولا حمدا لغير موفق

وقال بعض الشعراء أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كأن به جهلا
وقال الحرث بن حلزة وعش بجد لا يضر * ك النوك ما أعطيت جدا
والنوك خير فى ظلا * ل العيش ممن عاش كدا

﴿فصل﴾ ومن الواجب على من عرى من الادب وتخلى من المعرفة ولم يتحل بالعلم وتبرأ عن الفهم أن يلزم الصمت و يأخذ به نفسه فان ذلك حظ كبير من أدب النفس ونصيب وافر من التوفيق لانه لا يأمن من الغلط و يعتصم من دواعى السقط ويعاطن به الخير فسلم من المقت فان الصمت عليه ستر يخفى زلله و يحجب علله ويكتم خطله فاذا نطق أظهر عاره وأبدى عواره حكى ان رجلا كان يلازم مجلس الفقيه ابى يوسف فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف يوما مالك لا تتكلم وتسأل عما بدا لك فقال بلى أيها الفقيه انى سائلك عن شئ فقال سل قال متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الشمس الى نصف الليل فتبسم أبو يوسف وتمثل بقول القائل ولاصمت ستر للغبى وانما * صحيفة لب المرء أن يتكلما

وقال هرمس الجاهل صغير وان كان كبيرا والعالم كبير وان كان صغيرا وقال غضب الجاهل فى قوله وغضب العالم فى فعله وقال بعضهم صديق المرء عقله وعدوه جهله وقال ارسطاطاليس الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقا لغيره وقال بعض حكماء الفلاسفة العالم بين الجهال كالقائم على ساحل البحر ينظر الى الناس كيف يتلفون بين أمواجه ومن كلامهم الجاهل بين العلماء كالميت بين الاحياء لا يلتفت مكانه كما لا يعرف احسانه وفى ذلك يقول بعض الشعراء وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحيه العلم ميت * وليس له حتى النشور نشور

وقال بعض العلماء العالم حى وان كان ميتا قريب وان كان بعيدا بما خلده من العلم وأبقى من جميل الذكر والجاهل ميت وان كان حيا بعيد وان كان دانيا بما استوجب من الذم واقتضى من القطيعة والهجران وما أحسن قول بعض الشعراء فى هذا المعنى

يا أخا الجهل مت قبل الاوان * وأدلت الرباح بالخسران
وتحجبت ذلة وصغارا * وتباعدت والتزاور دانى
وأخو العلم شاهد وهو ميت * ناطق بيننا بغير لسان
حاضر بيننا قريب مجيب * وهو رهن التراب والاكفان

وقال بعض الادباء مطية الجهل تبطئ وهى جامحة ومطية العلم تسرع وهى وادعة ولقد استحسنت هذا المعنى فنظمته وقلت

مازال من كان طرف الجهل مركبه * يبطى به فهو معقول وان جمحا
وراكب العلم يجرى فى أعنته * فيقطع الارض اسراعا ومارجحا

وقيل لبعض الحكماء أى الزمان خير قال اذا كان العالم مرفوعا والجاهل موضوعا قيل فأى الزمان شر قال اذا ساد الجهول وصحب أهل المعرفة الخمول قيل فأى الناس خير قال الذى يعرف قدر نفسه قيل فأيهم شر قال الذى جهل أمر دنياه قيل فيم نعرف صلاح دنيانا من فسادها والاحاطة بذلك لا تمكن قال انظر الى الملك فان سرك احسانه سرك زمانه وان ساءك مكانه ساءك زمانه فان الله عز وجل خلقه على طبع زمانه وما أسوأ زماننا يسود فيه الجاهل و يكون هو المؤمل المجلى النبيه الذكر الجليل القدر و يكون أخو العلم هو المشنوء المبعد المجفو غير المودود لا سيما ان قسط فى حكمه وابتغى وجه الله بعلمه لا جرم أنه المعرض للصغار المعدول به عن سبق المشورة فيمن يستشار لقد أصبح الناس من مثله فى عماية عميا فلا يطيب لعاقل فيه المحيا ولا يستفيق من نكد الدنيا وما أحسن قول الافوه الازدى اذ يقول

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وقال المستوغر وما سقطت يوما من الناس أمة * الى الذل الا أن يسود ذميمها

(فصل) وكفى بالجاهل تخلفا انه يهمل نفسه ولا يعرف من أين يستجلب النفع اليها ويحكم شهوته ولا يدرى كيف يكون مآله منها ولو علم فنظر الى تصرف الايام وتقلبها وتمكن الاشياء وترتبها لجاز الى ترجح عقول العلماء وتهذب طبائع الادباء فان من صحب الدنيا بالغفلة والتسويف ولم يأخذ نفسه بالعسر والتعنيف وقع فى ظلمة الجهل وظلمة الجهل لا يذهب بها الا نور العلم الذى منعه فأى شقى أشقى ممن لا ينظر الدنيا بعين فهمه و يترك نفسه فى غياهب الظلام وظلمه لعد غلب الرين على قلبه وطمس هواه نور عقله فسلك بجهله أصعب المسالك حتى وقع فى غمرات المهالك فهو كالطفل الذى يلتذ عند رمد عينيه بعركها ولا يمتنع من اللعب فى مطالع الشمس ومواقع الغبار ولا يدرى ان ذلك مما يزيد فى اعتلاله و يبعد عن استبلاله جهلا بعلم ما ضره وما نفعه فالجاهل أبدا شبيه بالبهائم المخدوعة بما ينصب لها فى مصائدها من الخدع فتقع فى حبائل القانص بكثرة الشره والطمع فاذا حصلت فيه لم تنل ما خدعت به ولا قدرة على التخلص مما نشبت فيه فهلكت دون ما حسبت انها تناله فهو أبدا شقى كيف ما تصرفت به أحواله يخسر وهو يظن انه يربح و يشقى وهو يظن أنه يسعد و يألم وهو يظن انه يرتاح وقال صالح بن عبد القدوس

ما تبلغ الاعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى غيه * كذى الضنى عاد الى نكسه

ومن كلام سقراط لأن أدع العلم جهلا به أحب الىّ من أن أدعه زهدا فيه وان أترك جميع الخيرات أحب الىّ من أن أفعل شيأ من الشر وكان يقول يا أسارى الجهل فكوا أسركم بالحكمة وقال بعض الحكماء من أعز جاهلا أذل نفسه ومن أهانه أكرم نفسه فانه لا يقدر بجهله على التفرقة بين عزه وذله وفى مثله يقول

اذا ما بدأت امرأ جاهلا * ببر فقصر عن حمله
ولم تلفه قابلا للجميل * ولا عرف العز من ذله

فسقه الهوان فان الهوان * دواء لذى الجهل من جهله

ومن أقوال العلماء من ائتمن الخائن كان كمن استرعى الذئب ومن استشار الجاهل كان كمن ركب البحر هلك أو كاد وقيل فى منثور الحكم الجهل موت الاحياء والعلم حياة الموتى لانهم يذكرون به فى كل موطن وقال عبد الله بن المعتز انسان الجاهل مفتاح حتفه وقال بعض الحكماء عمى الجهل أشد من عمى العين لان الاعمى يتوقع أن يعثر فيما ارتفع من الارض أو يسقط فيما انخفض منها والجاهل ربما عثر فيما الا يستقال منه ووقع فيما لا يخرج عنه وفى ذلك يقول بعض الشعراء

أدب المرء كلحم ودم * ماحواه جسد الاصلح
لو وزنتم رجلا ذا أدب * بألوف من ذوى الجهل رجح

أعاذنا الله من الجهل الفادح ولا جعلنا عرضة لمثله القادح وسلك بنا سبيل السلف الصالح وجنبنا الاغترار بزور المادح وبالله سبحانه التوفيق

﴿الباب الثالث فى استصحاب الطاعة بكمالها واستجناب المعاصى ومآلها﴾

الطاعة وفق الله الجميع باب جامع لاشتات العبادة ومنهاج واضح الى محل السعادة بها تنال الخيرات وتجاب الدعوات وتظهر من الله تعالى لأوليائه الكرامات وترفع لهم فى دار المقامة الدرجات وهى حق بين وفرض متعين أوجبه الله عز ذكره على جميع العباد ووعدهم عليه حسن الثواب فى المعاد هى الحرم الاوفى والعروة الوثقى والكهف الاحمى والملاذ الاسمى من تمسك بحبلها سلم ومن لجأ اليها غنم ومعنى الطاعة القيام بفروض الله تعالى والاجتناب لمحارم الله والوقوف عند حدوده الله وقال مجاهد فى قول الله عز وجل ولا تنس نصيبك من الدنيا وهو أن يعمل العبد بطاعة الله وبها بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما وبالطاعة تعبد الله عباده وجعلها مرقاة الى مراتب السعادة وبها تنال الحسنى وزيادة وهى أس الدين وأصل اليقين وعمدة المتقين وشعار عباد الله الصالحين وجميع أعمال البر وجملة دواعى الخير ورأس الورع وكمال الزهد وملاذ أسباب التشرع وأصلها العلم بالله وحسن الطاعة لله والخوف من الله والرجاء فى الله والمراقبة لله فاذا انجرد العبد عن هذه الخصال لم يدرك حقيقة الايمان لانه لا تصح الطاعة لله الا بعد العلم بالله والايمان بوجوده خالقا عالما قادرا من غير صفة يحيط بها علم ولا يتصورها وهم ولا يلحقها ادراك وانما معرفته يدركها العقل بمشاهدة الباطن وكشف طرق الاستدلال وتحقق صحة الشواهد مع الاستمداد من النور الالاهى وهو نور الهداية الموضوع فى القلب السالم من الآفات الفارغ من الشهوات لان الناظر اذا نظر الى انتظام هذا العالم فى سلك التدبير وتصرفه فى حكم التقدير علم أنه محدث وكل محدث لا بد له من محدث وموجد بحكم العقل وصحة النظر قيل عن بعض الحكماء أنه قال لا يعرف الله على حقيقة العلم به الا أحد رجلين عاقل قوى النظر بطبعه أو الفيلسوف المبرز بعلمه وماعداهما لا يعرف الله الا تقليدا لانهم لا يعرفون شيأ موجودا الا مركبا والله سبحانه موجود غير مركب فهذا الوجود انما يدرك بالعقل المقتبس من نور الهداية ثم لا يزال يقوى بناؤه وتتأكد أنباؤه بالرسل المبعوثة بالآيات الصادقة والدلائل الواضحة والمعجزات الناطقة والصامتة التى لا تصدر الا عن قوة الاهية

وقدرة ملكوتية ولا تنبغي لمخلوق على حال وقد قال الجنيد رحمه الله لا يعرف الله الا الله وقال اعرابي لمحمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه هل رأيت الله حين عبدته قال لم أكن أعبد من لم أره قال كيف رأيته قال لم تره الابصار بمشاهدة العيان لكن رأته القلوب بحقيقة الايمان لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات لا يجور في القضيات ذلك الله لا اله الا هو رب الارض والسموات فقال الاعرابي الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقيل لذي النون وهو مريض ما تشتهي قال أن أعرف ربي قبل موتي بلحظة * وروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رحمه الله وهو مريض فقال له ما تشتكي قال ذنوبي قال فما تشتهي قال معرفة ربي وقال غير هؤلاء من أهل التجرد والتعمق اني لا أعرف شيأ الا الله وقال بعضهم أغلقت عيني ثم فتحتها فلم أر شيأ غير الله وتعلق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في سجوده اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فكأنه لم ير شيأ غير الله تعالى وأفعاله فاستعاذ من فعله بفعله وفر منه اليه وأنه هو المثني والمثنى عليه وان الكل منه وبه واليه وانه لكما قال غير أن هذه الاقوال ما أبعد مراميها وأصعب مراقيها وان كان قد جمعها قوله سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن لكنه بحر لا يخاض عبابه ووعر لا ترتقى أسبابه وقفر لا يعمر بنيانه محجوب عليه محجور ممنوع طريقه محظور فنحن اذا كنا لا نعرف حقيقة أنفسنا مع استصحاب الحال وقد قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ولا نعرف حقيقة الموت مع المشاهدة ولا نعرف ماهية الافلاك والبروج ونحن ننظر اليها ملأ العيون ولا نقدر حال الجنة والنار مع تواتر الأوصاف وترادف الأخبار الى غير ذلك من الاشياء وهي كلها مخلوقاته فكيف لنا بعرفان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * سئل بعض العارفين عن علم الباطن قال هو سر من اسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا ألا ترى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن ينظر بنور الله فاذا نظر بنور الله كان على بصيرة من أمر الله فكان علمه طاعة وايمانا وتصديقا وبقدر قرب الله عز وجل من العبد يكون علم العبد به واعلم أن العبد اذا كوشف بالمعرفة لم يصح له تقليد أحد من العلماء لان علم المكاشفة يجلي القلوب ومعرفة الافعال الدالة على معاني الصفات هو نور الهداية المخصوص به الانبياء ومن اصطفى من الاولياء ولا ينبغي لغيرهم فانها آيات الله تعالى وعهوده لأهل مودته وهو القائل عز من قائل لا ينال عهدي الظالمون وهذا من أقوى الدلائل على فضل علم المعرفة على سائر علوم الشرع وقال بعضهم من لم يكن له نصيب من هذا العلم يخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به * روى عن كعب الاحبار أنه قال لو أن بني آدم بلغوا من اليقين مثقال حبة من عظمة الله عز وجل لمشوا على الماء والريح وأما قول القائل ما زلت أشرب ولا أروى فلما عرفت الله رويت من غير شرب فلم يرد بذلك الا المعرفة التي أوجبتها الدلائل الظاهرة وبينتها النبوة الصادقة وعضدتها البراهين المعجزة وقبلها العقل ولقد وجدت في بعض الأقوال ما يشير الى هذا المعنى فقال للاشياء الظاهرة حقائق خفية توجب اليقين باحكام الصنعة وصحة الشواهد غير انها تلزم

القصور

القصور عن ادراك ذلك بالافكار والابصار جملة وانما ترتقي اليها وهما لا تحقيقا وتبصرا لا تعيينا فيجب للعاقل العالم ان يقتصر على هذا و يقف عنده فربما وقع الوهم على معدوم والفكر على غير مفهوم وهذا احسن من القول فسبحان الذي جعل الاقرار بالعجز عن ادراك معرفته ايمانا كما جعل اقرار المنعم عليه بالعجز عن ادراك شكره شكرا وفي ذلك قال منصور بن اسماعيل المصري شكر الاله نعمة موجبة لشكره فكيف شكري بره وشكره من بره وقال محمود الوراق

اذا كان شكري نعمة الله نعمة * علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
وما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والبر والبحر

وسئل بعض العلماء عن القدر فقال ذلك علم اختصمت فيه الظنون واختلف فيه المختلفون والواجب علينا ان نترك ما أشكل من حكمه الى ما سبق في علمه جعلنا الله من الذين يؤمنون بالغيب وأعاذنا من الشك والريب وعصمنا من كل دنية وعيب فذلك بيده لا بايدينا و بفضل رحمته لا بجهدنا ونرجع الى ما كنا فيه فان التعقل في طرق المكاشفة غرر وركوب بحرها خطر واذا اطرد الكلام للانسان تحجج في أعنة اللسان ولم يؤمن على القلم الطغيان لان الكلام اذا تقارب بعضه من بعض تعلق مسنونه بالفرض فاختلطت اجزاؤه واستوت أرضه وسماؤه ومازال الجامع له الداخل فيه اذا تقاربت فنونه وتقابلت عيونه يرى تجميل معانيه أحسن من تفصيل مبانيه والجمع بين اجزائه أزين من القطع قبل استيفائه غير ان هذا لا يطرد في كثير من المعاني ولا يصلح بالنبيل المعاني فربما خرج عنان الكلام عن قبضة الماسك فولج أضيق المسالك وأفضى به الى المهالك والله ولي الاعتصام من زيغ الكلام بعزته *(فصل)* فنقول والله الموفق اذا ثبت العلم بالربوبية تعين الاقرار بالعبودية واذا تقرر الايمان في القلب وجبت الطاعة للرب والايمان نوعان ظاهر وباطن فالظاهر النطق باللسان والباطن الاعتقاد بالقلب والمؤمنون متباينون في منازل القرب متفاضلون في درجات الطاعة والايمان جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة وتمكنه من علو المرتبة في الاخلاص لله والتوكل على الله والرضى بحكم الله فاما الاخلاص فهو ان لا يطلب العبد بما يعمل من العمل المفروض والمسنون جزاء من الخالق القادر كاخلاص العبد الناصح لمولاه اذا علم ان خدمته اياه يقتضيها الحق ويوجبها الشرع وانها قد تعينت عليه بوجوب الملك وحمل الكل كما تعينت على الجميع للخالق المعبود فان كانت رجاء للمثوبة أو خوفا من العقوبة فذلك العبد لا يكون كامل الاخلاص فانه لنفسه سعى * روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يكون أحدكم كالعبد السوء ان خاف عمل ولا كالاجير السوء ان لم يعط أجرا لم يعمل وكذلك من عبد الله عز وجل طمعا في الجنة أو خوفا من النار فليس بكامل الاخلاص لانه لنفسه سعى وانما تعينت علينا عبادته ووجبت فينا طاعته بما سبق له من الفضل علينا وتقدم له من الاحسان الينا فانه سبحانه خلقنا من ماء مهين وجعلنا نطفة في قرار مكين ثم صورنا بحكمته

ونفخ فينا من روحه ثم أخرجنا من ظلمات الاحشاء الى مباشرة الانوار والضياء واستنشاق أرواح الهواء وجعل لنا السمع والافئدة وألهمنا الى مصالحنا قبل تركيب العقل فينا من الرضاع وقبول الغذاء والشره الى المنافع والكراهية للمضار ثم بصرنا عند تركيب العقل فينا باستجلاب المصالح واجتناب القبائح بعد ان مهد لنا الارض وفتق الانهار وانبت الاشجار والثمار وبسط أنواع الارزاق وبعث أسباب الانتفاع والاتفاق وسخر لنا ما سخر من الحيوان تتميما لمواهب الاحسان وجعل الليل والنهار وزين السماء فوقها بكواكب الانوار لنهتدي بها في ظلمات البر والبحار وبعث لنا الانبياء مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما فأتى لنا بالقيام بشكر هذه النعم وتأدية حقوق هذه المنن وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار * روى عن كعب الاحبار انه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ان لله ملائكة قياما منذ خلقهم ما حنوا أصلابهم وآخرون ركوع ما أقاموا اصلابهم وآخرون سجود ما رفعوا رؤسهم حتى ينفخ في الصور النفخة الآخرة فيقولون جميعا سبحانك وبحمدك ما عبدناك كنه ما ينبغي لنا ان نعبدك وأما التوكل فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة والاستناد اليه مع الضرورة والثقة به عند النازلة واذا كان المتوكل عليه ثقة كانت نفس المتوكل ساكنة وقلبه مطمئنا وجوارحه آمنة لان الناظر اذا نظر وجد أكثر الناس متوكلين على غير الله تعالى كتوكل الابناء على الآباء والزوجات على أزواجهن والعبيد على الموالي وأهل الاموال على أموالهم وأرباب الصنائع على صنائعهم والمتوكلون على الله عز وجل قد علموا ان ذلك كله بيد المقدر وفي حكم الخالق المدبر فصرفوا بهمهم جميع الامور اليه ولم يعتمدوا في حال من الاحوال الا عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه وأما الرضى فهو طيب النفس بما يجري به المقدور وانشراح الصدور لما تتصرف به الدهور وهو أفضل ما يصعد الى السماء من صالح الاعمال ويتقرب به العبد الى الكبير المتعال وقال بعض العلماء أقرب الناس الى الله أرضاهم بما قسم الله لان الراضي لا يتمنى فوق منزلته فلا يزال أبدا حسن الظن طيب النفس قرير العين هنيء العيش لانه لا يرى جميع ما يطرأ عليه من المصالح والمساءة وما يغشاه لديه من المكاره والمضار كلها الا نعمة كاملة ومنة طائلة فان كانت مسرة تضاعف عليها حمده وشكره وزاد من أجلها عمله وبره وان كانت مساءة نظر الى ما أعد الله تعالى للصابرين في البأساء والضراء من جزيل الاجر ووعدهم عليه من جزيل الثواب والبر فأعدها أجل ذخيرة اقتناها وأطيب ثمرة بعد نفسه يجناها روى همام عن كعب الاحبار انه قال لا يستكمل المرء ايمانه حتى يرى البلاء رحمة والفقر نعمة ومن كلام بعض الحكماء رب مسرة هي الداء ومرض هو الشفاء والى هذا نظر قول المتنبي

لعل عتبك محمود عواقبه * فربما صحت الاجسام بالعلل

وقال البحتري
وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

وقال غيره
كم منة لا يستقل بشكرها * لله في طي المكاره كامنه

وقال آخر
كم مرة حفت بك المكاره * خار لك الله وأنت كاره

وقال بعضهم

كم نعمة مطوية * لك بين أنياب النوائب
ومسرة قد أقبلت * من حيث ترتقب المصائب
فاصبر على حدثان دهرك * فالامور لها عواقب
ولكل كرب فرجة * ولكل خالصة شوائب

وحسبنا قول الله عز وجل وعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا ما عند الله وأثروه على ما سواه ولا تشاغلوا بعالم توهم روايه عما وكلكم اليه فانه لا ينال ما عند الله الا بالطاعة لله والله غني عن العالمين وقال عليه السلام السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم من أطاع الله فقد ذكر الله وان قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن ومن عصى الله فقد نسي الله وان كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن وقال عليه السلام من نزع يده من طاعة الله لم يكن له يوم القيامة حجة وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اتق الله بطاعته وأطع الله بتقواه وقال بعض العلماء طاعة الله تجارة تجمع ربح الدنيا والآخرة ومن كلام لقمان لابنه يا بني اتخذ تقوى الله تجارة تأتيك الارباح من غير بضاعة وليس بواجب على العبد أن يشتغل بالافضل الا بعد أداء الفرض فانه لا يتخلص الربح للتاجر الا بعد حصول رأس المال وقال جعفر بن محمد انني لأملق احيانا فاتاجر الله بالصدقة فيربحني وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله ان الله عز وجل أمر بطاعته وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذرا ونهى عن معصيته وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها حجة وهو من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أمر بشئ الا أعان عليه ولا نهى عن شئ الا أغنى عنه وقال عمر بن الخطاب أيضا الناس طالبين فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فربما أدرك ما طلب فهلك بما أصاب وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه * روى ان الاسكندر مر بمدينة قد تملكها سبعة أملاك وبادجميعهم فقال هل بقي من نسلهم أحد فقالوا نعم رجل يسكن المقابر فدعا به فاتاه فقال له ما دعاك الى لزوم المقابر قال أردت ان أميز عظام الملوك من عظام العبيد فوجدتها سواء فقال له هل لك ان تتبعني فاحيي شرفك وشرف آبائك ان كانت لك همة قال همتي عظيمة قال وما هي قال حياة لا موت معها وشباب لا هرم بعده وغنى لا فقر معه وصحة من غير سقم وسرور من غير مكروه فقال هذا ما لا تجده عندي قال فدعني أطلبه ممن هو عنده فقال الاسكندر ما رأيت رجلا أحكم من هذا وخرج من عنده فلم يزل في المقابر حتى مات رحمة الله عليه * (فصل) * ولن يستكمل العبد طاعة ربه الا برفض الدنيا وترك التشبث باحوالها والانتباذ من جميع علائقها فكلما بعد عنها تقرب الى الله عز وجل وتخلص من الادناس وسما الى الملكوت وحسبك من الدنيا ان طالبها لا ينزجر وظالمها لا ينتصر وقال بطليموس اذا اعتل الجسد لم ينفعه طعام ولا شراب وكذلك القلب اذا علقه حب الدنيا لم تنفعه الموعظة وفي بعض الحكم أبلغ المواعظ ما لم يحجبها عن القلب حاجب وهذه الحجب انما هي عوارض الدنيا ومن كلام بعض الصوفية الدنيا ساعة فاجعلها طاعة أخذه الفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي فقال في نظمه الذي رصع به تاج علمه وحكمه

اذا كنت أعلم علما يقينا * بان جميع حياتي كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها * وأجعلها فى صلاح وطاعه

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المرء عند ماله وقال عيسى عليه السلام قلب كل امرئ حيث كسبه فاجعلوا كسبكم فى السماء تسكون قلوبكم فى السماء وأتاه عليه السلام رجل من الاغنياء فقال له يارسول الله انى أقوم بالفرض كله فهل بقى على شئ فقال له قيامك بالفرض كله حسن ولكن ان كنت تريد بلوغ الغاية فتصدق بجميع مالك واتبعنى ياهذا وقال بعض الصالحين لرجل من أصحابه ان بقاءك الى فناء وان فناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذى لا يبقى لبقائك الذى لا يفنى وهذا كلام بليغ وقال عامر العدوانى تركك لمنزل أنت عنه زائل أحسن من الغفلة عن منزل أنت اليه راحل وقيل لبعض الحكماء مالذة النفوس قال مطالعة نسيم الحياة الدائمة التى تطمئن اليها القلوب وترتاح اليها النفوس والوصول ببصائر العقول الى حقائق الغيوب والمعاينة بعيون الافكار الى سرائر الاسرار روى عن عيسى عليه السلام انه قال البر فى ثلاثة فى النطق والنظر والصمت فمن كان منطقه فى غير ذكر الله فقد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها *(فصل)* وترك الدنيا والامتداد منها انما يكون باطراح الفكرة فى أحوالها وترك التمنى بلذاتها فان الفكرة تبعث الارادة لتعلق النفس بالفكرة واشتغالها بما تخيله وتشبيه وتهافتها بما تردمنه وتجنبه كان الفكرة فيما يقرب من الله عز وجل والاشتغال فى الملكوت يورث النفس التعلق بالنعيم الدائم والجنوح الى السرور الخالد لان المرء كالباذر ان شاء زرع طيبا وان شاء زرع خبيثا والجوارح كلها جند النفس وهى تابعة لها متعلقة بها فاذا تخيلت النفس ما تخيلت من حسن أو قبيح هجس فى الخاطر حصل فيه الفكرة ووقعت الارادة فاذا وقعت الارادة قويت الشهوة وتحركت الجوارح فاحتاج صاحبها هنالك الى المكابدة ولجأ الى المجاهدة هذا اذا كان ناظرا فى العواقب جانحا الى علو المراتب والا أرسلها عند ذلك على شهواتها ومكنها حينئذ من لذاتها فكلما مكنها من شهوة تاقت الى غيرها وكلما نالت شهوة لذة شرهت الى سواها فكان كما قال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كل شهوة * ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار للذى * دعته اليه من حلاوة عاجل

(فصل) وأحوال الدنيا متعلقة بأحوال الدين فى المراتب ألا ترى الى أن الملوك أرفع من الامراء والامراء أرفع من العمال والعمال أرفع من السوقة والسوقة أرفع من العبيد الى مابين ذلك من الدرجات فمن الحق أن يسعى الانسان الى نيل المرتبة العليا كما قال بعض الشعراء

وما سمى الانسان الا لانسه * ولا القلب الا أنه يتقلب

ومن أشد ما يجب على الانسان أن يحذره وأعظم ما يتعين عليه أن يتوقاه ارسال النظرة فانها سهم صائب وسلطان غائب وهى حاسة سريعة الذنوب تدرك بحينها البعيد والقريب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفى هذا الحديث تأويلان أحدهما لا تتبع النظرة التى هى من غير قصد نظرة عن قصد والثانى لا تتبع نظرة العين نظرة القلب وهو الاحسن

الاحسن لان عليا رضى الله عنه أجل من أن ينظر عن قصد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام الشيطان فمن تركها لمخافة الله تعالى أعقبه عليها ايمانا يجد طعمه فى قلبه وقال ابن سيرين ابالك وفضول النظر فانها تؤدى الى فضول الشهوة وقال بقراط لبعض تلاميذه وقد رآه يطيل النظر الى وجه امرأة حسناء لم تنظر اليها قال أتأمل حسن الصنعة وكمال الخلقة قال اقلب ظاهرها باطنا وباطنها ظاهرا يتبين لك قبحها وقال غيره وقد نظر الى جارية حسناء قد خرجت فى يوم عيد والعيون ناظرة اليها لم تخرج هذه لحاجة انما خرجت لترى وان كان الانسان واثقا بنفسه مالكا لأمره فأراد بزعمه أن ينظر الى محاسن الصور اعتبارا باحكام الصنعة وجمال الخلقة وحسن الهيئة وقدرة الله سبحانه فى أحكام تدبيره واتقان تصويره فى صيغة القدود وصبغة الخدود ورونق الحسن ولطف الحركات ولدونة الاعضاء فان النفس فى جبلتها التعلق بذلك كله والاستحسان له والشغف به والجوارح منقادة للنفس بالطبع المركب فيها فيقع فيما ذكرناه من مجاهدة النفس ومكابدة الهوى فيشغله مايقع فيه عن ارتياد ما يعنيه ويقصر به عن طلب منافعه ومساعيه فقطع الذرائع من كل جانب أوجب على المؤمن من كل واجب وليحذر نزغ الشيطان من هذا الباب ويجتنبه غاية الاجتناب فانه بعده الصبر من نفسه والملك لشهوته واربه حتى يغرقه فى بحر الفتنة ويعلقه بحبال المحنة فلا يقوم اعتباره بما يوقعه فيه اغتراره وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه العيون مصائد الشيطان فالعين أنفذ الجوارح سرعة وأشدها صرعة فمن أتبع جوارحه نفسه فى طاعة ربه فقد وصل أمله ومن اتبع نفسه فى نيل لذته فقد أحبط عمله ومما قلت فى هذا المعنى

اذا ماصفت نفس المريد اطاعة * ولما تشبها للمعاصى شوائب
وأتبعها فعل الجوارح كلها * فتلك عليه أنعم ومواهب
تلقته فى دار الخلود كرامة * اذا جب للعاصى سنام وغارب

(فصل) ومن الواجب على الانسان ان لا يحمل على نفسه بالعنف عليها ولا يضادها بالقهر لها وأن يأخذها أولا بالمنع عن يسير الشهوة والكف عن قليل الهوى مما لاترى النفس فى تركه كبير صعوبة ولا تنال بالامتناع منه شديد مشقة ثم لا يزال ينقلها من حال الى حال أقوى منه ويرفعها من درجة الى أعلاها كما يفعل الطبيب الماهر فى تدريج العليل بتلطيف المعاناة وبحسن المداواة حتى يزيل العرض المحدث للعلة وهو حب الدنيا فاذا أزاله قوى بعد ذلك على قلع العلة ووجدها متأتية الزوال بزوال الدواعى المولدة لها الباعثة عليها فبطل الغى ونجح السعى وفى مثل ذلك يقول سابق البربرى

اذا زجرت لحرزدته علقا * ولجت النفس منه فى تماديها
وعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

وقال عبد الله بن المبارك أصل الايمان التصديق بما جاءت به الرسل فمن صدق القرآن خرج الى العمل به ونجا من الخلود فى النار ومن اجتنب المحارم خرج الى التوبة ومن أخذ القوت من حله خرج الى الورع ومن أدى الفرائض صح اسلامه ومن صدق لسانه سلم من

التباعات ومن رد المظالم تخلص من القصاص ومن أتى بالسنن زكت أعماله ومن أخلص لله
قبل عمله ومن كلام بعض الحكماء الطاعة أحسن معاقل السلامة وارفع منازل الكرامة وقال
بطليموس النية أساس العمل والطاعة تقي من الأجل وقال أيضا كلما قاربت أجلا فازدد عملا
وقال أيضا ما آنس مثوى المطيع لله وما أوطأ راحلة الواثق بالله وقيل انه كان يجلس الى
سفيان الثوري فتى كثير الاطراق طويل الفكرة فاراد سفيان أن يختبره فقال له يا فتى ان
من كان قبلنا مروا على خيل عتاق وبقينا على حمير دبرة فقال يا أبا عبد الله ان كنا على الطريق
فما أسرع لحاقنا بهم وقال بعضهم تلقى النعمة من الله بثلاث كثرة الشكر ولزوم الطاعة
واجتناب المعصية وروى ان سليمان بن داود عليهما السلام كانت الريح تسير به وكان عليه
ثوب جديد فاعجبه فوضعته الريح فقال لها لم فعلت مالم آمرك به فقالت الريح انما نطيعك
ما أطعت الله وقال أبو سليمان الداراني ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة انما العجب ممن
وجد لذتها ثم صبر عنها كيف يصبر وقال ابراهيم بن أدهم لأن أدخل النار وقد أطعت الله أحب
الي من ان أدخل الجنة وقد عصيته وهذا نحو ما تقدم من الكلام في الاخلاص الذي لا يراد به
جزاء وانما يعني لحق الربوبية ووجوب العبودية وعن بعض السلف ان الله تعالى خبأ ثلاثا
في ثلاث خبأ رضاه في طاعته فلا تحقروا شيأ منها وخبأ غضبه في معصيته فلا تحقروا شيأ منها
فربما كان فيه غضبه وخبأ أولياءه في عباده فلا تحقروا أحدا لعله من أولياء الله عز وجل
وقال ابن مهران اني وجدت أكثر الناس اكراما لنفسه وأعظمهم اعزازا لها أشدهم اذلالا
لها في طاعة الله تعالى *(فصل)* وقد جعل الله الدنيا سببا لادراك الآخرة روى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة أخذه محمود
الوراق فقال   من شرف الدنيا ومن فضلها * أن بها تستدرك الآخرة
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار
غنى لمن تزود منها مهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ربحوا فيها
الرحمة واكتسبوا فيها الجنة فمن ذا الذي يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها وشبهت بسرورها
السرور وببلائها البلاء ترغيبا وترهيبا فيا أيها الذام للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا وقد
وعظتك بمصارع آبائك في البلى ومضاجع أمهاتك في الثرى كم مرضت بيديك وعللت بكفيك
تطلب لها الدواء وتستوصف لها الاطباء غدا لا يغني عنك دواؤك ولا ينفعك بكاؤك وقال
بعض الحكماء خذ من الدنيا ما تيسر واجعل التقوى حظك الاوفر وليس الحرج من أن
ينصرف الانسان في طلب حظه من الدنيا مما لا بد له منه ولا غنى له عنه وقد قال مجاهد في قول الله
عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب أي اذا فرغت من مؤنة
الدنيا فانصب في العبادة وانما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على قدر
الكفاية فانما فضول لا تجدي وزوائد لا تنفع ولا تغني ولا يحمل منع المرء عن اشتغاله بها والنظر
فيها على التقصير عما فيه الفائدة والتأخر عما فيه العائدة والله عز ذكره قد خلق ابن آدم وجعله
مفتقرا الى غيره ولم يغنه عن الاستعانة بسواه من جنسه ومن غير جنسه من الحيوان المسخر له
ولولا ذلك ما تم له أمر ولا استقام له عمل بخلاف سائر الحيوان فان الله تعالى قد جعل كل صنف

منها

منها مستقلا بنفسه مستغنيا بذاته عن غيره لسقوط التكليف عنه وابن آدم على شرفه وعظمه اكثر الخلق حاجة الى غيره لانه المكلف بالنظر فى المطعم والمشرب والملبس الذى غنى عنه غيره من الحيوان فهو لا ينال شيأ من ذلك الا بعد الجهد والنصب وحمل المشقة والتعب وما كبر شأنه وعظم حاله كان اكثر مؤنة واحوج الى المعونة فسبحان المدبر لخلقه كيف يشاء الغنى عنهم فى جميع الاشياء لا رب سواه وقال بعض العلماء ان الله جل ذكره جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى وجعل بلوى الدنيا سببا لثواب الآخرة وثواب الآخرة عوضا من الدنيا فيأخذ ما يأخذ مما يعطى ويبتلى اذا ابتلى ليجزى وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال فى بعض خطبه أيها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار وروى عن أبى الدرداء أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أوصنى قال له اكتسب طيبا واعمل صالحا وسل الله رزق يوم بيوم وعد نفسك من الموتى وحكى الاصمعى قال سمعت أعرابيا يقول الله مخلف ما أتلف الناس والدهر متلف ما أخلفوا فكم من ميتة علتها طلب الحياة وحياة سببها طلب الوفاة كما قال بعض الشعراء

وكم من فتى أهدت له حتف أنفه * مفاجأة السراء وهى حياتها
كذاك الحيا نفع البلاد وربما * أضربها حتى يموت نباتها

(فصل) وللطاعة توفق الله الجميع شروط هى لبنيانها قواعد وعلى القيام بها شواهد منها ترك الاعجاب بالعمل فانه من أعظم الآفات وأحبط للاعمال الصالحات فان المعجب بعمله ممتن على الله وما يدرى به أقبل أم رد عليه وقد قيل لرابعة العدوية هل عملت قط عملا ترينه قبل منك قالت ان كان فخوفى أن يرد على وقال بعض الصالحين رب ضاحك معترف بذنبه خير من باك ممتن على ربه ولا محالة أن المقصر المتوكل على الرحمة خير من العامل المتوكل على عمله الواثق بما أسلف من عبادته فانه فيما يزعم أنه آمن والآمن غير خائف ومن لم يخف لم يأخذ بحظه من الطاعة ومن وثق بما أسلف من عمله رضى بما قصر فيما بقى من أجله وروى عن معروف الكرخى أنه قال لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب الى من ان أبيت قائما وأصبح نائما ومن كلام بعض السلف نائم مقر بذنبه خير من مصل مدل على ربه ومن الحكم المنثورة من لم يشغله الخوف عن الرجاء شغله الرجاء عن الخوف *(فصل)* ومن شروطها المبادرة والتعجيل بها وترك مواقعة التسويف لها من غير عذر مانع ولا سبب قاطع اذا صحت النية وكانت الطاعة من الامنية فان الاعذار تخرج عن حكم التقصير والشرع يسقط ما يدخل تحت العجز وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عن ذلك العمل مرض الا وكل الله به ملكا يكتب له ثواب عمله وأما من كان يقصر طمعا فى العفو عنه وتسويفه رجاء فى استدراك ما فات منه فهذا ظاهر الجهل ضعيف العقل مخدوع بالظن وكان الحذر

والحزم أولى به لو عقل وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كتب الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أما بعد فان الانسان يسره ادراك مالم يكن يفوته ويسوءه فوت مالم يكن يدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا بما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل ومن كلام الحسن بن أبي الحسن ما أطال عبد الامل الا أساء العمل وقال غيره من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ وفي منثور الحكم الامهال رائد الاهمال *(فصل)* ومن شروطها ترك الرياء بها وقد قيل في قول الله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون قيل عملوا أعمالا كانوا يرونها في الدنيا من الحسنات فبدت لهم يوم القيامة من السيآت وكان بعض السلف اذا قرأ هذه الآية قال ويل لاهل الرياء وقيل أيضا في قوله تعالى ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أي لا يرائي ولا تخافت بها حياء وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا تعمل شيأ من الخير رياء ولا تتركه حياء *(فصل)* ومن شروطها المراقبة قال الحرث بن أسد المحاسبي رحمه الله المراقبة أصل الطاعة وانه لكما قال لاعلم المرء بأن الله سبحانه معه حيث حل وارتحل مشاهد لما غاب وحضر مطلع على ما أعلن وأسر كما قال جل ذكره وهو معكم أينما كنتم هو الذي ألزمه المراقبة والخوف فان طاعة من يخافه ومراقبته واجبة فهما خصلتان منتظمتان لا انفصال بينهما واذا عم الخوف القلب وتمكنت المراقبة من النفس وأيقن الثواب والعقاب وجبت الطاعة وتلك حقيقة الايمان واذا كان العامل خائفا أن يرد عليه عمله الصالح فهو لا محالة من المعصية أخوف وهي أرجية الصديقين وما أحسن قول يحيى بن معاذ مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب ويريد أن يخرج من معيبين عملا لا عيب فيه وروى في بعض الاخبار أن امرأة من الاعراب وقفت على جماعة فقالت لهم ما الكرم يرحمكم الله قالوا ابذل المعروف والايثار على النفس قالت هذا في الدنيا فما هو في الدين قالوا طاعة الله سبحانه وبذل المجهود في عبادته واجتناب محارمه والوقوف عند حدوده طيبة بذلك نفوسنا قالت أفتريدون بذلك جزاء قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فأين الكرم قالوا فما هو يرحمك الله قالت هو أن يعبد الله تعالى حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء يفعل بكم مولاكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها انكم تريدون شيأ بشئ وهذا من نحو ما قدمناه من الاخلاص وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها وما أقل جامع هذه هذه الخصال *(فصل)* وأسباب الطاعة لا تعد ودواعيها لا تحصر ومقاماتها لا تحصى وأحوالها لا يبلغها الاستقصاء أولها صفاء القلب من الاكدار والشوائب وخلاصه من الآفات والنوائب ثم حفظ جميع الجوارح من جميع المناهي والمثالب وهي أيضا لا تعد كثرة لان الجوارح تتعلق بكل واحد منها دواع جمة كالعين وما يتعلق بها وهي أشد الجوارح وقد تقدم الكلام فيها واللسان وما يجب أن يتحاماه من الغيبة والكذب والرفث والأيمان والنميمة وما أشبه ذلك والاذن وما يجب أن تمتنعه من سماع الفواحش وضروب المناكر وأنواع

الملاهي

الملاهي ومايتعلق بذلك وكذلك جميع جوارح الانسان لا يحيط باحصاء عللها اللسان فكيف أن يخطها البنان ولا يحل للطيع أن يستعملها في شئ مما نهي عنه ولا يقصر بها عن شئ مما أمر به فاذا تم له حفظها وما خاله احتاج الى التحفظ من ابليس لعنه الله ومكائده ووساوسه ومراصده وهي أيضا مما لا تحصى ثم يحتاج الى مخالفة النفس الأمارة بالسوء المسوّلة للباطل في جميع ماتدعو اليه الشهوات وتحببه من اللذات على كثرة أنواعها وتخالف فنونها وكل ذلك اذا نظر اليه المريد وجده فرضا لازما متعينا واجبا فما خاله أن يتخلص من هذه الدواعي وتسلم نفسه من هذه الدواهي هيهات لا يتم له ذلك الا مع العزلة والانقطاع عن الناس جملة فان القدرة تضعف عن استيفاء ذلك كله والاستطاعة لا تحمل بعض كله فما لنا سوى التوكل على الرحمة التي سبقت الغضب ووسعت كل شئ فاليها الملجأ وهي المؤمل وفيها الرغبة وبها الاستمسالك وعليها المعول * روى أنه حضر مجلس ابن العباس رجل من الاعراب فسمع قارئا يقرأ وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها فقال الرجل والله ما أنقذهم منها وهو يريد رجوعهم اليها فقال ابن عباس رضي الله عنه خذوها من غير حكيم فنحن نرجو الرحمة من فضل الله عز وجل ونسأله الصدق في القلوب والعمل فهو المستعان ومنه الهداية وعليه التكلان لا رب غيره ولله در القائل حيث يقول

أنت ألهمت من أصاب الصوابا * أنت وفقت من اليك أنابا * انت فتحت في قلوب المريدين لهم من بصائر أبوابا * أنت عرفتهم كنوز المعاني * فغدوا يبحثون فيها طلابا
أنت حببت ماتحب اليهم * ثم أعطيتهم عليه الثوابا

وقال بعض الصالحين لابنه يابني نفسك مسترهنة بأعمالك والآمال مقربة لآجالك فاشتر نفسك مادامت السوق قائمة والثمن موجودا والربح مضمونا ولا تسوفها لوقت يكون السوق فيه كاسدة والآمال منقطعة متباعدة ولا سبيل الى استدراكها وقد حيل بينك وبين الثمن وهو العمل وما أحسن قول القائل حيث يقول

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا * ندمت على التفريط في زمن البذر

فالويل كل الويل لمن فرط حتى تورط وآثر الاهمال حتى صار في حيز الاهمال ثم هجم عليه مفرق الأحباب فحينئذ تنقطع منه الاسباب ويسددونه طريق الآياب ويندم حيث لا ينفعه الندم حين تأخر ولم يتقدم فالنجاة النجاة قبل حلول الوفاة والعجل العجل قبل هجوم الأجل وما التوفيق الا بالله وانظر الى قول بعض الشعراء حيث يقول

قلت للنفس ان أردت رجوعا * فارجعي قبل أن يسد الطريق

﴿فصل﴾ وللعمل بالطاعة وجوه افترق فيها أهل الارادة فانفرق كل فرق منهم بحظه الذي وفقه الله اليه وطبعه عليه فمنهم من عبد الله جل جلاله على الاكبار والاعظام ولما هو له أهل من الاجلال والاكرام فشغلهم في عظمة الله وكبريائه وقدرته واعتلائه أن يسألوه الجنة ويستجيروا به من النار ورأوا أن الذي استوجبه من العبادة واستحقه من الطاعة قليل لعظيم سلطانه وعلو شأنه فملأ ذلك قلوبهم وحشا صدورهم فلا شئ أحب اليهم من التواضع لعظمة الله وله فيهم بعد ذلك كرم المنعم المتفضل المحسن المتجمل * أتى الخبر عن موسى عليه السلام

انه لما كلمه الله تعالى آنس بالقرب واغتبط بالمشاهدة وانبسط بالقول فقال يارب لى ما ليس لك قال وما هو قال لى مثلك وليس لك مثل نفسك قال صدقت ومنهم من عبده رغبة فى ثوابه وحرصا على التنعم بجواره واقترابه وشوقا الى ما أعد الله عز وجل فى جنته لاهل طاعته من بره وكرامته حيث النعيم الذى لا يدركه اللسان ولا يبلغه البيان فعملوا على المجازاة والمقارضة وأجهدوا أنفسهم وأتعبوا جوارحهم وواصلوا العمل لنيل ذلك الامل والفوز بالحظ الجسيم من ذلك النعيم المقيم ومنهم من عبد الله خوفا من سخطه وعقابه وفرقا من سطوته وعقابه ووعوا وصف ما أعد الله فى جهنم أعاذنا الله منها من السلاسل والاغلال وما احتوت عليه من أليم العذاب الخالد والنكال فملأت قلوبهم الرهبة وعلتهم الهيبة وخامرهم الخوف والجزع وداخلهم الرعب والهلع فلم يتخيلوا الثواب ورأوا الخلاص ان وصلوا اليه وفازوا به من أحسن العواقب والمآب والنجاة ان نجوا أجل ما يرتجى من الاسباب فشغلهم الخوف عن الرجاء ولم يتخيلوا الرجاء من شدة الخوف ومنهم من عبد الله سبحانه حياء منه ومراقبة له لعلمهم باستطلاعه عليهم وتحققهم نظره اليهم وانه معهم حيث كانوا كما وصف نفسه تبارك وتعالى فخشوا أن يطلع عليهم فيراهم حيث نهاهم أو يفقدهم من حيث أمرهم فملأت المراقبة قلوبهم وجعلوا نظر الله اليهم واستطلاعه عليهم نصب عيونهم وشغل نفوسهم فوصلوا على ذلك عملهم وصرفوا اليه هممهم الى غير ذلك مما يتعلق بهذه المعانى ويتفرع عن هذه الاصول وقال بعض العلماء الايمان ثلاثمائة خلق وخمسة عشر خلقا وهو عدد الانبياء وكل مؤمن على خلق منها هو طريقه الى الله تعالى ووجهته اليه ونصيبه منه وهو قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا فدل على أن كلهم مهتدون بعضهم أهدى من بعض وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكل مؤمن سيد من عمله والسيد من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة و يفضل به عند مولاه وروى عن عيسى عليه السلام أنه مر على قوم يعبدون الله قد صيرتهم العبادة كالشنان البالية فقال لهم ما وصلكم الى هذا قالوا خوفنا الله من النار وما أعد فيها فخفنا منها قال حقا على الله أن يأمنكم مما خفتم ثم مر بآخرين أشد عبادة منهم فقال لهم مثل ذلك فقالوا اشوقنا الله الى الجنة وما أعد فيها فنحن نرجوها فقال حقا على الله أن يعطيكم ما رجوتم ثم مر بآخرين مثل ذلك فقال لهم مثل ما قال فقالوا نحن نعبد الله حبا له وتعظيما لجلاله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته فقال أنتم أولياء الله معكم أمرت أن أقيم فأقام معهم وقيل انه قال للاولين مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم والذى عليه أكثر الخلق من المستمسكين بحبل الطاعة الداخلين فى مضمار أهل السنة والجماعة الاخذ بطرف من كل حظ منهما والمشاركة فى كل جزء من أجزائهما لاشتراك أسباب الطاعة وتوشج فروعها واختلاط معانيها وارتباط ما حواليها ودواعيها وأنه لا يسع المطيع ترك شئ منها ولا يمكنه التخلى عنها مع استصعاب الاحتواء على جملها وقلة القدرة على القيام بجميع عللها الا من رحم الله وربما يلتمس أحد من المنفردين ممن ذكر زيادة على ما هو عليه على ما ذكر عنهم والله أعلم وروى عن ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون فالعمل الصالح وفقنا الله واياك هو أفضل ذخيرة يقتنيها المرء مدة حياته

حياته ويرتجى الانتفاع بها بعد وفاته فان لم يحافظ عليه ويحرجهده اليه والا كانت حياته عليه وبالا ولم يرث منها الا كمدا راتبا وخبالا وكما قال الاخطل

والناس همهم الحياة ولا أرى * طول الزمان يزيد غير خبال
واذا انتهيت الى البرائر لم تجد * برا يكون كصالح الأعمال

ومن أحسن ما قال بعض الحكماء العمل بطاعة الله فوز والاعتصام بها حرز والخضوع لها عز وقال ابرويز أطع من فوقك يطعك من دونك وقال لقمان عليه السلام لابنه يابني جالس قوما يذكرون الله بطاعته فان كنت عالما نفعك علمك وان كنت جاهلا علموك وان نزلت عليهم رحمة أو رزق كان لك فيه معهم حظ ولا تجالس قوما لا يذكرون الله فان كنت عالما لم ينفعك علمك وان كنت جاهلا زادوك جهلا وان نزلت عليهم لعنة أو سخط شاركتهم فيه وقال بعض العلماء ينبغي للعبد أن يكون كالمريض لا بد له من القوت ولا يوافقه كل الطعام فيلزمه التحرز والتحفظ ولا يقدر على ذلك الا من كان من علمه على بصيرة ومن دينه على يقين ومن أمثال الحكماء من عفت اطرافه حسنت أوصافه وقال بعضهم المحسن حي وان انتقل الى منازل الاموات والمسيء ميت وان كان في منازل الاحياء * (فصل) * ومن تمام أحوال المطيع أن يستسلم لقضاء الله ويسلم موقنا بالرضى بالله فلا يرى شيأ دق أم جل كثر أم قل الا من عند الله ولا يرى لنفسه نفوذا في ورد ولا صدر الا باذن الله ولا نعمة في حال من الاحوال الا من الله ولا بؤسى ولا ضراء الا بقدر الله * حكي ان جعفر بن سليمان رأى اعرابيا في ابل قد ملأت الوادي فعجب من كثرتها فقال له لمن هذه الابل فقال هي لله في يدي وهذا حسن من القول وقال بعض العلماء الزمان واعظ لمن بقي بمن مضى وفي تصرفه هلاك قوم وصلاح آخرين ولهذا نظر قول أبي الطيب المتنبي

بذا قضت الايام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

فالسكون الى الزمان بعد العلم به نهاية العجز والثقة به غاية الجهل وسوء الظن به نفس الحزم والسبب الذي أدرك به العاجز حاجته هو الذي أقعد الحازم عن درك بغيته والامر الذي يحول بين العاقل وبين سعة الرزق هو الذي يوصل الجاهل الى نيله وفي كل شيء حيلة الا في القضاء وكل شيء يستطاع نقله الا الطباع قال أبي بن كعب قرأت في اثنين وسبعين كتابا من كتب الله عز وجل من أضاف الى نفسه شيأ من الاستطاعة فقد كفر ووجد في بعض كتب الفرس ثلاث لا يصلح فسادهن شيء من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء وركاكة العقول وثلاث لا يشبع منهن الحياة والعافية والمال وثلاث لا ترد ولا تنتقل القضاء والاجل والرزق سلك الله بنا أوضح المناهج لطاعته واستعملنا بأحب الاعمال اليه وأرضاها له وحشرنا مع أوليائه في زمر أنبيائه ولا نبا بنا عن سبيل هدايته وجعلنا في كنفه وكلاءته وعصمنا من الزيغ والزلل ووهب لنا الصدق والاخلاص في القول والعمل انه أكرم من جاد وأفضل من سئل بعزته وقدرته * (فصل في اجتناب المعاصي ومآلها) * المعاصي عصمك الله تزيل النعم وتورث النقم وتعقب الخسران والندم وما زالت تخلي الديار وتعفي الآثار وتنذر بالخراب والبوار وكفى بها ذلا في الدنيا من العار وحزنا في الآخرة من عذاب النار

ولاسيما لمن تعمق فيها وتبصر واستعلن بها واستشهر فذلك الذى أوثق نفسه فى حبال الردى وذبحها بأحد الشفار والمدى ومازال العاصى أبدا خائفا لا يأمن وذليلا لا يعز وفقيرا لا يستغنى ومذموما لا يحمد ومشؤما لا يسعد وقد جعل الغوى خطامه فى أنفه وحبله فى عنقه فهو يسحبه مكبا على وجهه يخوض به لجج المهالك ويقذفه فى غياهب الظلم الحوالك صم بكم عمى فهم لا يرجعون الا من رحم الله ومن عليه بالتوبة وتداركه بحسن الانابة والاوبة وأيقظه من سنة الغفلة واستنقذه من شرك الفتن المضلة فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم انه هو التواب الرحيم قال الله عز من قائل الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا وقال لنبيه عليه السلام قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى وقال بكر بن عبد الله رحم الله عبدا كان قويا فأعمل قوته فى طاعة الله وكان ضعيفا فكف عن معصية الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب محامد الناس بمعاصى الله عاد حامده من الناس ذاما وقال صلى الله عليه وسلم من حاول أمرا بمعصية الله كان أفوت لما أراد وأقرب لحلول ما اتقى وقال صلى الله عليه وسلم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وقال عليه الصلاة والسلام انتهوا عن المعاصى قبل ان يأخذكم الله فيدعكم هما تبا روى ان موسى عليهما السلام قال للخضر عليه السلام بماذا أطلعك الله على علم الغيب قال بتركى للمعاصى وقال رجل لابن عباس رضى الله عنه ايما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل أو رجل كثير الذنوب كثير العمل قال لا أعدل بالسلامة شيأ ولا محالة ان ترك المعصية أخف على المؤمن من العمل بالطاعة لان هذا عمل وهذا ترك والترك أخف من العمل ولذلك أباح ترك الاعمال مع الاعذار ولم يبح ركوب المعصية بعذر على حال (فصل) ومن أشد ما أغرق أهل المعاصى فى بحر الذنوب وعدل بهم عن جادة الطريق المحبوب وحملهم على الغفلة عن مراقبة علام الغيوب ما تمسكوا به وركنوا اليه ولزموه وأكبوا عليه عند اقبالهم على ركوب الشهوات واتباعهم لمقارفة اللذات وانتهاك المحرمات انهم اذا زجرهم زاجر أو ذكرهم بموعظة ذاكر فخصمتهم الحجة وقام عليهم البرهان قالوا ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ورحمة الله وسعت كل شئ ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون من يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما وما جاء فى كلام الله جل وعز وحديث نبيه صلى الله عليه وسلم فهو ينتظر الرحمة بالاصرار و يلتمس المغفرة بالعصيان و يرجو الاحسان مع الاساءة وكفى بذلك خطة خسف وموافقة سخف وخديعة نفس وذريعة ابليس قد غرسها الشيطان فى قلبه فسول له عصيان ربه ووعده غفران ذنبه فجعل الظن عدة والرجاء انجازا لاسيما ان كان من أهل السيآت والصبوة قطع فى المهلة ورجا فى تأخير النقلة فما أضعف عقله وأقل معرفته وأبعده عن تحقيق النظر وتصحيح الفكرة فان غلق دونه باب المتاب وعدل به عن سنن الاياب وصمت أذناه وعقل لسانه عن الجواب وعمى بصره و بصيرته عن معاينة الصواب لقد أمضى به الاغترار الى الهلاك وأعلقه ابليس فى حبائل الاستهلاك وما أحسن قول محمد ابن بشير فى هذا المعنى

https://archive.org/details/@user082170

مضى

مضى أمسك الادنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثن باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتى وأنت فقيد
وقال غيره تعجل الذنب بما تشتهى * وتأمل التوبة فى قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة * ماذا الفعل الحازم العاقل

وكأن المعاصي انما تقبح بالكهول وتصلح بالشباب هيهات بل انها والله لتقبح بجميع من قصدها وتفضح كل من أتاها واعتمدها وان كانت لامحالة باهل الشيب اقبح وعليهم أشد وابهم أفضح كما قال ابن المعتز

وما أقبح التفريط فى زمن الصبى * فكيف به والشيب فى الرأس شامل

فمن الواجب على من استفزه الشيطان وخدعه وأغراه بالمعصية وأوقعه ورجاه بالتوبة وأطمعه ان يستشعر هجوم المنايا و يتخيل وقوع النوب والرزايا ويرى انها لا تحتقر الصغير ولا تهاب الكبير ولا تنظر لغنى ولا فقير ان وعدت أنجزت وان طعنت أجهزت فلا يحدث نفسه بالاهمال ولا يخادعها بالتسويف والمطال فانه لا يأمن هجومها ولا يستفيق سلمها ولا يدرى متى يصل اليه فتحول بينه وبين أمله وتقطعه عن استدراك عمله وتصيره من الوجود الى العدم فيندم حين لا ينفعه الندم فان كان ذلك وقد زالت عنه أنعم خالقه وجردته عن ثوب عافيته ومرافقه وهى عادته فيمن عصاه من خلائقه فيكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ولله در القائل

اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم
وكم قد ترددت فى مهلة * ولم ترقب الموت حتى هجم

وقيل فى بعض الحكم أقل ما يجب للمنعم من حق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته فان ذلك أسرع لزوالها وأقرب للنقمة واحتلالها وقال كلثوم بن عاص رحم الله عبدا استعان بنعمة الله على طاعة الله ولم يستعن بنعمة الله على معصية الله فانه لا يأتى على صاحب الجنة ساعة الا وهو مستنكر من العذاب ما كان يعرفه وروى عن اسرائيل بن محمد القاضى انه لقيه مجنون كان بالبصرة فقال له يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه وقال ارسطاطاليس المتعوب الذى لا تستريح مطيته والمغموم الذى لا تنقضى حسرته من آثر ذل المعصية على عز الطاعة وطلب فوق الكفاية وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وفى الحكم المنثورة اذا رغبت فى المكارم فاجتنب المحارم ومن أمثالهم ركوب المعاصى تذل العاصى وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال من أراد الغنى بغير مال والكثرة بغير عشيرة فليتحول من ذل المعاصى الى عز الطاعة أبى الله الا أن يذل من عصاه وله رضى الله عنه فى المعنى حيث يقول

وأنا الدليل لمن أراد غنى يدوم بغير مال * واحب عزالم توطده العساكر والموال
ومهابة من غير سلطان وجاها فى الرجال * فليعتصم بدخوله * فى عز طاعة ذى الجلال

وروى عن مالك بن دينار انه قال وجدت فى بعض الكتب يقول الله عز وجل أنا مالك الملوك

قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا الىّ أعطفهم عليكم وقال الرشيد لعلى بن عيسى فى جملة وصايا أوصاه بها وقد شيعه الى خراسان أطع الله ياعلى بن عيسى يعطفنى عليك ولا تعصه فيسلطنى عليك وقال بعض الصالحين خف الله لقدرته عليك واستحى منه لقربه منك وقال عبد الله بن المبرد لراهب من الرهبان متى عيدكم فقال كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لو أراد الله ان لا يعصى ماخلق ابليس فهو رأس كل خطيئة وقال بعض الحكماء اياكم والخروج من أنس الطاعة الى وحشة المعصية وقال الفضيل ابن عياض العجب كل العجب فيمن عصى الله بعد معرفته وقال سليمان بن على لحميد الطويل عظنى فقال له ليس كنت اذا عصيت الله عز وجل خاليا تعلم انه يراك فلقد اجترأت على أمر عظيم وان كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت وهذا كلام صحيح غير ان العاصى لا يراه يراقب الله وانما يراقب الناس وحسبك منه اذاهم بالمعصية وأراد الدخول فيها انما ينظر يمينا وشمالا يراقب من يراه من الناس وماعندنا أصح من ان الله مطلع علينا ولكن كالى امهاله وحلمه فعميت الابصار والبصائر وغطى الرين القلوب فارتكبنا الذنوب ولم نراقب علام الغيوب ألم تعلم بان الله يرى فما أجرأنا على الله لا نراقبه فى المعصية وننتظر منه المغفرة ورحم الله الفقيه المرادى حيث يقول

علىّ بان المعاصى حين أوثرها * يقضى بانى محمول على القدر
لو كنت أملك نفسى أو أدبرها * ماكنت أطرحها فى لجة الغرر

وكان من كلام عبد العزيز بن أبى دؤاد عصيت من نعمه علىّ سابغة وستره علىّ مجال عصيت من لا ينبغى ان يعصى عصيت من أياديه لا تحصى فبأى قدم أقف بين يديه وبأى عين انظر اليه وكان عتبة الغلام يقول كيف يفلح انسان يسره مايضره أخذه بعض الشعراء فقال

لى نفس يسرها * كل شئ يضرها * فهى تبلى مع الزمان ويزداد شرها

ومن كلام بعض الصالحين من ترك المعاصى عز مع الاقلال ومن وصل المعاصى ذل مع كثرة المال ومن آثر التقوى بلغ الكمال ومن زهد فى الدنيا حمد المآل ووجد لذة مانال وفى هذا المعنى قال

فيا أيها العاصى اليك نصيحة * تريك سنا الشمس المنيرة من قرب
تعزز بابعاد المعاصى ورفضها * فما العز الا فى الفرار عن الذنب
وثابر على تقوى الاله فانها * نجاة لباغيها من المركب الصعب
وكن طائعا لله فى كل حالة * تجد لذة الدارين ان كنت ذا لب

وقال ارسطاطاليس لا تجد الفاجر محمودا ولا الغضوب مسرورا ولا الشره غنيا ولا الملول مصاحبا ولا العجول الا كثير الندم وقال بعض الحكماء لصاحب له اياك ان تدنس بالمعاصى قلبك فان الماء لا يغسله ولا تستغفر لذنبك الا ربك فان سواه لا يغفره وأخلص لله عملك لعله يتقبله وفى مثل ذلك يقول سابق البربرى حيث يقول

الماء يغسل ما بالجسم من دنس * وليس يغسل قلب المذنب الماء

(فصل) ومن الحق اللازم لكل انسان المعين عليه فى كل أوان وزمان اذا علم من سواه

الامام بمعاصي الله تعالى واستشعر منه قلة المراقبة لله وانس منه الخروج عن طاعة الله ان لا يلتبس بشيء من أحواله ولا يصغي الى شيء من أقواله ولا يستعين به في شيء من أفعاله وان يجتنبه أشد اجتناب وان يحذره حذار الذئاب وأي منفعة ترتجى عند من لا يخاف العار ولا يتقي النار وقال بعض العلماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله فهو مخدوع وان كان الناس لا يستغنون عن التعاون به والتظافر وهم مفتقرون الى التعاضد والتناصر ولا غنى بهم عن المناصحة والتشاور فان ذلك مع الثقة بالمستعان به والامن من غوائله بصلاح يعلم منه في دينه أو مروءة يأوي اليها في حسن جبلته وكل من أقدم واسترسل على غيره لم منه بصاحبه وبصيرة حسن شيمته ومذاهبه فقد ضيع وفرط وتنشب وتورط ألهمنا الله عز وجل المصالح وجنبنا كل أمر فادح وسلك بنا الى الخيرات كل منهاج واضح بمنه وكرمه لا رب سواه ولا اله غيره

(الباب الرابع في حسن الصبر وعواقبه وقبح الجزع ومعايبه)

الصبر وفقك الله أعلى مراتب المتقين وارفع منازل المؤمنين وأوثق عرى الايمان يحمل أهله على المساعي المبرورة ويصرفهم عن الدواعي المحظورة وهو يقع في جميع الافعال المحمودة موقع الهوى من الافعال المذمومة ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدار الافعال المحمودة على الصبر وان يتكلف مرارة الصبر من جهل عاقبة الصبر وهو صفة من صفات الله عز وجل روي في بعض الآثار ان الله تعالى أوحى الى نبيه داود عليه السلام ان تخلق باخلاقي وان من اخلاقي اني أنا الصبور وفي قصة أخرى يا داود عليك بالصبر تأتيك المعونة وان من أسمائه انا الصبور وخلق الله عز وجل الصبر فخص به أنبياءه وأولياءه ثم من منح منه ماشاء من شاء من عباده ليجعله له جنة في معاده وجعله في بني آدم دون غيرهم وانه لا ينبغي للملائكة لكمال خلقها وتمام فطرتها وقد استغنت عنه لخلوها عن الشهوات وبعدها عن الآفات وهو غير موجود في البهائم لنقصان خلقتها وعدم العقل فيها فلا يثبت لها قوة تصرفها عن شهواتها وكذلك الانسان في أول خلقته يصغر عن مصادمة الشهوة ويقصر عن صرف محاولة الارادة لنقصان القوة والعقل وله ثلاث مراتب فأولها عند الخروج الى الدنيا الشره الى الغذاء الذي لابد منه ولا يستطيع الصبر عنه ولا له رغبة في سواه ثم ينتقل الى المرتبة الثانية عند تمييز الاشياء وهي الالتذاذ باللعب واللهو وحب التزين والحرص على نيل مايشتهى من غير تدبير ولا نظر ثم ينتقل الى المرتبة الثالثة وهي شهوة النكاح والالتذاذ بالمطاعم والمشارب وانتخاب الملابس والمراكب وسلطان الهوى عند ذلك قوي قادر وجند الشهوات غالب ظافر فان غلب هذه المرتبة وقد حسن تمييزه للمعاني وقوي فهمه للامور واستحكم نظره الحقائق وتمكن فكره في العواقب وقواه الملك الموكل بهدايته بفضل الملك المدبر له الذي يختص برحمته من يشاء فعلم المصالح التي يتعلق بها الثواب والقبائح التي يتعلق بها العقاب فصرف نفسه عند ذلك من موافعة اللذات الممنوعة قاهرا ومنعها من متابعة الشهوات المحذورة ناهرا فتميز بالخلائق الآدمية وانتقل عن الطبائع البهيمية فاذا استنار بنور اليقين قلبه وتأيد بالتقى والايمان حزبه فاستفتح بمفاتح النظر خزائن الفكر واستخرج منها لطائف المعارف وذخائر الاسرار فلبس أبراد الاعتقاد وتحلى بقلائد الفوائد وركب جواد الاجتهاد

تجرى في ميدان السابقين كان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وان جاوزهذه المرتبة وقد قوى سلطان هواه وضعفت عن مصادمته قواه وتملكه شيطانه واستهواه فمكن نفسه من مرادها ولم يجاهدها حق جهادها وارسلها على ماسولت وخلى بينها وبين ما أملت فاستفتح بمفاتيح الشره خزائن الشهوات واستخرج منها مشاهير المناكر ولبس ثياب الارتياب وتوشح بوشاح الافتضاح وركب جواد الحرص تجرى في ميدان البطالة ونام في مهاد الغفلة فغلب على قلبه سنة الرين كان من الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم الامن آثر المتاب واسرع الاياب واتقى يوم الحساب فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين *(فصل)* وقد اثنى الله سبحانه على عباده بالصبر وضاعف لهم الاجر فقال عز من قائل أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقال تبارك وتعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وقال جل ذكره في أهل الجنة والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقد جمع الله عز وجل لاهل الصبر من الرحمة مالم يجمع لغيرهم من أهل طاعته فقال عز وجل وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وذكر الصبر في كتاب الله تعالى أكثر من ان يستقصى والآثار فيه أعظم من ان تحصى وسنورد من ذلك ماتيسر ونقتصر منه على ماتسنى ولم يتعذر والله المستعان ومنه التوفيق وهو الهادى لارب غيره *(فصل)* والصبر أصل تفرعت منه فروع البر والاحسان وأس بنيت عليه قواعد الطاعة والايمان سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان فقال الصبر يريد معظمه كما قال عليه السلام الحج عرفة وقال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان واليقين الايمان كله ولن يفترقا واليقين هو المعرفة بالله عز وجل الباعث على طاعته والصبر هو العمل بمقتضى المعرفة التى تحمله على الطاعة وان شقت وتصرفه عن المعصية وان عذبت ولذت وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل النبى صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه نعم يارسول الله قال فما علامة ايمانكم فقال نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وروى عن أبى الدرداء انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعته قبلها ولا بعدها قال ان الله عز وجل قال لعيسى ابن مريم ياعيسى انى باعث بعدك أمة ان أتاهم ما يحبون حمدوا وشكروا وان أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا أعطيهم من حلمى وعلمى والصبر هو الصبر على قضاء الحقائق وان شقت واحتمال المكاره فى ذات الله تعالى وان جلت والثبات فى جميع الشدة من غير جزع ولا خور الارتضى وتسليما وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر عند الصدمة الأولى وقال ابن عباس رضى الله عنه أفضل العدة الصبر عند الشدة لما فى ذلك من محمود العاقبة فى العاجل والآجل وأكثر الناس يصبرون ولكنهم لا يستحقون اسم الصبر لان الصابر على الحقيقة لا يشك ان الذى يصيبه من المصائب

ويترل

وينزل به من الحوادث هو خير له وصلاح به لعلمه بحسن لطف الله تعالى به وجميل صنعه له كمثل غارس الجنة الذى لا يزال يجيد عمارتها ويوالى سقيها ويحرسها عن حر الشمس ونزول الضر وقصف الريح وهو مع ذلك يتعاهدها بتقليم أغصانها وتعريتها من بعض أوراقها لما يعلم فى ذلك من المنفعة لها ويرجوه من دفع المضرة عنها فلو علم ابن آدم قدر لطف الله تعالى به وميز جميل صنعه فيه وعرف حسن تدبيره له لايقن وفقه ووفى الصبر حقه وعلم ان النعمة فى المنع هى النعمة الطائلة الدائمة وان النعمة فى الاعطاء والاتساع فى أحوال الدنيا ربما كان مؤديا الى منع نعيم الأخرى ألا ترى الى قول الله عز وجل كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال لقمان لابنه يابنى الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء وقال الفضيل بن عياض ان الله تعالى ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير ولولا ان فى حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفا من الاوزار وحطا من الذنوب ومحوا من السيآت لما استطعنا عليها صبرا وأعظم علينا مصابنا ووجلت لحملها أرهابنا كما لو كان فى مواقعة اللذات ومقارفة الشهوات أنواع من المكاره وأصناف من الشدائد لما وجدنا عنها صبرا ولكثر اليها اسراعنا وقل عنها امتناعنا ولاغرو ان محض الحرمة وسبب التخلص الخروج عن ملك الشهوة واحياء القلب باستدامة الفكرة وايقاظ النفس عن سنة الغفلة فان موت القلب هو الموت الاكبر فاذا حيى بنور الهدى أبصر باطن الدنيا فاستحقر ظاهرها واستهانه وأشرف على باطن الآخرة فاستكثره واستعظم شانه فخف عليه الصبر عما تركه من المحتقر الزائل العاجل رغبة فيما يرجوه من المدخر الآجل الطائل فان بدل الدنيا هو ثمن الآخرة لكن لذلك حجب من الشهوات حائلة وأستار من اللذات مانعة حاجزة فاذا هتكها الانسان برفض الدنيا واتراحها والانتباذ عنها واطراحها أبصر النعيم الدائم دون حجاب مانع ورأى الكرامة المعدة لاهل الصبر عنها دون حاجز قاطع فسعى سعى الحريص فى الوصول اليها واستسهل قطع لما اقتضاه الصبر عليها فرشد وسعد وغنم ونعم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نظر فى الدنيا الى مادونه ونظر فى الدين الى مافوقه كتب صابرا شاكرا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الصبر على ماتكره ذخرا كبيرا وان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب فان مع العسر يسرا وقال بعض الصالحين الصبر على المكاره من حسن اليقين *(فصل)* وأجمع المتقون ان الصبر صبران صبر على المحارم وصبر على العظائم وقال لقمان عليه السلام الصبر صبران صبر على مايكره مما يريده من الخوف وصبر على ماتحب مما يدعوك اليه الهوى وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى الصبر صبران صبر عند نزول المصيبة وصبر على مانها الله عنه وهو الافضل الاكمل فالصبر عن المحارم هو الصبر النفسى لانه يأتى على اختيار النفس وهو المحمود ولذلك قال سهل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء وقال غيره البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها الانبى أو صديق وفى بعض الحكم الصبر على حقوق الثروة أشد من الصبر على ألم الحاجة والصبر على العظائم يشترك فيه أعظم الناس كعدم المال وفقد الحميم وجور الحاكم ومؤلم المرض وما أشبه ذلك مما احتمله الانسان من ذلك كله ورضيه ولم يشكه وكان موافقا للشريعة مبينا لكرم الطبيعة فهو صبر صحيح كما قال يعقوب عليه

السلام فصبر جميل وقد فسر الصبر الجميل فقيل هو الذى لا يشكو فيه الى أحد وان كان ما احتمله من ذلك لشدة بأس وصرامة قلب وقوة نفس و بعد همة خوفا من أن يقال جزع وضعف عن حمل الهم فليس بصبر صحيح انما هو تصبر وأ كثر ما يوجد فى أهل الدعارة فانهم لا يظهرون الجزع عند ما يحل بهم و يصبرون عند الانتقام منهم واقامة الحدود عليهم لصحة أجسامهم وضعف عقولهم ولذلك قال ابن المقفع الكرام أصبر نفوسا واللئام أصبر اجساما أخذه بعض الشعراء فقال العبد أصبر جسما * والحر أصبر قلبا

والعاقل لا يرى الصبر عن المحارم صعبا ولا يحسبه المؤمن خطأ لان الله عزوجل قد جعل للعبد فى المباحات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ما يستغنى به عن جميع المحرمات ويكتفى بأيسره عن اتيان المحظورات والنفس بتوفيق الله لمن أراد ملاكها سريعة الانقياد والانطباع ممكنة التأبى والاتباع كما قال ابن دريد

النفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

وكلما تصرفت فيه الايام ودارت به الدهور من جميع طوارق المسرور والمحذور لا يخطى ابن آدم أحد الحالتين فلابد له فيهما من الصبر طبعا أو تطبعا فان كان من الاحوال المحمودة كصحة الجسم ووفور المال واتصال العافية وغير ذلك ولم يصبر عما حذر منه ولم يتقه عما نهى عنه فقد ركب سنن الغرر وتعرض لحلول الغير وان قابلها بتأدية الحمد وتوفية الشكر والتزام أحوال الطاعة والبر فقد قابل النعمة بقوامها وكان أجدر بنموها وتمامها وأخليق ببقائها ودوامها والله يقول عز من قائل ولئن شكرتم لأزيدنكم وان كان من الاحوال المكروهة واصبر عليها ينقسم قسمين فمنه ما يقع بالاختيار كلزوم الطاعة واجتناب المعاصى وما يتعلق بذلك ومنه ما يقع على غير الاختيار كالنوائب الطارقة والحوادث النازلة فاذا صبر على احتمال النازل ورضيه وشكر عليه وصبر عما نهى عنه وحذر منه راجيا ثواب الله على هذا وخائفا عقاب الله على هذا كتب صابرا شاكرا ان شاء الله عزوجل ومما قلت فى هذا المعنى

اصبر على مضض المحارم والعظائم مطفئا منها لظى نارين

لولم يكن فى الصبر الا أنه * محمودة عقباه فى الدارين

فجميع أحوال الدنيا كلها من السراء والضراء مفتقرة الى الصبر راجعة اليه كانت النفس راضية اليه أم كارهة له والرضى هو الحظ الاوفر والقسم الانضر من الايمان روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال قال الله عزوجل اذا وجهت لعبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو فى ماله أو فى ولده ثم استقبل ذلك بالصبر استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزانا وأنشر له ديوانا وكان يقال أعد لمكروه عدتين الصبر على ما لا يدفع مثله الا بالصبر والصبر على ما لا يجرى فيه الجزع ولا ينفع فيه التوجع والهلع وفى ذلك يقول العباس بن الاحنف

وانى اذا لم ألزم الصبر طائعا * فلابد منه مكرها غير طائع

والصبر حبس النفس على البلوى وعقل اللسان عن الشكوى ومنازعة النفس عن الاضطراب عند حلول البلوى وحملها على احتمال المكروه وقال بعض الحكماء اصاحب له ارض بالقضاء واصحب الدنيا على علاتها فانك لاتدرى أى الرجلين تكون متقدما أخره حظه أو متأخرا

متأخراقدمه حظه فان لم ترض بالحال التى أنت فيها وان كانت دون أملك واستحقاقك اختيارا والارضيت بها اضطرارا وقال أبوالدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضى بالقدر والله يقول عز من قائل وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الاذو حظ عظيم ومن كلام بعض الحكماء طوبى لمن غلب بتقواه هواه وغلب بصبره الشهوات وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكوله جاره فقال له كف أذاك عنه واصبر على أذاه فكفى بالموت مفرقا وقيل فى بعض الحكم الخير الذى لاشر فيه الشكر على النعمة والصبر على النازلة وقال سهل بن عبد الله لامعين الا الله ولادليل الارسول الله ولازاد الاالتقوى ولاعمل الاالصبر ولاصبر الابالله وقال بعض الحكماء الكمال فى ثلاث تفقه فى الدين وصبر على النوائب وحسن تقدير العيش فاكرم نفسك عما الخير فى غيره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ماتكره خير كثير وقال بعض الحكماء الصبر باب العز والجزع باب الذل وقال بعض الشعراء

أعز نفوس الموقنين يقينهم * بأن نعيم المترفين يزول
وان ثواب الله فى حسن صبرهم * على الضر والبلوى عليه جميل
وأن الذى يفنى وان جل قدره * لدى الباقيات الصالحات قليل
فصبرا جميلا ان أفضل عدة * لصبر على مر القضاء جميل

وقال أبو الفتح

ولم أر مثل الشكر جنة غارس * ولم أر مثل الصبر جنة لابس

وقال سابق

اصبر على القدر المحتوم وارض به * وان أتاك بما لا تشتهى القدر

قال أبو سعيد

وانى اصبار على مانوبنى * وحسبك أن الله أثنى على الصبر

وعزى على بن أبى طالب رضى الله عنه رجلا فقال له ان صبرت مضى أمر الله عليك وأنت مأجور وان جزعت مضى أمر الله عليك وأنت مأزور وكان يقول رضى الله عنه عليكم بالصبر فانه يأخذ العاقل واليه يرجع الجاهل وقال ابن المقفع لابنه يابنى الصبر كلمة واحدة تسمعها خير من ألف كلمة تطلب التخلص منها وقال ابوعبيدة مااجتمعت العرب على شئ اجتماعها على الامر بالصبر وتجنب أخلاق الغدر والاخذ على الناس بالعذر وقال هرون بن كسرى من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به ومن جزع عليها أعطبته وقال بعض الحكماء بقدر عزمك على الصبر يهون عليك الرزء وعلى قدر جزعك منه يقوى عليك ويهدمك ويؤثر فيك وقال بعض الشعراء

اصبر اذا نابتك نائبة * ماخاب منقطع الى الصبر
الصبر أفضل مااعتصمت به * ولنعم حشو جوانح الصدر

وكتب رجل من الحكماء الى رجل شكا اليه تعذر مابه ومكابدة دهره فكتب اليه انك لن تنال ماتحب حتى تصبر على ماتكره ولن تنجو مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب والسلام وقال غيره انك لاتدرك ماتأمل حتى تصبر على ماتكره وهذه الاقوال كلها راجعة الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لاتنالون ماتحبون الا بالصبر على ماتكرهون ولا تبلغون ماتأملون الا بترك ماتشتهون وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس وهل هو الا الصبر على المحارم وقصر النفس عن اتيان الشهوات وقال عليه السلام انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصبر مطية لاتكبو والقناعة

سيف لا ينبو وكان يقول رضي الله عنه عليك بتقوى الله والصبر فيه يؤجر المحتسب واليه يرجع الجاهل المكتئب وقال يزيد بن المهلب ما رأيت عاقلا قط ينوبه نائب من الزمان الا كان معوّله فيه على الصبر وقال الشاعر

ماعظني زمن الا لبست له * ثوبا من الصبر لا يبلى مع الزمن
ان الكريم اذا نابته نائبة * ألفيته وجميل الصبر في قرن

ومن الحكم المنثورة اذا صبر المرء على نوائب دهره وسطوة السلطان وجوره وجفوة الصاحب وهجره وصرف نفسه عن شهواتها بقسره رجاء ثواب الله وأجره فقد حوى الخير بوفره ولقد أعجبني هذا الكلام فنظمته شعرا وقلت

اذا كنت صبارا لوقع النوائب * وسطوة جبار وجفوة صاحب
ودنت بمنع النفس عن شهواتها * ونيل هواها خوف سوء العواقب
فقد حزت أشتات المكارم كلها * وأحرزت سبق الفضل من كل جانب

ومن كلام بعض الحكماء الصبر حصن منيع المكان مشيد البنيان والعجلة مفسدة للمروءة جالبة للريبة ومن كلامه أيضا الصبر جنة واقية وعزة باقية وقال بعضهم الصبر باب العز والجزع باب الذل ومن بعض الحكم الصبر تأييد للعزم وتحقيق للمحنة وثمرته الفرج وقال الاسكندر الحازم من عظم صبره على مصيبته كعظم المصيبة في نفسه فكل شيء خلقه الله تعالى انما يكون أوّله صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فانها تكون كبيرة ثم تصغر مع الصبر عليها حتى تمحق وتضمحل ولا توجد ويعظم الاجر عليها حتى لا يقدر ولا يتصف وفي ذلك يقول الشاعر

واذا عرتك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

﴿فصل﴾ وقيل ان الصبر ثلاث مقامات تصبر وصبر واصطبار فالتصبر هو حمل مشقة وتجرع غصة في الثبات على ما يجري به الحكم والصبر هو الذي يخفف على المبتلى ثقل المصيبة ويسهل عليه صعوبتها وهي أعلى من الاولى والاصطبار هو التلذذ بحلول القدر والاستعذاب لنزول القضاء والاستبشار باختيار المولى وحصوله منة طويلة عند المبتلى * حكي أن رابعة العدوية كانت ماشية مع بعض أصحابها فاجتازت بركن فشج رأسها وسال الدم على وجهها وثيابها وهي لا تلتفت فقيل لها أما تحسين بما جرى عليك فالتفتت كالمتيقظة وقالت يا أخوتي التذاذي بموافقة مراده شغلني عما جرى علي عن الاحساس بما ترون من شاهد الحال وهي أعلى منازل الصبر ﴿فصل﴾ وجميع خلال الخير وخصال البر وأحوال الطاعة وما جعل الله في الانسان من حسن الشيم وكرم الاخلاق وأسباب الديانة ودواعي الايمان انما هي كلها مرتبطة بالصبر وراجعة الى الصبر ومحمولة على الصبر وجار بمعنى الصبر كيف ما تأملتها وعلى أي حال تدبرتها فانه قطب تدور عليه جميع الافعال المحمودة ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال على حبه وأن العدل صبر على امضاء الحكم وان شق وان الصدق صبر فيما خالطته شوائب تكره وأما الحلم فأشتات الصبر مجموعة فيه وكذلك جميع أحوال المراتب وأنواع المصالح فما منح الله الصبر عبدا من عبيده وهو يريد به شيأ سوى الخير روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أصيب بمصيبة فقال كما أمره عز وجل انا لله وانا اليه راجعون اللهم آجرني

في

فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها الا فعل الله ذلك به وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما رزق العبد رزقا أوسع من الصبر وقال عليه السلام من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه الصبر الا كان ما عوضه الله أفضل مما انتزعه منه وفى ذلك يقول أبو تمام الطائى ما عوض الصبر امرؤ الا رأى * ما فاته دون الذى قد عوضا

وقال بعض الحكماء من أحب البقاء فليعد للقضاء قلبا صبورا ومن أقوالهم صبر المرء على مصيبته أحمد من جزعه وجزعه على مصيبة اخوانه أحمد من صبره وقيل ان سليمان عليه السلام سمع بعض حكماء الجن يقول عواقب المكاره بالصبر محمودة وقال الراجز

رأيت عب ء الصبر مما يحمد * وانما النفس كما تعود * وشر ما يطلب ما لا يوجد

حكى أن الرشيد من بنى العباس حبس رجلا فحسن صبره وسهل عليه أمره ثم سأل عنه الموكل به بعد حين قال له يقول لى كل يوم هذا يوم قد مضى من نعيمك ومضى من بؤسى مثله والامر قريب والحكم لله فرق له وأمر باطلاقه وأحسن اليه وفى مثل ذلك يقول عمارة ابن عقيل

ترى كل يوم مرة من بؤس عيشتى * عليك بيوم من نعيمك يحسب

وقيل ان على بن أبى طالب رضى الله عنه كثيرا ما كان يتمثل بهذه الأبيات وقيل انها له

انى رأيت وللايام تجربة * للصبر عاقبة محمودة الاثر
وكل من جد فى أمر يطالبه * واستصحب الصبر الا فاز بالظفر
لا تضجرن ولا يدخلك معجزة * فالنجح يتلف بين العجز والضجر

وقال عثمان بن عفان خليلى لا والله ما من ملمة * تدوم على خلق وان هى جلت

فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لها ثم ولت

وقال أيضا رضى الله عنه وقيل ان هذين البيتين الآخرين من قول الربيع ابن شبيع فتمثل بهما

غنى النفس يكفى النفس حين تكفها * وان عظها حتى يضر بها الفقر
فما عسرة فاصبر لها ان لقيتها * بدائمة الا سيعقبها يسر

روى عن الليث بن سعد أنه قال قال عبد الله بن سلام لاذين شاهدوا قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ما كان قوله وهو متشحط فى دمه قالوا كان يقول اللهم اجمع أمة محمد اللهم اجمع أمة محمد قال ابن سلام قالها والذى نفسى بيده لو دعا عليهم أن لا يجتمعوا ما اجتمعوا أبدا وقال شبيب ابن شبة ان أحق ما صبرت عليه ما لم تجد سبيلا الى دفعه وقال بعض الحكماء ليس الفضل فى الكف عن الاذى انما الفضل فى الصبر على الاذى ولا استنجح امرؤ بمثل الصبر على الاذى ومن كلام العلماء أفضل الاخلاق عند المصائب الصبر لان الهارب مما هو كائن انما يتعلق فى يد الطالب وفى ذلك يقول ابن الرومى

وإذا أتاك من الأمور مقدر * ففررت منه فنحوه تتوجه

ومما ينظر الى هذا المعنى قول أبي العرب الصقلي حيث يقول

كأن بلاد الله كفاك ان يسر * بها هارب تجمع عليه الانامل

فأين يفر المرء عنك بجرمه * اذا كان يطوى في يديك المراحلا

ومثله قول الاول كأن بلاد الله وهي عريضة * على الهارب المطلوب كفة حامل .

وقيل لما استشعر الاسكندر الوفاة كتب الى أمه يقدم عندها مقدمات للتصبر على مصابه بمواعظ ذكرها في كتابه ثم قال لها يا أماه اذا أتاك موتي فاصنعي طعاما حسنا كاملا وشرابا لذيذا حلوا واحضري له كافة الناس واعهدي اليهم أن يحضره من نابته من الدهر نائبة ولا من أصابته من الزمان مصيبة ليكون ماتم الاسكندر خلافا من ماتم العامة و يكون لك في ذلك الذكر والصيت فلما مات امتثلت ذلك واحتفلت في الطعام والشراب ودعت الناس اليه وعهدت اليهم بما أمرها فلم يأتها أحد فقالت ما بال الناس مع تقدمنا اليهم قد تخلفوا عنا فقيل لها أمرت ان لا يحضره من أصابته مصيبة وكل الناس أصابتهم المصائب ونابتهم النوائب فقالت يا اسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك أردت والله ان تعزيني التعزية الكاملة وقال بعض العلماء خصلتان يحبهما العاقل و يكرههما الجاهل الصبر عند النوائب والعفو عند المقدرة وقيل لبعض الصالحين ما حد الزهد قال الصبر على البلاء والشكر عند الرخاء وفي بعض الحكم المنثورة السعيد من قمع بالصبر شهوته ودبر بالحزم أمره وقال بعض الحكماء الصبر على حلول الحادثات والصبر عن معترض الشهوات أفضل ما منح العبد من الخيرات وأوفى من الاعمال الصالحات ومما قلت في هذا المعنى

عليك بالصبر ان نابتك نائبة * من الزمان ولا تركن الى الجزع

وان تعرضت الدنيا بزينتها * فالصبر عنها دليل الخير والورع

فجاهد النفس قسرا فيهما أبدا * تلق الذي ترتجيه غير ممتنع

وفي ذلك يقول بعض الشعراء

اصبر على ضرر الحسود فان صبرك قاتله * والنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله * ولربما بلغ الحليم بصبره ما يامله

وفي بعض الحكم المنثورة من صبر على البلاء وصل الى الوفاء وقال الشاعر

الصبر مفتاح ما يرجى * ولم يزل دائما يعين * فاصبر وان طالت الليالي

فربما ساعد الحرون * وربما نيل باصطبار * ما قيل هيهات لا يكون

وسئل الفضيل بن عياض عن الصبر قال هو الرضى بقضاء الله عز وجل قيل وكيف يكون الرضى قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته والعاقل لا يجزع لحلول المصيبة وان عظمت وانه يرى نعمة الله بالصبر عليها أعظم وأجل وثوابه على احتمالها راضيا بها أكبر وأجزل ولا يفرح باتصال العافية وسبوغ النعمة فانه لا يدري ما أراد الله بها وفي مثل ذلك قيل

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * و يبتلي الله بعض القوم بالنعم

فمن هذا قد استوت عنده العافية والبلا فلا يفارقه كيف ما تصرفت فيه الايام الصبر والرضا

وكان

وكان صالح المري يقول في دعائه اللهم ارزقنا صبرا على طاعتك وصبرا على معاصيك وارزقنا صبرا على ماتحب وصبرا عما تكره وارزقنا صبرا عند عزائم الامور وروى عن الحسن بن أبي الحسن انه قال سب رجل من الصدر الاول رجلا فلم يجبه وقام يمسح العرق عن وجهه ويتلو ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور فقال الحسن عقلها والله وفهمها حين ضيعها الجاهلون وقال وهب بن منبه ثلاث من كن فيه فقد أصاب البر سخاء النفس والصبر على الاذى وطيب الكلام ومن أقوالهم الصبر حصن منيع البنيان شديد الاركان به يستجلب النجح في كل محبوب ويرجى الظفر بكل مطلوب وقال ابن المعتز

ولا بأس أذكى من تثبت حازم * ولا درع أوقى للنفوس من الصبر

وروى عن الحسن انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابعث الله نبيا مرسلا الا وكان أول وصيته اياه الايمان بالله والتصديق بما جاءت به الرسل ثم الصبر وقال ابراهيم التميمي مامن عبد وهب له الله صبرا على الاذى وصبرا على البلاء وصبرا على المصائب الا وقد أوتي أفضل ما أوتيه أحد بعد الايمان بالله عز وجل وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص رضي الله عنه من أصبر الناس قال من ترك دنياه في صلاح دينه وفي بعض الحكم الصبر والاحتساب من أقوى قواعد الايمان ومن كلام الحكماء الصبر يتأصل الحدثان والجزع من اعوان الزمان وقال بعضهم الصبر قطب الامور وعليه جميع الاحوال تدور فليس شئ من الفضل الا والصبر سببه واليه منتسبه وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال ليت شعري متى اشفي غيظي أحين أقدر فيقال لو غفر أم حين أعجز فيقال لو صبر وقال هرم بن حيان

الحكم زين والتقى كرم * والصبر خير مراكب الصعب

ولما حضرته الوفاة قيل له أوص قال ما أراني بما أوصي ولكن بيعوا درعي واقضوا ديني فان لم يف فبيعوا فرسي فان لم يف فبيعوا غلامي وعليكم بخواتم سورة النحل قال قتادة أوصى والله بجماع الامور بما أوصى به الله عز وجل ومن أوصى بما أوصى به الله عز وجل فقد أبلغ ومما تقدم لي من القول في المعنى

الصبر أوثق عروة الايمان * وبذا نطق محكم القرآن
الصبر حلة كل عبد مؤمن * ومجنة من نزغة الشيطان
الصبر فيه عواقب محمودة * والطيش فيه عواقب الخسران
فاذا لقيت من الزمان ملمة * وكذاك فينا عادة الازمان
فتدرع الصبر الجميل تيقنا * ان التصبر رائد الرضوان
ان الاله مع الذين هم اتقوا * ومع الذين هم أولو الاحسان

(فصل) والصبر له وجوه تتفرع منها فروع تحلي عيش الصبور وتمر عيش الجزوع منها الصبر على الفرائض والصبر على النوافل والصبر على الاذى والصبر على الاوجاع والصبر على الفقر والصبر على المصائب والصبر عن المعاصي والصبر عن الشهوات والصبر عن الشبهات والصبر عن فضول جميع جوارح البدن وعن فضول جميع الاعمال وكل عمل يعمله المرء من أعمال الطاعة فيه عليه مشقة فهو فيه صابر وكل عمل يعمله منها ليس عليه فيه مشقة فهو من

حسن معونة الله عز وجل للعبد كفاه مؤنة المشقة وأذاقه حلاوة المعونة وقال

أما والذي لا خلد إلا لوجهه * ومن ليس في العز المنيع له كفو
لئن كان بدء الصبر مرا مذاقه * لقد يجتني من غبه الثمر الحلو

وقال رجل من قريش

الخلق للخالق والشكر للمنعم * والتسليم للقادر
وخالص البر ومحض التقى * والورع الصادق للصابر

وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضى فيما قد نال وحسن الصبر على ما قد فات وقال ابن أبي نجيح أجر الصابر فيما يصاب به أعظم من النعمة عليه فيما بما في فيه وقال بعض العلماء الصبر على ثلاث منازل أولها ترك الشكوى من النازل وكتمانه عن الناس والثانية الرضى بالقدر والاستسلام لمحتوم القضاء والثالثة المحبة لصنع الله عز وجل والاستبشار بموهبته وهي أرفع المقامات وأعلاها وأجلها وأسناها لأن المحبة أجل من الرضى والرضى أجل من الصبر والصبر جامع لاشتات الايمان * (فصل) * ومن الصبر ما يكون تفضلا كمثل من وصل إليه أذى من قول أو فعل في نفس أو مال وهو قادر على الانتصار ممكن من المكافاة بظاهر الحق وموجب الشرع فترك ذلك تفضلا وتطولا ورده بالصبر تشرعا وتورعا قال الله عز وجل وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فالصبر على الأذى مع القدرة على الانتصار من أرفع مراتب الصبر والصبر عام في جميع الأحوال متعين في كل الأفعال ومعانيه كلها فرائض موجوبة ونوافل مستحبة لا يستغني عنه أحد ولا يجد بدا منه وكيف ما تصرف المرء في جميع أموره وتصرف به دهره في مكروهه ومسروره فالصبر قرينه والثقة تعينه والهدى يسدده والتقى يؤيده ألا ترى الزارع كيف يفرق بذره ويقدم صبره وهو لا يدري متى ينزل المطر ولا يعرف ما الله صانع فيه فهو صابر واثق وقوة الثقة بالله هي الباعثة على الصبر لا مر الله تعالى كما كان القنوط يبعث على الجزع ويصد عن الورع جعلنا الله من العاملين بالصبر وفضله العاملين بفرضه ونفله المستمسكين فيما بعد بحوله وطوله * (فصل في قبح الجزع ومعايبه) * الجزع وقاك الله خلة ذميمة تجب النفوس السقيمة وتوهن القوى الجسيمة تميت القلب وتعظم الخطب وتضعف النفس وتورث اللبس تدل على خور الطبيعة وتبعث على مخالفة الشريعة وهي وإن كانت خليقة في الإنسان فإنما هي أشبه بخلائق النسوان قد ركبت في هذه النفوس الامارة وقرنت بالطبائع الخوارة فهي تألف العقول المختلة وتسكن القلوب المعتلة قال الله عز من قائل إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الآية فأوقع الاستثناء على الجامعين لحدود الله المستمسكين بعرى اليقين فإن الجزوع لا محالة واثق بربه قد تمكن الخور في قلبه وأيأسه القنط من زوال خطبه فلا يزال أبدا في بلاء من نفسه متوقعا من غده آسفا على أمسه إن حدثته نفسه بصبر أو عزاء كذبها وإن تعرضت له عوارض سلوان أو تأنيس تحاماها وتجنبها فهو لا يجد لما فات خلفا ويأمل لما ينتظره نصفا حتى يهلك نفسه حسرة وأسفا وقد قال بعض الحكماء الجزع على الغاية آفة وعلى المتوقع مخافة فهو لا يخلو عمره من النكد ولا يستفيق من التعذب والكمد لأنه لا ينفك عن حالين أحدهما استعظام

مانزل به والاخرى تخوف مايستقبل فلا يزال معذبا بما لا يقدر على دفعه متوقعا لما عساه ان لا ينزل به وقال أبوا العتاهية

ترى الشئ مما يتقى فتهابه * ومالا ترى مما يقى الله أكبر

وقد يهلك الانسان من باب أمنه * وينجو بحول الله من حيث يحذر

وكفى بهذا احزانا دائما وهما لازما ونعوذ بالخالق من شر الخلائق مما أحوج الانسان الى أن يأخذ نفسه بالتصبر ويلجأ فى جميع الاحوال الى التسليم كما قال لقمان لابنه واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور فان العبد اذا أطاع نفسه وأهملها وأسلمها اليد الجزع وأغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمها فقد بخسها حقها وأحرمها وهانت عليه وما أكرمها نسكنت الى الجزع وامتنعت من السلوان فقل الامن واستولى الجزع وعظم الخطب وتضاعف الكرب كما قال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

وقالت الحكماء من قل صبره وعظم عليه أمره وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تبين كفره ومن الحكم المنثورة من أكثر الشكوى عظمت عليه البلوى وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصبر قاطع الحدثان والجزع من أعوان الزمان وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فيم الجزع فيما لا بد منه وفيما الطمع فيما لا يرجى ومن كلام بعض العلماء من كثر جزعه كثرت زلته وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله ولا يؤمن على من كان الجزع من شانه ان يذهب بايمانه فيقع فيما لا طاقة به لحامله ويغرق فى بحر لا يطمع له بساحله فانه من ضعف يقينه فقد فسد عليه دينه كما قال الشاعر

ياعجبا للهلع الجازع * يصبح بين الذم والوزر

مصيبة الانسان فى دينه * أعظم من نائبة الدهر

قيل لبعض الاعراب مالك لا تخرج الى الغزو فقال أنا والله أجزع للموت على فراشى فكيف ان أمشى اليه راكضا وقيل انه انهزم رجل جزوع فى حرب فشتمه أميره وقبح اليه فعله فقال له لان تشتمنى أصلحك الله وأنا حى خير من أن تترحم على وانا ميت وهى أبلغ ماقيل فى تحسين الفرار وقول الحارث بن هشام حين قتل أخوه أبو جهل يوم بدر وآثر الفرار فلما عير به قال هذا الشعر

الله يعلم ما تركت قتالهم * حتى علوا فرسى باشقر مزبد

وشممت ريح الموت من تلقائهم * فى مأزق والخيل لم تتردد

وعلمت انى ان أقاتل مفردا * أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى

ففررت عنهم والاحبة فيهم * طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

وذكر ان كسرى كان يسمع حكم العرب وأقوالها ويروى اشعارها وأمثالها فلما سمع هذا الشعر قال قاتل الله العرب لقد حسنت كل شئ حتى حسنت الفرار * (فصل) * ومع افراط الجزع وتمكن الحذر والهلع يكون تعجيل الانتقام وتنفيذ الاغتنام مخافة التأسف على الغاية مع سوء الظن بما يطرأ فتستفزه الهفوة وينهض به الطيش ولا يجد من تأييد العقل مايصرفه عن مواقعة الجهل ولا من حسن التثبت معينا على استدراك التفلت فيتملكه الخرق ويتعبده الحرص فيمضى عزيمة السفه * وكل من عظم قدره ورجح عقله وقوى صبره رجعت

فكرته فى تأمل العاقبة وظفر بالنجح واستجمل العاقبة والموفق الله وما أحسن قول ابن الحارث فى المعنى ولا خير فيمن لا يوطن نفسه * على نائبات الدهر حين تنوب
وقيل فى بعض الحكم من لم يجزع للنوائب وشكر على المواهب أتته المحامد من كل جانب وقالوا من صبر على الضراء أسخن عيون الاعداء وأقر عيون الاوداء وفيما وقع من الحكم وبل للهلوع الجزوع ما أنكر حياته وأكثر آفاته يقل صبره لما ينزل وبسوء ظنه بما يستقبل فلا يزال أخا فكر ووجل عمره متصل النكد والوجل بعيد الرجاء والامل وقال عامر العدوانى فى بعض وصاياه هل للجزوع عاقبة تنفع أو مانع يدفع فان حاولت ذلك فسل القرون الماضية والامم الخالية هل منع من أسف وجزع وهل خاب من صبر وقنع وكتب بعض الحكماء الى صديق له يعزيه الجزع وثقلك الله يهلك البدن ويفنى العمر وينكد العيش ومن سلط على نفسه الجزع جنى عليها البوار والجازع على الغاية كالمنفق لنفيس ماله على ماهو عالم بقلة جزائه والسلام ومن كلام بعض العلماء اذا كان الصبر يمحق الكبائر والجزع يعظم الصغائر فلاشئ أنجع من حسن العزاء ولاشئ أحرى من انتظار الجزاء وروى عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال كتب الله عز وجل فى اللوح المحفوظ انا الله لا اله الا انا محمد رسولى من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر على نعمائى كتبته صديقا وحشرته مع الصديقين ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ الها غيرى وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لدائه دواء ومن منثور الحكم من جزع على المفقود فقد أسخط المعبود وأرضى الحسود وأسخن عين الودود ومما قلت فى المعنى

لا تجزعن لفائت * فتقر عين الشامت * والق الحوادث والكوارث باختيار الثابت
ان التصبر للردى * شيم التقى القانت

وقال بعض الحكماء من ألف الجزع قلبه عظم عليه خطبه وأنكره صحبه ولم يرض عنه ربه وقيل ان امرأة من عرب البادية دخلت الحاضرة فمرت بدار فيها نوائح يبكون وصراخ يصيحون فقالت ما بال هؤلاء قيل لها ميت قدمات قالت ما أراهم الا من ربهم يستغيثون ولقضائه يبرمون وعن ثوابه يرغبون وقيل لبعض الحكماء ما لذة العيش قال الصبر عند المصيبة واليأس عما فى أيدى الناس قيل فما نكد العيش قال مواصلة الجزع وكثرة الطمع وقيل الجزع والخور ينكدان العمر ولا يردان القدر وقال بعض الشعراء

لا تجزعن على مافات مطلبه * فليت عمرك للماضى بمرتجع
لم يلبس المرء ثوبا شرا من جزع * ولا تحلى بمثل الصبر والورع

وكان سقراط يقول الجزع سقام القلب كما ان المرض سقام البدن ومن ميز الدنيا لم يفرح لرخاء ولم يجزع لبلاء وقيل فى بعض الحكم الجزع على مافات من أعظم الآفات والفرح بالمنتظر من أكبر السخافات ومن كلام الحكماء لا ينفع من المصائب الجزع ولا التسخط ولا مما هو واقع الحذر والتوقى وكتب رجل من العلماء لابنه يابنى اياك والجزع على مافات والطمع فيما لا يرجى وما اشتد خطب الا وأعقبه فرج ولا انسد باب الا سوف ينفرج فان الله عز وجل قد جعل مع العسر يسرين وجعل فى الصبر خير الدارين وما زال مع الصبر الظفر والانس ومع

الجزع الكرب واليأس فاخترانفسك مايدنيك الى الله ويقربك واطرح عنها ما يجزعك ويكربك والسلام وقال بعض الشعراء

لاتجزعن ان مضت الخطب أيام * فربما ساعدت للسعد أعوام
وان تعرض عسر فانتظر فرجا * صرف الليالى هما بؤس وانعام

وقال بعض العلماء اذا ابتليت فثق بالله ولا تجزع واذا عوفيت فاشكر الله ولا تقطع واذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع وفوض أمرك الى الله فنعم الملجأ ونعم المرجع فاذا فعلت فقد فزت بخير الدارين أجمع وقال بعض الشعراء

اذا ابتليت فثق بالله وارض به * ان الذى يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * مالامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لاتأيسن فنعم القادر الله

وكتب رجل الى بعض اخوانه أما بعد فان لزوم الجزع على المصيبة أعظم من المصيبة ومازال الجازع يهلك فى الدنيا نفسه ويحبط فى الاخرى أجره وما عوض المرء من الصبر أحب اليه ان عقل مما القى من الدهر والتسليم للقدر خير من الجزع للغير فلا تعرض يا أخى نفسك الى مانكدغدك ويفسد أملك والسلام وقال بعض الحكماء انما الجزع والاشفاق قبل وقوع الامر فاذا وقع فالرضى والتسليم وقال بعض الحكماء من فاته الصبر فيما وقع ولزمه على مافاته الجزع وصحبه فيما لايمكنه الطمع فقد زال عنه الخير وارتفع أخذه بعض الرجاز فقال فيه

من فاته الصبر على العلات * ولزم الجزع على الفوات
وطمع الدهر فى غير الآتى * فقد تعرض الى الآفات

ومن الحكم المنثورة يعتزى العاقل فيما نزل به من المكروه بأمرين أحدهما السرور بما يبقى له من الاجر والآخر الفرج مما نزل به من الامر ويجزع الجاهل فى مصيبته بامرين أحدهما الاستكثار لماحل به والآخر الخوف مما هو أشد منه وقال ابن السماك ان المصيبة اذا نزلت انما هى واحدة فاذا جزع صاحبها كانتا اثنتين وحكى انه مات لسليمان بن عبد الملك ابن فجزع عليه جزعا شديدا بلغ به الى الامتناع من الطعام والشراب والكلام فدخل الناس عليه يعزونه فكل تكلم بما عنده على قدر معرفته وهو ساكت حتى دخل يحيى بن منصور فقال اصلح الله الامير عليكم نزل كتاب الله فانتم اعلم الناس بتأويله وفيكم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتم أعرف الناس بسنته ولست ممن ينبههم من جهل ولا يقوم من عوج ولست أعزيك بشئ لم يسبق اليه علمك ولكنى أعزيك ببيت من الشعر ثم أنشأ يقول

وأهون ماألقى من الوجد أننى * أجاوره فى داره اليوم أوغدا

فلما سمعه استوى على نفسه وقال له أعد فاعاد عليه فقال ياغلام هات الغداء ولما مات ابنه أيوب ابن سليمان قال لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوه اننى لأجد فى كبدى جمرة لا تطفيها الاعبرة فقال له عمر رضى الله عنه اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر فنظر الى ابن حيوة فقال له أفضها ياأمير المؤمنين فقد دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه ابراهيم وقال العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب فارسل سليمان عينيه حتى قضى أربا

ثم قال لوما ولم أرثها الصدعت كبدي فلما دفنه وحثا عليه التراب وركب دابته التفت الى القبر وقال

وقفت على قبر مقيم بقفرة * متاع قليل من حبيب مفارق

وأحسن ما قيل في المعنى

تعزفان الصبر بالحر أجمل * وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني ان يرى المرء جازعا * لحادثة أوكان يغني التذلل
لكان التعزى عند كل ملمة * ونازلة بالمرء أولى واجمل
فكيف وما الانسان مالك أمره * ولا لامرئ مما قضى الله مدخل

ومما يتعلق به أنشده ابن دريد حيث يقول

اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب
ووطنت المكاره والحمأنت * وأرست في مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضروجها * وقد أعيا بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات وان تناهت * فمقرون بها الفرج القريب

جعلنا الله ممن تثبت لصرف الزمان قدمه وحشى بالصبر على نوب الدهر أدمه وآثر الرضى والتسليم لقدر الله فرفع في الاعمال الصالحات علمه بفضل من شملتنا رحمته وعمنا جوده وكرمه لارب غيره

﴿الباب الخامس في ايثار الزهد والورع والاقصار عن الرغبة والجشع﴾

الزهد وفقك الله من أوثق أركان العبادة وأقوى أصول الديانة المؤدي الى السعادة وهو سبب راحة القلب والبدن في دار الدنيا ومورث الدعة والتنعم في دار البقا لان الزاهد في الدنيا انما يعتني بترك ماترك منها المعاوضة به في أخراه الجزاء والمقارضة فهو يشقى لينعم ويصبر ليفوز و يغنم وقد خص الله به أنبياءه واستعمل به أولياءه ومعنى الزهد ضد الرغبة وحده ترك ماحرم الله ورسوله من الشهوات المخالفة للنفس المعلقة بالقلب وهي درجتان فالدرجة الاولى هي ان يزهد العبد في الدنيا وهو مائل اليها راغب فيها متعلق النفس بها فيغلبها عليها ويقسرها عنها لما يرتجيه مما هو أفضل منها كالباذر الذي يخزن طعامه تحت التراب طائعا غير مكره ولا باخل واثقا عما ينتظر من النمو والزيادة فيرى سعيه حسنا وتجارته رابحة الدرجة الثانية هي ان يزهد في الدنيا لما يراه من تقلبها باهلها وكثرة غدرها واسترجاع مواهبها وقصر مدتها ونفاد سرورها وتواتر خطوبها مع معرفته بهوانها على الله عز وجل وانها لاتزن عنده جناح بعوضة وانه منذ خلقها ما نظر اليها وما جاء في ذلك من الآثار ونقلته الرواة من الاخبار فهو يكره ما كره الله و يبغض ما أبغض الله وهي درجة رفيعة ﴿فصل﴾ وقد فرق قوم من العلماء بين الزهد والورع فجعلوا الزهد ترك المحرمات والورع ترك المباحات وقد قيل لبعضهم ما الورع قال ترك الاخذ بالرخصة والدخول تحت التأويل الا عند الضرورة فكل ورع زاهد وليس كل زاهد ورعا وكلاهما راجع الى معنى واحد لان أصلها الترك لاشياء أوجب الشرع تركها والامتناع من أمور اقتضى الايمان منعها لكن أحدهما أقوى من الآخر

والزهد

والزهد والورع لا يكملان لاحد الا مع استفاضة العقل وصحة اليقين وامعان النظر فى أحوال الدنيا السريعة الذهاب الوشيكة الانقلاب واعمال الفكرة فى الآخرة ونعيمها الذى لا انقضاء لامده ولا احصاء لعدده فاذا نظر العبد ذلك بعين بصيرته وتدبره بحسن قريحته صح له رفض الدنيا والاقبال على الآخرة ولا يدرك ذلك أحد الا بفضل رحمة الله عز وجل وهو القائل عز من قائل ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ولا يطلق اسم الزهد الا على من ترك المحرمات واجتنب المشتبهات وتورع عن كثير من المباحات وقد قال ابراهيم بن أدهم الزهد ثلاث مقامات فزهد فرض وزهد سلامة وزهد فضل فالزهد الفرض الكف عن المحارم والزهد السلامة ترك المشتبهات والزهد الفضل الزهد فى الحلال وهذا تفسير حسن وقال المحاسبى رحمة الله عليه أصل الطاعة الورع وأصل الورع التقى وأصل التقى محاسبة النفس وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير دينكم الورع وقال عليه السلام الورع سيد العمل وقال صلى الله عليه وسلم كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن اشكر الناس وقال صلوات الله عليه من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله اذا خلى لم يعبأ الله بشئ من عمله وقال عليه السلام من ترك اللباس وهو قادر عليه تواضعا لله دعاه الله على رؤس الخلائق يخيره فى حلل الايمان فلبس من أيها شاء وقالت عائشة رضى الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادة الورع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لقى الله ورعا أعطاه ثواب الاسلام كله وروى عن عبد الله بن عمر انه قال والله لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا أو صمتم حتى تكونوا كالاوتار ما تقبل منكم الا بر صادق وقال بعض العلماء من لم يضمر نفسه فى مضمار الرياضات ويتورع عن مواقعة الشبهات لم يسبق الى غاية الخيرات وقال أيضا من أحب لنفسه الحياة فليمتها يعنى بالزهد فى الدنيا وذكر فى بعض الآثار ان الله عز وجل قال الورعون فانى استحى أن أحاسبهم وقال يحيى بن معاذ من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل الى الجزيل من العطاء وقال بعضهم يجزى قليل الورع عن كثير من العمل وقال الضحاك أدركت الناس وما يتعلمون الا الورع وانهم اليوم يتعلمون الكلام فسبحان الله العظيم ما أسرع هذا الانقلاب فى عمر رجل واحد فكيف ما بين ذلك الزمان وزماننا هذا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس وقال عليه السلام الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا أزهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره عيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليحمى عبده من الدنيا كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافون عليه وقال عليه السلام اذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه وقال سفيان بن عيينة الزهد ثلاثة احرف زاى وهاء ودال فالزاى ترك زينتها والهاء ترك هواها والدال ترك الدنيا باسرها ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولا تمل لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله وقال بعض الحكماء الزاهد من لم يطلب المفقود حتى فقد الموجود وهذا ايجاز حسن *(فصل)* وليس الزاهد من زهد فى الدنيا وقد أعرضت عنه وانبتت منه ولم تمكنه من متاعها وضيقت عليه مع اتساعها فانه مضطر الى ذلك لظهور عسره ونفود

بصره وانما الزاهد جد الزاهد من أقبلت عليه وأحشدت فوائدها اليه وحسنت له فى ذاتها وأمكنته من لذاتها فزوى وجهه عنها وآثر الفرار منها كما قال أبو تمام الطائى

اذا المرء لم يزهد وقد صبغت له * بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقد وصف بعض الحكماء أحد الزهاد فقال كف عن زخرف الدنيا ونضرتها وغض طرفه عن متاعها وزهرتها فاعرض عنها وقد تعرضت له بزينتها وصد عنها وقد تصدت له فى حليتها * وشبه بعض العلماء طالب الدنيا بكلب جائع مر بعظم فلا كه فى شدة لوكه أدمى فمه فهو يجد طعم الدم و يظنه من العظام ولا يدرى انه يؤذى نفسه وقيل لعبد الله بن المبارك من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون بدينهم وقال أيضا ابن المبارك وقد سئل عن الزهد فقال الزهد اخفاء الزهد ودخل بعض الزهاد يوما على أبى جعفر المنصور ومعه ابنه المهدى فقال له المنصور هذا ابنى المهدى وقد وليته عهد المسلمين فقال له الرجل الصالح انك قد رضيت له الامر الذى يزال فى وقت أنت عنه مشغول فبكى أبو جعفر وقال له عظنى فقال له يا أمير المؤمنين ان الله قد أعطاك الدنيا باسرها فاشتر نفسك منه ببعضها فان هذا الامر الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل اليك فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة فيه بعده ولقد أعجبنى هذا الكلام فنظمته وقلت

رحم الاله فتى أعد لليلة * قرنت صحيفتها بافظع مشهد * عظمت على أهل اليقين فبالها من ليلة تمخضت بيوم الموعد * طوبى لعبد موقن يحلولها * عبد الاله مصدقا بمحمد

لما ولى المهدى قال له شريك يا أمير المؤمنين قد بلغت غاية الدنيا فاطلب غاية الآخرة وقال أبو سليمان الدارانى الزهد وجوه كثيرة وهو عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله تعالى وقال بعض الحكماء ما لنا الا نزهد فى الدنيا وعمرها أمد وخيرها نكد وصفوها كدر وأمانها غدر ان أقبلت تشجى وان أدبرت تردى ومما قلت فى هذا المعنى

تبا لطالب دنيا لا بقاء لها * كأنما هى فى تصريفها حلم
صفاؤها كدر سراؤها ضرر * أمانها غرر أنوارها ظلم
شبابها هرم راحاتها سقم * لذاتها ندم وجدانها عدم
لا يستفيق من الانكاد صاحبها * لو كان يملك ما قد ضمنت ارم
فخل عنها ولا تركن لزهرتها * فانها نعم فى طيها نقم
فاعمل لدار نعيم لا نفاد لها * ولا يخاف بها موت ولا هرم

وقيل لبعض العلماء صف لنا الدنيا فقال ضحكة مستعبر *(فصل)* ومن أرفع درجات الزهد ترك الظهور وايثار الخمول و بغض المحمدة فى جميع الامور واطراح التزين بها حتى فى الطاعة قال الله عز وجل زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب وكلها مباحات فلما كان حب المحمدة غالبا فى جميع الاحوال على القلوب محببا فى كل الاشياء للنفوس هلك به أكثر الناس وقهر عقول الاكياس فاذا زهد الرجل فى المحمدة على ما يظهر من الطاعة وما أوتى من العلم فهو فى سوى ذلك أزهد غير انها درجة قل

مارقى

مارقى اليها بشر ولا استوى عليها خطر ومن الذى عرفت منزلته فى الخير وشهر فضله فى الناس ويريد أن يسقط من أعينهم وتحط منزلته عندهم ولا يحب أن يذكر بعلمه ويوصف بخيره ويحسن أثره بعد موته ويتنافس فى شهود جنازته ويتحدث بصلاحه ويذكر بتقديم طلبه وعلو رتبته وكل ذلك من زينة الدنيا وحب المحمدة فيها لما أعدم هذا الصنف جملة وقيل انه دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك فقال له يا أبا حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم عمرتم دنياكم وأخربتم أخراكم فأنتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب وما أقنع هذا الجواب وقال بعض الزهاد يا ابن آدم مالك لا تزهد فى الدنيا وقد علمت يقينا انها فانية ومالك تعجب الايام بآمالك وهى بك الى أجلك ساعية تقطع بك المسافات وأنت لا تشعر وتوردك المهالك وأنت لا تنطر حتى تبلغك وتمام روم استدراك أمرك فلا تقدر ورحم الله القائل حيث يقول

رأيت أخا الدنيا وان كان قاعدا * تسير به أيامه وهو لا يدرى

وقال أيضا

ومن عجب الايام انك قاعد * على الارض فى الدنيا وأنت تسير
فسيرك فى الدنيا كسير سفينة * بقوم جلوس والقلوع تطير

وقال أبو نواس فى ذم الدنيا

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

ومن الحكم المنثورة الزهد فى الدنيا ترك الامل وتقريب الاجل وقال سهل طلاب العلم ثلاثة فواحد يطلب علم الورع مخافة دخول الشبهة فيدع الحلال خوف الحرام فهذا زاهد متق وآخر يطلب علم الاختلاف ليدخل فى سعة المباحات فيأخذ بالرخص وطالب آخر يسأل عن الشئ فيقال له هذا لا يجوز فيقول كيف أصنع حتى أجد من يجوزه فيسأل من عنده علم الاختلاف والشبهة فمثل هذا اهلك وهلك الناس على يديه وقال بعض الحكماء لا ينبغى للمرء أن يلتمس من الدنيا فوق الكفاف الذى يدفع به الحاجة ويكف به الاذى عن نفسه فانه اذا نظر الى متاع الدنيا سره اذا أقبل عليه وساءه اذا أدبر عنه فيقع فيما يشغله عما يعنيه ويقطعه عما يرتجيه وقيل أقل الناس هما أزهدهم فى الدنيا وهذا كلام صحيح وقيل لبعض الصالحين ان فلانا له همة قال اذا لا يرضى بدون الجنة وقيل ليحيى بن معاذ متى يكون الرجل زاهدا فى الدنيا قال اذا بلغ حرصه على تركها حرص الحريص على طلبها ومن كلامه أيضا اذا رأيت الزاهد يستريح الى الرخص فقد بدا له فى الزهد وقال الفضيل بن عياض جعل الله الشر كله فى بيت واحد وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت واحد وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا ومن حكم يحيى بن معاذ ليكن نظرك الى الدنيا اعتبارا ورفضك لها اختيارا وسعيك فيها اضطرارا وطلبك الآخرة ابتدارا وقال أبو الدرداء لئن حلفتم لى على رجل منكم أنه أزهدكم لاحلفن أنه خيركم وحكى عن ابراهيم بن أدهم أنه كان من أهل الغنى والثروة وأرباب التنعم والرفاهية وكان له قصر بخراسان فأشرف منه يوما على رجل قد استكن الى فناء القصر بيده رغيف يأكله فجعل ينظر اليه حتى أكله ثم نام فى فناء القصر فقال ابراهيم لبعض غلمانه اذا انتبه جئنى به فلما انتبه جاء به اليه فقال ابراهيم أيها الرجل أكلت رغيفك

قال نعم قال فبعث قال نعم قال ثم تمت طيبا قال نعم قال ابراهيم فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بمثل هذا فزهد فيما كان عنده وتركه وخرج منتبذا عن الدنيا فكان من شأنه ما علم رحمه الله وروى فى بعض الآثار أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة فيؤخذ منها ما كان خالصا لله ثم يلقى ما بقى فى النار ومن كلام بعض الصالحين لكل عمل كمال وكمال الدين الورع وقيل فى بعض الحكم الشريف اذا تزهد تواضع والوضيع اذا تزهد تكبر وقيل لبعض الحكماء مالك تزهد فى المال قال وما حاجتى بشئ الجهل يأتى به واللؤم يحفظه والنفقة تبيده وقال بعض الصحابة لبعض التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال لانهم كانوا أزهد منكم فى الدنيا وروى أنه قال لعيسى ابن مريم عليه السلام بعض أصحابه لو أذنت لنا أن نبنى بيتا نعبد الله تعالى فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء قالوا وكيف يستقيم بنيان على الماء قال فكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ومن كلامه صلى الله عليه وسلم يا ابن آدم ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فأقلها يكفيك وان كنت تريد منها فوق ما يكفيك فكلها لا تكفيك أخذه أبو العتاهية فقال

ان كان لا يغنيك ما يكفيكا * فكل ما فى الارض لا يغنيكا

وفى منثور الحكم من تجاوز الكفاف لم يغنه الاكثار وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه لما نزل قوله عز وجل الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم قالوا انا لله تبارك وتعالى عن كنز الذهب والفضة فأى شئ ندخر اذا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر دنياه وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة فى قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام ﴿فصل﴾ والزهد على ثلاثة أوجه فالزهد الذى ليس فوقه زهد أن يكون العبد لايسره أن الدنيا كلها له يعمرها ويحتوى ملكها ولا يصل اليه شئ من مكارهها فلا يأل عليها ولا يرضى بها ولا يتمناها لنفادها وانقراضها فهذا هو الزهد الذى ليس فوقه زهد وهو غير موجود الا ما تلقى من ذكره فى الكتب ويتردد على الالسنة منه فى المحاضر والوجه الثانى وهو الموجود فى أهل الزهد أن يكون العبد يزهد فى الدنيا وقلبه معلق بها محب لها مائل اليها فهو يمنع نفسه قسرا عنها مخافة سوء عواقبها فهو من نفسه فى جهاد ومن علاجها فى اجتهاد فهو زاهد صابر والوجه الثالث أن يزهد فيما حرم الله عليه وهو اللازم للعباد والمفروض عليهم الذى ليس للعبد فيه عذر ولا له عليه حجة وهو دون الوجه الثانى وله فيه نجاة من النار برحمة الله العزيز الغفار * وقال بعض العلماء لن يصل المريد الى ارادته من الطاعة ولن يبلغ الى بغيته من العبادة الا بالزهد فى الدنيا والصبر على تركها وهو أصل الديانة وقل ما يجتمع اليه الورع مع حب الدنيا فانهما متفرقان وقد اختلف العلماء فى تعيين وجوه الزهد كسفيان الثورى والاوزاعى والمحاسبى وغيرهم رحمهم الله جميعهم تركنا استيفاء أخبارهم فيه وأخبارهم عنه مخافة التطويل والتشطيط والخروج عن القصد المشروط وقل ما قدر أحد على الخروج منه ولا وجد الانفصال عنه لاتصال أسبابه وانفتاح أبوابه وكل أقوالهم راجعة الى أصل

ومبنية على أمر وهو ماقدمناه من رفض الدنيا ودواعيها السوء عواقبها ومساويها وما تفرع من ذلك وتشعب وتمكن القول فيه وترتب وكلهم ماعدم التوفيق ولاعدل عن الطريق ولا انفصل عن التحقيق ولله در القائل حيث يقول

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
علام يبكى لما رآها وانها * لارحب مما كان فيه وأوسع

وقال أبو سليمان الدارانى ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا عن نفسه فاستراح منها بتلك الراحة انما الزاهد من زهد فى الدنيا وأتعب نفسه فيها لنيل الآخرة وقال مالك بن دينار انما طلب العابدون بطول النصب دوام الراحة وطلب الزاهدون بطول الزهد طول الغنى

﴿فصل﴾ وقد اجتمعت الأمم من أهل الملل والمتفلسفين وأرباب النحل على الزهد فى الدنيا وترك التشبث بها وطوائف من الدهرية وأمثالهم وهم الذين لا يوقنون لبعث ولا حساب ولا يؤمنون بثواب ولا عقاب لما نظروا اليها فهموا عنها فوجدوها كثيرة الآفات سريعة الاستحالات وشيكة الذهاب شأنها التحول والانقلاب لا يدوم لها نعيم ولا يخلد فيها مقيم تنقل أهلها من الشباب الى الهرم ومن الصحة الى السقم ومن الوجود الى العدم تضع الرفيع وترفع الوضيع وتعاند العالم العاقل وتساعد الجاهل الخامل فلا تنفك عن محال ولا تستقر على حال فحملهم ذلك على الزهد فيها والرغبة عنها فكيف بمن نظر وحقق وآمن وصدق وأيقن بالبعث والحساب ولم يشك فى الثواب والعقاب وصدق بالنبوة والكتاب لقد كان أحق بالزهد فيها والانتباذ منها لو أظلتنا سحائب التوفيق وهدتنا الى سواء الطريق ونظرنا الى قول الله عز وجل انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ازداد فى العلم رشدا ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا وفى بعض الآثار بينما رجل يشيع جنازة بالجبانة اذ رفع اليه شيخ فسمعه يقول مارأيت مثل مصرع هؤلاء وأشار الى الاموات ولا مثل غفلة هؤلاء وأشار الى الاحياء ثم قال اللهم فرغنى لما خلقتنى ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ولا تحرمنى وأنا أسألك ولا تعذبنى وأنا أستغفرك قال فدنوت منه وقلت له أيها الشيخ علمنى هذا الدعاء فعلمنيه ثم قلت من أنت يرحمك الله قال أنا الخضر وليس الزهد فى الدنيا باهمال النفس واضعاف الجسم وادخال الضرر بتقتير العيش والتعرض للمعاطب والتصدى الى المهالك فان استعمال ماتصح به القوى وتحيى به النفس وتعين على العمل بالطاعة والتصرف فى أعمال الصبر صلاح بين وواجب متعين وكما أن الزيادة على قدر الحاجة ممنوع فى الشرع كذلك الاقتصار على الكفاية ممنوع فى الشرع والعقل يمنع منهما جميعا وقد تقدم لنا كلام مثل هذا ألا ترى اذا خرج العبد مجاهدا فى سبيل الله فانتخب السلاح واستجار الفرس وحسن الاهبة واستكمل الاعداد للرهبة ثم شغل نفسه فى طريقه بالنظر فى ذلك كله والقيام عليه أليس ذلك من تمام جهاده وكمال بغيته ومراده وكذلك يصحبه فى اصلاح نفسه وحفظ قوى بدنه ليقوى على القيام بفرائض دينه ويتم سعيه الى تأدية حقوق مولاه وهو ولى الهداية لمن تولاه لا رب سواه وقد قال محمد بن المنكدر نعم العون المال على تقوى الله وقال الثورى المال صلاح

المؤمن ودعا أعرابي عند أستار الكعبة فقال اللهم لا شرف الا بفعال ولا فعال الا بمال فهب لي ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة وقال عثمان بن عفان ياحبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به الى ربي ومن كلام معاوية بن أبي سفيان ان الشرف والسودد لينتقلان مع الغنى كما ينتقل الظل فانظر الى هذه الطائفة على تقدمها في العلم ونظرتها في الخير والاقتداء في أعمال البر ترى أن القوة والقدرة تقرب من الله وتعين على تقواه وما التوفيق الا بالله وقال قيس بن عاصم في ايثار الثروة

يسود هذا المال غير مسود * ويحرمه ليث فيصبح ثعلبا
وأول ما يجفو الفقير لفقره * بنوه ولم يرضوه في فقره أبا
كأن فقير القوم في الناس مذنب * وان لم يكن من قبل ذلك أذنبا

وقال آخر
اذا قل مال المرء لانت قناته * وهان على الادنى فكيف الاباعد

وقال آخر
والمرء يحفى اذا قلت دراهمه * وليس ينفعه ان كان ذا حسب

وكما يجتنب التحرج المؤدي الى الضرر كذلك يجتنب الاكثار المؤدي الى البطر وفي هذا توقف من توقف لان الزهد وحب المال لا يجتمعان على حال بل هما ضدان متنافران كما ذكرنا وخير المال التقوى وهي الفائدة العظمى والغاية القصوى والاقرب الى السلامة من خدع الدنيا كما قال أبو الدرداء

يريد المرء أن يعطى مناه * ويأبى الله الا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وقال مالك بن دينار لمحمد بن واسع يا أبا محمد طوبى لمن كانت له غنية تقوته ويستغني بها على الناس فقال له محمد بن واسع يا أبا محمد طوبى لمن أصبح جائعا وأمسى طائعا وهو عن الله راض وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة التمني والرضى بما يكفي فاستبان أن الرضى الزهد الاعظم والورع الاتم وهو أجل مقامات الطاعات وقد قدمنا ذكره وقال بعض الصالحين أهل الزهد قد تركوا الدنيا بجملتها فكيف لا يتركون الذنوب وترك الدنيا من النفل وترك الذنوب من الفرض وقال يحيى بن معاذ الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك وسئل سهل بن عبد الله التستري عن القوت قال هو الحي الذي لا يموت قيل انما سألناك عن القوام قال هو العلم قيل انما سألناك عن الغذاء فقال هو الذكر قيل انما سألناك عن طعمة الجسد فقال مالك وللجسد دعه لمن تولاه أولا يتولاه آخرا فان دخلت عليه علة ذروه الى صانعه فان الصنعة اذا دخلها عيب ردت الى صانعها فاصلحها وكان عبد الله بن المبارك يقول الرجاء الشوق والشوق يورث الاجتهاد والاجتهاد يورث الفكر في النعيم والفكر في النعيم يورث الشكر والشكر يورث معرفة المنة ومعرفة المنة تورث محبة الله ومحبة الله تورث الزهد في الدنيا والزهد في الدنيا يورث الرغبة في الآخرة والرغبة في الآخرة تورث الاشتغال بالطاعة والاشتغال بالطاعة يورث النعيم الدائم قال ابن عباد الخزاعي لبعض اخوانه يا أخي اترك التعلق بالدار التي يبغضها الله عز وجل وخذ حاجتك منها على الكراهة والتثاقل والاضطرار والتحامل وحاسب نفسك بالحفظة لما فوقها والخطرة وما دونها فان الله تعالى لا يقبل الا ما أريد به وجهه وكأن الدنيا قد أسلمتنا بما فيها وأقبلت علينا الآخرة

بدواهيها الماظنك يا أخي بيوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازعن والده شيأ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها يوم يكون النبيون فيه خائفين وأولياء الله من ذنوبهم مشفقين فكيف بمن أثقلته الذنوب واوبقته المعاصي فطوبى لعبد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وجعل بضاعته القناعة ورأس ماله الرضى مع اليقين الثابت والتصديق الصحيح والخضوع اللازم واجتماع شمل أسباب التقى نختم له بالحسنى والله ولي العون على طاعته وعصمته المنان بمغفرته ورحمته المتطول باحسانه ونعمته بمنه وعنه ﴿فصل في الاقتصار عن الرغبة والجشع﴾ الرغبة عافاك الله من أقبح الخلائق وأذم العلائق وأرث الجبائل وأشأم الشيم والشمائل تدل على الاخلاق البهيمية والطبائع السبعية وهي من أعظم الآفات الدينية وأكره العاهات المشنوءة المقلية لا يزال صاحبها أبدا مذموما وبأقبح الصفات موسوما قد تملك الجشع طباعه فلا تعرض له القناعة ولو كانت الدنيا بأسرها متاعه غمر حب الدنيا قلبه وغمر التهافت اليها عقله فهو لا يحتقر اليسير ولا يقنع بالكثير بل شأنه أكل الدنيا خضما وقضما ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهما فلا تراه أبدا الامقترا لا يوسر ومقلا لا يكثر ومنهوما لا يشبع وجامعا لا يقنع وناهضا في السرف لا يرجع ومقيما على الطمع لا يقلع وقلما يخلو عن الحسد ولا يستفيق من الكمد قد جعل الفقر نصب عينيه وأصبح واثقا بما في يديه لا يتوكل على خالقه ولا يقنع بقسمة رازقه فما أخسر صفقته وما أجل مصابه وكربته يجمع ولا يدري أهو مالكه أم تاركه وينصب وهو لا يدري أمستراح اليه أم هو هالكه والله يقول عز من قائل تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وقال تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبينه وبين رزقه حجاب فان قنع وأكل أتاه رزقه وروى أنه وجد في بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا لك محسن وقال ابن مسعود مامن يوم الا ينادى فيه ملك من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في بدنه معه قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقال بعض العلماء اذا أحب الله العبد زهده في الدنيا بكره ما كره الله واذا أبغضه رغبه في الدنيا فأحب ما أبغض الله وقال بعضهم الرغبة في الدنيا تورث سقوط الحظ في الآخرة والقناعة في الدنيا تورث وفور الحظ في الآخرة وتلا ألهاكم التكاثر الى آخر السورة وقالوا أطيب العيش القناعة وأنكد العيش الرغبة ومن كلام الحكماء من أحرز القوت واطرح الفضول فقد بلغ المأمول وفي منثور الحكم من ترك الفضل فقد حاز الفضل والفضل ما زاد على الحاجة ومن أمثالهم من أخلص الضمير وقنع باليسير سقط على الخبير ووصل الى الكثير وقال بعضهم ما رأيت غنى أفضل من القناعة ولا فقرا أشد من الرغبة وأنشدوا وقيل انها لعلي بن أبي طالب

أفادتني القناعة أي عز * وأي غنى أعز من القناعه * فصيرها لنفسك رأس مال
وصير بعدها التقوى بضاعه * تجد ربحين تغنى عن بخيل * وتنعم في الجنان بصبر ساعه

وقال أيضا رضي الله عنه قنع النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق مايكفيها
انما أنت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي أنت فيها

ومن كلام الحكماء الرغبة لؤم والاستقصاء شؤم والحريص محروم وقيل الحرص ذل والطمع فقر وقيل لبعض الزهاد مالك قال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس عما في أيدي الناس وقالوا من ترك الرغبة واقتصر على القوت من الحلال دخل في أهل الورع وفي بعض الحكم الجوع لذة الابرار وحياة المتقين وخلق الزاهدين وفعل الصالحين وسنة النبيين وروى أن عيسى عليه السلام قال لبني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لا تقومون بشكره وقال الفضيل بن عياض ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان صلى الله عليه وسلم اذا أصابته خصاصة قال لاهله قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرت ويقرأ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يتجشى فقال له أقصر من جشائك ياهذا فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا وقال بعض الزهاد أذيبوا أبدانكم من اللحوم وأحيوا قلوبكم بذكر الله الحي القيوم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اياكم والبطنة فانها ثقل في الحياة ونتن في الممات ومن كلام الحكماء البطنة تذهب الفطنة وقال يحيى بن معاذ من كثر شبعه كثر لحمه ومن كثر لحمه كثرت شهوته ومن كثرت شهوته كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه قسا قلبه ومن قسا قلبه غرق في الآفات وقال بعض الصالحين عجبت لطالب الدنيا يمسي ويصبح وماله سواها هم وقد علم أن تركها غنم والاكثار منها غم وقد قال سابق البربري النفس ترغب في الدنيا وقد علمت * ان السلامة منها ترك مافيها
وقال عبد الله بن المبارك في قلة الطعام راحة للنفس وفراغ للقلب وكثرته تميت الخاطر وتورث الهم الحاضر لانك تأكله فتذهب لذته ويثقلك ثقله ويبقى عليك حسابه روى لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام الى الدنيا أن أول شئ عمل فيها أنه أحدث قال ابن عباس فلما نظر الى ماخرج منه تأذى برائحته فاغتم لذلك فقال له جبريل عليه السلام هذه رائحة خطيئتك وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه عطش يوما فأتى بشربة فيها عسل فجعل يديرها في كفه ويقول أشربها فتذهب حلاوتها وتبقى تباعتها ثم دفعها الى بعض القوم فشربها وقال عثمان ابن عفان رضي الله عنه تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها * من الحرام ويبقى الاثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها * لاخير في لذة من بعدها النار

وكان اياس بن معاوية لايتخضب اللباس فقال له خالد بن صفوان في ذلك فقال لأن ألبس ثوبا أقي به نفسي أحب الي من ثوب أقيه بنفسي وهذا من جيد القول وقال بعض الحكماء من قنع بما قسم له ورضي بما وصل اليه وترك الفضول رغبة عنها فقد تخلص من الآفات وأمن من التباعات ومما قلت

دع التهافت للدنيا وزينتها * ولا يغرنك الاكثار والجشع
واقنع بما قسم الرحمن وارض به * ان القناعة مال ليس ينقطع
وخل ويلك فضول العيش أجمعها * فليس فيها اذا حققت منتفع

وكلها

وكلها تبعات تسترق اذا * ماخلص الناس منها الزهد والورع

(فصل) واعلم أن القناعة ليست في المطعم والملبس والمسكن خاصة بل هي في جميع أحوال الانسان كلها وعوارض الدنيا أجمعها كالرضا بسقوط المنزلة وايثار الخمول وفراق حب الثناء وقلة التعرض للجاه وترك جميع أسباب الظهور ومايتعلق بمعانى التقدم في الامور وان ذلك كله قنوع من الدنيا باليسير واقتصار على التافه الحقير الذى يؤمن به الطغيان ولا يخاف منه الخسران لان العبد انما يترك ذلك في الدنيا طمعا في بلوغ المنزلة الرفيعة في الاخرى وقيل السعادة الأبدية في الدار الباقية التى لاتفنى فاذا ألزم نفسه التخلى عن الشهوات والانتباذ من جميع اللذات فقد أصاب رحمه الله تعالى رأيه ونجح بفضل الله سعيه وليس الخروج من جميع أحوال الدنيا كلها الا في الفضول والزوائد الكثيرة التبعات القليلة الفوائد لا في الاخذ للنفس لضرورتها واحراز قوتها وثبوتها فانه كما يفسد الاكثار كذلك يضر الاقلال وكما يجب الاخذ منها فيما يصلح بها كذلك يجب اعطاؤها فيما لا يضرها وانما الشرف في ترك السرف والفضل في اطراح الفضل والبعد من وجوب البطر وركوب الخطر وقد مضى لنا في هذا النوع كلام ربما دعا الى تكراره اطراد القول في ذلك النظام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أمتى الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتر عليهم حتى يسألوا وقال بعض العلماء ليس لك من الدنيا الاغداء يوم وعشاء ليلة فلا تهلك نفسك في أكله وصم عن الدنيا وأفطر عن الآخرة وان رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار ومن كلام الحكماء يا ابن آدم مالك ترغب في لذة لاتصحب ولا تدوم وتترك عند احتلالها وتعرك عند انتقالها وتتعبك في الدنيا أثقالها وتوذيك في الآخرة أنفالها فاذا زاغ عنك زمانها أسرع اليك نسيانها فوجدتها كالخيال الطارق والظل المفارق فانما أحوال الناس في هذه الدنيا كعدد في صحيفة كلما نشر بعضها طوى بعضها وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كاحلام نائم * وماخير عيش لايكون بدائم

تأمل اذا مانلت بالامس لذة * فأفنيتها هل أنت الا كحالم

ومن أمثال الحكماء حد العفاف الرضى بالكفاف وقال بعضهم جنب الرغبة والطمع تجل ولا ترغب فيهما فتذل وقال ابن المعدل

وأعلم أن بنات الرجاء * تحل العزيز محل الذليل

وان ليس مستغنيا بالكثير * من ليس مستغنيا بالقليل

(فصل) ولجميع حواس الانسان أيضا فضول يجب اطراحها كفضول الكلام وفضول النظر وفضول السماع وغير ذلك من السعي والبطش وماشاكلهما وكلها شهوات كامنة في القلب يتبعها الحرص والارادة فنبدأ بحسن عون الله عز وجل بذكر فضول المطعم والمشرب واليها أكثر اشارة هذا الباب وهو مازاد على القوت وتجاوز مقدار الكفاية ومازال يقسى القلب ويغلظ الطبع ويجمع الكسل ويورث الغفلة ويميت الخاطر ويهدم سام الفهم فلا يجد صاحبه من نفسه قبولا لدواعى الخير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء وقال صلى الله عليه وسلم

ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بنى اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وقال بعض العلماء فى التخفيف من الطعام ثلاث خصال صحة الجسم وذكاء الذهن والقرب من عيش الملائكة وأما فضول الملبس فهى ما زادت على تورية الجسم وستر العورة وقد قيل فى بعض الحكم العرى الفادح خير من الزى الفاضح ومن كلام الحكماء ليست العزة فى حسن البزة فان التنعم بلبس الثياب والتجمل بحسن الزى يشغل العبد حتى لا يعبأ بشئ من أمر دينه ميلا للدنياه وقلما يخلو صاحبه من العجب وهيهات لا تستر الملابس المقابح ولا تحجب المناكر والفضائح وأما فضول الكلام وهى ما زاد على الذكر وما يكون فى ذات الله من أمر بمعروف أو نهى عن منكر فذلك من غفلة القلب عن ذكر الله وذكر الآخرة وانتصابه للشهوة المعترضة من الشره الى الكلام والحرص على الاقدام ولا سيما ان أدرك قليل معرفة ليقال هو البليغ الخطيب المفصح اللبيب ولو ظهر اليه خطله واستبان له زلله لخفض الصوت وأطال الصمت وأما فضول النظر وأكثره فضول لانها حاسة حبب اليها حسن المناظر من الانس وسائر الحيوانات والبهجات من المبانى والنباتات وغير ذلك من سائر الاشياء فيشغل صاحبها الحرص على النظر والالتفات والميل الى أنواع المرئيات عن كثير مما يصلح به ويذهله عن كثير مما يعنيه وحسبنا آية سليمان عليه السلام اذ عرض عليه بالعشى "الصافنات الجياد" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم من سهام الشيطان مسموم من تركها مخافة الله أعقبه ايمانا يجد طعمه فى قلبه وقد قدمنا فى النظر ما فيه مقنع وله من نفس المحقق موضع وأما فضول السماع وهى ما قدمنا أيضا ذكره من الاصغاء الى سماع المكروهات من الكذب والغيبة والنميمة وسماع أصوات الاغانى وقرع الملاهى وسواجع الطير وما أشبه ذلك فيذهل الاشتغال بها وكثرة الاصغاء اليها عن سماع المواعظ النافعة وقبول الزواجر المانعة وفهم المعانى المؤدية الى التحقيق الباعثة على سلوك الطريق فهو أصم سميع وكذلك منع ما ذكرناه من أفعال ابن آدم وما ركب فى حواسه من الفضول التى قدمنا ذكره وكلها يمتنع المطيع من استعمالها ويرجع المريد عن أمثالها فانها مخوفات الدواعى محذورات المساعى وفيما أوردناه شواهد تدل عليها واعلام توصل اليها غنينا بها عن الاستيعاب مخافة الاسهاب والخروج عن مقتضى الكتاب وكفى بهذا الراكن الى فضول شهواته الجانح الى دواعى لذاته الجامح فى أعنة هفواته انها تبطل حواسه عن قبول ما يؤديها الى اللذات الدائمة والنعيم المؤبد والخيرات الشاملة والسرور المخلد الا أن يتوب ويرجع ويثوب ويقلع والله ولى الهداية المان بالعصمة والكلاية لا رب سواه ولا معبود الا اياه

﴿ الباب السادس فى حب العدل وفضله وبغض الجور وأهله ﴾

العدل ارشدك الله قوام الدنيا والدين وسبب صلاح المخلوقين به قامت السموات والارضين وله وضعت الموازين وهو المرغوب والمألوف المأمون من كل تخويف وتحريف به تألفت القلوب والتأمت الشعوب وظهر الصلاح واتصلت أسباب النجاح وانعقدت عرى اليمن والفلاح وشمل الناس التناصف وضمهم التواصل والتعاطف وارتفع التقاطع والتخالف

والتخالف وهو مأخوذ من اعتدال القوام والصواب وهو نوعان ظاهر وباطن وكل نوع منهما ينقسم الى أقسام و يتفصل على أحكام فاما الظاهر فهو في الحكم بين الناس لقول الله سبحانه وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط وفي عدالة الشهود لقوله عز من قائل وأشهدوا ذوى عدل منكم وفي صدق القول لقوله تبارك اسمه واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وفي اصلاح ذات البين لقوله جل ذكره وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الى قوله فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين وفي الوزن لقوله عز وجل وزنوا بالقسطاس المستقيم يريد المعتدل وكذلك في جميع الاشياء فانها مفتقرة الى العدل فيها والاعتدال في جميع معانيها وأما الباطن فهو في جميع مايلزم الانسان من محاسبة نفسه فيما بينه و بين الخالق وفيما بينه و بين المخلوقين فاما الذى بينه و بين الخالق فامتثال أحكامه والتزام حدوده والوقوف عند أوامره ونواهيه وان شقت والرضى بقضائه والتسليم لقدره وان لم يوافق اختياره وكل ذلك باعث على العدل وهو حقيقة الايمان والله أعلم بمصالحه وأما الذى بينه وبين المخلوقين فالانصاف من نفسه فيما كان له وعليه واخذ الحق واعطاؤه وقول الصدق واظهاره وحسن المعاشرة واداء الامانة والوفاء بالعهد وكتمان السر وغير ذلك مما يتعلق بحكم الشريعة و يقتضيه الحق وتوجبه مكارم الاخلاق ومتى عرى عن أشباه هذه الخصال فقد عدل عن طريق العدل وحاد عن سنن الحق كما انه اذا ألزمها نفسه واشتغل بها استطاعته فقد استكمل الخصال المحمودة واستوفى الخلال الشريفة السعيدة الجامعة لصلاح دينه ودنياه والعدل هو ميزان الله في الارض فرضه على جميع عباده في الدنيا ليتناصفون بامتثاله و يتواصلون باستعماله وقيل انه جاء في الزبور العدل في ميزان البارى وهو مبرأ من كل زلل وميل وهو صفة من صفاته عز وجل رضيه لنفسه وأراده من خلقه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلقوا بأخلاق الله تعالى وقال عليه السلام ان الله عز وجل اخلاقا من تخلق بواحد منها دخل الجنة ثم انفرد به جل جلاله يوم القيامة للفصل والقضاء بين عباده فقال سبحانه ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين

(فصل) وحقيقة العدل وضع الشئ في محله وايصاله الى مستحقه لا وضع المصالح حيث تكيفت واستجلاب المنافع من حيث تهيئت ودفع المضار عمن حلت ألا ترى لو ان ملكا أعطى الاغنياء وعفا عمن استوجب العقوبة لكان قد أحسن اليهم وأنعم عليهم غير انه وضع الشئ في غير محله وأنزله عند غير مستحقه وما أشبه هذا التمثيل من اخراج الاشياء عن مواقع حدودها والانحراف بها عن مقتضى حقوقها وهذا أمر نجده في المعانى اذا عدل بها عن مواضعها وقصد بها غير مقاصدها ظهر فيها الخلل وتبين فيها النقص والعدل شئ تألفه النفوس وتعتقده القلوب وتطمئن اليه و يحلو للمحقق مره و يسهل على الموفق صعبه ولهذا ينطاع للحق وينقاد للقصاص و يخضع للحكم قال الله جل ثناؤه يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين وقال عليه السلام أعظم الناس قدرا عند الله الملك العادل وقال صلوات الله وسلامه عليه أوصانى ربى

بالاخلاص في السر والعلانية وبالعدل في الرضى والغضب وبالقصد في الغنى والفقر وقال صلى الله عليه وسلم ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا فلان يخطئ الامام في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة وقال ارسطاطاليس لا ينبغي لمن تمسك بالعدل ان يخاف أحدا فان العدول لا يخافون الا الله وكتب الى الاسكندر املك الرعية بالعدل فيها والاحسان اليها تقرب بالمحبة منها فان طلب ذلك منها بالعدل والاحسان أدوم منه بالاعساف واعلم ان بالعدل يقهر العدو وان الابدان لا تملك فتحيط بالقلوب الا بالمعروف ومن كلام عمرو بن العاص سلطان عادل خير من مطر وابل وقالت الحكماء عدل السلطان خير من خصب الزمان وأفضل الازمنة زمان أئمة العدل وفي ذلك يقول بعض الشعراء

يا أيها الملك الذي * بصلاحه صلح الجميع * أنت الزمان فان عدلت فكله أبدا ربيع

وما أحسن قول الفقيه الخطيب ابي بكر بن الملح يمدح في مثل ذلك

لو كان للشمس حكم في تصرفها * والعدل ما العدل لم تبرح من الحمل

ومن فقر أبي منصور الثعالبي حق الملك العادل في رعيته ان يفادوه بسنا أبصارهم وسني أعمارهم وسأل كسرى بعض حكماء الفرس أي الرجال خير فقال أرحبهم ذراعا عند الضيق واعدلهم حكما عند الغضب وأبعدهم ظلما عند المقدرة وأرحمهم قلبا اذا سلط وأبسطهم وجها اذا سئل ومن أمثال الحكماء اذا كان الامام عادلا كان الصلاح شاملا والعدو خاملا وقيل في بعض الحكم افضل الاشياء أعاليها وأعالي الرجال ملوكها وأفضل الملوك أعدلها وأعفها وقال بعض العلماء السلطان أمير الله في الارض تؤدى اليه الامانات ما أداها وعدل فيها فاذا زاغ زيغ معه وتلا قول الله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال تعالى ودوا لو تدهن فيدهنون وقيل من قام من الملوك بالحق والعدل ملك سرائر رعاياه ومن قام فيهم بالجور والقهر لم يملك الا الاجساد ولم ير الا التصنع والقلوب عليه مختلفة فان السرائر تطلب من يملكها بالعدل كما تطلب الاجساد من يملكها بالاحسان وقال أردشير اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة ومن كلام بعض الحكماء كيف ينبغي للملك ان يظلم وانما وضع للعدل ومنه يلتمس العدل ووصف اعرابي رجلا فقال ذاك والله ان قال فعل وان ولي عدل وان سئل بذل وان غضب لم يعجل *(فصل)* واعلم ان الدين لا يستقيم والشرع لا يحفظ الا بالسلطان فان الدين اذا لم يحرسه السلطان وتعضده الائمة لم يؤمن على أحكامه التحريف والتبديل وخيف على شرائعها التغيير والتحويل والسلطان هو الذي يحرس الدين ويذب عن حرم المسلمين وله على أهل الاهواء رقبة وعلى أرباب البدع هيبة فلا يزال الدين أبدا بقوة سلطانه محروسا وذوا البغي والتعدي بامامته مقموعا فان عدل فله وان جار فعليه ومن بديع الكلام في ذلك قول بعض الادباء انما تصلح الامامة بمن لا يسلم الاسلام ولا يفارق الفرقان ولا يهمل الملة ولا يعدل عن العدل وروى عن ابن مسعود انه قال السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فان عدل فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر وقال ابن المعتز

الدين بالملك يقوى * والملك بالدين يبقى

فبقاء الملك بظهور الدين وظهور الدين بقوة الملك وطاعة الله عز وجل هي الباعثة على طاعة السلطان

السلطان وعدل السلطان يبعث على محبته ويجمع القلوب على مطاوعته ويحمل على الانقياد لحكمه والتسليم لامره فانه اذا أطاع الله في عباده أمن الناس من عاديته واستراحت النفوس من غائلته روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه دخل عليه لبيد العجلي فقال له عمر أقتلت زيدا فقال يا أمير المؤمنين قتلت رجلا بيدي يزيد فان كان فهو أكرمه الله بيدي ولم يهني بيده فلم ير بعد ذلك مكروها من عمر رضي الله عنه وكان رضي الله عنه قد وجد لفقد أخيه زيد وجدا عظيما وكان يقول لفرط حزنه عليه ان الصبا لتهب فتأتيني بريح زيد بن الخطاب وقال لمتمم ابن نويرة ما بلغ من حزنك على أخيك مالك وكان متمم أعور العين فقال بلغ بي من الحزن يا أمير المؤمنين انني بكيت بالعين الصحيحة حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع قال عمر هذا وأبيك الحزن الشديد ثم قال له لو كنت أقول الشعر لسرني أن أقول في أخي مثل ما قلت في أخيك مالك فقال متمم يا أمير المؤمنين لو قتل أخي يوم اليمامة مثل ما قتل أخوك ما قلت فيه بيت شعر فقال له عمر لله درك ما عزاني أحد في أخي أحسن مما عزيتني وقيل انه قال لابي مريم السلولي قاتل أخيه والله لا أحبك حتى تحب الارض الدم المسفوح وهذا مثل قول الحجاج لاقلعنك قلع الصمغة لان الصمغة اليابسة اذا فرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجلبة والارض لا تنشف الدم المسفوح ولا تمصه فمتى جف الدم ونشف لم تره أخذ من الارض شيأ قال السلولي أفيمنعني ذلك حقا قال لا قال فلا ضير وانما يأسف على الحب النسوان وقال بعض الخلفاء لرجل اني لابغضك فقال يا أمير المؤمنين انما يجزع من فقد الحب المرأة ولكن عدل وانصاف ﴿فصل﴾ بالعدل استقام الدين وتألفت النفوس وعمرت البلاد وتمهدت الاحوال وأخصبت الارض واثمرت الاموال وكثر النسل وعظمت المواساة واتصل التواصل وأمنت السبل ودرت الارزاق ونمت المتاجر وعم الصلاح الخاصة والعامة كما انه لا شيء أسرع من فساد الاحوال وخراب العمران واقتران الاهواء وتشتيت الضمائر وتقلص الاموال وظهور الاختلال من الجور ونعوذ بالله من سوء المصارع وتبديل الشرائع ومن أمثال الحكماء الانصاف أحسن الاوصاف وقالوا من لم يدعه العدل الى الانصاف دعاه الجور الى الانتصاف وأعدل الناس من أنصف من نفسه وقال بعض الحكماء اذا استعان الملك بعدله بكثرة الورع وقلة الطمع فقد أخذ بطرفيه وقيل اذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح ما بعد عنه روى انه كان في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه راع يرعى غنمه على مسيرة أيام من حضرته فعدا عليه الذئب ليلة في غنمه فانكر ذلك وقال قد مات عمر ورب الكعبة فنظرت تلك الليلة فاذا فيها قد مات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفي منثور الحكم عن الملوك في العدل وفضلها في الكرم وشرفها في العفو وأتى الاسكندر رجلان يختصمان ليقضي بينهما وكانا حكيمين فقال لهما الحكم يرضي أحدكما ويسخط الآخر لكن ارجعا الى الحق وتناصفا بينكما بالعدل فهو ابقى للمودة وأحمد للعاقبة وأقرب للتقوى فرضيا جميعا وقال بعض الصالحين أقرب الدعوات الى الاجابة دعوة الملك العادل وأولى الحسنات لتعجيل الثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح ومن كلام بعض الحكماء خير الولاة من عدل في رعيته فيما يخصه منهم وفيما يخصهم منه فاما الذي يخصه منهم فحسن النظر لنفسه فيما يجب له عليهم من التزام

طاعته فلا يبلغ فيهم من العنف عليهم منزلة تحملهم على الندم فى أمره والبرم بولايته ولا يبلغ بهم من التراخى والاهمال منزلة تقودهم الى الاستخفاف بامره والاخلال بحقه وأما الذى يخصهم منه فحسن النظر لهم والرفق بهم والتحرى الى مصالحهم بحسن الذب عنهم ورفع الايدى المتعدية اليهم وأخذه بالحق فيما لهم وعليهم وانتصاف المظلوم من الظالم والمواساة فى الحقائق بين القوى والضعيف والغنى والفقير حتى يعم عدله الكبير والصغير والقريب والبعيد كما قال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى خطبته اعلموا انه لا أحد أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه ولا أقوى من الضعيف حتى آخذ الحق له وقال بعض الحكماء خير الولاة من قدم الصبر وآثر العدل وقبل الحق ووافق صواب الحكم وأنصف من نفسه واجتهد فى مصالح العباد حكى العتبى قال بعث هشام بن عبد الملك يوما الى قاضيه فلما وصل خرج اليه وزيره وأقبل ابراهيم بن محمد بن طلحة فقعدا جميعا بين يدى القاضى وقال له الوزير ان أمير المؤمنين قدمنى للكلام عنه مع هذا الرجل يعنى ابراهيم فقال القاضى تأتينى بالبينة على تقديمك قال أترانى قلت عن أمير المؤمنين مالم يقل وليس بينى وبينه الا هذا الستر قال لا ولكن لا يثبت الحق لك ولا عليك الا بذلك فقام ولم يلبث ان قعقعت الابواب وخرج الحرس فقالوا هذا أمير المؤمنين فقام اليه القاضى فأشار اليه فقعد وبسط له فقعد هو وابراهيم على البسط اتباعا للحق فتكلموا وحضرت البينة فوجب الحكم على أمير المؤمنين فقضى عليه ومثل هذا أيضا حكى عن الحكم بن هشام أحد خلفاء بنى أمية بالاندلس وكان قد قدم للقضاء بقرطبة محمد بن بشير وكان فتى وكان اذا خرج وجلس فى مجلس الحكم لبس رداء معصفرا ورجل شعره وكان الى شحمة أذنه فاذا التمس ما عنده وجد قائما بالحق نافذ الحكم مؤثرا العدل قويا فى ذات الله تعالى بعيدا عن الهوى جانحا الى التقوى فرفع اليه رجل من كورة جيان ان عاملا للحكم اغتصبه جارية وصيرها الى الحكم فاثبت الرجل عند محمد بن بشير ما جرى عليه فى جاريته وأتاه ببينة يشهدون على عين الجارية وعلى معرفة تظلمه فاوجب الحق حضور الجارية والوقوف على عينها فقام القاضى واستأذن على الحكم فلما دخل عليه قال انه لا يتم العدل فى العامة دون افاضته فى الخاصة وأعلمه بخبر الجارية وكانت قد وقعت من نفسه موقع لطف وقال لابد من ابرازها أو تعزلنى عن القضاء قال له الحكم أولا أدعوك الى خير من ذلك قال وما هو قال تبتاع الجارية من صاحبها باوفر الاثمان وأجل القيم وأبلغ ما يرضيه فيها فقال له ان الشهود قد شخصوا من هنالك يطلبون الحق فى مظانه فلما وصلوا انصرفهم دون انفاذ الحق لاهله فلعل قائلا يقول انما باع مالم يملك بيع مقتصر على نفسه فلما سمع مقاله أمر باخراج الجارية من قصره وشهد الشهود على عينها وقضى بها لصاحبها ومن أقوال الحكماء خير الامراء من عظم العلم وأكرم العلماء وقبل النصيحة وأظهر العدل وانفاذ الحكم ورفض التكبر ولزم التواضع ولم يخل بمال الله على من استوجبه وأدى الامانة فى العباد ووصل الرأفة بهم ولم يول الاشرار عليهم وفى بعض الحكم المرفوعة أحق الناس بدوام السلطان واتصال الولاية أقسطهم بالعدل فى الرعية وأحقهم عليها كلاءة ومؤنة وقالت الحكماء السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد لا قوام لاحدهما الا بصاحبه وسئل بعض الحكماء أى الناس أفضل قال من يعدل فى أحكامه

ويعزل

ويجزل في انعامه وتظهر الحكمة في كلامه نظمه بعض الشعراء فقال

أبيت اللعن حزت المجد كلا * وأحرزت المكارم مستقلا * اذا حل الملوك مكان حكم وجاروا كان حكمك فيه عدلا * وان صعدوا المنابر ثم جاروا * فأنت اذا صعدت تقول فصلا
وان بذلوا القليل لمعتفيهم * تكرمت نوالهم فبذلت جزلا

حكى ان المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الاحد في يوم أعده للحكم فمشى اليه يوما فلقيته امرأة في ثياب رثة فأنشأت تقول

يا خير منتصف يهدى له الرشد * ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك عقيد الملك أرملة * عدا عليها فما تقوى به أسد
فابتز منها ضياعا بعد منعتها * لما تفرق منها الاهل والولد

فلما وصل الى مكان حكمه قال لها من خصمك قالت القائم على رأسك العباس ابن أمير المؤمنين قال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم أجلسها معه وانظر بينهما فأجلسهما ونظر بينهما بحضرة المأمون وجعل كلامها يعلو على كلام العباس فزجرها بعض الحجاب فقال له المأمون ويحك خلها فان الحق أنطقها والباطل أخرسه وأمر برد ضياعها اليها وفي مشاهدة المأمون الحكم بينهما وتقويم القاضي النظر في ذلك وجوه لطيفة تقتضيها السياسة ومعان شريفة يوجبها الشرع وذلك بما انه توجه الحكم لولده فلا يجوز أن يحكم له ويجوز أن يحكم عليه ومنها ان الخصم امرأة والامرأة يجل عن محاورتها وأيضا فان جلالة قدر العباس أجل من ان يلزمه الحق غير أبيه ومنها ارهاب المدعى عليه اذا علت منزلته فيذعن للحق ولا يمكنه التعصب للباطل وأيضا فربما أنف ذوا الهمة العالية من وصول المتكلم الى حقه عنوة فيدع كثيرا من حقه محافظة على المنزلة فيبادر الى الانصاف قبل الحكم ليكون متفضلا وربما وقع الشك للحاضرين في ان الحق له أو عليه كالذى حكى عن موسى الهادى انه جلس يوما للنظر في المظالم وعمارة بن حمزة قائم على رأسه فقام رجل متظلم يدعى ان عمارة غصبه ضيعة فأمره الهادى بالجلوس معه للحكم فقال عمارة يا أمير المؤمنين ان كانت له فلا أعارضه فيها وان كانت لى فقد تركتها له ولا أبيع حظى من مجلس أمير المؤمنين فهذا من أحسن السياسة وعلو الهمة والمحافظة على المكانة وأما الشك فواقع عند جميع الحاضرين من ان الحق له أو عليه وقيل انه كتب بعض العمال الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ان مدينة من مدائنه قد تهدمت أسوارها واحتاجت الى الصلاح فكتب اليه عمر رضى الله عنه حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور ان شاء الله والسلام وفي بعض الحكم ما أمحلت أرض سال عدل السلطان فيها ولا ضحيت بقعة فاء ظله عليها وقال بعض الحكماء اياك والمقام ببلد ليس به نهر جار ولا سوق قائمة ولا سلطان عادل ومن فقر أبي منصور الثعالبي اذا كان الملك واضح ميسم العدل فارش مهاد الفضل باسط جناح البر منبت بزر المحبة ممتد ظل الهيبة ملك عنان السياسة وابتهج الزمان بحسن آثاره وشق على الملوك شق غباره وقال أيضا أفضل الملوك من كان عدله كافيا كاملا وجوده هاميا هاملا وسئل ابن عيينة عن قول الله عز وجل ان الله يأمر بالعدل والاحسان فقال العدل الانصاف والاحسان التفضل وقيل لبعض العلماء من أفضل

الملوك قال من أمن الصاحب جفوته وخاف الظالم سطوته وعدل فى الرضى والغضب وشمل احسانه من بعد وقرب ومن أقوالهم من أحب النجاة من العطب عدل فى الرضى والغضب ومما كتبت فى هذا المعنى

تجنبت من غير جرم جنيت * وأعرضت دون اعتراض وجب
فحسن ظنونك بى محسنا * وعامل أخاك بحسن الادب
فما اقترف المرء أنجى له * من العدل عند الرضى والغضب

وقال بعض الحكماء من الحق على من ملكه الله على بلاده وحكمه فى عباده أن يكون لنفسه مالكا وللهوى تاركا وللغضب كاظما وللظلم كارها وللعدل فى الرضى والغضب مظهرا وللحق فى السر والعلانية مؤثرا فاذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته وأشرب القلوب محبته وأشرق نور عدله زمانه وكان الناس على أعدائه أعوانه ومن الحكم المنثورة زين الامارة العدل وزين الثروة البذل وقال عبد الملك بن مروان يوما لبنيه كلكم يترشح لهذا الامر ولا يصلح له الا من كان له سيف مسلول ومال مبذول وعدل تطمئن معه القلوب ومن كلام الحكماء خير الملوك من عدل وشرهم من جهل وبخل وقالوا أحب خلق الله امام عادل وعالم عامل وكتب بعض الصالحين الى بعض اخوانه اذا استفزك الغضب وخشيت أن لا تعدل فاذكر عدل الله فى العباد وأخذه الحق لبعضهم من بعض فى المعاد فان ذلك أسرع لرد غضبك اذا تقلت من طيش السهم الى الغرض ومن جرى الماء الى القرض وقال بعضهم قدم فضل عدلك اذا حكمت ولا يصدنك الحرج عن ايثار الحق اذا علمت تكن أحب النفوس الى البشرى وألذ فى العيون من سنة الكرى وقالت الحكماء الملك بيت أسه الايمان وسقفه التقوى وأركانه الشرائع وفرشه العدل واستاره السير المحمودة فاذا تصدر فيه الملك ابتهجت به الدنيا وتأنقت عليه النفوس وعمرت البلاد وشمل الصلاح العباد وقالوا أيضا الملك سرير فاذا جعل التقى كساؤه والعدل وطاؤه والورع غطاؤه قام الملك فيه آمنا واستيقظ فرحا مسرورا ومن أمثالهم من جعل العدل عدة طالت به المدة وقالوا من استفاض عدله شهر فضله وحمد فعله وقيل لبعضهم من أرجح الملوك عقلا وأكملهم أدبا وفضلا قال من صحب أيامه العدل وتحرز جهده من الجور ولقى الناس بالجاملة وعاملهم بالمساهلة ولم يفارق السياسة مع لين فى الحكم وصلابة فى الحق فلا يأمن الجرىء نشطته ولا يخاف البرىء سطوته وروى عن ابن مسعود أنه قال أنظروا عدل المرء عند غضبه وأمانته عند طمعه فاذا اختبرتموه عرفتم على أى شقيه يقع وقال أبو وائل الثقفى دعانى سليمان بن وهب وقال انى قدمت حسن الظن بك والثقة بأمانتك وليتك قلادة فى عنق فصدق ظنى فيك وحقق ثقتى بك ولا تفارق العدل فى المخلوقين ظاهرا والعدل بينك وبين الخالق باطنا والله المستعان ثم دفع رقعة فيها توليى على الامور وجاء فى بعض الحكم الملك شخص كشخص الملك أعضاؤه وسيره المحمود وعدله الموضوع فى الناس فاذا صلحت الاعضاء صلح الجسد واذا فسدت الاعضاء فسد الجسد لانه لا يتفق صلاح الجسد مع فساد الاعضاء وفى ذلك يقول بعض الشعراء

الملك جسم كان ان تدبره * طبائع أربع محمودة الاثر

العدل

العدل فى الحكم ثم الحلم فى غضب * والبذل للمعروف ثم الصدق فى الخبر
لمن تعدى من الاملاك موضعها * فقد خلا من جميع الفضل والنظر

ونظر معاوية يوما الى ابنه يزيد وقد ضرب غلاما له فقال له كيف طاوعتك نفسك على بسط يدك الى من لا يقدر على دفعها عن نفسه فندم وما رؤى بعدها يضرب غلاما ومن أمثال الحكماء الاعتراف يهدم الاقتراف والعدل غاية الانصاف وفى منثور الحكم العدل يرفع العدل وكتب بعض الصالحين الى بعض الملوك مثلك أعزك الله من تواضع لعظمة الله وتقرب اليه بما يرضاه وأقام العدل فى عباد الله فأغاث المستغيث وأجار المستجير وآمن الخائف وعاد على الراجى واغتفر ذنوب الجانى طاعة لله مقتديا برسول الله مستشعرا حسن المثوبة من الله * روى عبيد ابن أبى الجعد عن كعب الاحبار رضى الله عنه أنه قال ان الله عز وجل دارا من درة فيها سبعون ألف قصر فى كل قصر سبعون ألف بيت لا يدخلها الا نبى أو صديق أو شهيد او حاكم فى نفسه أو امام عادل وقال بعض الحكماء لبعض الملوك أيها الملك انما تخرك بالظهار عدلك وايثار فضلك لا بجمال بزتك وتمكن عزتك وفراهة مركبك وكثافة موكبك وقال بعضهم اذا عدل الملك استراح الناس وأمن الخائف وطاب عيش الرعية وان لم يجدوا الثروة واتصلت الهداية وزاد الصلاح وأحبه من لم يعرفه ودعا له من لم يره وقال يزيد بن معاوية يوما لجلسائه من أنعم الناس عيشا قالوا أنت يا أمير المؤمنين قال ليس الامر كذلك قالوا فأمير المؤمنين معاوية قال وليس كذلك قالوا فيقول الامير أصلحه الله قال نعم أطيب الناس عيشا رجل له امرأة حسناء قد رضيت به ورضى بها الهما قوت هنى ولا يعرفنا ولا نعرفه وقال فى مثل ذلك بعض الشعراء

وما العيش الا فى الخمول مع الغنى * وعافية تغدو له وتروح

وقيل لبعض الاعراب ما لذة الدنيا فقال العافية مع الكفاية والعدل مع الحماية وهذا كلام جامع وقال غيره مثل ذلك وقد سئل ما لذة الدنيا فقال زمن خصيب وامام عادل وعافية وعفاف مع صحة وكفاف وقال وهب بن منبه اذا هم الوالى بالعدل أدخل الله البركة فى أهل مملكته حتى فى الاسواق والارزاق واذا هم بالجور أدخل الله النقص فى مملكته حتى فى الاسواق والارزاق وفى بعض الحكم من عمل بالعلم وعدل فى الحكم فقد برئ من الذم

﴿فصل﴾ وليس العدل شئ اختص به الامراء والرؤساء والولاة ممن له فى غيره حكم دون غيرهم بل هو لازم لكل انسان فى جميع أحواله فانه يتعين عليه العدل فى أهله وماله وولده وعياله وخوله وخلانه وقرابته وجيرانه ومعامليه وخلطائه فى أخذه وعطائه وفى الخاص والعام من جميع أموره وأحواله وكذلك يلزمه العدل فى نفسه وذاته وهو الاهم عليه والاحق به فانه اذا عدل فى نفسه وذاته فحملها على المصالح وصدها عن القبائح وأخذها بحكم ما يكون فيه صلاح دينه ودنياه فقد وفاها حقها وعرفها صدقها واذا اختل ذلك فى نفسه فجدير أن يختل فى غيره وان هو لم يصنها عن المكاره والآفات وخلى بينها وبين ما تاقت اليه من الشهوات فضيعت وفرطت حتى تشتت وتورطت فهو لغيره أضيع ولخيره أمنع جعلنا الله ممن عدل فى جميع الاحوال وركب منهاج الصواب فى الافعال والاقوال وتبصر فى تحسين العواقب والمآل فجنى ثمرة العدل والاعتدال بفضل الله ذى العزة والجلال والعظمة والكمال لا رب غيره ولا اله

سواه ﴿فصل في بغض الجور وأهله﴾ الجور أجارك الله آفة النفاق ومحدث الحدثان وجالب الفتن ومسبب المحن ومحيل الاحوال وممحق الاموال ومخلي الديار ومجني البوار ولا يجتمع أبدا مع التصديق ولا يرى في أهل التحقيق وهو مأخوذ من جار عن الطريق اذا تنكب عنه فكأنه عدل عن طريق العدل وحاد عن سبيل الخير والفضل وقد كانت الامم السالفة والقرون من أخياف المتمذهبين وأصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم واختلاف عقائدهم مجتمعون على انكاره مجمعون على اضراره وكانوا يستقبحون آثاره ويكرهون اسراره واجهاره ويتطيرون بقبيح مواقعه ويتوقعون من سوء عواقبه ومن كلامهم في ذلك من يظلم يخرب بيته وقال كعب الاحبار اني وجدت في الكتب المنزلة الظلم يخرب الديار ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ومازال العقل ينكر الظلم ويشناه والشريعة تبعده وتتحاماه والسياسة تنافره وتتجافاه روى أنه اجتمعت بطون من العرب في دار عبد الله بن جدعان وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا الحال لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان وذلك قبل مبعثه وهو ابن خمس وعشرين سنة فتحالفوا وتعاقدوا وتعاهدوا على رد المظالم بمكة وان لا يظلم منهم أحد قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد الا منعوه وأخذوا للمظلوم بحقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا الحال لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول ولو دعيت اليه لاجبت وما أحب أن لي به حمر النعم فصار ذلك بما قاله صلى الله عليه وسلم حكما موجبا وشرعا لازما لانه كانت أقواله عليه السلام كلها أحكاما شرعية وأحكاما مرضية وسمي حلف الفضول لانه قام به رجال من جرهم كل واحد منهم اسمه الفضل والفضول جمع فضل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة وقال عليه السلام من أصبح لا ينوي ظلم أحد غفر له ما اجتنى وما اجترم وقال صلوات الله عليه وتسليمه ان أهون الناس على الله وأبغض الناس الى الله وأبعد الناس من الله يوم القيامة رجل ولاه الله من أمة محمد شيأ ثم لم يعدل فيهم وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به وأما الذي في النار فرجل عرف الحق فجار في الحكم ورجل قضى في الناس على جهل فهو في النار وقال عليه السلام ما من أحد أقرب من الله يوم القيامة بعد نبي مرسل أو ملك مصطفى من امام عادل ولا أبعد من الله من امام جائر يأخذ لجنبه ما يريد ويحكم بهواه وقال صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة وقال عليه السلام اتقوا دعوة المظلوم فانها تحمل على الغمام يقول الله جل وعز وعزتي وجلالي لانصرنك ولو بعد حين وقال صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يا علي اتق دعوة المظلوم فانه يسأل الله حقه والله عز وجل لا يمنع أحدا حقه وروى عنه أبو الدرداء أنه قال قال عليه السلام ان العبد اذا ظلم ولم ينتصر ولم يكن له أحد ينصره فرفع طرفه الى السماء ثم دعا الله واستنصره فان الله تعالى يقول لبيك عبدي أنا انتصر لك عاجلا أو آجلا وقال معاوية بن أبي سفيان اني لاستحيي أن أظلم من لا يجد علي ناصرا غير الله تعالى وسئل رجل من الحكماء من أولى الناس بالرحمة فقال أولى الناس بالرحمة الرجل البر يكون مع السلطان الفاجر فهو الدهر متعوب محزون بما يرى ويسمع والعاقل في تدبير الجاهل والكريم يحتاج

الى

الى اللئيم وكانت الحكماء تقول الظالم مخصوم وان حكم له والمظلوم ظافر وان حكم عليه وقال ارسطاطاليس ليس شئ أقرب الى تغيير النعم من الاقامة على الظالم وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم امام جائر وغني بخيل وفقير مختال اى متكبر ومن أقوال الحكماء من لم يعدل عدل الله فيه ومن حكم لنفسه حكم الله عليه وقال الشاعر

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيبلى بظالم

ومن كلام أبي منصور الثعالبي أخلق بالملك الظلوم أن يصير عظة للرائين وعبرة للراوين وقال أيضا الظلم لا يقال في الدنيا صريعه ولا يساغ في الآخرة ضريعه وقال سقراط راحة العاقل في وجود الحق والعدل وراحة الفاجر في وجود الباطل والجور وقال أيضا بالعدل ثبات النعم وبالجور زوالها ومثله من كلامهم الظلم مسلبة للنعم مجلبة للنقم وقال بعض العلماء أنفذ السهام دعوة المظلوم وأسرع الاشياء صرعة الظلوم وقال ارسطاطاليس الظلم طبع في النفوس وانما يصدها عن ذلك احدى حالتين علة دينية لخوف معاد أو علة سياسية لخوف جزاء أخذه المتنبي فقال الظلم في طبع النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم ومن أمثال الحكماء ويل للظالم من يوم المظالم وفي منثور الحكم العز في العدل والذل في الجور ودخل طاوس على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة فقال له هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة قال سليمان قل فقال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على السرير وهو يبكي فما زال باكيا حتى انفصل الناس عن مجلسه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة يا كعب أعيذك بالله من امارة السفهاء قال وما امارة السفهاء يا رسول الله قال يوشك أن يكونوا أمراء ان حدثوا كذبوا وان عملوا ظلموا فمن جاءهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يرد على حوضي وروى أن في الزبور اذا ظلمت من دونك فلا تأمن عقاب من فوقك ومن كلام أكثم بن صيفي شر الملوك من خافه البرئ ومن كلامه أيضا لو أنصف المظلوم ما كان فينا ملوم وقالوا ظلم الضعيف أفحش الظلم وسؤال العديم أفحش الغنم وقال معاوية أنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه وقال رضي الله عنه ما غضبي على من أملك وما غضبي على من لا أملك وقال الحسن بن أبي الحسن خصلتان اذا كانتا في الرجل فسد ما سواهما من أموره الطغيان في النعمة وقرأ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي والركون الى الظلمة وقرأ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وروى الحسن أيضا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من أعان سلطانا ظالما ولو بخط قلم لم تقر قدماه بين يدي الله حتى يؤمر به الى النار وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقف أحدكم موقفا يضرب فيه رجل مظلوم فان اللعنة تنزل على من حضره حيث لم يدفعوا عنه وقال صلى الله عليه وسلم الظلم ثلاث ظلم لا يغفره الله هو الشرك به والظلم الذي يغفره الله ظلم العباد لانفسهم فيما بينهم وبين الله تعالى والظلم الذي لا يتركه الله مظالم العباد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض ولاته ضم جناحك عن الناس واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مجابة وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لبعض عماله وقد جار

اما بعد فقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت وحكى عنه رحمه الله أنه خرج يوما الى الصلاة فلقيه رجل من أهل اليمن متظلما فأنشد وقال

أمرت من كان مظلوما اليأتيكم * فقد أتاك غريب الدار مظلوم

فقال له عمر ما ظلامتك قال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي فامر مزاحما باخراجها من الديوان وصرفها اليه وأمر له بضعف نفقته ومن كلام الحكماء اذا رأيت الحكام يتنافسون في العدالة ويجتنبون الفرق والجهالة فتلك نعمة طائلة واذا رأيت الجور فاشيا مظهرا والعدل مطرحا منكرا فتلك نقمة زائلة وقال حذيفة من علامات اقتراب الساعة ان يكونوا أمراء فجرة ووزراء كذبة وأمناء خونة وعلماء فسقة وعرفاء ظلمة وروى ابن سليمان الداراني ان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام مر ظلمة بني اسرائيل ان يقللوا من ذكري منهم فاني أذكر من ذكرني باللعنة حتى يسكت وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سيكون بعدي أمة على أبوابهم مثل مبارك الابل من الفتن فمن أطاعهم أضلوه ومن عصاهم قتلوه قالوا يارسول الله فما نصنع قال تصنعون كما صنع أصحاب موسى صلى الله عليه وسلم نشروا بالمناشير وصلبوا على الجذوع فموت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله وفي بعض الحكم من جار حكمه أهلكه ظلمه ومن أمثالهم شر الملوك السفاك الافاك ومن كلامهم خير الملوك من كفي وكف وعفا وعف وقال شر العمال من اذا ولي جار وتار واذا عزل حار وخار وقال بطليموس من تاه في ولايته ذل في عزلته وقال الخوارزمي ألا وان الولاية ثوب المرء فان قصر فضح عليه وان طال عثر فيه وقال رجل من العلماء الملوك خلفاء الله في الارض فمن ملكه الله بلاده وعباده فليستقم وليحذر مخالفة الله في خلقه فانه لا تصلح الخلافة مع المخالفة ولا تحسن العقبى مع المعاقبة وقال بعضهم يا خليفة الله لا تخالف الله ويا أمين الله لا تأمن عقاب الله وفي بعض الحكم بشر الظلوم بتقليل العدد وانقطاع الامد وكتب بعض الملوك الى بعض عماله اذا أنت لم تدع فرضا الا أقمته ولا ظلوما الا وقمته فقد أخذت العدل بالطرفين واستوجبت حسن المثوبة في الدارين ومن كلام بعض العلماء من عدل نسك ومن ظلم هلك الا من تاب وأمسك ورد المظالم واستدرك فنعم السبيل سلك وقال بعض الشعراء

اياك والدنيا الدنية انها * دار متى سالمتها لم تسلم

وتجنب الظلم الذي هلكت به * أمم تودلو انها لم تظلم

وقال بعض الحكماء الظلم أسرع الى تبديل النعم وتعجيل النقم من الطير الى الاوكار ومن الماء الى الانحدار وفي منثور الحكم العدوان على العباد أخبث الزاد الى المعاد ومن ذكر قدرة الله لم يقصد ظلم عباد الله وقال بعض الادباء العدل ظل ظليل ولكل خير كفيل والجور قسط مخيل وعلى الشر دليل وقال أيضا من عدل واعتدل وقبل وأقبل وأفضل وأجمل فنعم عقبى المحل ومن جار وما أجار وادار سوء الاقتدار فبئس عقبى الدار ومن كلام الحكماء الجور يجر النوائب ويصيب بالمصائب والعدل يحمي الجوانب ويحسن العواقب ويخلص من الشوائب وحكى انه شكا بعض أهل الاقطار الى المأمون واليا كان عليهم فقال لهم كذبتم فقد صح عندي عدله فيكم واحسانه اليكم فاستحوا ان يردوا عليه قوله فقال له شيخ منهم يا أمير

المؤمنين

المؤمنين قد عدل فينا منذ خمسة أعوام فاجعله في قطر غيره حتى يشيع عدله في جميع رعيتك وتربح الدعاء الحسن فضحك المأمون واستحيى منهم وصرفه عنهم رحم الله عبدا عدل في أحكامه وأقسط في أقسامه وصدق في كلامه ونظر في حلاله وحرامه واقتصد في وجوده واعدامه وتبرأ من الجور وآثامه وتنزه عن الظلم واظلامه وقدم في مقامه لمقامه واستدرك الفائت فيما بقي من أيامه ليفوز برحمة الله تعالى واكرامه بجزيل فضله وانعامه لا اله غيره

الباب السابع في استجلاب الحلم ومصالحه واطراح السفه ومقابحه

الحلم سددك الله من أكرم الخلال وأتم الخصال وأفضل شمائل الرجال وأعلى مراتب الكمال واسنى مواهب الله الكبير المتعال وهو أصل من أصول الدين وركن من أركان الطاعة مكين وحبل من حبال الشرع متين وحصن من حصون الايمان حصين من استند اليه وتمسك به واعتمد عليه استنارت له الظلم وأمن من عثار القدم وعصم من مواقع الندم وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم والفوز باوفر حظوظ الفضل والكرم ومن تحلى به واستعمله وأخذ به نفسه وامتثله فقد استمسك من الصبر بكل سبب واستولى على دواعي الخير ومساعي البر في كل أرب فما زال يطفئ جمرة الغضب ويسمو بصاحبه في الدارين الى أرفع الرتب سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان فقال الصبر فاذا وجدنا جميع أحوال الطاعة ومكارم الاخلاق متفرعة من الصبر وهو قطبها ومحتدها وسرها ومعتمدها فالحلم بلا مدافعة أجل عزائم الصبر وأوضح معالم البر وأعظم صنائع الخير وهو اسم من أسماء الله سبحانه وصفة من صفاته لانه جل ذكره يرى عصيان العاصين ويطلع على خيانة الخائنين ويشاهد جور الظالمين ويحصي ذنوب الخاطئين فلا يحتجب عنه عمل عامل ولا يغيب عن علمه شيء في عاجل ولا آجل وهو بحلمه لا يعجل بالانتقام مع القدرة ولا يستفزه الغضب مع امكان القوة ولا تبعثه العجلة على انفاذ حكمه مع وضوح الحجة بل يؤثر الاناءة والامهال ليكون له الفضل والمنة وحسبنا قوله عز من قائل وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وقوله تبارك اسمه ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ومثل هذا كثير في كتاب الله عز وجل بل هو الحليم الذي لا يعجل الكريم الذي يمهل ولا يهمل له النعمة السابغة والحجة البالغة وقد اثنى الله تعالى بالحلم على أنبيائه وخص به صفوة أوليائه واستعمل به من أراد كرامته من أهل طاعته وأصفيائه فقال سبحانه ان ابراهيم لحليم أواه منيب وقال لرسوله خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين روى انه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام عند نزول هذه الآية ماهذا قال لا أدري حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل فقال يا محمد ان ربك أمرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت محبة الله لمن أغضب فحلم وقال صلى الله عليه وسلم الغضب جمرة تتوقد في جوف ابن آدم ألم تر الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه وقال صلوات الله وسلامه عليه اذا غضب أحدكم وكان قائما فليقعد وان كان قاعدا فليضطجع يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطة النفس وأتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أوصني قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب ثم أعاد

عليه فقال لا تغضب وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي وقال عكرمة في قول الله عز وجل واذ كر ربك اذا نسيت أي اذا غضبت وقال ابن المغيرة الغضب صدى القلب حتى لا يرى صاحبه حسنا فيفعله ولا قبيحا فيجتنبه وقال أيضا شدة الغضب تغير المنطق وتقطع مادة الحجة وتبعد الفهم ولذلك قال الاصمعي أحضر الناس جوابا من لم يغضب وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك وقال عيسى بن حماد كثيرا ما كنت أسمع الليث بن سعد يقول لاصحاب الحديث تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شئ لشئ أحسن من علم الى حلم وشتم يوما رجل الحسن بن أبي الحسن فبالغ في شتمه فقال له أما أنت فلم تبق شيأ وما يعلم الله أكثر وقال أبو الدرداء لرجل أسمعه كلاما ياهذا لا تعرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصى الله فينا الا بان نطيع الله فيه وقال لقمان عليه السلام ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا الصديق الا عند الحاجة ومن أمثال الحكماء من حلم ساد ومن تفهم ازداد وكان يقال اياك وعزة الغضب فانها تصير بك الى ذل الاعتذار وقال بعض الصالحين أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب وحكي عن بعض ملوك الفرس انه كتب كتابا ودفعه الى بعض وزرائه وقال له اذا أنا غضبت فناولنيه وكان قد كتب فيه مالك وللغضب وانما أنت بشر ارحم من في الارض يرحمك من في السماء وكتب أبرويز لابنه يابني ان كلمة منك تسفك دماء وكلمة تحقن دماء وأمرك نافذ وكلامك ظاهر فاحترس في غضبك من قولك ان يخطي ومن لونك ان يتغير ومن جوارحك ان تخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما وكان كسرى اذا غضب على أحد من مرازبته أمر بحطه عن مرتبته وأبقى عليه معروفه وقال ان الملوك تؤدب بالهجران ولا تعاقب بالحرمان وقالت الحكماء ليس الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر انتصر ان الحليم من اذا قدر عفا وقيل الحلم ترك المكافأة بالشر قولا وفعلا ﴿فصل﴾ وحد الحلم امساك النفس عند الاستشاطة في الغضب وربط الجأش عند هيجان الحرج وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر والتأيد عند استثارة الاسباب الباعثة على الانتصار والسكون عند الاحوال المحركة للانتقام والتثبت في ترك تعجيل انفاذ الحكم لما في عواقب ذلك من وقوع الندم واظهار خفة السفاهة عند حلول البرم لا سيما مع تمكن القدرة وتحكم القوة فان في ذلك لمن ملك اربه وأطاع ربه من اقناع النفس واظهارها ما يحملها على احتمالها واغضائها ويمنعها عن انفاذ عزمة الانتقام وامضائها وهو دليل الرحمة وسعة الصدر واستحكام الثقة وتمكن الصبر وشرف النفس وعلو الهمة وايثار مكارم الاخلاق المثمرة للرأفة والاشفاق فما منع شيأ من دواعي الفضل من طبع عليه ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وفق اليه كما انه ما ترك شيأ من الاحوال الذميمة وتأخر عن سبب من الاسباب المليمة من أنفذ غضبه واستعجل عند القدرة انتقامه واستعذبه والحلم لا يستطاع تعلما ولا يدرك تبصرا وتفهما وانما يكون سجية وتكرما لا يفيده كثرة التجارب ولا يورثه طول الحنكة كما قال أبو الطيب المتنبي

واذا

وإذا الحلم لم يكن في طباع * لم يحلم تقادم الميلاد

فهو غريزة في الانسان يصدر عن صدر سالم من الغوائل والاذى صاف من شوائب الكدر والقذى ونفس نفيسة موقنة بالمعاوضة والجزا آخذة من المكارم باوفر الحظوظ والاجزا كما قال الشاعر

للحلم شاهد عدل من تعمده * وللكريم عن العوراء اغضاء

قيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم قال من قيس بن عاصم المنقري رأيته يوما قاعدا بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه اذ ارجل مكتوف ورجل مقتول فقيل له هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا فوالله ماقطع كلامه ولاحل حبوته ثم التفت الى ابن أخيه وقال له يا ابن أخي أنت رميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك ثم قال لابن له آخر قم يا بني فوار أخاك وحل كاف ابن عمك واحمل الى أمك مائة ناقة دية عن ابنها فانها غريبة وقيل للاحنف أيضا من أحلم أنت أو معاوية قال ما رأيت أجهل منكم ان معاوية يقدر فيحلم وانا أحلم ولا أقدر فكيف ان أقاس به أو أضاف اليه ﴿فصل﴾ والحلم يحسبه السفيه من ضعف المنة واحتمال المهنة والعاقل يراه من كمال العزة واسداء المنة ولذلك قال الاحنف لا تزال العرب عربا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف ولم تر الحلم ذلا ولا التراهب فيما بينها ضعة كما قال

لا يدرك المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام

ويصفحوا عن كثير من اساءتهم * لا صفح ذل ولكن صفح احلام

وقال الحريمي أرى الحلم في بعض المواطن ذلة * وفي بعضها عزا يسود فاعله

وقال غيره واني لاغضي عن أمور كثيرة * وفي دونها اقطع الحبيب المواصل

وأعرض حتى يحسب المرء انني * جهلت الذي أتى ولست بجاهل

وقال بعض الحكماء الحلم والاناءة توأمان نتيجتهما علو الهمة وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول ما يرى الحليم بركة حلمه ان الناس كلهم أعوانه على الجاهل وفي بعض الحكم ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة حليم من سفيه وبر من فاجر وشريف من دني وقال الاحنف بن قيس ما نازعني أحد قط الا أخذت عليه في أمري باحدى ثلاث خصال ان كان فوقي عرفت قدره وان كان دوني أكرمت نفسي عنه وان كان مثلي تفضلت عليه أخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه علي الجرائم

فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم

فاما الذي فوقي فاعرف فضله * وأحمل عنه ظلمه وهو ظالم

وأما الذي مثلي فان زل أوهفا * تفضلت ان الفضل بالصفح حاكم

وأما الذي دوني فان قال صنت عن * اجابته عرضي وان لام لائم

ونظمه الناشي أيضا فقال

اذا كان دوني من بليت بجهله * أبيت لنفسي ان أقابل بالجهل

وان كنت أدنى منه في الحلم والحجا * عرفت له حق التقدم والفضل

وان كان مثلي في محل من الحجا * أردت لنفسي ان أجل عن المثل

وقال بعض العلماء اذا لم تكن حليما فتحلم فمن تشبه بقوم كان منهم وقال سلمان الفارسى رحمه الله لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ما الذى يبعدنى عن غضب الله قال لا تغضب وقال رضى الله عنه اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا القدرة عليه وقال المنتصر لذة العفو أطيب من لذة الانتقام لان لذة العفو يلحقها حسن العاقبة ولذة الانتقام يلحقها سوء العاقبة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن توق الشر يوقه وقال أيضا على رضى الله عنه الحلم لا يظهر الا عند الغضب فمن أغضب ولم يحلم فليس بحليم وفى ذلك قال بعض الشعراء

ليست الاحلام فى حال الرضى * انما الاحلام فى حال الغضب

وقال النابغة الجعدى

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه ان يكدرا
ولا خير فى أمر اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

وقال يزيد بن الحكم وليس يتم الحلم للمرء كله * اذا هو عند السخط لا يتحلم

وقال ارسطاطاليس العلم دليل العقل والعقل دليل الحلم وقال أيضا الحلم عدة للسفيه وجنة من كيد العدو وحرز من حسد الحسود فانك لن تقابل سفيها بالاعراض عنه الا فللت حده وأذللت نفسه وسللت عليه عند حلمك عنه سيوفا ممن يشاهد حالك معه فيتولوا لك الانتقام منه وقيل ان عمرو بن الاهتم جعل لرجل ألف درهم على أن يسفه على الاحنف فوقف الرجل عليه يسبه فبالغ فى سبه والاحنف مطرق معرض فلما رآه لا يرد عليه ولا ينظر اليه أقبل بعض أنامله و يقول باسوأتاه والله ما يمنعه من جوابى الا هوانى عليه ومن أمثال الحكماء الحلم مطية طيبة وشتم بعض السفهاء المهلب فلم يلتفت اليه فظن انه لا يسمعه فقال له اياك أعنى فقال المهلب وعنك أعرض فقال فى ذلك بعض الشعراء

ولقد أمر على السفيه يسبنى * فأمر ثم أقول لا يعنينى

وقال زهير بن أبى سلمى

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

وشتم رجل الاحنف بن قيس وجعل يتبعه حتى بلغ الحى فقال له الاحنف ياهذا ان كان فى نفسك شئ فقله أو انصرف فانه ان سمعك بعض سفهائنا لقيت منه ما تكره وحكى أيضا عنه انه شتمه رجل وهو ساكت يمشى عنه فاكثروا طال فحضر غداء الاحنف فقال للرجل ياهذا ان غداءنا قد حضر فقم بنا اليه فانك منذ اليوم تحطو وتحمل فقام وهو يتباطأ وروى ان رجلا أسمع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كلاما محرجا فقال له عمر أردت أن يستفزنى الشيطان بعز السلطان فأنال منك ما تناله منى غدا انصرف يرحمك الله ووقع بين أبى مسلم و بين بعض أصحابه كلام فأربى ذلك الصاحب وأغلظ فاطرق أبو مسلم فلما سكنت فورة الغضب عن ذلك الرجل ندم وعلم انه قد اخطأ وقال أيها الامير والله ما انبسطت حتى بسطتنى ولا فطعت حتى أنطقتنى فاغفر لى قال قد فعلت قال انى أحب ان استوثق لنفسى فقال أبو مسلم سبحان الله كنت تسىء فأحسن فحين أحسنت أسىء ومن كلام بعض الحكماء الحلم والتواضع جماع البر وسبب

لذلك حسن المنزلة ومن كلامهم استوجب الشكر من رحب ذراعه وقهر حلمه غضبه وسمع سليمان عليه السلام بعض حكماء الجن يقول معاداة الحليم أقل ضررا من مودة السفيه وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بني اذا أردت ان تواخي رجلا فاغضبه فان أنصفك في غضبه فواخه والا فدعه وقال أيضا ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضي لم يخرجه رضاه الى الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يأخذ ما ليس له وقال الحسن بن أبي الحسن المؤمن حليم لا يجهل وان جهل عليه ولا يظلم وان ظلم غفر وقال بعض الحكماء من غرس شجر الحلم جنى ثمر السلم وقيل لبعض الحكماء وكان من أهل القدرة ان فلانا ينتقصك فلو عاقبته قال ذلك أعذر له في تنقيصي وشتم رجل الشعبي رحمه الله فقال له الشعبي ان كنت كما قلت فغفر الله لي وان لم أكن فغفر الله لك وفي منثور الحكم اذا أردت أن تحمل المكارم فاحتمل المكاره وحكى ثمامة بن أبي ثمامة الانصاري قال كنت في مركب يحيى بن خالد بباب الشام اذ عرض له رجل فأسمعه وأغلظ فتبادر اليه قوم من حواشي المركب فقال لهم كفوا عنه ودعا به وقال له أما تعلم انني قادر على ايذائك قال بلى قال فانصرف فانما يمنعني عنك قدرتي عليك ومن أمثال الحكماء في ذلك الاقتدار يمنع الحر من الانتصار وحكى ان سلم بن نوفل الديلي وكان سيد قومه وثب رجل على ولده فشجه فأتي به اليه فقال له ما أجرأك على ما فعلت وما الذي أمنك من انتقامي منك قال الرجل فلم سودناك اذا الا انك تحلم وتكظم الغيظ وتحمل جهل الجاهل قال له فاني قد آثرت حلمي وكظمت غيظي واحتملت جهلك خلوا عنه فولى الرجل وهو يقول

يسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال محمد بن كاسة ان أهل الجاهلية لم يكونوا يسودون رجلا حتى يكون حليما وان كان أكرم الناس وأشجع الناس وأشرف الناس وقال بعض العلماء ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الايمان حلم يرد به جهل الجاهل وورع يكف به عن المحارم وخلق حسن يداري به الناس وقال معاوية رحمه الله اني لآنف أن يكون في الارض جهل لا يسعه حلمي وذنب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي وقال أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وقيل انه قسم يوما قطفا فأعطى شيخا منها قطيفة فلما نظر اليها الشيخ لم تعجبه فأقسم ان يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره بقسمه فقال له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ وقال بعض الحكماء ان الحلم ليظهر في جميع أحوال الحليم فيرى حلمه في كلامه وفي حركاته وفي مشيته وفي معاملته للناس وفي جميع أحواله عند اجرائه اياها على أحسن وجوهها وتوجيهها الى أجمل مذاهبها وذلك هو العاقل الحليم وكانت الحكماء تقول العقل والاناة رأس الحلم ومن كلام طاوس ما حمل علم في مثل وعاء حليم روى انه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية رضوان الله على جميعهم كلام وافترقا متغاضبين فلما وصل محمد الى منزله كتب الى الحسين بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي بن أبي طالب الى الحسين بن علي بن أبي طالب * أما بعد فان لك شرفا لا أبلغه وفضلا لا أدركه أبونا علي لا أفضلك فيه ولا تفضلني وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان ملء الارض نساء مثل أمي ما وفين بأمك فاذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك وتعال فترضني واياك وان أسبقك الى الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام فلبس

الحسين رداءه ونعليه وجاء اليه وترضاه وقال معاوية بن أبي سفيان رحمه الله لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولن يبلغ ذلك الا بقوة الحلم ومن كلام بعض الحكماء من غرس الحلم شجرا وسقاه الاناة درا اجتنى العز منه ثمرا وأنبت في المكارم أثرا وسئل كسرى عن مقدار الحلم قال وكيف يعلم مقدار ما لم ير كماله في بشر وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس قال من رد غضبه بحلمه وكان معن بن زائدة قد عزم على قتل جماعة من الاسرى وكان من الكرام فلما أمر باخراجهم للقتل ومثلوا بين يديه قام اليه أصغر القوم سنا وقال يا معن أتقتل الاسارى وقد جاعوا وعطشوا فأمر لهم بطعام وشراب فلما أكلوا وشربوا قام اليه فقال له يا معن أتقتل أضيافك فخلى عنهم وخلى سبيلهم وتعجب من حيلة الفتى وفي بعض الحكم من سمت همته ولان جانبه وجبت عشرته وحسنت مودته ومن ظهر حلمه قل ظلمه وكثر أعوانه وقيل لبعض الحكماء من أحلم الناس قال من قدر على الكلام وهو كثير صمته وقدر على العقو بقوه وهو كثير عفوه وقدر على الحركة وهو كثير وقاره ومن الحكم المنثورة الصمت على الجاهل حلم والصمت عند العالم علم وقيل لبعضهم بم يعرف الحليم قال اذا صمت عن الخنا أذناه وأغضت عن الفحشاء عيناه ولم يجر عند المغاضبة أخاه وفي مثل ذلك يقول محمد بن زياد

تخالهم للحلم صما عن الخنا * وخرسا عن الفحشاء عند التهاجر
لهم ذل انصاف وعز تواضع * به لهم ذلت رقاب المعاشر

وقال بعض العلماء الحلم حجاب الآفات وان حلم ساعة ليرد سبعين آفة وقال عمرو بن كلثوم الحليم سليم والسفيه كليم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه السيد هو الحليم حين يستجهل والجواد حين يسأل والبر بمن يعاشر وقال أبضار رحمه الله أحب الاشياء الى أربعة القصد عند الجدة والعفو عند المقدرة والحلم عند الغضب والرفق بعباد الله في كل حال وقال معاوية رحمه الله اني لاجد للعفو عن الذنب العظيم لذة وأريحية ما أجدها لشئ غيره من لذات الدنيا وأوصى بعض الحكماء صاحبا له فقال له العلم والعدل يؤديان الى الصبر والعلم والعدل والصبر يؤدي الى الحلم فالزم الحلم في جميع أمورك تتم لك أسباب الحكمة وتجتمع لك شرائط المروءة وقال الشعبي ما رأيت الله عز وجل نحل عباده أجل من الحلم ﴿فصل﴾ ومن تمام أحكام الحلم وكمال أسبابه واجتماع معانيه قبول العذر من صادق كان أو كاذب فان الاعتذار دليل الندم والندم توبة روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من لم يقبل من متنصل عذرا صادقا كان أو كاذبا لم يرد على الحوض وقد يكون الاعتذار حياء من المعتذر والحياء من الايمان وهذه وجوه يتعين بها على الموفق قبولها وقلما قد أقنع أهل الخير والفضل قليله وفي بعض الحكم ليس من الحلم السؤال عن العذر وقيل أيضا التغافل ذروة الشرف وطلب العذر من آفات الحلم وفي منثور الحكم نعم الشفيع الاعتذار عند أهل الحلم والاقتدار ومن أمثالهم الاعتراف يمحو الاقتراف وقال بعض الشعراء

اذا اعتذر المسيء اليك يوما * من التقصير عذر فتى مقر
فصنه عن عقابك واعف عنه * فان الصفح شيمة كل حر

وقال غيره

اذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقال آخر أيضا اغتفر زلتي لتحرز فضل العفو عني ولا يغرك أجري
لا تكلني الى التوسل بالعذر لعلي أن لا أقوم بعذري

وما أحسن القائل

فأصفح للعذر ما كان مريضا أو صحيحا * فلسان العذر مقبول وان كان فصيحا

ومن كلام بعض الحكماء الكريم أوسع ما تكون مغفرته اذا ضاقت بالمذنب معذرته وقال بعض الشعراء

ولا تنزل بمعتذر عقابا * فان الذنب يغفره الكريم

وقال شمس المعالي العفو عن المجرم من تمام الكرم وقبول المعذرة من محاسن الشيم وقال بعض الحكماء العفو عن الذنوب لذة لا يبلغها المشغوف بالانتقام واعتذر رجل الى جعفر بن يحيى ابن برمك فقال له جعفر أغناك الله بقبول العذر منا عن الاعتذار وأغنانا بالمودة منك عن سوء الظن بك وفي بعض الحكم ما أذنب من اعتذر ولا أعتب من اغتفر ومن حسن الكلام لبعض المعتذرين أنا أعزك الله ممن لا يحاجك في نفسه ولا يغالطك في جرمه ولا يلتمس رضاك الا من وجهه ولا يستعطفك الا بالاقرار بالذنب ولا يستميلك الا بالاعتراف بالزلة فان عاقبت فبحقك وان عفوت فبفضلك فانظر ما أحق هذا بالعفو وأخلق اعتذاره بالقبول ومن جيد كلام الحكماء وما يسبق الى القلب انكاره وان كان عندك اعتذاره فليس كل من جنيت عليه نكرا يوسعك عذرا وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه

اذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا * اليك ولم تغفر له فلك الذنب

وقال علي بن الجهم ان ذل السؤال والاعتذار * خطة صعبة على الاحرار
ليس جهلا بها تكلفها الحر ولكن سوابق الاقدار
ارض للسائل الخضوع وللقا رف ذنبا مضاضة الاعتذار

وقيل انه أتي برجل مذنب الى موسى المهدي فجعل يقرعه بذنوبه فقال يا أمير المؤمنين اعتذاري اليك بما تقربه عيني رد عليك واقراري بذنب لم أجنه ذنب ولكني أقول في المعنى

فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن في العفو عني عن الاجر

فقال له المهدي سأصفح عن ذنبك لعذرك وان كنت من أحدهما على يقين ومن الآخر على شك ليتم المعروف مني اليك وتقوم الحجة لي عليك وقيل انه أتى الحجاج يوما بأسرى فأمر بقتلهم فلما وصل الى أحدهم قام فقال للحجاج لا جزاك الله عن السنة خيرا فان الله عز وجل يقول فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء فهذا قول الله عز وجل في كتابه وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الاخلاق

وما نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق ثقل القلائد

فقال لهم الحجاج ويحكم أعجزتم عن مثل هذا وأمسك عن الباقين وحكى أبو العباس أحمد بن أبي دؤاد قال ما رأيت رجلا عاين الموت ملأ عينيه لما أذهله ولا شغله عما كان يجب أن يفعله الا تميم بن جميل الاوسي رأيته وقد والجي به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم بالله في يوم الموكب وقد جلس للعامة فدعا به ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه وقد بسط له النطع وشهر السيف جعل المعتصم ينظر اليه ويجيل فكره فيه وهو ساكت وكان رجلا وسيما يملأ العين

فأحب المعتصم أن يعلم أين لسانه وجنانه من منظره فقال له ياتميم تكلم وان كان لك عذر فأت به وان كانت لك حجة فأدل بها فقال أما وقد أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام فانى أقول الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى جبر بك صدع الدين ولم بك شعث الأمة واوضح بك سبيل الحق وأخمد بك شهاب الباطل ان الذنب يا أمير المؤمنين يخرس الألسنة ويصدع الافئدة وأيم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق الا العفو والانتقام وأرجو أن يكون العفو أقربهما منك وأسرعهما اليك وأولاهما بك وأشبههما بخلائقك ثم أنشأ يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا * يلاحظنى من حيث لا أتلفت
وأكبر ظنى انك اليوم قاتلى * وأى امرئ مما قضى الله يفلت
وأى امرئ يدلى بعذر وحجة * وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف * يسل علىَّ السيف فيه فأسكت
وماجزعى من أن أموت واننى * لاعلم أن الموت شئ موقت
ولكن خلفى صبية قد تركتهم * وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى اليهم * وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا خافضين بغبطة * أذود الردى عنهم وان مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره * وآخر جذلان يسر ويشمت

فضحك المعتصم وقال ياتميم كاد والله أن يسبق السيف العذل اذهب فقد وهبتك للصبية وعفوت عن الهفوة وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفراة فأحسن وأجمل السيرة وقيل انه وافى قوم من أهل البصرة باب أبى جعفر المنصور شاكين من احمد بن يوسف وكان قد ولاه صدقات البصرة فأمر بعزله وأراد عقوبته ثم أمر بدخولهم فجلس لهم مجلسا ليتحقق ما ادعواه وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم فقال فى بعض كلامه يا أمير المؤمنين لو أن أحدا سلم ممن ولى الصدقات لكان ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يقول عز من قائل ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون فاستحسن المنصور كلامه وحمد مقامه وعفا عنه وولاه مكانا غيره وحكى ان المأمون عتب يوما على ابراهيم بن المهدى لما أدخل عليه فقال يا أمير المؤمنين ولىّ الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار مع ما مدله من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك وأنشأ يقول

ذنبى اليك عظيم * وأنت أعظم منه * فخذ بحقك أولا
فاصفح بفضلك عنه * ان لم أكن بفعالى * من الكرام فكنه

وأطال مجلسه بكل اعتذار حسن وكلام بليغ فقال له المأمون القدرة تذهب الحفيظة والندم توبة يا ابراهيم لقد حبب الىّ العفو حتى خفت ان لا أوجر عليه يغفر الله لك وجدد احسانه وقيل انه بعث يزيد الى معاوية برجل من بنى تميم فلما مثل بين يديه قال له أنت القائم علينا المكثر لعدونا قال يا أمير المؤمنين انما كانت فتنة عم عماها وأظلم رجاها قوى فيها الوضيع وخف الحليم الرفيع فاحتدمت وأكلت عليا وشربت حتى اذا انحسرت ظلماؤها وانكشف غطاؤها

غطاؤها وآل الامر الى مآله وصرح عن محضه ارتفع العبوس وثابت النفوس فتركافتقتنا ولزمنا عصمتنا وعرفنا خليفتنا ومن يحد منا بالمريد الله به عقابا ومن يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فعجب معاوية من فصاحته واستغرب حسن اعتذاره وعفا عنه وأحسن اليه ودعا سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وهو موثق في الحديد وكان صاحب أمر الحجاج فلما دخل عليه ازدراه حيث رآه ونبت عنه عيناه وقال ما رأيت كاليوم وكان يزيد لا يملأ العين منظره ثم قال له سليمان لعن الله رجلا أقادك رسنه وحكمك في أمره فقال له يزيد لا تقل هذا يا أمير المؤمنين انك ازدريتني والامر عني مدبر وعليك مقبل ولو رأيتني والامر علي مقبل لاستعظمت من أمري ما استصغرت واستكبرت منه ما استصغرت فقال له سليمان صدقت ثكلتك أمك اجلس فجلس في قيوده فقال له سليمان عزمت عليك يا ابن أبي مسلم لتخبرني عن الحجاج أتراه يهوي في جهنم أم قد قار بها قال يا أمير المؤمنين لا تقل هذا في الحجاج وقد بذل لكم النصيحة وأخفر دونكم الذمة ووالى وليكم وأخاف عدوكم وانه يوم القيامة لعن يمين عبد الملك ويسار الوليد فاجعله حيث شئت فصاح سليمان استكبارا لكلامه وأمر باخراجه ثم التفت الى جلسائه وقال ثكلته أمه ما أحسن بديهته وأحد قريحته وأجمل تزيينه لنفسه ولصاحبه لقد أحسن المكافأة على الصنيعة وراعى اليد الجميلة خلوا سبيله وأمر بحل قيوده ولم يتعرض لضربته روى انه كان رصد عثمان بن عفان رجل يريد قتله فلما رآه تلقاه بخنجره ثم دهش الرجل فقال عثمان رضي الله عنه خذوه ولا تقتلوه فأخذ فقال لهم عثمان ما ترون في أمره قالوا اقتله يا أمير المؤمنين قال ولم قال لانه أراد قتلك قال وأراد قتلي ولم يرد الله خلوا سبيله ومثل هذا العفو مع مثل هذا الجزم لا يكون الا لمثل عثمان رضي الله عنه ولله در الحسن بن رجاء حيث يقول

صفوح عن الاجرام حتى كأنه ✱ من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي ان يكون به الاذى ✱ اذا ما الاذى لم يغش في الناس مسلما

وقال شبيب بن شيبة لمسلم بن قتيبة والله ما أدري أي يوميك أشرف أيوم ظفرك أم يوم عفوك وقال بعض الحكماء لجلسائه يا قوم هل لكم في الحق أو ما هو أفضل منه قال وما هو أفضل من الحق قال العفو والتفضل وروى عن الحسن انه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة وجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم منادمن عند الله عز وجل من له عند الله تعالى يد فليقم فلا يقوم الا من عفا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عفو الملوك أبقى للملك وقال متمم بن نويرة ثلاثة أشياء تحسن بالمرء السماحة والعفو والصدق وأحسن ما هي في ثلاثة مواطن السماحة في المجاعة والعفو عند الغضب والصدق عند العدم وقيل للاحنف بن قيس ما الحلم قال قول ان ضر فعل وصمت ان ضر قول وهذا كلام حسن وقال بعض الحكماء من أراد أن يلبس ثوب العقل ويتوشح برداء العلم ويتحلى بحلى الصبر فليلزم الحلم في جميع الاحوال ويستعمله في كل الامور تكمل له أسباب الايمان وتجتمع له أشتات السياسة ويتم له شروط المروءة ويأخذ بأطراف المعرفة وتلحظه العيون بالوقار وتزين له القلوب بالمودة وتفرله الالسنة بالشكر ويحوى قصب السبق الفائز بخير الدارين فاذا تكاملت أيدك الله في الحلم هذه الخصال الحميدة وتجمعت فيه هذه الخلال الشريفة السديدة

لمن الحق ان يتخذه المرء جارا يستجير به من الملامة و يحتمى به الى قنة السلامة ومصباحا يستضئ به عند ظلم الجهالة و يكشف عنه غياهب الحيرة والضلالة و يعده ركنا يلجأ اليه عند تهافت الهفوات و يعتمد عليه عند تعارض الشهوات فيتخلص به بفضل الله عز وجل من جميع الآفات فانه من تعلق باسبابه سعد وسلم ومن تلفع باثوابه حمد ونعم ان شاء الله وهو المستعان لا رب غيره * (فصل فى اطراح السفه ومقابحه) * السفه عصمك الله من الشيم المبغوضة والخلال الجفوة المرفوضة الدالة على خسيس الطباع وشمائل الاوضاع والتجرد عن ثياب العقل والانتباذ عن دواعى النبل والفضل وما زال صاحبه أبدا مشنوء الجانب مذموم المقاصد والمواهب والسفاهة هى الخفة والاضطراب يقال تسفهت الغصون اذا أمالتها الرياح وتسفهت الرماح اذا اضطربت عند اشتجارها وتمايلت فكان صاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الافعال والاقوال وكفى بهذا غاية فى النقصان وتأخرا عن درجة الاحسان وتمسكا بحبل المهانة والامتهان ولذلك سمى الكلب سفيها لمهانة نفسه وخساسة جنسه وقيل أيضا السفه الجهل والسفيه الجاهل وسفه بمعنى جهل والسفيه أيضا المبذر الذى لا يصلح لامساك ماله ولا يقوم بصلاح حاله بقلة نظره ومواصلة ضرره وكلها وجوه جامعة لمعانى السفه والوجه الاول أجمع لاسبابه وأبلغ فى جميع أبوابه لانه قد يوجد مع الجهل الثقل والسكوت والصمت والثبوت حتى لا يظن بصاحبه جهلا الا عند الاختبار ولذلك ما جعل السفيه ضد الحليم الاترى الى قولهم فلان طود حلم وفلان أحلم من ثبير فشبهوه بالطود لثبوته وصاحب السفاهة ضده لانه موصوف بالخفة والاستشاطة وسرعة الغضب وقلة التثبت وانما اذا العجلة فيما بداله وكانت العرب تسمى العجلة أم الندامة لان صاحبها يقول قبل ان يعلم و يجيب قبل ان يفهم وقد عابت به الجن أنفسها فى قول الله سبحانه وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا وقال عز من قائل ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه وقال تبارك اسمه قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين وقال عز ذكره فى شأن المبذرين ولا تؤتوا السفهاء أموالكم وقال تعالى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا وذكر كثيرا فى كتابه واشتق بعض الفلاسفة اسم الفلسفة فقال معناه فل السفه وقيل فى بعض الحكم المرفوعة السفيه مبغوض محقور والحليم محفوظ مكلوء ومن كلام الحكماء من غرس شجر السفاهة جنى ثمر الندامة وقالوا من تثبت سلم ومن تعجل ندم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التأنى من الله والعجلة من الشيطان ومن كلام بعض الحكماء السكوت عن السفيه جواب والاعراض عنه عقاب ومباعدته ثواب وفى مثل ذلك يقول بعض الشعراء

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت
حلمت على السفيه فظن انى * عييت عن الجواب وما عييت
فلست مشاتما يوما لئيما * ولو شاتمته يوما خزيت

وقال غيره
وللكف عن شتم اللئيم تكرما * أضر به من شتمه حين يشتم

وقال غيره
وما شئ أحب الى سفيه * اذا سب الحليم من الجواب
متاركة السفيه بلا جواب * أشد على السفيه من السباب

وقالت الحكماء السفيه يخالف ولا يؤالف ويمارى ولا يدارى ويجهل ولا يحفل ويجور ولا يعدل ويمضى ولا يفكر ويقضى ولا يعتذر فما أقل احسانه وأثقل مكانه وأطول فى الاساءة عنانه ورحم الله محمد بن ادريس الشافعى حيث يقول

اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع من مخالفة الفقيه
فنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه

وفى بعض الحكم المنثورة من خالط السفيه مقت ومن جانبه نجت وكان يقال أناة فيها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت ومن أمثال الحكماء مرعة الغضب تورث العطب ومن أقوالهم يكفيك من السفيه انه لا يخلو من الندم ولا يستفيق من عثار القدم وقال بعض العلماء من تملكه غضبه ساء أدبه وقعد به سفهه ولم ينهض به حسبه وقالوا من سفه رأيه عظم غيه وخبث سعيه فصرعه بغيه وقال بعض الحكماء انى لأرحم الحليم اضطر الى مجاورة السفيه فلا شئ أشد عليه من ذلك لانه يدرك بعقله تدبير الاشياء فيحتال فى كثير من الامور وماله فى السفيه من حيلة يرده بها عن جهله ويصرفه بها عن سئ فعله فهو يتعذب بكل ما يصنع ويتنكر بكل ما يرى منه ويسمع * (فصل) * وكل سفيه لا محالة جاهل لان السفه كله جهالة وقد لا يكون الجاهل سفيها لانه فى كثير من الاشياء يحزم ويحذر ويتحرز مخافة ان يوقعه جهله فيما لا طاقة له بدفعه ويوبقه فيما لا يقدر على التخلص منه لاسيما اذا علم انه بين أهل المعرفة والنبل وأرباب النباهة والفضل فعند ذلك يكثر تحرزه ويعظم تحفظه والسفيه قد استوى عنده الخير والشر واقترن عنده النفع والضر فهو يمضى عزائمه على ما سوّلت له نفسه وينفذ آراءه على ما خيل له نظره وحدسه من غير روية ولا تفكر ولا تثبت ولا تدبر فهو لا يعلم العثار ولا يستحيى من العار ولا يرى مما يجنيه الاعتذار ومن هان عليه عرضه لم يأله الذم والاعراض عن مثله لازم وترك التثبت به من المكارم فان تدانى فلا تذم ولا تضم وان تنا آى فلا تلم ولا تلم وان تعرض فلا تصاحب وان أذنب فلا تعاقب وانظر الى قول القائل

واذا عتبت على السفيه ملته * فى كل ما يأتى فأنت مليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

قيل لبعض الحكماء أى الاشياء أشد ضررا على المرء قال لزوم السفاهة وانفاذ العجلة والاستبداد بالرأى وقلة المبالاة بما نزل وعدم التندم على الزال وفى بعض الحكم من لم يملك غضبه لم ينل أربه ومن لم يعص لجاجته لم يبلغ حاجته وقال بعض الادباء من غرس الغضب فى أرض السفاهة شجرا وأرسل عليها العجلة مطرا اجتنى منها الندامة ثمرا ولم يعدم فى عواقبها ضررا ومن الامثال ما أحسن التثبت وما أسوأ التلفت وقال الشاعر

واذا هممت بأمر سوء فاتئد * واذا هممت بأمر خير فاعجل

وقالوا اذا ظننت فلا تعجل واذا تحققت فلا تمهل وقال الشاعر

ولا تعجل بظنك واختبره * فعند الخبر تنقطع الظنون

وأوصى رجل ابنه فقال له يا بنى اذا كنت فى قوم فدار بينهم تدبير فلا تعجل بالجواب قبل أن

تعرف ماعندهم ولا تتكبر عن متابعتهم اذا ظهر لك الحق فان المتابعة على الصواب أحسن من الابتداء بالخطاب واعلم يا بني ان اصابتك للرأى بعد خطأ القوم أحمد لك من اصابتك قبل كلامهم فانه لا يعرف فضل رأيك على غيره الا بعد المعرفة بما عندهم فعند ذلك يستبين العدل الشديد من السفيه والرأى الرشيد من السكر به ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضع الخطاء وقال القلس بن عوف فى بعض وصاياه اياكم والعجلة فانها أس السفه وعليكم بالتأيد فى الامر فان النجح معه ومن الحكم الحلم قوة شريفة تدل على همة منيفة لانها لا تشتد عند الشره والطمع ولا تتوقد عند التهاب جمرة الغضب ثم يلين كل شديد ويخمد كل موقود فتعقب كل محمود والسفه قوة سخيفة تدل على قوة ضعيفة لانها تعظم عند الشره والطمع وتتوقد عند التهاب جمرة الحرص والجشع فتبعث على الافعال الذميمة وتورث العواقب الوخيمة ومن كلام بعض الحكماء التحلم عن السفيه دليل كمال العقل ومماراته دليل نقص العقل والاعراض عنه غنم والتباعد عنه حزم وقربه ذم وحكى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لمحمد بن عطارد التميمي يا محمد احفظ عني أبياتا أنشدها لك واعمل بها فانها اجنة للحليم وردع للسفيه قال هاتها يا أمير المؤمنين

اذا أنت جاوبت السفيه كما جرى * فأنت سفيه مثله غير ذى حلم
اذا أمن الجهال حلمك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم
فلا تعترض عرض السفيه وداره * بحلم فان أعيا عليك فبالصرم
وعم عليه الحلم والجهل والقه * بمرتبة بين العداوة والسلم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة * وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بذى جهل فذاك من الحزم

وقال بعض الحكماء من أرسل حلمه على سقطات الجاهل آمن الغوائل وفاز بالسداد الكامل ومن أمثال الحكماء من تحلم لم يتندم وقالوا مداراة السفيه من علامات الاحسان ومماراته من دلائل النقصان وقال بعضهم الحلم يطفئ غضب الجاهل ويسكن هفوات الباطل وفي ذلك يقول بعض الشعراء

أمن بحلمك ان منيت بجاهل * فالحلم يطفي الجهل حيث تلهبا

وقال عامر العدواني

انى غفرت لظالمي ظلمي * وتركت ذاك له على علمي
ورأيته أسدى الى يدا * لما أبان بجهله حلمي

وسب رجل سفيه بعض الحكماء فقال لست أدخل فى حرب الغالب فيه شر من المغلوب ومما قلت فى هذا المعنى

لما تعرض للسباب تركته * وغفلت عنه أيما اغفال
وعلمت ان الصمت عنه عقوبة * والصمت فيه عقوبة الجهال

وقال بعض العلماء لا أحد أجمع من السفيه للخلال المذمومة وأبعد عنه من الخصال المحمودة فانه لا يستحيي من المحال ولا يرى العار فى حال فاحذره جهدك وباعده عمرك فان اضطرك الدهر الى الجمع فاعدد له حلما تدفع به شره وصبرا تقمع به ضره ولا تبتئس بما أعلق بك ولا تبال بما أضاف اليك وكن معه كمن مر بروضة شوك فسعى فى تخليص جسده عنها ولم يسأل عما تعلق بثيابه منها وقال بعض الانصار

تجرد ما استطعت من السفيه * يحلمك عنه ان الفضل فيه * فقد يعصى السفيه مؤديه
ويرمى بالحجارة منقفيه * تلين له فيغلظ جانباه * كعير السوء يرمح عاقليه
اذا انبعث السفيه فهى حلما * وصمتا واستعد لسد فيه

ومن كلام بعض الحكماء بالحلم يطفأ الجهل وبالاعراض يقمع الفضل وفي ذلك يقول سابق البربري وليس للجهل مثل الحلم اطفاء * وبالدواء قديما يحسم الداء

ومن حسن كلام العلماء من أطاع غضبه أضاع أدبه ومن أصلح فساده أرغم حساده ومن أمثالهم ضيق الصدر من صغر القدر ومن أقوالهم من تحلى بالسفاهة تخلى عن النباهة وقالوا السديد معان والسفيه مهان وقال رجل من الادباء يوصي ابنه يابني تجرد عن السفيه تجرد الصل واترك ترك الظل وفر عنه فرارك من الضيغم واجعل مباعدته أجل مكسب وأفضل مغنم فان مصاحبه أبدا مذموم مدحور ومنادمه مجفو محقور فان دهيت به يوما فتدرع له الحلم واركب له جواد الصبر وسل عليه سيف الصمت تكن السابق في الفضل الحاوي قصب الفضل وفي بعض الحكم من سفهت أحلامه كثرلوامه وكره المامه وكفى بالسفيه أحدوثة أن يستوي عنده الذام والمادح ويقترن في أمره الغاش والناصح فلا قرب الله داره ولا أدنى قراره ولا أقال عثاره ولا ألحق بنا آثاره وجعلنا ممن آثر مجانبته وكره محاورته واستجنب مجاورته بمنه وكرمه

❊ الباب الثامن في اظهار الصدق ومنافعه وانكار الكذب ومصارعه ❊

الصدق صدقك الله أفضل خصال الانسان وأوضح دلائل الايمان وأجل مواهب الاحسان وأكمل نعم الملك الديان وهو دال على جلالة القدر ونزاهة النفوس وبعد الهمة وصلاح الشيم والشمائل وبه تمام المكارم والفضائل ومازال يحجب عن المكاره صاحبه ويثبت في الصالحات مآثره ومناقبه ويعلي في الدارين منازله ومراتبه ويحسن في جميع أحوال الدنيا والدين عواقبه وهو ركن وثيق من أركان الدين وحبل من حبال العصمة متين وعلامة صادقة لاولياء الله المتقين وبرهان واضح لعباده الصالحين وقد وصف الله به نفسه وأضافه سبحانه الى ذاته فقال عز وجل ومن أصدق من الله قيلا وقال تعالى وانا لصادقون وقال تبارك اسمه قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وأثنى به على نبيه اسمعيل عليه السلام فقال انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ووصف به تعالى نبيه ودل به عليه فقال عز ذكره والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وخص به عباده فقال جل وعز ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قيل ثم جعله صفة لجزيل ثوابه وكريم مآبه فقال سبحانه وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم وقال جل ذكره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وقال تبارك وتعالى يوم ينفع الصادقين صدقهم وقال جل شأنه ليجزي الصادقين بصدقهم وهذا كثير في كتابه العزيز وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فانه مع البر والبر يهدي الى الجنة واياكم والكذب فانه مع الفجور والفجور يهدي الى النار وقال عليه السلام تحروا الصدق وان كان فيه الهلكة فان فيه النجاة واجتنبوا الكذب وان كان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال صلى الله عليه وسلم الصدق طمأنينة والكذب ريبة وقال أكثم بن صيفي الصدق منجاة

والكذب مهواة وقال الشعبي عليك بالصدق حيث تعلم أنه يضرك فانه ينفعك واياك والكذب حيث ترى أنه ينفعك فانه يضرك ﴿فصل﴾ واعلم أنه لا جنة أوقى من الصدق ولا شيء أقوى من الحق ولا سبيل أخوف من الكذب ولا حادث أقبح من الزور وقد فتح الله للصدق النجاة من القطيعة وان لم يرجوها والخلاص من النازلة وان لم يتوهمها فقيل انه جلس الحجاج يوما ليقتل أصحاب عبد الرحمن بن الاشعث فقدم اليه رجل منهم فقال أصلح الله الامير ان لي عليك حقا قال وما هو قال سبك عبد الرحمن يوما فقمت دونك فقال الحجاج ومن يعلم ذلك فقام الرجل عند أصحابه وقال أنشد الله رجلا سمع ذلك مني فشهد لي فقام رجل منهم وقال قد كان ذلك أيها الامير فقال خلوا عنه ثم قال للشاهد فما منعك أن تفعل مثل ما فعل قال بغضي فيك فقال الحجاج وخلوا عن هذا لصدقه فنجا من حيث لم يتوهم وتخلص من حيث لم يعلم وكان الحجاج على ما كان منه يعجبه الصدق ويؤثره ويطفئ غضبه ويكسره ورماه يوما رجل فقال انظروا من هذا فاذا برجل قد أومأ بيده ليرميه ثانية فقدم اليه وقد ذهب عقله فقال له الحجاج أنت راميتنا منذ اليوم قال نعم قال فما حملك على ذلك قال البغي والله قال خلوا سبيله فقد صدق وحكي عن ربعي بن خراش أنه لم يكذب قط فأقبل ابناه من خراسان وكان الحجاج يجد عليهما ويجد في طلبهما فأعلمه بعض العرفاء بوصولهما فبعث الحجاج الى ربعي ليختبر حقيقة ما وصف به فلما جاءه قال له أيها الشيخ قال ما تريد قال ما فعل ابناك قال الله المستعان هما في البيت قال الحجاج لا جرم والله لا أسوءك فيهما أبدا هما لك وقال سفيان الثوري لبعض أصحابه يا أخي عليك بتقوى الله وصدق اللسان فانه ما أوتي العبد شيئا في الدنيا أحسن من لسان صادق وقال بعض الصالحين اصبر على الحق وان غلبت به وتنكب الباطل وان غلبت به فلأن تموت بحق خير من أن تعيش بباطل وقال بعض الحكماء من شرف الصادق أنه يصدق على عدوه ومن كلام سقراط الحكيم من اتخذ الصدق سنة كانت له أحصن جنة وقال لبعض أصحابه لا تستحي أن تقبل الحق ممن أتاك به وان كان ذميما فان الحق عظيم في نفسه ويعظم صاحبه لعظمه وفي بعض الحكم الصدق ثمرة المروءة والحرص فضول الشهوة وقال بعض أهل العلم من أحب أن يكون الله معه فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين وقال ارسطاطاليس بالصدق يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستر القبائح وقال بعض الشعراء

كمال المروءة صدق الحديث * وستر القبيح عن الشامتينا

وأحسن قول ما صدقه الفعل فان القول شاهد عدل ما لم يجرحه الفعل وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل
لا يثبت الفرع اذا لم يكن * يقله من تحته الاصل

وقال بعضهم انما سمي الصديق صديقا لصدقه وسمي العدو عدوا لعداوته ومن أمثالهم من صدق نفق وقال بعض الصالحين أربعة يسود بهن الرجل الصدق والعفة والامانة وحسن الخلق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق حديثه وليؤد أمانته ولا يؤذ جاره وقال صلى الله عليه وسلم تكفلوا لي بست أتكفل لكم بالجنة قيل وما هن يا رسول الله قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم

أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم وكان من كلامه صلى الله عليه وسلم قل الحق وان كان مرا

عليك بقول الصدق فى كل موطن * وان كان دون الصدق شق المفارق
فما الغبن والخسران الا لطالب * بلوغ رضى المخلوق فى سخط خالق

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير وفى بعض الحكم الصدق يوجب الامانة والكذب دليل الخيانة وقال جعفر بن محمد من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ومن كثر بره بأهل بيته زيد فى عمره وقيل أيضا من أحب أن يشرك أهل النعم فى نعيمهم وأهل الاموال فى أموالهم فليلزم صدق الحديث ﴿فصل﴾ والصدق أوجبه العمل وأكده الشرع والعمل موجب لكل شئ حسن نافع مانع من كل شئ قبيح ضار والشرع قد ورد بامتثال الصدق وان كان لا يوجب نفعا ولا يدفع ضرا واجتناب الكذب وان جلب نفعا ودفع ضرا وتعلق بالشرع دواع جمة تحمل على الصدق وتمنع من الكذب كالمروءة والعفاف والعدل والبر والحلم والصبر وجميع مكارم الأخلاق وكلها باعثة على صدق المقال كما تبعث على حسن الفعال مانعة عن الزور كما تمنع عن الفجور وان كان قد أوقعه الناس على القول فانه يتصرف على جميع الاحوال والافعال الخالصة من الشوائب الصافية من الاكدار تشبيها بالقول الصادق الخالص من الزور والبهتان فيقال فلان صادق الايمان اذا كان سالما من الشك والريب وفلان صادق المودة اذا تخلصت من الغش والحقد وفلان صادق السريرة والضمير اذا صفيا من الارتياب والالتباس وفلان صادق الظن اذا أصاب به الحق ووافق به اليقين كما قال الله عز وجل ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه وهو فى الكلام اصابة الحق واجتناب التحريف والتغيير والتبديل وكذلك هو فى أكثر الافعال القصد الى مكارمها والخروج عن ملائمها وقد صرفته العرب فى غير ما شئ فقالت رمح صدق وساعد صدق ورأيه ثابت لا وهن فيه ولا خور وقالت فلان صادق الطعنة والضربة اذا أصاب المقتل وطبق المفصل ومثل هذا كثير فى كلامهم مصرف فى جميع أحوالهم لمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير فى أفعاله وأقواله ولذلك قالت الحكماء الصدق أوضح دلائل العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب الى السلامة وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه زين الحديث الصدق وأعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وقيل فى قول الله عز وجل ولا تلبسوا الحق بالباطل أى لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل فى بعض الحكم الصدق ينجيك وان خفته والكذب يرديك وان أمنته ومن الامثال من عرف بالكذب ذل وفى منثور الحكم الكذب داء والصدق شفاء وسئل بعض الحكماء عن الصدق فقال الصدق صدقان أعظمهما نفعا صدقك فيما يضرك فلن يعدولك حسن عواقبه وفى مثل ذلك يقول بعض الشعراء

اصدق وان كنت تتقى عطبا * فالصدق أنجاهما من العطب

وقيل للاحنف بن قيس ما المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله بكل مكان وفى حديث عبد الله بن عمر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا كن فيك فلا يضر ما فاتك من الدنيا صدق حديث وحفظ أمانة وعفة من طمع وقال بعض العلماء من أكثر

الكلام فيما لا يعنيه حرم الصدق ومن أكثر النظر في جميع معانيه حرم اليقين ومن كلام لقمان عليه السلام لابنه يا بني الزم الصدق واياك والكذب فانه يشهى كلحم العصفور وان تعوّدته لم تصبر عنه واختلف الناس في لقمان عليه السلام فقيل كان نبيا وقيل كان رجلا صالحا وقيل انه كان رجلا حبشيا ولكن آتاه الله الحكمة كما قال تعالى في كتابه وذكر في بعض الآثار أنه كان راعيا فلما انتهت به الحال حيث شاء الله ووصل حيث وصله الله وقف عليه انسان في مجلسه فعرفه فقال له الست الذى كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا قال نعم قال فما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث وأداء الامانة والصمت عما لا يعني وقيل أيضا في ما قيل عنه أنه كان في زمن داود عليه السلام وانه كان يلتمس منه الحكمة ويقتبسها من عنده فآتاه الله اياها والله غالب على أمره وقيل لبعض الحكماء من السيد قال من صدق لسانه وعظم جنانه وكثر امانه وحمده جيرانه وفي بعض الحكم صدق المقال من أكرم الخلال وأفضل شيم الكمال وأعدل شواهد فضائل الرجال وقالوا الصدق أصدق صديق يحملك على التحقيق ويخرجك من الضيق ويوضح لك الطريق ومن كلامهم الصادق ناصح وان ثقل كلامه والمائق غاش وان خف كلامه وقالوا الصادق لا يغش ولا يفحش وقال بعض الزهاد أربع من كن فيه بدل الله سيآته حسنات الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق وقال الفضيل بن عياض ما تزين الناس بشئ أفضل من الصدق والله سائل الصادقين عن صدقهم وقال بعض الحكماء الصبر مفتاح الخيرات والصدق مفتاح النجاة والشكر مفتاح البركات فمن وصل اليها وصل الى أرفع الدرجات وقال بعض الشعراء

الصبر والصدق يبلغان بمن * كان قرينه منتهى أمله * عليك صدق اللسان مجتهدا فان جل الهلاك في زلله * ما زال ذو الصدق آمنا أبدا * والافك لا يستفيق من علله

وفي منثور الحكم أصدق الخبر ما صدقه الخبر أي الاختبار وقيل لبعض الحكماء ما عنوان الصدق قال الاخبار بما تحمله العقول وأصدق القول ما كان عليه دليل من العمل وقال أبو طالب بن عبد المطلب في بعض وصاياه عليكم بصدق الحديث وأداء الامانة فان فيهما نفيا للتهمة وجلالة في الاعين وقال سهل بن عبد الله التسترى الظن يفسد اليقين وكثرة الكلام تخرج عن الصدق فعليك بالصمت وحسن الظن وقال ابن المعتز لو تميزت الاشياء لكان الصدق مع الشجاعة والكذب مع الجبن والتعب مع الطمع والراحة مع اليأس والحرمان مع الحرص والذل مع الدين وقال بعض حكماء الفرس أربع يسوّدن الرجل الصدق والعفة والامانة والأدب ومن كلام بعض الصالحين الصدق ميزان الله والكذب مكيال الشيطان وقال رجل من الحكماء الصادق بين مهابة الدنيا وثواب الآخرة والكاذب بين مهانة الدنيا وعذاب الآخرة وقال بعض الحكماء لابنه يا بني عليك بالصدق فانه يقبله منك العدو واياك والكذب فانه يرده عليك الوالد وفي بعض الحكم الصدق ثمرة لا تفنى ونضرة لا تبلى ومن كلامهم الصادق مصان مهاب والكاذب مهان مرتاب وقال الصدق والوفاء توأمان نتيجتهما الصلاح والايمان وعقباهما البر والامان وقال ابن مسعود رحمه الله قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا

آلا

ألا ترى انه يقال للصادق صدق وبر ويقال للكاذب كذب وفجر وان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار فاستعن يا أخي بالصدق على جميع أمورك ورض به نفسك وملكه طباعك ووفر به من الخير واستنجح به سعيك واستصلح به عقلك ورأيك ففيه النجاة من المكاره والعصمة من القبائح والستر على المساوي مع ارضاء الرحمن وارغام الشيطان وقد قال بعض الحكماء من صدق عتق ونقي وتملك المكارم والاعناق ومن كذب استرق وفرق ومن حسن الشمائل مرق ونعوذ بالله من شر ماذر أو برأ وخلق * (فصل في انكاد الكذب ومصارعه) * الكذب صانك الله أوضع كل خطة وأجمعها للذمة والحطة وأكبرها ذلا في الدنيا وأكثرها خزيا في الآخرة وهو من أعظم علامات النفاق وأقوى الدلائل على دناءة الاخلاق والأعراق لا يؤتمن حاملها على حال ولا يصدق اذا قال فأبعدها الله من خليقة مذمومة وشيمة لم تزل في أهل الفضل معدومة قال الله عز من قائل انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وقال جل ذكره ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم وقال تبارك اسمه ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علامات المنافق ثلاث اذا قال كذب وان وعد أخلف وان ائتمن خان وقال صلى الله عليه وسلم آفة الحديث الكذب وقال عليه السلام كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب وقال صلى الله عليه وسلم أعظم الخطايا اللسان الكذوب وقيل له صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا قال نعم وقيل يكون المؤمن بخيلا قال نعم قيل ويكون المؤمن كذابا قال لا وقال أبو الدرداء يا رسول الله هل يكذب المؤمن قال لا يؤمن بالله واليوم الآخر من حدث بكذب ومن كلام الحكماء الكذوب ذليل النفس كليل اللسان يكذب نفسه قبل جليسه وقالوا الكذب جماع النفاق وقالوا الخرس خير من الكذب وقال الاحنف بن قيس ما كذب عاقل ولا اغتاب مؤمن ولا خان شريف وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لا يبلغ أحد حقيقة الايمان حتى يدع الكذب في المزاح وقال البحتري لا يصلح الكذب في جد ولا في هزل وقال ابن المقفع لا تتهاونن بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق وقال بعض الحكماء اذا استعمل الملك كذابا أسرعت الآفة الى ملكه ومن أمثالهم في ذلك اذا كذب السفير بطل التدبير وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بني من كذب ذهب بهاؤه ومن ساء خلقه كثر غمه وقال يزيد بن ميسرة ان الكذب ليسقي كل شيء من الشر كما يسقي الماء أصول الشجر وقال ميمون بن مهران ان العاقل لا يغتر بمودة الكاذب ولا يثق بعدته وقال أيضا من عرف بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه وفي ذلك قال بعض الشعراء

كذبت ومن يكذب فان جزاءه * اذا ما أتى بالصدق أن لا يصدقا

وقال غيره

وكن صادقا في كل شيء تقوله * ولا تك كذابا فقد دهى منافقا
وكل كذوب قد يجيء مخبرا * فليس بمقبول وان كان صادقا

وقال بعض الحكماء الكذب شين المحاسن وآفة على الاخلاق الكريمة وكانوا يحلفون فيحنثون ويحدثون فلا يكذبون وقالت الحكماء الكذب من شعار الخيانة وانما يكون من سوء

الادب وتحريف العلم وخواطر الزور وتسويل أضغاث النفس واعوجاج التركيب واختلاط البنية وانحطاط الهمة وفساد النية وكدر القلب وفي ذلك يقول الشاعر

لا يكذب المرء الا من مذلته * أو عادة السوء أو من قلة الادب
لبعض جيفة كلب بعد ثالثة * خير من الافك في جد وفي لعب

وقال بعض الحكماء في بعض وصاياه لا تستعن بكذاب فانه يقرب لك البعيد ويسهل عليك الصعب ويؤمنك المخوف ومن أمثال الحكماء من قل صدقه قل صديقه وقال هرمس اجتنب مصاحبة الكذاب فانك لست منه على شيء تحصل وانما أنت منه على مثل السراب يلمع ولا ينفع وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكذب كالسراب وقال الاحنف بن قيس اثنتان لا يجتمعان أبدا في بشر الكذب والمروءة وقيل لكل شيء آفة وآفة الكذب المنطق وكتب كسرى لابنه يا بني لا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب وقيل لبعض الأدباء أيما أشر الكذاب أو النمام قال بل الكذاب فانه يختلق عليك والنمام ينقل عنك وأنشد أبو العباس المري

ان النموم أغطى دونه خبري * وليس لي حيلة في مفترى الكذب

وقال غيره

لي حيلة فيمن ينم * وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول * فحيلتي فيه قليلة

وقيل في بعض الحكم ما كذب أحد قط الاصغر في نفسه فكيف عند غيره وقال سلمان بن سعد لو صحبت رجلا فقال لي اشترط على خصلة واحدة ولا تزد عليها لقلت له لا تكذب كأنه نظر في هذا الى ماروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل ترك الكذب وذلك انه أتاه رجل وأسلم بين يديه ثم قال يارسول الله بم أوخذ من الذنوب بما أظهر والا أوخذ بما أسر يعني في الحدود وانني لاستسر خلالا وتتردد في نفسي قال له وماهي قال الزنى والكذب والسرقة وشرب الخمر فايهن تحب ان أتركها لك سرا تركتها قال له دع الكذب فلما خرج من عنده عليه السلام هم بالزنى ثم قال يسألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فان جحدت كذبت ونقضت عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أقررت لزمني الحد فتركه ثم هم بالسرقة وشرب الخمر فعرض له ذلك فتركها أجمعها ورجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد تركتهن أجمع يارسول الله فانظر الى ما في ترك الكذب من جماع الخير وقال رجل لابي حنيفة ما كذبت كذبة قط فقال له أبو حنيفة أما هذه فواحدة أشهد بها عليك وقال الاصمعي قيل لرجل كذاب أصدقت قط قال أكره ان أقول لا فاصدق وروي في بعض الآثار ان موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم قال يارب أي عبادك خير عملا فقال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال المنصور يوما لعمرو بن عبيد وقد اتهمه في الخروج مع محمد بن عبد الله بن حسن تعلم سوء رأيي في الخروج فانلج صدري بيمين تريح بها ما في نفسي فقال له والله لئن استجزت ان أكذب تقية لاستجيزن ان أحلف تقية فاستحيي منه المنصور وقال له أنت والله أعلم مني وأفقه مني ومن أقوال الحكماء الصمت عما يعني خير من الكلام فيما لا يعني وقال عبد

الوهاب

الوداب

أدبت نفسي فما وجدت لها * من بعد تقوى الاله من أدب
من كل خلاتها وان كثرت * أفضل من صمتها عن الكذب

وقال بعض الحكماء من عرف بالكذب مقت اذا نطق أو كذب وكفى بالكذاب خزيا ان كل افكة تنسب اليه ان عدم قائلها وان كل دنيئة تناط به اذا لم يعرف فاعلها وقال بعض الشعراء في المعنى

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
كم قد سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

ومن كلام لقمان جزاء من عرف بالكذب ان لا يصدق وقال ابن المعتز الكذب والحسد والنفاق أثافي الذل وقال أيضا اجتنب مصاحبة الكذاب فان اضطررت اليها فلا تصدقه ولا تعلمه انك تكذبه فينتقل عن وده ولا ينتقل عن عادته وقال أيضا لا تحدث من تخاف تكذيبه ولا تسأل من تخاف منعه ولا تعد بما لا تقدر على انجازه ولا تضمن ما لا تثق بالقدرة عليه ولا تقدم على أمر تخاف العجز عنه وما أحسن هذه الخصال ان ألزمها نفسه وجاء في بعض الحكم عاقبة الكذب الذم وفي الصدق جماع السلامة ومن أقوالهم الكذب أقبح علة والصدق والتقوى كمال المروءة وكانت العقلاء تقول اتقوا المفطرين الكذب والغيبة وقال المنتصر والله ما عز ذو باطل ولو طلع من جبينه القمر ولا ذل ذو حق ولو اجتمع عليه البشر ومن الحكم المنثورة اجعل كلام الكذاب ريحا تكن مستريحا وقالوا الكذاب شر اللصوص لانه يسرق عقلك واللص يسرق مالك ❊فصل❊ وللكذب دواع يستسهلها الجاهل ويرتضيها ولا يرى العار والقبح فيها فمنها ما يظن انه يستجلب به منفعة أو يستدفع به مضرة فذلك قد خدع نفسه واغتر بالباطل وقد قدمنا ما جاء في ذلك من الآثار ومنها ما يريد الانتقام من عدوه فيختلق عليه القبائح وينسب اليه الفضائح يرى ان ذلك سهم يرميه اليه وسوء يصيبه به وهذا أشد أصناف الكذب لانه قد جمع معه خلة السعي وسوء البغي ومنها ان يريد أن يستملح حديثه ويستطرف لحنه ويستقبل كلامه فيشوبه بالكذب على وجه التنميق والتزيين فهذا قد أرضى المخلوق وأسخط الخالق الى أشياء غيرها كثيرها لا يجيزها العقل ولا يحلها الشرع ولا ترضاها المروءة وأما ما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رخص في الكذب في ثلاث مواطن في الحرب وفي اصلاح ذات البين وفي استرضاء الزوجة فانه لم يرد صلى الله عليه وسلم محض الكذب فان السنة لم تجز الكذب على حال وقد تقدم في هذا أقوال متبعة وحكم بالغة مقنعة وانما أراد صلى الله عليه وسلم التورية بما يشبه والتعريض بما يمكن وقد قال صلوات الله عليه ان في التعريض لمندوحة عن الكذب ومثال ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فكانت العرب تلقاهما فتعرف أبا بكر ولا تعرف النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون لابي بكر من هذا فيقول لهم يهديني السبيل فيظنون انه يريد هداية الطريق وهو يعني سبيل الهداية وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انفرد عن أصحابه في نواحي بدر فلقيه رجل فقال ممن أنت فقال من ماء وهو قبيلة ينسب اليها وانما يريد عليه السلام الماء الذي هو أصل الخلقة وكذلك حكي عن بعضهم ان المأمون لما حمل الناس في بعض أيامه على القول بخلق القرآن انه قال التوراة والانجيل والزبور

والفرقان وجعل يعدها باصابعه أنا أشهد ان هذه الاربعة مخلوقة يعني أصابعه والمأمون قد جعل كلامه على ظاهره فنجا منه ثم رجع المأمون بعد ذلك عن ذلك بفضل علمه وقوة معرفته واستغفر ربه وترك تأنيبا ذنبه وقد جرى عندنا باشبيلية مثل ذلك عند تملك المرابطين لها في امرأة كان قد أعتقها بعض بني عباد فوشى بأمرها واش فارادوا تملكها وردها الى الرق فاستجارت برجل من الصالحين كان يعرفها ورضى الطالبون لها بشهادته فيها لعلمهم بعدالته فقالوا ان هذه المرأة أخبرتنا انها معتقة لبعض بني عباد وقد استوجبنا ملكها فقال لهم لا تفعلوا فوالله ما أعتقها الا رجل من المسلمين فظنوا انه أراد رجلا من عرض الناس فخلوا سبيلها ودخل بعض الناس على بعض الملوك وهو يأكل فدعاه الى الاكل معه وكان لا يستجيز طعامه فقال له ان الصائم لا يأكل أيها الملك ولست أزكي نفسي بل الله يزكي من يشاء فنجا فمثل هذه التورية لا تدخل موضع الكذب ولا هي خارجة عن منهاج الصدق بل مستحبة اذا اقترن بها استجلاب منفعة واستدفاع مضرة أو كانت في سبيل من سبيل الخير أو في حال من أحوال الصلاح ففي مثل هذا جاءت الرخصة ولا رخصة في الغيبة ولا النميمة ولا البغي وان كان حقا ومازال الكذب رمد عين السيادة ومطفئ سراج المروءة وموهن قوى الجلالة وساد طريق الاحسان ومحبط عمل الانسان وهادم بناء الايمان لانه من الافعال التي لا تقبلها العقول ولا تستجيزها لديانة وقد جبلت الطبائع على مواقعة ايراده واسداره وهو مع ركاكته لا يقدر أحد على التخلص عنه ولا يستطيع السلامة منه لاسيما أهل الاعذار ومن قد كلف مؤنة الاعتذار لا يستغني عنه المجرم مراوحة عن اجترامه ولا ينفك عنه المعدم بحسبه سببا لازالة اعدامه فكل واحد من هذه الطائفة قد رخص لنفسه احتمال معرته واستسهل صعبه لرفع مضرته ولو نظر بعين التحقيق لعلم انه قد أخطأ الطريق وحرم التوفيق ومن كلام الحكماء في هذا المعنى الكذب ملجأ الفجار وسبب العثار وقلما نجا منه من اضطر الى الاعتذار ونعوذ بالله من شر تصرف الاقدار والنكوب عن مناهج الاخيار فمن الحق على كل مؤمن والواجب على كل موقن ان يأخذ نفسه باجتنابه وينزهها عن سقطته وارتيابه وان يتحرى الصدق وان توقعه وان يرفض الكذب وان نفعه فانما تحمد العواقب في الاخرى وعند الصباح يحمد القوم السرى والله المستعان على دفع الردى والسلام على من اتبع الهدى

﴿الباب التاسع في مدح الكرم وأربابه وذم البخل وأسبابه﴾

الكرم أكرمك الله اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل فكل خصلة من خصال الخير وخلة من خلال البر وشيمة تعزى الى مكارم الاخلاق وسجية تضاف الى محاسن الطبائع والأعراق واقعة على اسم الكرم قال الله سبحانه ان أكرمكم عند الله أتقاكم فهم وان أوقفوه على بذل النوال وأوقعوه على رسم الجود بالاقوال فكل معنى صرف فيه راجع اليه موقوف عليه الا ترى ان التقي لا يكون الا كريما بماله معطيا الحق من نفسه في جميع أحواله حتى انه ليبذل جوارحه في كل عمل يقربه الى ربه ويجود بنفسه مجاهدا في سبيل خالقه والجود بالنفس أقصى غاية الجود فالكرم أبدا واقع على كل فعل من الافعال الرضية لازم لكل حال من الاحوال الجليلة السنية ألا تنظر الى قولهم نسب كريم اذا

كان

كان يعطى الشرف والسودد ويبدى التقدم وطيب المولد وكرم الهمة وقولهم مجلس كريم اذا أفاد العلم والمعرفة وبذل الآداب والحكمة وقولهم خلق كريم اذا أعطى صاحبه البر والسماحة ووهب البشر والكرامة وقولهم فرس كريم اذا أظهر العتق وبذل الجرى والاسراع والسبق فصار بذلك كله راجعا الى بذل الخلال المحمودة والجود بالاحوال المفيدة فلما جمعته هذه المعانى الى هذا المضمار وصيرته راجعا الى مقدار وضعناه فى هذا الباب حيث وضعوه وقصدنا به المعنى الذى قصدوه وهو السخاء لانه أقوى أصوله وأجمع لفصوله وهو اسم من أسماء الله عز وجل وصفة من صفاته لانه الذى انفرد بالملك والغنى وتوحد بالعظمة والسناء والسنى فهو اذا عصى غفر واذا اطلع أمهل وستر واذا وعد وفى واذا أوعد عفا لا يضيع من لجأ اليه ولا يسلم من توكل عليه يعطى من شاء لمن شاء متى شاء يداه مبسوطتان بالخيرات وله خزائن الارض والسماوات لا ينازع فى قسمة رزقه ولا يراجع فى تدبير خلقه فهو الكريم بالاطلاق وكل من تعلق بشئ من هذه الخلال وتخلق بطرف من هذه الخصال وصف بقدر ما بلغ منها ونال من غير اضافة الى ذى العظمة والجلال فانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والانسان قد يكون غنيا كريما فتعرضه الموانع وتقف دونه القواطع فتصرفه عن عادته وتحول بينه وبين ارادته وقد يكون تكرم ابن آدم لدواع تضطره اليه ومعان تحمله عليه والله سبحانه أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن يلحقه حادث عائق وان يوصف بصفة تحط عن الكمال الذى انفرد به دون الخلائق كلا بل هو الله الذى لا اله الا هو خالق كل شئ ورازق كل حى وهو على كل شئ قدير وقد وصف الله تعالى بالكرم أنبياءه وملائكته فقال عز من قائل انه لقول رسول كريم وقال جل ثناؤه وجاءهم رسول كريم وقال عز وجل كرام بررة ومدح به أولياءه فقال سبحانه ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وقال تعالى فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وفسر ابن عباس رضى الله عنه قوله وصدق بالحسنى فقال أيقن بالخلف من عطائه وقال ابن عباس أيضا سادة الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الاتقياء فاما الآخرة فانها توضح السبيل الى النجاة وتبعث على دواعى الخلاص والفوز بالامنية فان صاحبها واثق بالله متوكل على الله مستمسك بحبل الله عارف بما عند الله راض بما قسم الله وأما فى الدنيا فانه يورث الحمد ويشيد المجد ويكسب حسن الثناء ويزرع المحبة فى القلوب فهو يعلى المراتب ويحمد العواقب ويدفع النوائب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وقال عليه السلام السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية الى الارض فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة ألا ان السخاء من الايمان والايمان فى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم الرزق لمطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير وان الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة وقال صلوات الله عليه ان بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور وقال صلى الله عليه وسلم المعروف كاسمه وأول ما يدخل الجنة المعروف وأهله وقال عليه السلام أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر له وقال صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب

السخي فان الله آخذ بيده كلما عثر وروى انه لما أوتي عليه السلام باسارى بني العنبر أمر بضرب رقابهم الا رجلا واحدا فقام اليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال يارسول الله الذنب واحد والدين واحد فما بال هذا من بينهم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا علي أتاني جبريل عليه السلام فقال اقتل هؤلاء وخل هذا فان الله شكر له سخاءه وقال صلى الله عليه وسلم عدي بن حاتم رفع الله عن أبيه العذاب لسخائه وروي في بعض الآثار ان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فانه سخي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب عباد الله الى الله أنفعهم لعباد الله وقال عليه السلام ضع المعروف في أهله وفي من ليس من أهله فان كان من أهله فهو أهله وان لم يكن من أهله فانت من أهله وقال الفضل بن سهل اذا لم أعط الاستحقاق فكأني انما أعطيت غريما وتمثل رجل عند عبد الله بن جعفر بهذين البيتين

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها الطريق المصنع

فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها * لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ان هذين البيتين يبخلان الناس ولكن أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا وعاتبه يوما الحسين والحسن رضي الله عنهما على كثرة اسرافه في البذل فقال لهما بابي وأمي أنتما ان الله عز وجل عودني ان يتفضل علي وعودته ان أتفضل على عباده فاخاف ان قطعت ان يقطع عني وقال رجل من الحكماء لن يستطيع أحد ان يشكر الله على نعمة بمثل الانعام بها على خلق الله ومن كلام بعض الحكماء من سعادة المرء ان يضع معروفه عند من يستحقه وان لم يشكره أو عند من يشكره وان لم يستحقه وفي منثور الحكم أفضل الجود ما ابتدى من غير مسئلة أو تقدم الوعد وقال علي ابن الجهم في ذلك

وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خال

أعطاك قبل سؤاله * فكفاك مكروه السؤال

وقال الاصمعي سمعت اعرابيا يقول لرجل أولى معروفا جزيل اياه هذا ان النعم ثلاثة نعمة في حال كونها ونعمة يرجى استقبالها ونعمة تأتي غير محتسبة أبقى الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك بما ترجوه وتفضل عليك بما لا تحتسبه وقال اكثم بن صيفي خير العطاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان مع المقدرة وقال بعض الحكماء شر الزمان اذا كانت السماحة عند من لا مال له وكان المال عند من لا سماحة له وقيل في ذلك

اذا كان من يعطي فقيرا وذو الغنى * بخيلا فمن ذا يستعان على الدهر

وقال رجل من بني عامر بن صعصعة لعتبة بن أبي سفيان والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من ان تسيؤا وقد أحسنا فان كان الاحسان منكم فما أحقكم باتمامه وان كان منا فما أحقكم بمكافاتنا عليه وانا رجل يلقاكم بالعمومة ويختص اليكم بالخؤلة وقد كثر عياله وقل ماله ووطئه دهره وبه فقر وفيه أجر وعنده شكر فقال له عتبة استغفر الله منك واستعينه عليك وقد أمرت لك ولعيالك بغناك فليت اسراعي اليك يقوم بابطائي عنك وقال بعض الحكماء استجلب بالانعام منك انعام الله عليك تسترد بما تهب لغيرك مايهبه لك ثم تستفيد الشكر وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الجود من جود الله فجودوا يجد الله عليكم وقال صلى الله عليه وسلم

شاب

شاب سفيه سخي خير من شيخ عابد بخيل وقال صلوات الله عليه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه انهم ليسئلوني ليبخلوني و يأبى الله لي الا السخاء ومن جوده صلى الله عليه وسلم انه ملك من أقصى اليمن الى بحر عمان الى أقصى الحجاز ومات عليه السلام وعليه دين ودرعه مرهونة في ثمن طعام ابتاعه لاهله ولم يترك دينارا ولا درهما ولا شيد قصرا ولا غرس نخلا وقال حذيفة رب فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسخائه وقال الفضل بن يحيي مطال العديم أقبح من مطال الغريم فان الغريم يسلف من فضل والعديم يطلب من جهد ومر الفضل يوما في طريقه على رجل معسر فعطس الفضل فقال له الرجل يرحمك الله أرحم الراحمين فامر أتباعه بحمله معه فلما وصل الى قصره أمر له بخمسة آلاف درهم وعشرة أثواب فانصرف الى منزله وقد خامره الفرح فلما رأته امرأته أنكرت ذلك عليه وقالت له ويلك أسرقت فاخبرها فلم تصدقه وافتضح قولها في جيرانه حتى وصل خبره الى الوالي فامر بحبسه ليستبرئ أمره واتصل الامر بالفضل فامر باحضاره فحمل اليه في قيوده فلما رآه عرفه وأمر بفكه وأعاد عليه العطاء من الدراهم والاثواب ورجع الى جيرانه وهو أيسرهم مالا وأكثرهم حالا وأنشد ابن الاعرابي في ذلك

اذا ما أتاه السائلون توقدت * لهم منه أنوار الطلاقة والبشر
له في ذوي الحاجات نعمى كأنها * مواقع ماء المزن في البلد القفر

وقال في مثل ذلك

واذا الرجال تصرفت أهواؤها * فهواه لحظة سائل أو آمل
وتكاد من فرط السخاء يمينه * عند العطاء تقول هل من سائل

وعن حماد الراوية قال كانت عتبة بنت عفيف وهي أم حاتم أعظم الناس سخاء وأكثرهم عطاء فلما اسرفت على نفسها وأضر بها جودها حبسها اخوتها في بيت سنة يطعمونها قوتها ولا يمكنونها من مالها وكانت موسرة ثم أخرجوها بعد سنة وهم يظنون انه قد بلغ بها الادب ودفعوا اليها صرة من مالها فاتتها امرأة من هوازن فسألتها فاعطتها الصرة ثم قالت في ذلك

لعمري لبوما عضني الدهر عضة * فآليت ان لا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لمن قد لامني اليوم فاعفني * وان أنت لم تفعل فعض الاصابعا
فما ترون اليوم الا طبيعة * فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا

ومدح اعرابي قوما فقال أدبتهم الحنكة وأحكمتهم التجارب ولم تعوزهم السلامة المنطوية على الهلكة ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة آجالهم فانبسطت ألسنتهم بالوعد وأيديهم بالانجاز فاحسنوا المقال وشفعوا بالفعال وابتاعوا المحامد بالاموال والثناء الجميل بالافعال وقال ارسطاطاليس سر الجود ايثار لذة الثناء على لذة المال ومن كلام الحكماء خير المال ما وقى العرض وأورث الحمد ومن أمثالهم ما ضاع مال أورث حمدا وقيل من كرمت عليه نفسه هان ماله عليه ومن الحكم المنثورة المعروف ذخيرة الابد ومنها لا شئ أحسن من المعروف الا ثوابه وروى الكلبي عن أبيه عن جده قال كان حاتم جوادا شجاعا شاعرا فكان اذا نزل عرف مكانه واذا قاتل غلب واذا غنم أنهب واذا سئل وهب واذا أسر أطلق واذا ملك أعتق واذا جرى بالقداح سبق وكان أقسم ان لا يقتل احدا أمنه ومن كلام بعض البلغاء خير المال ما أخذ من الحلال وصرف في النوال وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في الآثام وكان

وقال الايادى ثلاثة بيضاء وخضراء وسوداء فاليد البيضاء الاسداء بالمعروف واليد الخضراء المكافاة على المعروف واليد السوداء المن بالمعروف وقال بعض الحكماء لا تمسك كثيرا في حق ولا تنفق قليلا في باطل وقال بعضهم خيرما أسديت من معروفك ما ابتدأت به من غير مسئلة وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه ما السخاء قال ما كان ابتداء وأما ما كان عن مسئلة فحياء وتكرم وقال رضى الله عنه اذا اقبلت عليك الدنيا فانفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى ومن أحسن ماقيل

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فاحرى ان تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

وسمع بعض السلف بعض الفتيان يقول الفتوة انما هى الظرف والانهماك والمجون فقال له ويحك يا بنى حدت والله عن طريق الحق وحدت عن طريق القصد والله ما الفتوة الا مال مبذول وبشر مقبول وطعام موضوع وأذى مرفوع وقال عبد الله بن الاعرابى لا تتم الصنيعة الا بطلاقة الوجه وحسن الحديث ولطف اللقاء ومن كلام الحكماء طلاقة الوجه تقوم مقام البذل وقال الشاعر فى المعنى

أضاحك ضيفى قبل انزال رحله * ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف فى كثرة القرى * ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال غيره

ما ان أبالى اذا أضيف تضيفنى * ما كان عندى اذا أعطيت مجهودى
جهد المقل اذا أعطاك نائله * ومكثر فى الغنى سيان فى الجود

وقال ابن الرومى

ان الذى يعطى خسيسة ماله * اذلا كريمة عنده لجواد

وأجمعت الحكماء وأهل الفضل ان السيادة والمروءة وجماع خلال البر فى جبل العشرة وفى المسارعة الى المعونة وفى العفو مع المقدرة وفى التودد الى الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تسعوا الناس باموالكم فاسعوهم ببسط الوجوه وحسن البشر وقالوا مكتوب فى التوراة ليكن وجهك بسيطا تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ورفع رجل الى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة فقال له قد قرأتها حاجتك مقضية فقيل له يا ابن بنت رسول الله لو نظرت الى رقعته وراجعته على حسب ما فيها قال أخاف ان أسأل عن ذل مقامه بين يدى حتى اقرأ رقعته وقال أنوشروان من أعظم المصائب ان تقدر على المعروف فلا تضعه حتى تسأله وكان سعيد بن العاصى قد سامره قوم من أصحابه ليلة حتى مضى من الليل جزء فلما انصرفوا رأى رجلا قاعدا قد بقى معه فعلم ان له حاجة فامر باطفاء الشمعة وقال له هات حاجتك يا فتى فذكر له حاجته فامر له باربعة آلاف درهم وكان اطفاء الشمعة لئلا يلحق الفتى خجل ولا استحياء فى مسئلته وقيل فى منثور الحكم التبرع بالمعروف من كمال السودد وكتمانه من كمال الفضل ولذلك قيل أهنى المعروف مالم تبذل فيه الوجوه ﴿فصل﴾ وقلما يفارق الكرم حسن الصورة فانها من أعظم نعم الله على العبد وكل النفوس مجبولة على حب الصور المقبولة ومن أحسن أقوالهم فى ذلك من كانت سيمته الجمال وشيمته الاجمال فقد مضى الكمال وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه وذلك لان أول

نعمة

نعمة تلقاها من المرء حسن الصورة والحسن لا يفعل الا حسنا وقال بعض الحكماء الوجه الحسن علامة الاحسان والخلق الحسن أفضل شيم الانسان وقال منصور الثعالبى أخلق بمن كان وجهه وضيا ان يكون فعله مرضيا ومن كان وجهه دميما ان يكون فعله ذميما وكتب رجل الى مسلم بن الوليد وقد سأله حاجة فقال

حسن ظنى اليك أصلحك الله دعانى فلا عدمت الصلاحا
ودعانى اليك قول رسول الله اذ قال مفصحا افصاحا
ان أردتم حوائجا من أناس * فتنقوا لها الوجوه الصباحا
ولعمرى لقد تنقيت وجها * ما به خاب من أراد النجاحا

فقضى مسلم حاجته وأجزل عطاءه ومن كلام الحكماء أحسن لمن أحسن اليك واشكر ان أنعم عليك فان الشكر مجازاة من لا قدرة له على المكافاة وقيل للاسكندر أى شئ نلته من ملكك كنت به أشد سرورا من غيره قال قوتى على مكافاة من أحسن الى ودخل عليه يوما رجل رث الهيئة فتكلم فاحسن وسئل فاصاب الجواب فقال له الاسكندر لو أعطيت حسنك حقه من الزينة كما أعطيت نفسك حقها من العلم والمعرفة لاشبه بعضك بعضا فقال له أيها الملك أما الكلام فاقدر عليه فانى مالكه وأما الزينة فلا أقدر عليها فانى لا أملكها فعلم انه محتاج فخلع عليه وأحسن اليه وقربه وقال بعض الحكماء من حسن حمله للنعم استوجب الزيادة ومن شكر النعمة فقد أدى حق من أفاده وقال أيضا استكمل البر من كان بره لغيرا كتساب رغبة ولا ليدفع به محذور رهبة وتعرض رجل الى الحسن بن سهل فقال له من أنت قال انا الذى أحسنت الى يوم كذا فقال مرحبا بمن توسل الينا بنا وأعاد احسانه اليه وزاده وقيل لبعضهم ما حد السخاء قال ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا وكتب كسرى لابنه يابنى استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ تكن جامعا لاسباب المروءة وقال عبد الملك بن مروان يابنى أمية ابذلوا ندا كم وكفوا أذا كم واعفوا اذا قدرتم ولا تبخلوا اذا سئلتم فان خير المال ما أفاد حمدا ونفى ذما وقال ابو الحسن الموسوى

ليس بالمغبون حظا * من شرى عزا بمال * انما يذخر المال لحاجات الرجال
والفتى من جعل المعروف أثمان المعالى

وروى فى بعض الآثار ان الله عز وجل أوحى الى ابراهيم عليه السلام أتدرى لما اتخذتك خليلا قال لا يا رب قال انى رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ وحكى ان عبد الله بن عتبة باع غلة بثمانين ألفا فقيل له لو اتخذت بهذا المال ذخيرة لولدك لكان حسنا قال أنا أجعل هذا المال عند الله ذخرا واجعل الله ذخرا لولدى وهذا من أحسن القول ثم أمر بقسم المال كله فى حال الحاجة وحكى عبد الله بن منصور قال كنت يوما عند الفضل بن يحيى فدخل حاجبه فقال بالباب رجل يطلب الاذن و يزعم أن له ماتة يمت بها قال الفضل هاته فدخل رجل جميل الوجه رث الهيئة فسلم فاحسن فأومأ اليه بالجلوس فجلس فلما علم انه قد أفرخ روعه قال له ما الذى تمت به قال جوار قريب وولادة تقرب من ولادتك واسم مشتق من اسمك قال أما الجوار فحسن ممكن وقد يوافق الاسم الاسم فما علمك بالولادة قال أخبرتنى أمى انها لما وضعتنى قيل لها ولد الليلة

ولد ليحيى وسمى الفضل فسمتني أمي فضيلا أكبار الاسمك فتبسم الفضل فقال كم لك من السنين قال له خمس وثلاثون قال صدقت هو المقدار قال فما فعلت أملك قال توفيت قال فما منعك من الالحاق بنا قال لم أرض نفسي للقائك حتى رضتها بلقاء مثلك فحينئذ حملتها عليه فعجب الفضل من كلامه وقال ياغلام أعطه لكل سنة ألفا وأعطه من كسواتنا ومراكبنا ووصفائنا مايصلح به ويظهر بها حاله واستعمله ومن أمثال الحكماء خير الاموال مااسترق حرا وخير الاعمال مااستحق شكرا وقال بعض الشعراء

لعمرك ان ذوقتني ثمر الغنى * أذقتك ماير ضيك من ثمر الشكر
وان نلت ماينفى بك اليوم أوغدا * أنلتك مايبقى الى آخر الدهر

(فصل) وحد الجود أن يبذل المرء ماله حيث يجب البذل ويحفظه حيث يجب الحفظ فمن هذا قد تبرأ من البخل جملة وأما من بذل مكان الامساك فهو مبذر ومن أمسك مكان البذل فهو بخيل وفي ذلك يقول صالح بن عبد القدوس

لا تجد بالعطاء في غير حق * ليس في منع غير ذى الحق بخل
انما الجود أن تجود على من * هو للجود منك والبذل أهل

وقال بعض الحكماء لا حسرة أعظم من نعمة أسديت الى غير ذي حسب ولا مروءة وقال البحتري

واعلم بان الغيث ليس بنافع * مالم يكن للناس في ابانه

ومما أثنى الله به على عباده قوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال سبحانه لنبيه عليه السلام ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبيان ذلك قصد الواجب المتعين واعتماد الظاهر المتبين *(فصل)* واعلم ان الذي يكون من النفس وتحمل عليه الطبيعة فيجود به صاحبه وهو متهلل الوجه منشرح الصدر هو الكرم المحض الذي يقود اليه الطبع وان لم يوافق موضع الصنيعة وأما من جاد متحاملا على نفسه منازعا لارادته فليس بكرم انما هو تكرم وان وافق الواجب ووجد موضع الصنيعة فانه مفارق المروءة بالاستصعاب سائق الاسباب الكرم النفسي بحمل مشقة التكلف وذلك انما يكون لفرط حب المال ومن أحب المال لا يصح أن يكون كريما على حال وقلما يجتمعان بل لا يؤمن عليه مفارقة الشرع وامتناع المفروض ولقد رأينا أقواما يمتنعون من مفروض الزكوات وربما جادوا بجزيل الهبات لاستعذاب المدح والثناء ومع هذا من سامحته نفسه وساعدته طباعه الى بذل ماله والتكرم بنواله فانه يسمى جوادا على كل حال الا انه غير موفق للطاعة ولا موافق للشريعة وكثيرا ماسقط الناس في هذا الباب لان المدح لذيذ والثناء محبوب وهو بحر قد غرق فيه الناس قديما وحديثا *(فصل)* ومن تمام حدود المعروف وكمال أسباب البر أن لا يتيمم منه الخبيث كما قال جل ثناؤه ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون بل يجب أن يقصد به الطيب ويعمد فيه الى الحلال المحض وهو الذي يقبل وترجى معه الزيادة والنمو وبه صلاح الدارين ان شاء الله تعالى وينبغي لصطنع المعروف أن يجتنب الامتنان به وأن يتناسى ذكره فان ذلك من تمام الاحسان وكمال البر قال الله تبارك اسمه ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل

الشكر

الشكر ويحبط الاجر ثم تلى الآية قال الله عز من قائل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومن كلام الحكماء المن يفسد الصنيعة ويوجب القطيعة و يحقر العطايا الرفيعة وقال بعضهم مضض المن أثقل من الصبر على المعدم وقال محمد بن ادريس الشافعى * منن الرجال على القلوب أشد من وقع الاسنه * وقيل فى بعض الحكم خير المعروف مالم يتقدمه مطل ولم يتبعه من ولم يرد به شكر ووافق موضع الحاجة ومن أمثالهم المن يفسد المن وقالوا لكل شئ آفة وآفة المعروف المن و يجب لاصطنع المعروف أن يؤثر كتمانه و يستعمل نسيانه فانه اذا تناساه وطواه فقد أتمه ووفاه كما يجب أيضا على المصطنع له نشره ويتعين عليه شكره فاذا نشره فقد شكره وكافاه وان كتمه فقد كفره وواراه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من أودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره وفى الحكم المنثورة الشكر وان قل ثمن النوال وان جل وقال لقمان لابنه يابنى أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكر لك فانه لا بقاء للنعمة اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وقال بعض الحكماء من شكر معروفا فقد أحسن وأنصف ومن كفره فقد أساء وأخلف وقال البحترى

من لا يقوم بشكر نعمة خله * فمتى يقوم بشكر نعمة ربه

ومن أقوال الحكماء شكر النعمة قوام ونشرها اقوام ومن كلامهم بالشكر يستدام الاحسان وبالكفر يستوجب الحرمان وحسبنا قول الله عز وجل لئن شكرتم لأزيدنكم وأنشدوا لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه الكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر ابقاء لها وما أحسن قول الرياشى حيث يقول

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور أو شكور
فـفى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتنفد الاموال * ولكل دهر دولة ورجال * ما نال محمدة الرجال وشكرهم الا الجواد بماله المفضال * لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق مايقول فعال

وقال بعض الشعراء

ولقد حمدت على الصنائع أهلها * وشربت حمد الناس بالاثمان
ونظرت فى عقب الامور فلم أجد * كصنائع المعروف والاحسان
أبقى لمدخر وأربح صفقة * وأرد للبلوى عن الانسان

وهذا ينظر الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وقال بعض الكرماء لولده حين حضرته الوفاة يابنى عليكم بالمعروف واصطناعه وتلذذوا بطيب روائحه ونسيمه وارضوا بحسن مودات الرجال من أثمانه فكم من رجل قل ماله عاش فى نعمة هو وعقبه من بعده وحكى أن عبد الله بن العباس أتاه رجل فقام بين يديه وقال له يا ابن العباس ان لى عليك يدا وقد احتجت اليها فنظر اليه وقال له مايدك على قال رأيتك واقفا ببئر زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد أضرت بك فظللتك بكسائى حتى شربت فقال أجل

انى لا اذكر ذلك وانه ليتردد لى فى خاطرى وقال لقيمه ما عندك قال ما ئتا دينار وعشرة آلاف درهم فقال ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده فقال له الرجل والله لولم يكن لاسمعيل ولد غيرك لكان فيك ما كفى فكيف وقد ولدسيد الاولين والآخرين محمدا صلى الله عليه وسلم ثم شفع بك وبأبيك وهذا عبد الله هو أول من وضع الموائد على الطرق وقيل فى بعض الحكم فاعل المعروف لا يعدم جوازيه اذا ضعف الناس عن أدائه قوى الله على جزائه وفى مثل ذلك يقول بعض الشعراء

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

ومن كلام بعض الادباء الكريم اذا انفح عرفه طفح عرفه وقال أبو منصور الثعالبى الكريم صوت لسانه نعم وصوت ثيابه نعم وقيل انه أتى مصعب بن الزبير برجل من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقام اليه الرجل وقال أصلح الله الامير ما أقبح بى أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة و وجهك الذى يستضاء به فاتعلق بأطرافك وأقول أى رب سل مصعبا فيم قتلنى فعجب لكلامه وأمر باطلاقه قال أيها الامير اجعل ما وهبتنى من حياتى فى خفض قال قد أمرت لك بمائة ألف قال اشهدوا أن لابن قيس الرقيات نصفها قيل له ولم ذلك قال لقوله

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء * ملكه ملك رحمة ليس فيه

جبروت ولا له كبرياء * يتقى الله فى الامور وقد أفلح من كان شأنه الاتقاء

ففعلك مصعب وقال ان فيك موضعا للصنيعة وزاد فى الاحسان اليه ولما قال سلم الخاسر فى المهدى

قد بايع الثقلان مهدى الهدى * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

ووليت عهد المسلمين وأمرهم * فدمغت بالمعروف رأس المنكر

أعطته أم جعفر عشرين بدرة وكانت تقول من فرط كرمها من يعذرنى اذا أنا رددت سائلى جدى خليفة وزوجى خليفة وابنى خليفة وقال صالح لو نقضت أم جعفر ظفائرها لتعلق بكل شعرة منها خليفة ولقد كنت آتى قصرها فاسمع فيه كدوى النحل من كثرة الجوارى التى يقرأن القرآن وجاءت أعرابية الى أبى حاتم بن عبيد الله بن أبى بكرة والناس عنده فدنت من مجلسه ثم قالت يا أبا حاتم أتيتك من بلاد شاسعة ترفعنى رافعة وتضعنى واضعة لملمات من الزمان ونوائب من الحدثان أذهبن لحمى وبرين عظمى حتى تركننى ولهاء أمشى بالحضيض قد ضاق بى البلد العريض فقدمت بلدا لا أعرف فيه أحدا ليس لى حميم يعيننى ولا عشير يكنفنى بعد عدة من الولد وكثرة من العدد فسألت من المرجو نائله المرضى سائله فدللت عليك أصلحك الله وأنا امرأة من هوازن قدمات الوالد وغاب الرافد ومثلك أعان العفاة وفك العناة فاختر احدى خلتين اما أن تقيم أودى وتحسن صفدى أو تردنى الى بلدى قال بل أجمعهما لك جميعا وأمر لها بعشرة آلاف وراحلة * وكان لابن المقفع جار ركبه دين فاراد بيع داره فبلغ ذلك ابن المقفع فقال ما قمت اذا بحرمة جواره ان باع داره لعدمه وأنا موسر فبعث اليه بثمن داره وأمره بامساكها وحكى العتبى قال أشرف عمر بن هبيرة من قصره يوما فنظر أعرابيا على بعير يرقص به الآل فقال لحاجبه ان أرادنى الاعرابى فأوصله الى فلما رآه الحاجب سأله عن حاجته فقال قصدت الامير فأدخله اليه فلما مثل بين يديه قال له عمر ما خطبك فأنشأ يقول

أصلحك الله قل ما بيدى * ولا أطيق العيال اذ كثروا

أناخ دهر أخني بكلكله * فأرسلوني اليك وانتظروا

قال فأخذت ابن هبيرة أريحية وجعل يقول أرسلوك الي وانتظروا ومازال يكررها ثم قال اذا لا ترجع اليهم الا غانما وأمر له بألفي دينار وانصرف الاعرابي يحمد مقصده وقد ملأت هبته يده * وجع معاوية فلما قضى حجه وانصرف قال الحسن رضي الله عنه ان علي دينا ولا بدمن لقاء هذا الرجل واعلامه فركب في أثره واتبعه فلحقه وسلم عليه وأخبره بشأنه فبينما هو يخبره اذ مر عليه بختي من بعض رواحله عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الابل فقال لاتباعه ماهذا فأخبروه بخبره فقال اصرفوه بما عليه لابي محمد وفي تأخر هذا البعير للحسن رضي الله عنه برهان ظاهر ودليل فضل على تقدمه حاضر وأتى سائل لبعض الكرماء فأعطاه مالا حسيما فقيل له انه لا يعرفك وكان القليل يرضيه فقال ان كان لا يعرفني فأنا أعرف نفسي وان كان القليل يرضيه فاعطاء القليل لا يرضيني وهذا من جيد الكلام في اسداء المكارم ولله درزهير بن أبي سلمى حيث يقول في المعنى

وأبيض فياض يداه غمامة * على معتفيه ماتغب فواضله

تراه اذا ماجئته متهللا * كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أبو تمام الطائي تعود بسط الكف حتى لوانه * ثناها لقبض لم تجبه أنامله

وقيل انه سأل رجل يحيى بن خالد حاجة فقال لمنصور بن زياد عده قضاء حاجته فقال له أصلحك الله ومابدعوك الى العدة مع الوفور والجدة فقال له هذا قول من لا يعرف الصنائع وموقعها من القلوب ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجحها لم تحدث النفس بسرورها ان الوعد تطعم والانجاز طعام وليس من فاجأه طعام كمن شم رائحته ثم طعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها عند المصطنع لطف محل وحسن موقع وهذا كلام تظهر عليه طلاوة ويبدو عليه رونق وهذا بعيد عن التحقيق ممنوع من التصديق فان السائل لا يسأل الا عند الحاجة ولا يبذل الرغبة الا مع الضرورة فمن أحق الاشياء على المسؤول أن يبادر قضاها فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم آفات الكرم وأنكد حالات السخاء المطل وقال عليه السلام من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عنه وقال صلى الله عليه وسلم التؤدة في كل شيء حسنة الا في أعمال الآخرة وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكل شيء شرف وشرف المعروف تعجيله ومن أمثال الحكماء وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وفي الحكم المنثورة لا تؤخر المعروف فربما حالت بينك وبينه صروف وقال بعض السلف اذا امتننت فلا تعد واذا امتنعت فلا تعد ومن كلام بعض الحكماء التؤدة في كل شيء الا في اصطناع المعروف فان التؤدة فيه تنقبض له وفي تأخير المعروف دواع تفسد البر وتؤذي الحر وقد قال بعض الحكماء الوعد رد جميل وربما هجس في خاطر السائل عدم القبول وربما قيض الله له اذا كان كريم النفس مايغنيه عن الاستنجاز وان كان ممن يطلب الاكثار لم يلتذ بذلك المصطنع ولا حسن له عنده موقع وأيضا فان المواقع معترضة والعزائم منتقضة وربما عرضت المسؤول علة تدخله تحت الاعجاز وحدث بالسائل حادث يحول بينه وبين الاستنجاز وقد يسوء ظنه فيخيل الحرمان فان الشفيق بسوء الظن مولع كما قد جرى لعمر بن العزيز رضي الله

عنه قد كنت آمل منك برا عاجلا * والنفس مولعة بحب العاجل

وقال عبد الحميد الكاتب من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال الشاعر

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكونا

وما أحسن قول الآخر ليس في كل وهلة وأوان * تتأتى صنائع الاحسان

فاذا أمكنت فبادر اليها * حذرا من تعذر الامكان

أحزم الناس من اذا أحسن الدهر تلقى الاحسان بالاحسان

وكان يقال تمام المعروف ثلاثة تعجيله وتصغيره وستره ومن كلام الحكماء لا خير في البر اذا اقتضى وقال بعضهم منعك لاخيك الحاجة أجمل بك من المطل بها وقال بعض السلف السؤال خزي والاقتضاء مذلة والمطل آفة وخير المعروف ما سبق السؤال وقال بعضهم

لا تفسدون بطول المطل مسألتي * فالمطل من غير عسر آفة الجود

ومع هذا فلا خلاف بين الامة أن أفضل العطاء وأجل الصنائع العطاء قبل السؤال فان صيانة وجه السائل أفضل من كل نائل وفي ذلك يقول حبيب الطائي

وما أبالي وخير القول أصدقه * حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

فكيف بمن يكلف سائله اراقة ماء وجهه عند المسألة وعند استنجاز العدة الى أشياء كثيرة نحن في غنى عن استقصائها والتعرض الى احصائها * فصل * والكرم له وجوه تدعو اليه وأسباب تبعث عليه فمنه ما يكون تدينا وتشرعا فاذا رأى بأحد حاجة أو ظهرت منه اليه فاقة وهو قادر على سد خلته وازاحة فاقته سارع الى ذلك رغبة في الاجر ورجاء للمثوبة لا بسبب غيره وهو أفضل الوجوه حالا وأحسنها مآلا لانه لا يشوبه كدر ولا يغيره من ولا تلحقه آفة من الآفات التي قدمنا ذكرها ومنه ما يكون عن وفور مال واتساع حال تفضي به كثرة الثروة الى تقديم ما وفق اليه ليجعله ذخرا للاخرى ويستجلب به الشكر في الدنيا مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة ومنه ما يكون رغبة في الحمد والشكر ومحبة في الثناء وطيب الذكر فتنفرد ارادته بحب عرض الدنيا فيتكرم ويسمح ليحمد ويمدح ومنه ما يكون حياء والحياء من الايمان فجوده انما حياء من سائله وان قل ماله ولم تساعده آماله كما قال بعض الشعراء

ليس الغبي بسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي

ومنه ما يكون استجلابا للمنفعة أو استدفاعا للمضرة فيضطر الى اصطناع المعروف وان كان به غير معروف رجاء البلوغ بغيته والوصول الى أمنيته فيأتيه تصنعا لا تطبعا ومنه ما يكون لحراسة مجد تقدم وصيانة عرض لم يتفرق له أدم وابقاء رسم لم يعف ولم يهدم فيبذل معروفه محافظة على المكانة وحرصا على استدامة الصيانة ولا يخلو مثل هذا أن يكون طبيعة ومنه ما يكون لفرط حب واستجلاب وصل واجتناب عتب فان المحب أبدا يؤثر محبوبه على نفسه فكيف لا يجود عليه بدنياه ودرهمه فهو في كل حال يأتيه مضطرا و يستعذبه وان كان مرا ومثل هذه الوجوه التي لو تتبعناها لكثر الكلام فيها وفيما ذكرناه منها كفاية عن تقصيها والجود الصحيح والكرم الصريح شيمة تكون في الجبلة وسجية توضع في الفكرة وطبيعة يركبها الله عز وجل في أصل الخلقة فلا تستحيل ما استحالها التطبع ولا تنحرف الى التخلق والتصنع * حكى اسحق الموصلي

قال

قال ركب يحيى بن خالد يوما في جماعة من اخوان أبيه فسلم عليهم وكان فيهم مسلم بن قتيبة وحوله غرماء له فلما رجع الى أبيه قال من لقيت اليوم قال فلانا وفلانا ولقيت مسلم بن قتيبة ومعه غرماؤه قال فعرفت قدر دينه قال نعم عشرة آلاف درهم قال أحملها اليه من فورك هذا فحملها اليه فجعل يغرف فيها جفنة بعد جفنة و يفرقها على جلسائه حتى نفدت فرجع يحيى الى أبيه فأعلمه فقال خالد يا بنى عد اليه بمثلها فعاد عليه فجعل يفرقها على أهله وولده ومواليه وأمسك بعضها لنفقته فرجع يحيى الى أبيه فأعلمه فقال يا بنى عد عليه بمثلها ففعل فلما طلعت عليه قال فرقوها فى غرمائنا ثم قال لولا ان يداوم أبو العباس بذله فى سبيلها سبيل ما رأيتم فرحم الله مسلما وخالدا ﴿فصل﴾ وأعلى مراتب الجود وأرفع درجات السخاء وأسنى مقامات الكرم الايثار على النفس مع الحاجة كما قال الله سبحانه و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة قيل ان هذه الآية نزلت فى رجل من الانصار احتمل ضيفا نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد عنده شيأ فسار به الى منزله ووضع بين يديه طعاما وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده مع الضيف يريه أنه يأكل معه وهو لا يأكل حتى استوفى الضيف الطعام كله فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد عجب الله عز وجل من صنيعكم مع ضيفكم وكان من شأنه عليه السلام الايثار على نفسه روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا نؤثر على أنفسنا ومن أعظم صنائع الايثار ما حكاه أبو الحسن الانطاكى قال اجتمعنا ليلة وكنا بضعا وثلاثين رجلا وكنا فى قرية بالرى ولنا أرغفة معدودة لا تسع جميعنا فكسرنا الرغفان ووضعناها وأطفئ السراج وتقدمنا للاكل فلما ظهر منا الفراغ وأردنا رفع ما كان عليه الطعام فاذا به على حسبه لم ينقص منه شئ وما أكل واحد منه شيأ ايثار الصاحبه على نفسه ومن أعظم ما جاء فى الايثار على النفس حديث حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه فلما وجدته أشرت اليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى نعم فاذا برجل يقول آه فأشار الىّ ابن عمى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو هشام بن العاصى فلما أشرت اليه سمع آخر يقول آه فأشار الىّ هشام أن أنطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فانصرفت الى ابن عمى فاذا هو قد مات فأى شئ أعظم من هذا الايثار وأى صبر أجل من هذا الاصطبار لقد تقصر الالسن عن تعديده وتكل الافهام عن تحديده ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى السوق ومعه ثمانية دراهم فاذا بامرأة على الطريق تبكى فقال لها ما يبكيك قالت بعثنى أهلى بدرهمين لاشترى بهما حاجتهم فاضلتهما فأعطاها درهمين ومضى بستة دراهم فاشترى منها قميصا ولبسه وانصرف فاذا بشيخ من المسلمين عار يا وهو ينادى من كسانى كساه الله من خضر الجنة فلم يتمالك صلى الله عليه وسلم أن تجرد وألقى عليه القميص ثم رجع الى السوق فاشترى بدرهمين قميصا فلبسه وأقبل يبادر الليل فاذا بالمرأة حيث تركها تبكى فقال لها ما يبكيك فقالت بابى وامى أنت يا رسول الله طالت غيبتى عن أهلى وأخشى عقوبتهم فقال لها ألحقى بأهلك وجعل يتبعها حتى أتت دور بعض الانصار واذا رجالهم

خلوف ليس فيها الا النساء فقال السلام عليكن ورحمة الله فسمع النساء فعرفنه ولم يجبن مجيبا ثم عاد الثانية ثم الثالثة رافعا صوته فقلن بأجمعهن السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته بآبائنا وأمهاتنا أنت يارسول الله فقال أما سمعتن ابتداء سلامي فقلن بلى ولكننا أحببنا أن نستكثر لانفسنا وذرياتنا من بركة تسليمك فقال ان جاريتكن هذه أبطأت عنكن وخشيت العقوبة فهبوا الى عقوبتها فقلن قد شفعناك فيها يارسول الله ووهبنا عقوبتها وقد أعتقناها المشاها معك فهي حرة لوجه الله العظيم فانصرف صلى الله عليه وسلم وهو يقول ماراأيت ثمانية أعظم بركة من هذه الثمانية آمن الله بها خائفا وكسا بها عاريين وأعتق بها نسمة ومامن مسلم يكسو مسلما الا كان في حفظ الله مادامت عليه منه رقعة وحكى أبو بكرة أن اعرابيا أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأنشده هذه الابيات

يا عمر الخير جزيت الجنة * أكس بناتي واكس أمهنه * وكن لنا من الزمان جنة
واردد علينا ان أن انه * أقسم بالله لتفعلنه

قال له فان لم أفعل يكون ماذا قال * اذا أبا حفص لأذهبنه * قال فان ذهبت يكون ماذا فقال
* تكون عن حالتي لتسئلنه * قال متى قال
يوم تكون الاعطيات هنه * وموقف السؤال عندهنه * اما الى نار واما جنه

قال فبكى عمر رضي الله عنه حتى بلت دموعه لحيته ثم قال لغلامه ياغلام أعطه قميصي هذا الموقف هذا اليوم لا لشعره أما والله فاني لا أملك غيره وقال المدايني خرج الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر حجاجا ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خيمة فقالوا لها هل من شراب فقالت نعم فأناخوا عندها وما معها الا شاة في جانب الخيمة فقالت لهم دونكم فاحتلبوها وامتذقوها ففعلوا ثم قالوا لها هل من طعام فقالت لهم هذه الشاة ماعندي سواها فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم منها طعاما فقام اليها أحدهم فذبحها وكشطها عن جلدها فهيأت لهم منها طعاما فأكلوا وأقاموا عندها حتى أبردوا ثم ارتحلوا وقالوا لها نحن نفر من قريش فاذا رجعنا سالمين بحول الله تعالى فألمي بنا فانا صانعون بك خيرا فلما أقبل زوجها اخبرته خبر القوم فغضب وقال ويلك ذبحت شاة لم يكن لنا سواها لقوم لم تعرفيهم ثم ألجأتهما الحاجة واضطرتهما الفاقة فأتيا المدينة وجعلا يلتقطان البعر ويبيعانه ويتعيشان من ثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا بالحسن بن علي رضي الله عنهما وهو جالس في باب داره فعرفها وهي له منكرة فبعث اليها غلامه ودعا بها وقال يا أمة الله أتعرفيني قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا قالت له بأبي أنت وامي أنت هو قال نعم وأمر غلامه فاشترى لها ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه الى الحسين فقال لها بكم وصلك أخي قالت بألف شاة وألف دينار فأمر لها الحسين بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه الى عبد الله بن جعفر فقال لها بم وصلك الحسن والحسين قالت بألفي شاة وألفي دينار فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار وقال لها لو بدأت بي لاتعبتهما فرجعت العجوز الى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وقيل خرج عبد الله بن جعفر يوما الى ضيعة له فنزل في طريقه في نخل لبعض الناس وفيها غلام أسود يعمل اذ أتى الغلام بقوته فدخل

عليه

عليه الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثاني فأكله ثم رمى اليه بالثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه فقال للغلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب على نفسك قال ياسيدي ماهي بأرض كلاب انما جاء من مكان بعيد جائعا فكرهت رده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى فقال عبد الله بن جعفر ينسب الى السخاء حتى ألام عليه وهذا الغلام والله أسخى مني ثم سأل عن صاحب الحائط والغلام واشتراهما منه وأعتق الغلام ووهبه الحائط * وتلاحى ثلاثة رجال بفناء الكعبة فقال أحدهم أسخى الناس عبد الله بن جعفر وقال الآخر قيس بن سعد بن عبادة وقال الثالث عرابة الاوسي وكثر كلامهم في ذلك فقال لهم رجل ليمض كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر لما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله في غرز راحلته ليركب فقال له يا ابن عم رسول الله قال قل قال ابن سبيل ومنقطع به فثنى رجله وقال خذ الناقة بما عليها ولا تخدعن في السيف فانه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه فجاء بالناقة عليها مطارف خزوأربعة آلاف دينار وأعظمها خطرا السيف ومضى الآخر الى قيس فوجده نائما فقال له خادمه هو نائم فما حاجتك قال ابن سبيل ومنقطع به قال حاجتك أيسر من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار مافي دار ابن سعد اليوم سواها وسر الى معاطن الابل بعلامة الى من فيها وخذ راحلة وعبدا وامض لشأنك فقيل ان قيسا انتبه من منامه فأخبره الخادم بما صنع فأعتقه وقال هلا أيقظتني فكنت أزيده ومضى صاحب عرابة فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكئ على عبدين وقد كف بصره فقال ياعرابة قال قل قال ابن سبيل ومنقطع به فخلى عن الغلامين وصفق بيديه وقال أوه أوه والله ماتركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذ العبدين قال ما كنت لأقطع جناحيك قال ان لم تأخذهما فهما حران فان شئت فخذ وان شئت فأعتق فتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيديه فأجمع الحاضرون أن عرابة أسخى الثلاثة لانه جهد من مقل وان الآخرين انما أعطيا من فضل وسعة وان كانا في فعلهما قد بلغا الغاية وتجاوزا الحد وحكى عن معن بن زائدة وكان يمثل بجوده فيقال حدث عن البحر ولا حرج وعن بني اسرائيل ولا حرج وعن كرم معن ولا حرج وفيه يقول الحسين بن مطر يرثيه حيث يقول

فيا قبر معن كنت أول حفرة * من الارض خطت للمكارم مضجعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى * وأصبح عرنين المكارم أجدعا
تمنى أناس شأوه ومكانه * فأضحوا على الاذقان صرعى ووقعا

وقال مروان بن أبي حفصة

مضى بسبيله معن وأبقى * مكارم لن تبيد ولن تنالا * كأن الشمس يوم أصيب معن
من الاظلام ملبسة جلالا * أقمنا باليمامة بعد معن * مقاما لانريد به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن * وقد ذهب النوال فلانوالا

قيل انه أتاه رجل فقال له احملني فقال ياغلام أعطه فرسا وبعيرا وبغلا وبرذونا وحمارا وجارية وقال لو علمت مركوبا غيرها لاعطيتكه وحضر بابه يوما أحد الشعراء فلم يجد سبيلا الى الوصول اليه فسأل عن مكانه فقيل هو في البستان فأخذ خشبة وكتب فيها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي * فمالي الى معن سواك شفيع

وأرسل الخشبة في الماء الذي يجري الى البستان ومعن قاعد على الماء فلما رأى الخشبة أخذها وقرأ ما فيها وقال من صاحب هذه فدعا بالرجل وقال له أنت قلت هذا قال نعم فأمر له بعشرة بدر ووضع الخشبة تحت بساطه فلما كان في اليوم الثاني خرجت في يده فقرأها ودعا بالرجل ودفع اليه مائة ألف درهم فلما نظر الرجل الى كثرة المال استعظمه وساء ظنه لكثرته وسوّل له انه لا يترك في يده فخرج من عنده الى غير بلده فلما كان في اليوم الثالث نظر معن الى الخشبة وقرأها ودعا بالرجل فالتمس فلم يوجد فقال معن حق علىّ أن أعطيه متى نظرت اليها حتى لا يبقى في بيت مالي شئ وما أحسن قول معن هذا يصف حاله اذ يقول

دعيني انهب الاموال حتى * أعف الاكرمين من اللئام

وقيل ان رجلا اتى دار رجل من معارفه فدخل عليه الباب فقال له ما جاء بك قال الحاجة فدفع اليه مالا جسيما ثم جعل يبكي ويتأسف فقيل له اذا شق عليك ما أعطيته فقال والله ما شق علىّ وانما أبكي لاني لم أتفقده حتى احتاج الىّ وحكى انه لما مرض الشافعي رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه قال اذا أنا مت فقولوا لفلان يغسلني فلما توفي و بلغه الخبر قال ائتوني بتذكرته فجئ بها اليه فوجد فيها على الشافعي ستين ألف درهم دينا فكتبها الرجل على نفسه وقال هذا هو الغسل الذي أراد به وكان عبد الله بن جدعان التيمي حين كبر سنه قد أخذ بنو تيم عليه لفرط جوده ومنعوه ماله فكان اذا أتاه الرجل يستعطفه يقول له أدن مني فاذا دنا منه لطمه وقال له اذهب فاطلب بلطمتك أو ترضى فكانت تيم ترضيه من ماله وفي ذلك يقول قيس الرقيات

والذي ان أشار نحوك لطما * أتبع الفعل نائلا وعطاء

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال له والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علىّ بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها واحبسني بدينك فان أهلي لا يتركوني محبوسا ففعل فلم يمس حتى دفع اليه المال * ولما حبس عمر بن عبد العزيز رحمه الله يزيد بن المهلب وكان سعيد بن عمرو له مؤاخيا ولوده مصافيا وكان عمر رضي الله عنه قد منع الناس منه وحجر عن الدخول عليه فأتاه سعيد وقال له يا أمير المؤمنين ان لي على يزيد خمسين ألف درهم وقد حال الاجل بيني وبينه فاذا رأى أمير المؤمنين ان يأذن لي في الدخول عليه واقتضاء ديني منه فاذن له وكانت حيلة من سعيد في زيارته فلما دخل عليه سر يزيد به كل السرور وقال له كيف تحيلت في الوصول الىّ فاخبره الخبر فقال يزيد أما والله لا تخرج الا بها فامتنع سعيد وأقسم يزيد ودفع اليه الخمسين ألف درهم فقال عدي بن الرقاع في ذلك

ولم أر مسجونا من الناس واحدا * حباز ائرا في السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو زاره فأجازه * بخمسين ألف عجلت لسعيد

ودخل نصيب على مسلمة بن عبد الملك فانشده فاجاد فقال له مسلمة سل ما بدا لك قال لا أفعل قال ولم قال لان يدك بالعطية أجود من لساني بالمسئلة فاعجبه قوله وأمر له بألف دينار وحكى ان الليث بن سعيد كان يستغل مالا جسيما في كل عام وما وجبت قط عليه زكاة وكان لا يحول عليه الحول الا وعليه دين وقال معاوية بن عبد الرحمن دخلت مصر في زمن الليث بن سعد

فجاءه

سخاء من ضياعه ألف أردب من طعام فأمر ببيعها فبيعت بمال جسيم ثم قيل له يا أبا الحارث ان الناس قد احتاجوا الى الطعام فسأل التجار الاقالة في الطعام الذي باعه فقالوا له ان كانت نيتك في الزيادة زدناك قال والله ما أريد بيعه من سواكم فأقالوه وردوا عليه طعامه ففرق جميعه في المساكين وقيل ان هارون الرشيد أمر لمالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار وان الليث بن سعد بعث الى مالك بالف دينار فبلغ ذلك هارون الرشيد فشق عليه و بعث الى الليث وقال له أيحسن ان أعطيه انا خمسمائة دينار وتعطيه أنت ألفا وأنت من رعيتي فقال له يا أمير المؤمنين لم أقصد وانما الى في كل يوم ألف دينار تدخل على مالى فاستحييت ان أقابل مثله باقل من دخل يوم * وقدم عبد الله بن معمر البصرة وكان لفتى من أهلها جارية نفيسة القدر قد تأنق في تعليمها واتقن في تأديبها فقبلت وفاقت و بهرت وكان قد قعد به الدهر وأجهدتهما الفاقة فقالت له الجارية ياسيدي هذا الحال لا صبر عليها ولا بقاء معها ولقد أردت ان أعرض عليك وجها استحيي منك فيه مع صعوبته على وقلة احتمالى له غير ان الاضطرار يخرج عن الاختيار قال وما هو وقالت هذا ابن معمر قد قدم وشرفه مأثور وكرمه مشهور فلو أذنت لي فاخذت على نفسي وتقدمت بي اليه وعرضتني عليه لرجوت ان يصل اليك منه خير كثير يصلح الله به حالك فبكى الفتى وجدا لها وجزعا لفراقها وقال لها والله لولا انك نطقت بهذا ما بدأتك به أبدا ولا استسهلته على نفسي ثم أمرها فاخذت على نفسها ونهض بها حتى مثلها بين يديه وقال له أعز الله الامير هذه الجارية ربيتها فاحسنت وأدبتها فابلغت وقد رضيتها لك لنبلها وخصالها فاقبلها مني فقال له ابن معمر لا أقبل هذه فهل لك في بيعها فارضيك فيها قال ذلك اليك فقال له يقنعك فيها عشر بدر فقال الفتى والله ما امتد أملي اليها لكن فضلك معروف فأمر باحضار المال ودفع الى الفتى وقال للجارية ادخلي الحجاب فقال سيدها أعزك الله لو أذنت لي في وداعها قال نعم فقام وعيناه تذرفان وأنشأ يقول

أنوح بحزن من فراقك موجع * أقاسي به ليلا يطيل تفكري
ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن * يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا * ولا وصل الا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت خذ الجارية وبارك الله لك في المال ومن أمثال الحكماء السخاء غطاء العيوب والشح آفات تنوب ومضرات تنوب وفي مثل ذلك يقول ابن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط باثواب السخاء فانني * أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

ومن أحسن ما قيل في الكرم قول بكر بن النظام حيث يقول

أقول لمرتاد الندى عند مالك * تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه * فأسدى بها المعروف قبل عداته
تحكم في الاموال من كل جانب * فانهبها في عوده وبداته
ولو قصرت أمواله عن صلاته * لقاسم راجيه بشطر حياته
ولو لم يجز في العمر قسم لمالك * وجاز له الاعطاء من حسناته

لجاد بها من غير كفر بربه * وشاركا فى صومه وصلاته

وقال بعض الشعراء من أهل الكرم

أيا بنت عبد الله وابنة مالك * ويابنت ذى البردين والفرس الورد
اذا ما عملت الزاد فالتمسى له * أكيلا فانى لست آكله وحدى
قريبا أو قصيا فاننى * أخاف مذمات الاحاديث من بعدى
وكيف يسيغ المرء زادا وجاره * خفيف المعى بادى الخصاصة والجهد
وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * ومافى الا تلك من شيمة العبد

وقال عمرو بن اهتم

ذرينى فان الشيخ ياأم هيثم * بصالح أعمال الرجال خليق
ذرينى وحظى فى هواى فاننى * على الحسب العالى الرفيع شفيق
ومستفتح عند الرقاد أجبته * وقد حاد من سارى الشتاء طريق
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا * فهذا مبيت صالح وصديق
أضفت ولم أخش عليه ولم أقل * لأحرمه ان الفناء يضيق
لعمرك ماضاقت بلاد باهلها * ولكن اخلاق الرجال تضيق

وفى منثور الحكم الجود فعل محمود وعز موجود ومن أمثال الحكماء من جاد ساد وقال ارسطا طاليس الجواد عزيز وان كان مقلا والبخيل ذليل وان كان مستقلا وقال بعض السلف كنوز الدنيا المعروف المبذول وكنوز الآخرة العمل المقبول وقالت ابنة عبد الله المطيع لزوجها يحيى بن طلحة مارأيت ألأم من أصحابك اذا أيسرت لزموك وان أعسرت تركوك قال هذا من كرمهم يأتوننا فى حال القوة عليهم و يتركوننا فى حال الضعف عنهم وفى مثل ذلك يقول طلحة الطلحات

أرى الاخوان لما قل مالى * وكثرت الغرامة ودعونى
فلما ان غنيت وثاب مالى * أراهم لا أبالك راجعونى

ومن أمثال الحكماء فى الكرم التبشر صحيفة البشرى وقال أبو منصور الثعالبى ذمام الكرم غير مذموم ومن كلامه أيضا الكريم لا يكون لاتصال أياديه انفصال ولا لارضاع نعمه فصال ومما نظمت فى هذا المعنى من كرمت شمائله شملت مكارمه ومن فضل عرفه عرف فضله ومن كرم نسبه نسب كرمه ومن تعينت نعماه نعمت عيناه ومن سبق عليه علم سبقه ومن حسنت سماته سمت حسناته وقلت أيضا فى مثل ذلك والكريم الذى تهب هباته وتتصل صلاته و يطول طوله وينساب سيبه وينادى نداه و يبشر بشراه ولم يشب بالمن منه وخلص من الفضول فضله فاذا هو واستن فى هذا السنن حسن احسانه وحبا حباه وعرف عرفه وأجدى جداه فسمت فى الابصار سماته وصفت من الاكدار صفاته ولما اتفقت على هذا الترتيب نظمتها فقلت

ان الجواد اذا تنعم جوده * هبت على ربع العفاة هباته
نادى نداه بهم و بشر بشره * وصفت من الكدر المشوب صفاته
وانساب فى كل المواطن سيبه * كالغيث واتصلت عليه صلاته
واذا تطاول طوله وحبا حباه * سمت بالحاظ العيون سماته

واستن فى سنن المحامد ذكره * طيبا وأبدت حسنه حسناته
يجدى جداه ولا يمن بمنه * ما ساعدته من الزمان حياته
ذاك الذى فى الناس يعرف عرفه * وتعد فى قبض الاكف عداته
لله من كانت حلاه هذه * فلقد حوت سبق العلا أدواته

جعلنا الله من أهل مكارم الاخلاق وان قصرت أيدينا عن ادراك مكارم الانفاق بفضل الله الغنى الكريم الرزاق لارب سواه ﴿فصل فى ذم البخل وأسبابه﴾ البخل جنبك الله اياه أدنى خلة وأودى علة يدل على قلة الثقة وضعف اليقين وكثرة القنط وركاكة الدين وقد ذمه الله عز ذكره فى غير ما آية من كتابه الكريم فقال سبحانه الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وقال تبارك اسمه ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم وقال تعالى ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه وقال عز من قائل ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم انى أعوذ بك من البخل وسمع صلوات الله عليه رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال عليه السلام لعن الله الشحيح ولعن الله الظالم وسمع مجاشع رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال ان شيئين أخيرهما الشح لناهيك بهما شرا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى العبد شرا من شح مانع وجبن هالع وفى رواية أخرى شح هالع وجبن خالع وقال عليه السلام اياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم وقال عليه السلام لا يجتمع الشح والايمان فى قلب رجل مسلم وقال عليه السلام أى داء أودى من البخل وقال صلى الله عليه وسلم أقسم الله تعالى ان لا يجاوره بخيل وقال صلى الله عليه وسلم البخل ثمرة الرغبة فى الدنيا والسخاء ثمرة الزهد وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال خلق الله البخل من مقته وجعل أصله راسخا فى أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار وروى فى بعض الآثار ان يحيى بن زكريا عليهما السلام لقى ابليس فى صورته فقال له يا ابليس اخبرنى احب الناس اليك وأبغض الناس اليك قال أحب الناس الى المؤمن البخيل وأبغض الناس الى الفاجر السخى قال ولم قال لان المؤمن البخيل قد كفانى بخله والفاجر السخى أخاف ان الله يطلع عليه فى سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول لولا انك يحيى بن زكريا ما أخبرتك وسئل الحسن عن البخل قال هو ان يرى الرجل ما أنفق تلفا وما أمسك شرفا وقال بعض الشعراء فى ذلك

انما المال لمن أنفقه * وابتغى الاجر به واصطنعا
لا تراه الدهر الا ساميا * تابعا فى الجود أو متبعا
لا كمن يمشى يحامى ماله * ويذود الخلق عنه جشعا
كلما أتلف فلسا شخصت * نفسه أو كاد يقضى جزعا

ومن أقوال الحكماء الكريم بكل حسن موسوم واللئيم بكل لسان مذموم وقال بشر لقاء البخيل كرب والنظر اليه يقسى القلب وكانت العرب تتعاير بالبخل والجبن وتمدح بالشجاعة والكرم وفى ذلك يقول شاعرهم

بخلاء علينا وجبناء عن عدوّهم * لبئست الخلتان الجبن والبخل

﴿فصل﴾ وكفى بالبخل مذمة وخساسة أن البخيل يمتنع من اقتراف الحسنات مع افتقاره اليها ويجانب مباح الشهوات مع اقتداره عليها وربما ترك الطبيب وان أجحفت به العلة ولا يرى دفع المكروه عن نفسه اذا أدركته المذلة لكثرة الاشفاق على الانفاق فمن كان مسيئا لنفسه كيف يكون محسنا لغيره ونعوذ بالله ممن لا يلقى في الدنيا شكرا ولا يجد في الآخرة ذخرا وكفى به سوء رعية وركاكة بغية انه يجمع لغيره ويحمل معرة ضيره ولا ينال لذة وفره وخيره وفي مثله يقول ابن وكيع

لئيم لا يزال يلم وفرا * لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو * فريسته ليأكلها سواه

وقال حكيم في بعض وصاياه يا بني اياك والبخل فان البخيل خازن لاعدائه وقال بعضهم تقتير المرء على نفسه توفير لغيره ورب محبوس عليه ما في يدي غيره رزق له ورب محبوس عنه ما في يديه رزق لغيره وفي الحكم المنثورة بشر مال البخيل بحادث أو وارث أخذه بعض الشعراء فقال

اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وأنت دفين

وقال المعتمر أبخل الناس بعرضه أجودهم بماله وأجود الناس بعرضه أبخلهم بماله وقال الحارثي

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل

وقالت أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أف للبخل والله لو كان البخل قميصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته ومن أمثال الحكماء آفة الكرام مجاورة اللئام وقال سقراط البخل منقصة والحرص مفسدة والعجلة خطأ والبذاء لؤم وانما يكون البخل من ضيق النفس وضعفها وقيل لبعض البخلاء لم حبست مالك قال للنوائب قيل له قد نزلت بك وأي نائبة أشد من البخل قال بعضهم

البخل داء دوي لا يليق بذي * مروءة لا ولا عقل ولا دين
من آثر البخل عن وفر عن جدة * فقد لعمري أضحى عين مغبون
يا بؤس من منع الدارين خيرهما * فباع دنياه بعد الدين بالدون

وقال ابن المنكدر اذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم واذا أراد الله بقوم خيرا أمر عليهم خيارهم وجعل أرزاقهم بايدي كرمائهم وقال جعفر بن يحيي الرزق مقسوم والبخيل مذموم والحريص محروم والحسود مغموم وقال الواقدي البخل بالموجود من سوء الظن بالمعبود وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة فيه وكان أبو حنيفة رحمه الله لا يعدل بخيلا يقول انه يرى ان يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن وهذا لا يكون مأمون الامانة وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه قال سيأتي على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يديه ولم يؤمر بذلك وقيل في بعض الحكم من بخل على الفقراء سلط على ماله الامراء ومن كلام بعض الحكماء اعص أمر البخل وأطع أمر البذل تفز بالفضل ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلي على الرشيد فانشده

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى * فذلك شئ ما اليه سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى * بخيلا له فى العالمين خليل
وانى رأيت البخل يزرى باهله * فاكرمت نفسى أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون ينيل
عطائى عطاء المكثرين تكرما * ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى * ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال له لا كيف ان شاء الله ثم قال له لله ما أنشدتناه يا اسحق ما أتقن أصوله وأبين فصوله وأقل فضوله *(فصل)* وقال بعض الناس حد البخل منع الواجب فمن أدى ما وجب عليه فليس ببخيل وانما البخيل المستصعب للعطاء ولا تسمح به نفسه على حال وهذا من الكلام الذى ليس فيه اقناع لان الواجب لابد من اعطائه طائعا أو مكرها فهذا انما أكرم نفسه عن الحمل عليها وصانها عن الاكره لها فلا محالة ان اسم البخل واقع عليه اذا كان مواصلا للحرمان بما فى يديه ولا يسمح الا بما أوجبه الشرع عليه وأما المستصعب للعطاء فى واجب وغير واجب فذلك أبخل البخلاء بلا مدافعة ولا منازعة كما انه اذا سمحت نفسه بالبذل وساعدته على النيل فى غير الواجب وكان عطاؤه فى وجوه بستوجب بها الملامة فليس ببخيل بل هو جواد غير موفق حملته على البذل المروءة النفسانية ومنعته الشهوة عن سلوك السبل المرضية والبخل الصحيح هو قصد المنع وايثار الشح وامتناع البذل فى كل الوجوه وأصله حب المال وطول الامل و يشرك معها حب الولدان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الولد مبخلة مجبنة فاذا بسط له أمله وحجب عنه أجله وتعصب به ولده خامر قلبه خوف الفقر وقلة ثقته بما قسم له من الرزق فتعلق بجميع حبائل البخل هذا اذا كان متمسكا بشعبة من شعب الاسلام متعلقا بحبل من حبال الايمان وأما ان كان من أهل العصيان فيبخل بما فى يديه ليستعين به على المعصية والخذلان و ينفقه فى غير الطاعة والاحسان فذلك الذى خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين الا أن يقلب الله قلبه و يتوب عليه وهو التواب الرحيم *(فصل)* وقد يكون البخل حب شخص الدينار والدرهم ولون عينهما خاصة فانا نجد من الناس الرجل المسن الخلى عن الولد عنده من المال ما لو سمحت به نفسه وتجاوز الحد فى بذله مع انتهائه الى أطول أعمار أهل زمانه لوسع ذلك ما عنده وهو مع ذلك لا يسمح باداء زكاته ولا بالاحسان الى نفسه فيما لا حرج عليه فيه وانما جميع لذته وجل أمنيته ورغبته رؤية دنانيره ودراهمه ليتعذب وجودها فى يديه ويقنع بحصولها فى ملكه وكونها فى قبضته وهو عالم انه يموت وربما علم انه لمن يتربص به ونعوذ بالله من سوء الخلائق وحلول الطوارق وامتناع الحقائق وسمعت عائشة رضى الله تنشد وتقول

أأخى ان من الرجال بهيمة * فى صورة الرجل اللبيب المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله * فاذا أصيب بدينه لم يشعر

حكى ان مروان بن أبى حفصة كان من البخلاء وكان لا يأكل من اللحم الا الرؤس فقيل له فى ذلك فقال الرأس أعرف سومه فقد أمنت خيانة بائعه ومبتاعه وليس بلحم يؤخذ منه شئ الا علم

لان ان مس منه عين أو أذن أولسان أوشئ من الجلدة ظهر ذلك ولم يخف ثم انى آكل منه ألوانا مختلفة الطعم واللحم كله طعم واحد والرأس طعم وعيناه طعم غير طعم أذنيه وطعم لسانه غير طعم جلدته وطعم مخه خارج عن طعم جميع ما فيه وقد اجتمع لى فيه مرافق جمة وانه مع أوجهه و بخله لكاقال وحكى عنه انه اشترى لحما بدرهم ثم دعاه صديق له الى طعامه فرد اللحم الى القصاب بنقصان دانق ولم يمسكه وقال ابن الاعرابي خرج بعض الاعراب في عام مسغبة يلتمس شيأ يرجع به الى أهله فلقى من أطعمه وأسقاه فنسى من تخلف ثم جاء بعد حين شبعان ريان فقالت امرأته

كفى لامرئ والله عالم غيبه * وعندك من علم الكرام يقين
بان يخرج الممتار من عند أهله * سغابا و يأتى الاهل وهو بطين
وان امرأ يرضى بطعم ومشرب * و يترك جياعا خلفه لمهين

ومن كلام سقراط الاغنياء البخلاء بمنزلة البغال والحمير تحمل الذهب والفضة وتعتلف التبن والشعير ولقد أصاب أبو بحر الجاحظ فى قوله ثلاث من أعظم لذات الدنيا ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب وقال بعض الحكماء اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها وأصاب فى تشبيهه بالصخرة من وجهين أحدهما جوديده فانها لا تسمح بالعطاء كما لا ترشح الصخرة بالماء والثانى فى صلابة خده لانه لا يستحى من رد طالب رفده وقال عبد الرحمن بن حسان

انى رأيت من المكارم حسبكم * ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا امرؤ ذكر المكارم مرة * فى مجلس أنتم به تتقنعوا

وقال بعض الحكماء رب موسر مسيء لنفسه ليظهر عسره فيعذر فى بخله ورب متجمل يحسب موسرا وذلك لقلة ذات يده وفى ذلك يقول بعض الشعراء

الله يعلم انى لست ذا بخل * ولست ملتمسا فى البخل لى عللا
لكن طاقة مثلى غير خافية * والدر يعذر فى القدر الذى حملا

وقال بعض السلف من لم يقدم بره لم يسمع شكره وقال أبو العتاهية

أسدى البخيل الىّ برا ظاهرا * ولم يثقل بره ظهرى
ما فاتنى خير امرئ رفعت له * عنى يداه مؤنة الشكر

وقال بعض الحكماء فى بعض وصاياه يا بنى طهر قلبك من دنس البخل بمجانبته وارفع نفسك عن مصاحبة أهله ونزه قدرك عن قبيح ذكره فلا داء أودى من البخل ولا حال أنكد من مصاحبة أهله ولا محطة أوضع من الاتسام به ونعوذ بالله من دواعى البخل لما أدناها خطة وما أخسرها صفقة نهانا الله عز وجل عنها ورسوله وذم فى جميع الاحوال قليله وكثيره فلا ترى الا من ينكره ولا تلقى الا من يكرهه ويحذره نسأل الله أن يكفينا البخل وأهله

(الباب العاشر فى الوفاء بالعهد والأمانة والانتقاء عن النكث والخيانة)

الوفاء بالعهود أصلحك الله من أفضل شمائل العبد وأوضح دلائل المجد وأقوى دواعى الاخلاص والود وأحق الافعال بالشكر والحمد وقد وصف الله سبحانه به نفسه وجعله صفة من صفاته وأبان به عن اتمام احسانه وانجاز عداته فقال عز من قائل ومن أوفى بعهده

من

من الله وقال تبارك اسمه وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وقال تعالى والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقال جل ذكره والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وقال عز وجل والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون وذكر كثيرا فى كتاب الله عز وجل وهو ينقسم قسمين أحدهما وهو الاصل الوفاء بعهد الله عز وجل وهو الذى أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين اخرجهم من ظهره فقال سبحانه واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم قال لهم ألست بربكم وعن أبى بن كعب قال جمعهم يومئذ جميعا مما هو كائن الى يوم القيامة ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى فقال تعالى فانى أشهد عليكم السموات والارضين وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا اله غيرى ولا رب غيرى فلا تشركوا بى شيأ وسأرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى قالوا شهدنا انك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك ولا اله لنا غيرك وأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع عليهم أباهم آدم فرأى منهم الغنى والفقير والحسن الصورة وغير ذلك فقال رب ألا سويت بينهم قال انى أحب أن أشكر قال وفيهم الانبياء يومئذ كالسراج ثم خص الله النبيين بميثاق آخر وهو قوله تبارك وتعالى واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح الآية وقوله جل جلاله هذا نذير من النذر الاولى وعن السدى قال الله عز ذكره ألست بربكم قالوا بلى فاعطاه طائفتين طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية وهو قوله سبحانه وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها فلذلك ليس فى الارض أحد من ولد آدم الا وهو يعرف ان الله تعالى ربه فقال الله تعالى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك آباؤنا وكنا ذرية من بعدهم والقسم الثانى هو الوفاء بعهود عباد الله وهو فرع من فروعه وفرقة من مجموعه لاشتمال الطاعة عليه واقتضائه له وكاهابه و ينقسم هذا القسم على أقسام كثيرة ووجوه جمة كالقيام بالشهادة وأداء الامانة وبذل النصيحة وكتمان السر وصلة الرحم وقول الحق وان جار وصدق الحديث وحفظ الجوار ورد السلام وغير ذلك مما ندبت الشريعة اليه وحض الاسلام عليه واختارته المروأة وقام به الفضل روى عن بعض أهل العلم انه قال يسر الله عز وجل الى عبده بسرين على طريق الالهام أحدهما اذا خرج من بطن أمه فيقول له عبدى قد أخرجتك الى الدنيا طاهرا نقيا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وكيف تلقانى بها والثانى عند خروج روحه من جسده وفراقه الدنيا يقول له عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء أم ضيعتها فألقاك على المطالبة والجزاء قال الله عز من قائل من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا وروى انه لما نزلت ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك مادمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل يريدون العرب لانهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شئ كان فى الجاهلية

الا وهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر وقال بعض العلماء كبرت صفة جمعت الوفاء بالعهود الموضوعة وصلة الرحم المقطوعة وكتمان الاسرار المسموعة فانها لم تزل من الشيم الرفيعة ولكل جميلة من الخير وجزيلة من الاجر ذريعة ومن أمثال الحكماء حسب المؤمن من مكارم والاخلاق صيانة العهد والميثاق وقال بعضهم لا يجب على العاقل أن يوجب صدق المحبة والاخاء الا لاهل المودة والوفاء وقالوا أصل المودة الصفاء وثمره الوفاء وقيل أبعد الناس من الخير واكتسابه من لم يعرف حلاوة الوفاء بالعهد وفضل منزلته ومن كلام الحكماء حقيق من الناس بحسن الثناء من عظمت رغبته فى اكتساب الوفاء وفى بعض الحكم مع حفظ العهد يزكو قليل الود ومع نكث العهد يذهب كثير الود فعليكم بالوفاء فبه تملك القلوب وتستدام الالفة بين المحب والمحبوب وقالوا من لزم الوفاء لزمه الرضاء وتحلى بالصفاء ومن أمثالهم الوفاء بالذمم من علامات الكرم وفى منثور الحكم من كرم الجدود وتمام السعود والقيام بالحدود الوفاء بالعهود وقال بعض الحكماء من لقى الله بلسان صادق وعامل الناس بحسن الخلائق وألزم نفسه رعى العهود والمواثق فقد أرضى المخلوق والخالق وأدرك فى الفضل كل سابق وقال بعض العلماء من أوفى بعهود الناس استجاد دنياه ومن أوفى بعهود الله استجاد أخراه والخاسر من لم يحكم بما أنزل الله

﴿فصل﴾ والوفاء ضالة كثير رائدها قليل واجدها وهو من أتم حميد الخلال واليه تنتمى المروءة والكمال وقد عظمت الحاجة اليه وعدم المستقل به والحافظ عليه وصار رسما دارسا وحلة لا تجد لها لابسا ولا فى اقتنائها على كرمه وفضله متنافسا وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وصادق الود صادق الخبر * مغرى برعى العهود مصطبر
هذا الذى لا ازال أسمعه * وماله فى الزمان من أثر
لوان كفى بمثله ظفرت * قاسمته فى المتاع والعمر

وقال أيضا غيره

قد توجد الشيم السنية فى الفتى * الا الوفاء فانه معدوم
أو مادروا من تستتم خصاله * دون الوفاء فانه مذموم

وقال رجل لبعض الصالحين أوصنى فقال له اتق الله سرك وعلنك وافعل الخير ما أمكنك ولا تضيع أمانة من ائتمنك واصدق الحديث سرك أو أحزنك فان فعلت فقد استفدت الزيادة رسنك وأرحت من المكاره قلبك وبدنك وقال غيره ان أردت أن تحمى من الغير جنبا تك وتصفو من الكدر مدة حياتك وترى النمو فى رزقك وحسناتك فلا تضيع عهد من حافظ على ميثاقك ولا تقطع المعهود من هباتك ولا تجعل المطل ثمرة عداتك ومن أمثال الحكماء بالوفاء يدوم الاخاء ومع الجفاء يعدم الصفاء وقيل فى بعض الحكم أخلق بالوفاء بالعهد ان يجتنى ثمرة الحمد ومن أمثالهم لا حياء لمن ليس له وفاء وقال بعض الادباء لابنه يابنى اذا أردت أن تصل الى ذروة المجد فعليك بحفظ العهد وقالوا الصدق والوفاء توأمان نتيجتهما الدين والصلاح فاذا اجتمعا فى الانسان كانا له حصنا من جميع المكاره ومن الحكم المنثورة أجدر بحافظ العهد أن يكون صحيح الود كريم الجد قويم العهد كثير الرفد قليل الحقد موضعا للشكر والحمد وقال بعض الحكماء ما رأيت

اجمع

أجمع لخير الدارين وشرف المنزلتين من الوفاء بالعهد وصلة الرحم ومن كلام بعض الادباء من تحلى بالوفاء وتخلى عن الجفاء فذلك من اخوان الصفاء وقال بعضهم اذا ما بذلت من ودك الصفا وعاملت اخوانك بالوفا فقد جددت رسما قد عفا وحسبك من علامات السودد وكفى ومما سبق لى من القول فى ذلك

اذا كنت قد أمحضتنا الود صافيا * ولم ترع عن وصل الصديق تجافيا
وشاركت فى حلو الزمان ومره * وأصبحت فى اللأواء تسدى الايايا
ووفيت بالعهد الذى خانه الورى * ولم أر مخلوقا على العهد باقيا
فقد حزت أشتات المكارم كلها * وجددت للعليا رسوما عوافيا

حكى ان ملكا من الملوك كان له يوم بؤس اذا خرج فيه ولقى أحدا على صفة يكرهها حبسه أياما ثم أمر بضرب عنقه فخرج يوما من تلك الايام فلقى رجلا قاصيا لم يكن عنده علم بشأنه على الصفة التى كان يكرهها فامر بحبسه واعلم الرجل بالامر فحمد الله وسلم للقدر فلما قرب الامد كتب الى الملك يرغب فى تخلية سبيله ليودع أهله و يوصى فى ماله فاحضره وقال هذا أمر لا يكون الا بضامن آخذه بما أطلبك به فنظر الرجل فى الحاضرين يمينا وشمالا ثم مد يده الى رجل منهم وقال هذا يضمنى فقال له الملك أتضمنه وقد عرفت ما يراد به قال نعم فامر بحبسه مكانه ونهض المضمون الى بلده فاوصى فى ماله وودع أهله وانصرف وقد وافق يوم تمام المدة فلما استأذن على الملك أمر باحضارهما معا وقال للضامن ما حملك على ضمانه والمخاطرة بنفسك فى شانه ولو تأخر لسبق فيك السيف العذل قال له أيها الملك ما رأيت وقد وثق بى أن أخالف ظنه منى فرجع الى المضمون وقال له ما حملك بعد تخلصك على التنشب وقد علمت المراد بك قال لم أكن يجمل بى ان أراه مكان الثقة فيرانى مكان الغدر فعجب من وفائهما جميعا وعفا عنهما ورفع بؤس ذلك اليوم فلم يقصده بعد فمن نظر فى أمر الرجلين لم يدر من يغلب منهما فى الوفاء على صاحبه ولا من يجعل الفضل فى جانبه وقال بعض العلماء اركان الدين والدنيا أربعة الصبر والصدق والحلم والوفاء وكانوا يقولون الوفاء بالذمة من أركان الملة والحفظ للذمام من أركان الاسلام ومن الحكم المرفوعة لا يظهر وفاء المرء لاخيه الا بعد وفاته وعند نوائب الدهر وآفاته ومن الامثال فى ذلك الوفاء بعد الوفاة وقال بعضهم لا اخاء الا بوفاء ولا مودة الا بصفاء ومن كلام الحكماء من أحرز العواقب بالحزم وأحرز المودة بالوفاء ودبر الدنيا بالحكمة فقد ملك أزمة العزة ومن أقوال بعض العلماء اذا أنت قت بعهود الله تشرعا وايمانا ورعيت عهود الناس مبرة واحسانا فقد أحرزت من الناس حمدا ومن الله عز وجل غفرانا أخذه بعض الشعراء فقال

ياحافظا لعهود الله مصطبرا * وقائما بحدود الله ايمانا * وراعيا لعهود الناس محتسبا
مستوجبا بهما شكرا واحسانا * لقد جمعت خلالا ما لها قدر * لا خير فيمن غدا للعهد خوانا

جعلنا الله من الموفين لعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس برحمته وفضله وقوته وحوله ﴿فصل﴾ فى الانتقاء عن النكث والخيانة واعلم رعاك الله ان نكث العهود من أعظم تضييع الحدود وأكبر عصيان الخالق المعبود قال الله عز من قائل فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه

أجرا عظيما وقال تبارك وتعالى أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون وقال جل وعز الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون وقال سبحانه وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون وهذا كثير فى كتاب الله عز وجل والامانة مشتقة من الايمان فمن حفظ أمانته حفظ الله ايمانه ومن ضيع أمانته ضيع الله ايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له وقيل فى بعض الحكم من ضيع الامانة ورضى الخيانة فقد برئ من الديانة أخذه بعض الشعراء فقال

تبا لمن رضى الخيانة مهيعا * وازور عن صون الامانة جانبه
رفض الديانة والمروءة فاغتدى * تترى عليه من الزمان مصائبه

وقال غيره

أخلق بمن رضى الخيانة شيمة * ان لا يرى الا صريع حوادث
مازالت الارزاء ينزل بؤسها * أبدا بغادر ذمة أو ناكث

ومدح اعرابى قوما فقال شفعوا برعى الاذمة فلا يغدرون بذمة ولا ينتهكون لمسلم حرمة ولم تعلق بهم ذمة فهم خير أمة ومن الحكم المنثورة تضييع الميثاق من علامات النفاق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب وقال صلوات الله عليه لا تزال أمتى بخير مالم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما وقال عليه السلام أد الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك وعن حذيفة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الامانة سترفع ويصبح الناس يتبايعون ومايكاد أحدهم أن يؤدى الامانة وحتى يقال ان فى بنى فلان أمينا وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ستفتح عليكم مشارق الارض ومغاربها ألا وكل أمرائها فى النار الا من اتقى الله وأدى الامانة وقال عليه السلام اذا جمع الله الاولين والآخرين رفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدرة فلان وقال صلى الله عليه وسلم من مات ناكث عهد جاء يوم القيامة لا حجة له ومن أمثال الحكماء من خان مان ومن مان خان وتبرأ من الاحسان ومن أمثال الحكماء الغالب بالغدر مغلوب مغلول والناكث للعهد ممقوت مخذول وقالوا من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده وقال بعض حكماء الفلاسفة لو علم مضيع الامانة مافى النكث والخيانة لقصر عنهما عنانه وقيل لبعض العلماء ماعلامة الايمان قال حسن الخلائق واتباع الحقائق وبذل المرافق وحفظ العهود والمواثق والتسليم للقدر السابق قيل فما علامة النفاق قال نقض العهد وخلف الوعد ومنع الرفد والكذب فى الهزل والجد قيل ففيم النجاة قال عمل مبرور وقلب صبور ولسان شكور وادخال السرور والرضى بالمقدور قيل ففيم الهلكة قال كثرة الفجور واقتحام الشرور ومطاوعة الغرور وعصيان الغفور وقال بعض الحكماء لاعذر فى الغدر لمخلوق ولو تكلم بلسان التصديق وأعرب عن جنان التحقيق *(فصل)* وان الاعذار لتحسن فى كثير من الامور وتحمد فى كثير من الاشياء وتشرع فى كثير من الاحوال وتذهب لكثير من الاعتداء الا فى نقض عهد أو حل عقد فما أقبح الغدر فيه ولا عذر وما أقرب الوزر منه ولا أجر وقال بعض الحكماء فى ذلك العذر يصلح فى كثير من المواطن ولا عذر لغادر

ولا

ولاماثم وفى ذلك يقول بعض الشعراء

بانا كث العهد أما ترعوى * جمعت آثاما وأوزارا * عصيت مولاك اغترارا وقد
قدم اعذارا وانذارا * من خان برا كان أو فاجرا * لم يتق العار ولا النارا

وقرئ فى بعض الكتب السالفة مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس ومن كلام الحكماء الغدر ذنب عظيم وعار مقيم *(فصل)* واجمعت الامم وتتابعت الشرائع وتعاهدت القبائل بلا مدافعة على أن لا تنكث لعهد بعد ابرامه ولا نقض لعقد بعد احكامه وهو أس مهدت عليه قواعد الايمان وبنيت عليه أركان الاحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق وهو أمر قبله العقل وصدقه اللسان ولو نبذه الناس لأصبحوا فوضى وعادت سماؤهم أرضا وأمسى عقد الحق محلولا وصارم الصدق مفلولا ودم التناصف مطلولا فمن حفظ عهده وحافظ عليه فقد أسرع الى الخير ووصل اليه ومن نكثه بعد احكامه ونقضه بعد ابرامه فقد برئ من الخير وطرقه وخلع ربقة الاسلام من عنقه وكان حلف الفضول الذى قدمنا ذكره فى بعض الفصول عهدا وشعته قريش ولم تر نقضه وألزمت نفوسها جميعه لا بعضه وشملت فيه كبيرها وصغيرها وسوت فيه رفيعها ووضيعها روى أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وبين الوليد بن عتبة وهو يومئذ أمير المدينة منازعة فى مال فتحامل الوليد على الحسين فى حقه لامارته فقال له الحسين أقسم بالله العظيم لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى وأقوم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا حلف الفضول حتى آخذ بحق منك وسمع عبد الله بن الزبير مقالته فقال وأنا أحلف بالله سبحانه لئن دعا لآخذن سيفى ولاقومن معه حتى ينتصف من حقه أو لنموتن دون ذلك وبلغ المسور بن مخرمة الامر فقال مثل ما قال عبد الله بن الزبير فلما رأى الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه ورضاه فى حقه حتى رضى وقد قال الشاعر

أف لمن لا يفى وبعدا * ولا جفت مقلتاه سهدا * استوجب المقت وارتضاه
لنفسه وارتضاه بردا * فلا حباه الاله رفدا * ولا سقاه الغمام وردا

ومن كلام بعض الصالحين أن حفظ العهد من الايمان وان نكث العهد من البهتان وقال بعض الحكماء لابنه يا بنى لا تحل عقد امبرما ولا تنكث عهدا محكما فتكون قد ضيعت الحقوق وخنت الخالق والمخلوق وحفظ العهد وأداء الامانة أمر أوجبه الله تعالى على جميع خلقه وجعله من أعظم أسباب القيام بحقه وألزمه جميع الشرائع وأكده فى كل الاحوال والصنائع ووعد من حفظه وحافظ عليه حسن ثوابه ووعد من خالفه ونكث عليه أليم عقابه فقال عز من قائل فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما جعلنا الله من الحافظين للعهود والقائمين بالحدود الراضين بقضاء الخالق المعبود بمنه وطوله

﴿الباب الحادى عشر﴾ يشتمل على خمسة فصول متعلقة بالافعال الشرعية مؤدية الى الاحوال المرضية ﴿وهى الحياء والمروءة وحسن الخلق وصلة الرحم وكتمان السر﴾ ﴿فصل فى الحياء﴾ الحياء حبالك الله دليل الدين الصحيح وشاهد الفضل الصريح وسمة الصلاح الشامل

وعنوان الخير الكامل لا يأتي الا بما يصلح و يجمل ولا يقضي الا بما يحسن و ينبل نظم قلائد المحاسن ونسق وجمع من خصال البر ما افترق ان نطق صاحبه صدق وان كاف رفق وان وعد حقق فلا تلقاه الا محمود المشاهد ولا تراه الا موفق المحامد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء وقال عليه السلام الحياء من الايمان والايمان في الجنة وقال صلوات الله عليه الحياء خير كله وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان وقال عليه السلام أول ما يرفع الله من هذه الامة الحياء وقال صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة فيه وكان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد خص منه بأجل السهام وضرب فيه بأوفر الحظوظ والاقسام روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل عليه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وهو مكشوف الركبة فبقي على حاله فلما استأذن عثمان رضي الله عنه غطاها فقيل له في ذلك فقال عليه السلام اني لا استحي ممن استحيت منه ملائكة الرحمن وكان مالك رحمه الله أول من اصطحب الاخبية في السفر وقال انى رجل شديد الحياء فأريد أن استتر وقالت الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انما أدرك الناس من كلام النبوة اذا لم تستحي فاصنع ما شئت نظمه بعض الشعراء

اذا لم تخش عاقبة الليالي * ولم تستحي فاصنع ما تشاء

وقال آخر

ورب قبيحة ما حال بيني * و بين ركوبها الا الحياء

اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب في الامور كما يشاء

ومن كلام الحكماء من منع الحياء ومنح البذاء لم توثق حقائقه ولم تؤمن بوائقه وقال بعضهم من قنع بجلباب الحياء محياه فقد استطاب محياه ومن حسره عن محياه فلا حياه الله ولا بياه وفي منثور الحكم شيمة الخير الحياء وسمة الشر البذاء ﴿فصل﴾ والحياء منقسم على ثلاثة أوجه فأرفع منازل الحياء وأجل مراتب الثناء الذي هو شعار الاتقياء ومفزع الاولياء الاستحياء من الله عز وجل وهو الاصل الذي تتفرع منه أغصانه وتتشعب عنه أفنانه وحده الوقوف عند حدوده والارتباط بحفظ مواثقه وعهوده والائتمار لاوامره والاجتناب عن نواهيه ومحارمه حتى لا يراه حيث نهاه ولا يفقده من حيث أمره روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال استحيوا من الله حق الحياء قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله حق الحيا والوجه الثاني هو الاستحياء من الناس وهو من مكارم الاخلاق بل من اللوازم بالاستحقاق وبه تكمل المروءة و يتم الصلاح و يكف الأذى ويصدق اللسان وتؤدى الامانة وتحسن السيرة وتصلح السريرة روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتقى الله اتقى الناس وقال حذيفة لا خير فيمن لا يستحي من الناس والحياء من الناس راجع الى الحياء من الله تعالى وقد قرنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن علقمة بن علاثة انه قال يا رسول الله عظني قال استحي من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك وقال كعب الاحبار استحيوا من الله في سركم كما تستحيوا من الناس في علانيتكم والوجه الثالث استحياء المرء من

نفسه

نفسه وهو أيضا داخل فى الحياء من الله تعالى وهو أن يتعفف فى خلوته من كشف عورته ومن النظر اليها و يتنزه عند انفراده عن استطلاع ما يكره لغيره استطلاعه منه فلا يأتى فى الخلوة الا ما يأتى فى الملأ وقد قال بعض العلماء انه من المراقبة ويخرجه عن هذا الحكم ما لا بد له منه ولا يمكنه الخروج عنه كالتجرد للطهر والتجرد للنوم على أن التجرد للنوم قد يمكنه أن يتوارى بثياب رقاده قبل التجرد وهو الاحسن قال ارسطاطاليس المروءة استحياء المؤمن من نفسه وقال غيره ليكن استحياؤك من نفسك أعظم من استحيائك من غيرك ولا محالة انه اذا استحيى من نفسه فحياؤه من غيره أشد وقال بعض الحكماء لابنه يابنى لا تعمل فى السر عملا تستحيى منه فى العلانية فمن قصر فى وجه من هذه الوجوه التى قدمناها من الاستحياء من الله سبحانه والاستحياء من الناس والاستحياء من نفسه فقد أخل بدينه كل الاخلال ومنعها أوفر الحظوظ من الفضل والكمال كما انه اذا أخذ نفسه باستعمالها وطالبها باتمامها وا كمالها فقد أخذ باطراف التشرع والديانة وجمع أشتات الخير والصيانة وأحلها المرتبة العليا وجمع لها خير الآخرة والدنيا وقد قال فى ذلك بعض الشعراء

اذا لم تصن نفسا ولم تخش خالقا * وتستحيى مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال بعض الزهاد يا عجبا كيف لا تستحيى من كثرة ما لا تستحيى وكيف ما تتقى من كثرة ما لا تتقى وقال بعض الصالحين لله عزوجل عقوبات فى القلوب وما عاقب قلبا بأشد من سلب الحياء لم يكن معه مانع يمنعه من قبيح ما يأتيه ولا رادع يردعه عن مكروه يدخل نفسه فيه وفى ذلك يقول صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير فى وجه اذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك فانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

فالحياء كله حلة جمال وحلية بهاء وهيئة تدل على نزاهة النفس وعلو الهمة وبعد الصمت ولين الجانب وكرم الخلال وجميع خصال البر يغضى صاحبه جلالا ويعرض احتمالا كما قال الفرزدق

يغضى حياء ويغضى من مهابته * فما يكلم الا حين يبتسم

فهو ان رأى خيرا قبله وتلقاه وان أبصر شرا اتكنفه وتحاماه وسارع الى ما يشيد فى الدنيا علياه و يمهد فى الآخرة عقباه كما قال بعض الشعراء

لقاء الحيى حياة القلوب * وأنس النفوس وبرء الوجيب
اذا سمع الخير أصغى له * وان قيل ما لم يجب لا يجيب

فمن كسى جلباب الحياء تسامى فى مراتب السناء وأحرز سوابق العلاء جعلنا الله ممن حسن أوصافه وجمع أصنافه بفضله وطوله *(فصل فى المروءة)* المروءة جامعة لاشتات المبرات جالبة لاسباب المسرات دالة على كرم الاعراق باعثة على مكارم الاخلاق ناظمة لقلائد الفوائد عاقلة لشوارد المحامد حدها رعى مساعى البر ورفع دواعى الشر والطهارة عن جميع الادناس والتخلص من عوارض الالتباس حتى لا يتعلق بحاملها لوم ولا يلحق به ذم وما من شئ يحمل على صلاح الدنيا والدين ويبعث على شرف الممات والمحيا الا وهو داخل تحت المروءة مرتبط باحكامها منخرط فى سلك نظامها وهى فى ابن آدم على قسمين القسم الاول فى

نفسه والقسم الثانى فى غيره فأما الذى هو فى نفسه فالمحافظة على جميع أحوال التشرع والتزام حدود التدين والتورع كاجتناب المحارم والتعفف عن جميع الماآثم مع لين الجانب وحسن الخلق وما استضاف الى ذلك وما تفرع عنه وأما الذى هو فى غيره فبذل النصيحة واداء الامانة و بذل المعروف وكف اليد واللسان وكتم السر وقبول العذر وبذل الشفاعة وما أشبه ذلك فاذا أحرز الانسان هذين النوعين فى نفسه وغيره فقد حوى سبق المروءة وأخذ بطرف فى الفضل وقيل لبعض الحكماء ما المروءة فقال طهارة البدن والفعل الحسن فهذا فى نفسه وفى غيره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وقال عليه السلام ان الله يحب معالى الامور وأشرافها ويكره سفسافها وقال بعض الحكماء من سلك المروءة سبيلا أصاب الى كل خير دليلا وقال أيضا لبعض أصحابه أشعر التقى قلبك وألزم المروءة نفسك تحمد فعلك وأملك وسئل بعض الحكماء أى الخلال أجمع للخير وأبعد عن الشر وأحمد للعقبى قال الجنوح الى التقوى والتحيز الى فئة المروءة ومن كلام بعض الصالحين ليس بعد تقوى الله فى السر والعلانية معزة ولا بعد التعلق باطراف المروءة مكرمة فالتمس العز بالطاعة والتمس الغنى بالقناعة وقال بعض العلماء اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة واتق مصارع الاخرى بالتعلق بحبل التقوى تفز بخير الدارين وتحل أرفع المنزلتين ان شاء الله وقال أفنون التغلبى

لعمرك مايدرى امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل تقى الله واقيا

وقال رجل من الحكماء اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة وعن ابن عباس رضى الله عنه قال رفع رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى جرم اقترفه فأراد معاقبته فأخبران له مروءة فقال استوهبوه من صاحبه *(فصل)* وأسباب المروءة انما هى مرتبطة بشرف النفس وعلو الهمة اذا اجتمعا ولم يفترقا فان من علت همته وتواضعت نفسه طلب مالا يستوجبه وتعدى الى مالا يستحقه فلم تتم له المروءة ومن صغرت همته وكبرت نفسه قصر عما يستحقه وترك مايستوجبه فنقصت مروءته فان لكل وجه من هاتين الخالتين حظا من الذم ونصيبا من اللوم ومن تعلق بملوم أو نيط به ذم فليس بداخل فى حال من أحوال المروءة وقال بعض الحكماء المروءة سجية جبلت عليها النفوس الزكية وشيمة طبعت عليها الهمم العلية وضعفت عنها الطباع الدنية فلم تطق حمل اثرالها السنية وقال غيره لا يدرك المروءة الا من حوى خصالها وجمع خلالها وفى ذلك يقول الحصين الرقاشى

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفسه بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها

والها وجوه وآداب لا يحصرها عد ولا حساب وقلما اجتمعت شروطها فى انسان ولا كملت وجوهها فى بشر فان كان فى الانبياء والاولياء صلوات الله عليهم أجمعين دون سائرهم وانما الناس فيها على مراتب بقدر ما أحرز كل واحد منهم من خصالها واحتوى عليه من محمود خلالها حكى أنه قال معاوية لابن عمر ما المروءة قال تقوى الله وصلة الرحم وقال للمغيرة ما المروءة قال العفة عما حرم الله والحرفة فيما أحل الله وقال ليزيد ما المروءة قال الصبر على البلوى والشكر

على التعمى والعفو عند المقدرة فقال له أنت منى حقا وما نكب المغيرة عن القصد وقيل لبعض الصالحين متى يجتمع للمرء أسباب المروءة قال اذا اجتمعت فيه خمس خصال اذا اتقى الله ولم يتق الناس وتلا الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واذا صبر على النوائب وتلا أولئك الذين يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا واذا شكر على النعمة وتلا ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم واذا آثر بالمعروف على نفسه وتلا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون واذا بذل الشفاعة وتلا من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال مواساة الاخوان وصدق اللسان وذكر الله تعالى في كل مكان وقيل له أيضا ما المروءة فقال العفة والحرفة وقال بعض الحكماء يابني لا تفارق الصبر فتعظم عليك البلوى ولا تفارق المروءة فتشمت بك الاعداء وقال بعض الشعراء في ذلك

من فارق الصبر والمروه * أمكن من نفسه عدوه
ومحضر المرء في أخيه * دل على طيبة الابوه

وقال ابن عبد الصمد ما رأيت أجمع لمعاني السيادة ولا أجدر بالكرامة والسعادة ممن جعل المروءة عماده والتقى زاده وقال أبو هريرة جماع المروءة في تقوى الله واصلاح الضيعة والغداء والعشاء بالافنية وقال أنوشروان لابنه يابني أكمل الناس مروءة من حسن دينه ووصل رحمه وأكرم اخوانه وقال محمود بن عمير نعم العون على المروءة اليسار وفي الحكم المنثورة لا مروءة لمقل وقال أحيحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال
اذا أردت مساماة تؤخرني * عما نوه باسمي رقة الحال

وأنشد والاحنف

فلو أنا مثر بمال كثير * لجدت وكنت به واصلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وقيل لبعض الحكماء اتتمنى المال وأنت حكيم قال لأن أموت وأترك لاعدائي مالا خير من ان احتاج الى اخواني في حياتي فان الحاجة تذهب بالمروءة ولا توجد سبيلا الى السيادة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس الحديث وقيل لاعرابي ما المروءة عندكم قال نائل مبذول وبشر مقبول وطعام مأكول ﴿فصل﴾ ولا عذر لذي مروءة مع تمكن الثروة وظهور القدرة في التقصير عن أهله واخوانه وجيرانه فانهم اذا احتاجوا اليه كانوا احتماء أضياف مكارمه ووفود مروءته فكما لا يجمل به ترك أضيافه للسؤال ولا يليق به تمكينهم من الطلب كذلك لا يصلح به الاخلال بهم والتقصير عنهم مع القدرة عليهم فاذا عم افضاله الصاحب والقريب وشمل احسانه النازح والقريب تجاوز حد المروءة والفتوة الى حد النفاسة والرياسة كما قال بعض الشعراء

اذا ما المرء بالغ في النوال * تجاوز قدره رتب المعالي
وآثر كل ذي ود وقربى * فاصبح حائزا سبق الكمال

«فصل» في حسن الخلق * حسن الاخلاق أصل من علامات الرضا وجميل الظن بالله تعالى في جميع ماقضى من الاحوال ومازال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويخف موقعه وموضعه على الجلوس سيماه البشر وهجيراه الصبر قربه غنم وصحبته سلم وجواره أمان ولقاؤه مسرة واحسان ومن حسنت اخلاقه درت أرزاقه وعظم نفاقه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أول مايوضع في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن وقال معاذ بن جبل كان من آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز أنه قال حسن خلقك للناس يامعاذ بن جبل وقال عليه السلام حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار ووصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طلق وقال عليه السلام ان العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم وقال صلوات الله وسلامه عليه ان الله اختار لكم الاسلام فاكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لايكمل الا بهما وقال عليه السلام أحبكم الى الله أحسنكم اخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقال صلى الله عليه وسلم ماحسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار وقيل في بعض الحكم الاخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة وقالت أعرابية لابنها يابني عليك بحسن الخلق وجميل العشرة ولطف المواقعة ولين الجانب والاحتمال للصاحب وكف الاذى والمقاسمة في الغذا فانك تستميل القلوب وتنال كل مطلوب وبحفظك علام الغيوب ومن كلام بعض العلماء البشر مفتاح المحبة وحسن الخلق يورث المودة ومن الامثال حسن الاخلاق أنفس الاعراق وقال بعضهم الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في أمن وسلامة والسيء الخلق من نفسه في تعب والناس منه في عناء وجهد وبلاء ولله در القائل

اذا ساء خلق المرء يضعف عيشه * وضاقت عليه في الامور مذاهبه
وذل وان كان العزيز ولم تنل * مراتب أهل المكرمات مراتبه
وشاهد من أخلاقه مايمله * على مثلها أصحابه وأقاربه
وماحمد الناس امرأ ساء خلقه * ولكن حسن الخلق يحمد صاحبه

وقيل في بعض الحكم من لم تحسن خلائقه لم تؤمن بوائقه وقال سقراط حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فانه لايشاكلها ومن كلامه أيضا حسن الاخلاق يورث المحبة ويؤكد المودة ويقود الى الفعل الحسن وقال ارسطاطاليس حسن الخلق حلية النفس كما ان حسن الخلقة حلية الجسد ومن قبحت صورته ساء خلقه وقال سلم بن عمرو

لاتسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر

ومن أقوالهم من حق الحسن الخلق ان تغفر ذنوبه وتقال عثرته وقال بعض الحكماء من حسن خلقه عرف سبقه واتسع رزقه ومن ساء خلقه ضاع حقه وضاق رزقه وقال الفضيل بن عياض لأن أصحب فاجرا حسن الخلق أحب الي من أن أصحب عابدا سيء الخلق وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أوصني قال له اتق الله حيث كنت قال زدني قال أتبع السيئة الحسنة قال زدني قال خالط الناس بحسن الخلق وقال يحيى بن معاذ مكتوب في الانجيل سعة الاخلاق كنوز الارزاق ومن بعض الحكم من حسن خلقه انتهج الى الخيرات طرقه

وادرك

وأدرك في المكرمات من سبقه ومن أمثالهم البشر عند اللقاء يبقي مودة الاصدقاء ومن الحكم المنثورة حسن الاستبشار من علامات الاحرار وقيل من حسن خلقه وجب حقه وقيل لبعض الحكماء من أفضل الناس قال من قدم بشره وبذل بره ومنع ضره وقال بعضهم في ذلك

واذا رأيت شقيقه وصديقه * لم تدر أيهما أخو الارحام
مستبشرا يلقى الوفود ببشره * طلق اليدين مهذب الخدام

وقيل لبعض الادباء بم ينال السودد قال ببذل المعروف واظهار الخلق المألوف وقيل لبعض العلماء متى يبلغ الرجل درجة الكمال قال اذا اتقى من خلقه وجاد بما رزقه واختار من القول أصدقه وحسن في كل الاحوال خلقه فذاك الذي أنهج الى الكمال طرقه ومما قلت في هذا المعنى

اذا قدم المرء تقوى الاله * ولاذ بحبل الرجا واعتلق
وأصبح يلقى بطيب السلام * ولين الكلام وحسن الخلق
وجاد بما ملكت كفه * سماحا وان قال قولا صدق
فذاك الذي حاز سبق العلى * وجمع من شملها ما افترق

وقال أنس بن مالك ان العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد وان العبد ليبلغ بسوء الخلق أسفل درك في النار وهو عابد وقال بعض الزهاد حسن الخلق يقود الى الجنة والى الاعمال الحسنة وسوء الخلق يقود الى النار والى الاعمال السيئة وقيل في بعض الحكم من حسنت خلائقه وجبت محبته ومالت القلوب اليه ومن ساءت خلائقه تعينت بغضته وحردت النفوس عليه وقال بعض الحكماء حسن الخلق ينجي صاحبه من المهالك وسوء الخلق يطرح صاحبه في المتالف ومن كلامهم سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الصبر العسل ومن أمثالهم أطيب الناس أعراقا أحسنهم اخلاقا وقالوا الخرق آفة الخلق جعلنا الله ممن حسنت خلائقه وحمدت طرائقه *(فصل في صلة الرحم)* صلة الرحم سبب واجب يصطفي به الاقارب ويعز به الجوانب وتعلو به المراتب وكفى به شيمة محمودة تهدى حلة مودودة ولم تزل في أهل الفضل موجودة ومن أهل الجهل مردودة قال الله عز وجل والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل يعني الرحم ويخشون ربهم أن يقطعوها ويخافون سوء الحساب في السؤال عنها والعقاب عليها روى ان الله عز وجل يقول انا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي لمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم وقال عليه السلام ما من شئ أطيع الله فيه بأعجل من صلة الرحم وقال صلوات الله عليه وسلامه صلة الرحم تزيد في العمر وسأل معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المروءة فقال هي تقوى الله وصلة الرحم وقيل ثلاث متعلقات بالعرش مالم يوف بها تقول النعمة يارب كفرت وتقول الامانة يارب ضيعت وتقول الرحم يارب قطعت وروى عن الحسن انه قال من سره السعة في الرزق فليصل الرحم وان لها لسانا تنطق ينادي يوم القيامة تحت العرش اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وقال رجل لابنه في بعض وصاياه يابني لا تقطع القريب وان أساء فان المرء لا يأكل لحمه وان جاع ومن الحكم المنثورة صلوا الارحام بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال اكثم بن صيفي أوصيكم بتقوى

الله وطاعته وصلة الرحم فانه لا يبيد مع ذلك فرع وأنها كم عن معصية الله وقطع الرحم فانه لا يثبت معها أصل وقال ابن المعتز

ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل * وعبد لارحام القرابة قاطع

وقال غيره

انى ليمنعنى من قطع ذى رحم * رأى أصيل وعقل غير ذى وصم

ان لان لنت وان دبت عقاربه * ملأت كفيه من صفح ومن كرم

وقال بعض العلماء صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الاعمار وتكثر النشب وتشرف النسب وعن كعب الاحبار قال مكتوب فى التوراة ابن آدم اتق ربك وابرر والديك وصل رحمك ييسر الله عليك يسرك و يصرف عنك عسرك و يمد لك فى عمرك وروى انه لما نزلت هذه الآية خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام ماهذا قال لا أعرف حتى أسأل العالم وذهب ثم عاد فقال يا محمد ان ربك أمرك ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ومن أمثال الحكماء مواصلة الرحم أرفع مراتب الكرم وقيل لبعض الحكماء ما المروءة قال رحم موصولة وحسنات مبذولة وهفوات محمولة وأعذار مقبولة وقالوا من وصل رحمه واصل كرمه ورفع فى المآثر علمه ومن كلامهم مواصلة الاقارب تعلى المراتب وتنمى المواهب وتكثر الحبائب وتؤدى الى حسن العواقب وفى بعض الوصايا واصلوا الانعام وصلوا الارحام فيها تنتظر الرحمة وتستدام النعمة وتستوجب الرحمة وتعم العصمة و يستحكم الودادو يمكن الاسعاد وتستمال القلوب وتلتئم الشعوب وتغتفر الذنوب ويكثر التواصل وتؤمن الغوائل وتصفو الضمائر وتحسن السرائر ولا تقطعوها فيقطعها تخرب الديار ويكثر البوار وتقل الانصار وتعجل العقوبة فى الدنيا من العزيز الجبار روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن ذنب أحذر أن تعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما ينتظر فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم وروى ان طلحة بن البراء لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يلصق به و يقبل قدميه و يقول يارسول الله مرنى بما أحببت فلا أعصى لك أمرا فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلحة غلام فقال له اذهب فاقتل أباك فخرج موليا ليفعل فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له أقبل فانى لم أبعث بقطيعة الرحم وانما أراد صلى الله عليه وسلم اختباره لطاوعته ومن حسن كلام الحكماء فى ذلك من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن قطعها قطعه الله وحرمه ولم تزل صلة الرحم جامعة لأشتات الصلاح مؤذنة باسباب النجاح فانها عوارف توضع مواضعها وصدقات لا تتعدى مواقعها ومودات تتأكد معانيها وغرة تتشيد مبانيها وعزة تجمع شمل التضافر وألفة توجب الحماية والتظاهر وقلوب تتألف وتتعارف ونفوس تتناصف ولا تتخالف مع مافيض الله لواصلها من السعة فى الرزق والفسحة فى العمر وتيسير اليسر وصرف العسر وتعجيل الثواب وتحسين المآب جعلنا الله ممن وصلها فى ذاته وحافظ عليها لوجهه ومرضاته

(فصل فى كتمان السر) كتمان الاسرار من شيم الاحرار وشمائل الابرار وهو أبعد الافعال من الضرر وأحق الخصال بالظفر يدل على وفور العقل وكثرة الصبر وكمال المروءة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال استعينوا على نجاح حوائجكم بالكتمان فان كل ذى

نعمة محسود وقال المهلب بن أبي صفرة أدنى الاخلاق الشريفة كتمان السر وأعلاها نسيان ما أسر به اليه ومن كلام الحكماء كتمان السر يوجب السلامة وافشاؤه يعقب الندامة وقال بعضهم من أودع سره حازما فقد ذل ومن أودعه جاهلا فقد ضيع وخادع ومن انفرد بسره فقد حاز الغنيمة الباردة ومن تناساه فقد استنجز الفائدة ومن الحكم المنثورة من شح على سره فقد أعان على بره وقال على رضى الله عنه سرك أسيرك فاذا فضحته صرت أسيره وكان رضى الله عنه كثيرا ما ينشد وقد نسب اليه

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
وانى رأيت غواة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وقال عمرو بن العاص اذا أنا أفشيت سرى الى صديقى فاذاعه فهو فى حل قيل وكيف ذلك قال لانى انا كنت أحق بصيانته منه وكيف يلام مستودع سرا اذا ضاق صدر مستودعه وفى ذلك يقول المتنبى

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن حمل سره * فصدر الذى يستودع السر أضيق

ومن أحسن ما قيل

ولا تفشين سرا الى ذى نميمة * فذالك اذا ذنب برأسك يعصب
ولا تضعن السر عند مضيع * فذو السر ممن ضيع السر أذنب

وقال سقراط كتمان سر غيرك متعين عليك وكتمان سرك سبب صيانتك والمشكور من كتم سرا لم يستكتمه ومن خان فى سر نفسه فهو فى غيره أخون ومن كلام بعض الحكماء لا تودع سرك الا حافظا فان قلوب الاحرار حصون الاسرار (حكى) انه أسر رجل الى بعض اخوانه حديثا فلما فرغ منه قال له أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لبعض الاعراب كيف كتمانك للسر قال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر وكتب رجل الى ابنه يابنى من استودعك سره فقد ملكك أمره فاجعل صدرك قبره تستوجب حمده وشكره وقيل لبعض الحكماء أى الاخوان خير قال من صدقك بالاحسان وصان سرك بالكتمان قيل فايهم شر قال البذىء اللسان الكثير الامتنان الواشى بسرك فى كل مكان وفى بعض الحكم من أقوى دلائل العقل معرفة الاقدار وكتمان الاسرار وذكر العتبى ان معاوية بن أبي سفيان أسر الى عثمان ابن أبي عنبسة سرا فجاء عثمان الى أبيه وقال يا أباه ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا أفأخبرك به قال لا لان من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشى سره كان الخيار عليه فلا تجعل نفسك مملوكا بعد ان كنت مالكا قال ويدخل هذا بين الرجل وأبيه قال لا ولكنى أكره أن تعود لسانك افشاء السر قال عثمان فلما رجعت الى معاوية أخبرته بذلك فقال أعتقك والله من رق الخطا وتكلم الناس فى قول الشاعر

وقد أجود وما مالى بذى قنع * واكتم السر فيه ضربة العنق

قيل انه أراد به ضرب العنق فى كتمانه وهذا هو المعنى البليغ والغرض الرفيع لان السر اذا كان فى كتمانه ضربة العنق فكتمانه فرض لازم والمحافظة عليه سبب متعين جازم لما فيه

من توقع هذا المحذور وانما المعنى اللطيف والمقصد الشريف البعيد المرمى البالغ من فضل الكتمان الى الغاية القصوى أن تكتم السر فلا تخبر به صديقك وذلك لان فى كتمان السر عن الصديق نظر واجب وامن الجوانب وبحسن العواقب وفى ذلك يقول الشاعر

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مرة * ان الصديق اذا تغير كان أعلم بالمضرة

ومن كلام بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فتزل ولا جاهلا فيخون فتكون قد أخذت فى أمرك بطرفى الحزم وقال معاوية بن أبى سفيان لما استعملنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخلت على أبى سفيان فقال لى يا بنى ان هذا الرهط من قريش سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصاروا قادة وصرنا أتباعا وأرى هذا الرجل قد استعملك فاحفظ منى ثلاثا لا يجربن عليك كذبا ولا تفش له سرا ولا تطوعنه نصيحة وان استثقلتها قال ثم دخلت على أمى هند فقالت لى يا بنى انه قلما ولدت الاحرار مثلك وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهت فانك تجرى الى أمد لو قد بلغته لنفست عليه فعجبت لاتفاقهما فى المعنى وان كانا قد اختلفا فى اللفظ وأعجب من ذلك ما توسمت هند فى معاوية فما أخطأت فراستها ولا خاب قياسها ومرامها ولبعض الشعراء

لا يحفظ السر الا كل ذى كرم * والسر عند لئام الناس مبذول

وقال بعض الادباء المشكور من كتم سرا لم يستكتمه فاما من استكتم سرا فكتمانه حتم عليه واجب ومن كلام بعض الحكماء حفظك لسرك أولى من حفظ غيرك له ومن كتم سرا على أخيه كان موضعا لودائع القلوب وفى الحكم المنثورة كن جوادا بالمال فى موضع الحق بخيلا بالاسرار على جميع الخلق ومن أمثال الحكماء سرك من دمك فلا يخرج من تحت أدمك وما تحلى ذو فضل وبر وعلم وخير باحسن من كتمان السر فان فيه حفظ ثلاثة حفظ نفسك وحفظ مستودعه وحفظ من استودعه السر جعلنا الله ممن حفظ العهود وحافظ على الاسرار وجرى مع أهل الفضل والخير فى مضمار وسارع الى ما يرضى العزيز الجبار بمنه وكرمه ورحمته

﴿الباب الثانى عشر يشتمل على خمسة فصول لا يرتضيها الشرع وقد ورد منها المنع﴾ وهى الحسد والغيبة والنميمة والرياء والعجب ﴿فصل فى الحسد﴾ الحسد عصمك الله داء دوى وعرض خبيث دنى يدل على فساد الدين وقلة اليقين وما زال صاحبه كدر النفس نكد العيش قليل الانس قد فارق القناعة وواصل الطماعة فهو حليف هموم وغموم ظالم فى زى مظلوم وكذلك قال بزرجمهر ما رأيت أشبه بالمظلوم من الحاسد وأى خير عند من جبلت على الحقد طباعه وحنيت على الغل أضلاعه وقد أمرنا الله جل جلاله بالاستعاذة من شره فقال عز من قائل ومن شر حاسد اذا حسد وقال سبحانه أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وذكره كثير فى كتابه العزيز وهو أول ذنب عصى الله به فى الارض حسد ابليس آدم عليه السلام فسعى حتى أخرجه من جنة الخلد وحسد ابن آدم أخاه فبغى عليه فقتله وبالحسد كفر من كفر من صناديد قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد وقال عليه السلام ان الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد يغتاظ على من لا ذنب له ويبخل بما لا يملكه ويطلب ما لا يجده

ومن

ومن أمثال الحكماء الحسد داء الجسد وقال الاحنف بن قيس لا راحة لحسود ومن أقوال الحكماء الحسد يبدى نقص الحسود ويدل على كمال المحسود وكفى بالانتقام منه أنه ينقطع حسره ومحسوده دائم المسرة يغتم عند فرحه ويحزن أوان سروره وهو مع لؤم طباعه وخساسة نفسه واتضاعه ينبه على فضل غيره ويظهر ماخفى من خيره وفى ذلك يقول حبيب الطائى

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

وقال آخر لاباد أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذى يكمد

ولا خلاك الدهر من حاسد * فانما الفاضل من يحسد

وقال غيره محسدون وشر الناس منزلة * من عاش فى الناس يوما غير محسود

(فصل) والحسد أصل كل عداوة ورأس كل بلية وأس كل خطيئة وسبب كل ملامة وجالب كل ندامة وأعظم نتائجه البغى وهو أكبر دواعيه وأشد عواديه وأخبث ثمراته وأسرع صرعاته وكل من كان معه هلك وأهلك واستوجب الخزى أينما سلك لما فى البغى من انتهاك المحارم واستباحة الاموال والتغرير بالمهج والوصول الى البشرات والجمع لاشتات المضرات لان الحسد اذا لم يكن معه بغى فانما هو عذاب ينزل بصاحبه وذكر يختص بجانبه وقال بعض الحكماء تجنبوا الحسد والبغى فان عاقبتهما مكر وهة ومخرجهما واحد ومن أحسن ماقالت فيه الحكماء الحسد أعدل آفات الشر لانه انما ينزل عذابه بصاحبه ومن بعض كلام الامام على رضى الله عنه لا راحة لحسود ولا اخاء لملول وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يسلم منها أحد الحسد والطيرة والظن فاذا حسد أحدكم فلا يبغ واذا تطير فلا يرجع واذا ظن فلا يحقق وقال عليه السلام لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكا أخذه بعض الشعراء فقال

ولو بغى جبل يوما على جبل * لهدّ منه أعاليه وأسفله

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبغى الا ولد بغى وفى بعض الحكم السعاية أذم الخلائق وان كانت من صادق وقال بعض العلماء قبول السعى شر من السعى لان السعى دلالة والقبول اجازة والساعى ان كان صادقا فقد كشف العورة وانتهك الحرمة واستحل ماحرم فغرق فى المآثم وان كان كاذبا فقد أفرط فى البهتان وركب لج العصيان وكفى بالحسد خطة خسف كريهة الخبر والوصف أن كان البغى من نتائجه والباغى قلما يسلم والله يقول عز من قائل يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم فمن حسد وبغى فقد جدع مارن أنفه بكفه وسعى بسيفه فى حتفه ولا يحيق المكر السئ الا باهله (حكى) بكر بن عبد الله المزنى ان رجلا كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسئ ستكفيكه مساءته وكان الملك يحسن اليه فحسده رجل من أصحابه على مقامه وتمنى ان يكون مكانه فى مقاله فبغى عليه الى الملك أشد البغى وسعى فى حتفه أبلغ السعى حتى تغير عليه الملك وكان لا يكتب بخط يده الا فى صلة أو فى جائزة فكتب بخطه الى بعض عماله لشدة حنقه اذا وصلك كتابى هذا فاذبح حامله واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الىّ ودفعه الى ذلك القائم على رأسه فأخذه وخرج به فلقيه الساعى عليه فقال له ماهذا قال خط يد الملك الى عامله فلان فقال له هبه لى بفضلك وأحينى به فانى محتاج اليه وأنت غنى عنه فرق له ودفعه اليه فأخذه وذهب به فرحا فلما قرأه العامل قال أتعرف مافى كتابك قال

صلة الامير المعلومة من خط يده قال بل أمرني فيه ان أذبحك وأحشو جلدك تبنا وأرسل به اليه فقال اتق الله في دمي فان الكتاب لم يكن لي فراجع الملك في أمري قال ليس لكتاب الملك مراجعة الا انفاذ الامر لاسيما اذا كان بخط يده وأمر بانفاذ ما في الكتاب قال وجاء ذلك الرجل على عادته وقام على رأس الملك وجعل يقول أحسن الى المحسن باحسانه والمسيء سيكفيكه مساءته فلما رآه الملك قال ما فعل الكتاب الذي كتبت لك بخط يدي قال له اقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال له الملك انه ذكر لي عنك أمر كذا وسعى عليك بوجه كذا فأوضح الرجل براءته وظهر عنده صدقه وجيء بجلد الباغي محشوا تبنا فقال له الملك صدقت وصدقت موعظتك قم كما كنت تقوم وقل كما كنت تقول ومما قال بعض الشعراء في مثله

أيها الآمل ماليس له * ربما غر سفيها أمله * رب من بات يمني نفسه
حال من دون مناه أجله * وفتى بكر في حاجته * عجلا أعقب ريثا عجله
والفتى المحتال فيما ناله * ربما ضاقت عليه حيله * قل لمن مثل في اشعاره
يهلك المرء ويبقى مثله * نافس المحسن في احسانه * فسيكفيك مسيأ عمله

﴿فصل﴾ والحسد يجمع خصالا مذمومة ويقتضي أحوالا منكرة وأسبابا مشؤمة منها بغض المحسود لغير سبب والحقد عليه دون ذنب وجب ومنها انكار الحق وان ظهر واظهار الباطل وان استتر ومنها الاعتراض للفضيحة والتجافي عن النصيحة والتصدي لكل قبيحة ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير وان كان مفتقرا اليه حريصا عليه فلا يرى لشؤمه ولؤمه ان ينال من فضله ولا أن يتعلم من علمه ولا يرى التواضع له وان كان أرفع منه قدرا في جميع الاحوال وأعلى منه مرتبة في الشرف والجاه والمال فهو لا يلقاه ابدا الا متكبرا عليه ولا يعامله الا بالاساءة اليه يبخسه في كل الامور حقه ولا يرى أنه فوقه ومن كلام بعض الحكماء حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها ولا يشفيه الا انتقالها وقال بعضهم ما أسوأ حال الحاسد يرى زوال نعمة المحسود نعمة عليه وان لم تصل اليه ويفرح بما يجره الدهر اليه من الخطوب ويحزن بما يصل اليه من المحبوب فلا يزال مغتاظا على من لا ذنب له متربصا بما لا فائدة له فيه ومن كلام الشعبي الحاسد منغص بما في يدي غيره وقال بعض الحكماء الحسود مغموم مهموم في ذاته مذموم ممقوت في جميع حالاته مترددين خطوبه وآفاته وقال بشار بن برد

لا تنكرن على الحساد غمهم * لا يبقى المجد الا كل محسود

وقال حبيب بن أوس

اعذر حسودك فيما قد خصصت به * ان العلى حسن في مثلها الحسد
ان يحسدوني فاني لا ألومهم * قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم مابي ومابهم * ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وأما ما يكون منه في العلم والخير وظهور أحوال الطاعة والبر فليس بحسد لان أهل الفضل لا يحسدون انما هي غبطة ومنافسة في الخير وليس بعين الحسد وحقيقته لان المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه والحاسد لا يحب أن يرى نعمته لسواه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال عمرو بن ميمون لما رفع الله تعالى موسى عليه السلام

السلام رأى رجلا متعلقا بالعرش فقال ان هذا الكريم على الله ثم سأل الله فى مناجاته أن يعلمه من هو فقال الله عزوجل أعلمك من شأنه بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه وكان لا يمشى بالنميمة *(فصل فى الغيبة)* الغيبة جنبك الله أذم الافعال مقصدا وأخبث الاقوال معتقدا وأسوأ الاخلاق مذهبا وأصعب الاحوال مركبا تدل على الحسادة والبغى وتدخل مدخل النميمة والسعى وتنبئ عن غائلة وحقد وتكشف عن خبث طوية وعقد وقد فرض الله عزوجل بأكل الميتة فقال سبحانه ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله أن يحرم لحمه على النار وروى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل الله لهما وافطرتا على ما حرم الله عليهما ودخلت امرأة عليه صلى الله عليه وسلم تستفتيه فلما قضت حاجتها وخرجت قالت عائشة رضى الله عنها ما أقصرها فقال لها صلوات الله وسلامه عليه مهلا يا عائشة اياك والغيبة قالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال أجل لولا ذلك لكان بهتانا وسئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة قال هى أن تقول فى أخيك ما يكره فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته وقال معاوية بن قرة لو أن رجلا أقطع مر بك فقلت انه أقطع كنت قد اغتبته فذكر ذلك لابى اسحق الهمدانى فقال صدق وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا غيبة فيهم الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه وذلك والله أعلم على سبيل الاخبار عنه والتفرقة بين غيبة من يتكتم شأنه ويساتر وبين من يعلن بفجوره ويجاهر لان الذى يعلن بالفجور والفسوق ولا يستحيى من عصيان الخالق ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتى من الكبائر ويظهر من المناكر قد كشف أستاره وأبدى عواره فخرج من حد الظن الى حد اليقين فمثل ذلك هو المقصود والله أعلم وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال اذا فسد الزمان فتحفظوا من الناس بسوء الظن فمن الحق على كل مسلم أن لا يقيم عذر مغتاب وان قال حقا ولا يساعده وان قصد بغيبته صدقا فان ذلك من سوء الادب وقلة الحفيظة واجتناب المروءة لان المغتاب الصادق قد أظهر قبيحا كان مستورا وهتك سترا كان مسدولا وفضح سرا مكتما وأحل أمرا محرما فجارى ذمة ولا حفظ حرمة وقد قيل فى مرفوع الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب وهذا نظر الى قوله تعالى ولا تجسسوا* وقال رجل لابن سيرين انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال لا أحب أن أحل ما حرم الله وقال بعض الحكماء من عرف بثلاثة استوجب ثلاثا من عرف بالبخل استوجب الذم ومن عرف بالكذب استوجب المقت ومن عرف بالغيبة استوجب الخزى أخذه بعض الشعراء فقال

ما أقبح الشيم المخلة بالفتى * وأشد منها شيمة الكذاب
وأشد من هذا وهذا أن يرى * لهج اللسان بغيبة الغياب
فاذا الفتى جمع الثلاث ولم يلذ * مما جنى فى عمره بمتاب
فلذاك أشأم من مشى فوق الثرى * ولو استضاف لاكرم الاحباب

وفي منثور الحكم اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب وقال بعضهم لا تخرج الغيبة الامن نفس معيبة وقال الصاحب احذر الغيبة فهي الفسق لا رخصة فيه انما المغتاب كلا كل من لحم أخيه وقال بعض الادباء لابنه يابني لا تغتب وان لم تكذب فلئن صدقت لقد أسأت النطق ولئن كذبت لقد جمعت أشتات الفسق وقيل الغيبة ادام كلاب الناس وفي بعض الحكم من أكل خبزه بلحوم الناس لم يصن نفسه من الادناس وقد روى عن أئمة السلف رضي الله عنهم أن الغيبة تنقض الوضوء وتفطر الصائم وتحبط الاعمال وكان منهم من يتوضأ من الغيبة كما يتوضأ من الحدث ومن اغتاب منهم وهو صائم قضى صيام يومه وروى في بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر جماعة بصيام يوم ولا يفطر واحد منهم حتى يستأذن فعند المساء أرسلت اليه امرأتان يستأذنانه في الفطر فقال للرسول قل لهما لم تصوما وكيف صام من لم يزل منذ اليوم يأكل لحوم الناس فان كانتا صادقتين فقل لهما فليتقيآ فقاءت كل واحدة منهما قعبا من دم وفي بعض ماروى ان امرأة اغتابت امرأة عند رسول الله فقال لها صلى الله عليه وسلم الفظي الفظي فلفظت من فيها قطعة من لحم وهذه من المعجزات الظاهرة في زمن النبوة الدالة على صدق ماجاء به صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين والمرسلين * (فصل في النميمة) النميمة من أكره الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة وطبيعة لئيمة مشغوفة بهتك الاستار وافشاء الاسرار وادخال الاضرار بما أدت الى سفك الدماء وانتهاك المحارم واستباحة الاموال ونعوذ بالله من شر الخلال روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال شر الناس المثلث قيل وما المثلث قال الساعي بالنميمة فانه يهلك نفسه ومن سعى به ومن سعى اليه وقال رحمة الله عليه في قول الله سبحانه ويل لكل همزة قال هو المشاء بالنميمة بين الاخوان وقال مجاهد في قول الله عز وجل وامرأته حمالة الحطب قال كانت تمشي بالنميمة وقال الله عز من قائل ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لايدخل الجنة قتات وفي رواية أخرى نمام والمعنى واحد وقال عليه السلام ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال المشاؤن المفسدون بين الاحبة وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وقال عطاء قدمت مكة فلقيني الشعبي فقال ياأبازيد اطرفنا بما سمعت قال سمعت عبد الرحمن بن عبد الله يقول لايسكن مكة سافك دم ولا آكل ربا ولا مشاء بنميمة فعجبت منه كيف عدل سفك الدماء بالنميمة فقال الشعبي مايعجبك من هؤلاء هل تسفك الدماء وترتكب العظائم الا بالنميمة وروى عن كعب الاحبار أنه قال اتقوا النميمة فان صاحبها لا يستريح من عذاب القبر وقال يحيى بن أكثم النمام شر من الساحر فان النمام يفسد في ساعة مالا يفسد الساحر في المدة الطويلة وقال عبد الله بن صالح الساعي بالنميمة يمقته القريب ويحذره البعيد ومن أمثال الحكماء لم يمش ماش شر من واش وقال ارسطاطاليس النميمة تهدي الى القلوب البغضاء ومن نقل اليك نقل عنك وقال بعض الحكماء فلان أنم من الزجاج وأثقل من الخراج ومن كلام بعض الحكماء من عاشر نماما كثر غمه وقال عبد الله بن الحجاج في ذلك

لحى الله امرأ أعطاك سرا * فبحت به وفض الله فاه
فانك بالذى استودعت منه * أنم من الزجاج بما وعاه

وقال ابن وكيع

ينم بسر مسترعيه سرا * كما نم الظلام بسر نار
أنم من النصول على مشيب * ومن صافى الزجاج على عقار

(فصل) والنميمة جامعة بين النم والغيبة فكل نمام مغتاب وليس كل مغتاب نماما وقال الفضيل بن عياض ثلاث يهدمن العمل ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء الغيبة والنميمة والكذب وروى عن كعب الاحبار أنه قال أصاب الناس قحط على عهد موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام فخرج موسى ببنى اسرائيل يستسقى فلم يسقوا ثم خرج فلم يسقوا ثم خرج فلم يسقوا فأوحى الله عز وجل الى موسى انى لا أستجيب لكم فان فيكم نماما فقال موسى يارب من هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله اليه ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فقال موسى عليه السلام لبنى اسرائيل توبوا بأجمعكم من النميمة فتابوا فأرسل الله عليهم المطر وقال بعض العلماء الاذلة أربعة النمام والكذاب والمديان والفقير ومن بعض وصايا الحكماء اياك والنمائم فانها تزرع الضغائن وتورث الأحاين وقال بعض الشعراء

تنح عن النميمة واجتنبها * فان النم يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر * ويكشف للخلائق كل ستر
ويقتل نفسه وسواه ظلما * وليس النم من أفعال حر

وذكر حميد أن رجلا ساوم عبدا فقال بائعه انى أبرأ اليك من النميمة قال نعم أنت برىء منها فاشتراه وأتى به الى منزله فجعل العبد يقول لامرأته ان زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى فلو تحيلت وأخذت شعرة من حلقه لصنعت لك بها شيأ يعطفه عليك ويصلحه لك ثم قال للزوج ان امرأتك قد شغلت بغيرك وهى تريد قتلك اذا أنت نمت فأتى الرجل منزله وهب بيتناوم فلما رأته قد نام أخذت الموسى وأتت لتحلق شعرة من حلقه فلما وصلت اليه قام فوضع يده فى يدها مع الموسى وأخذها من يدها وهو لا يشك فيما قاله الغلام فقتلها بها فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه بها ثم فضح الله الغلام بعد وانه فقتل فهذا من المثلث الذى تقدم ذكره ونعوذ بالله من شر ماخلق ونسأله التوفيق فيمن وفق وقال الفضيل بن عياض أشد الناس عذابا يوم القيامة الباغى والنمام وقال بعض السلف قبول النميمة شر من النميمة لان النميمة دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شىء كمن قبله واجازه وقال عبيدة بن الطيب

اعص الذى يفشى النميمة بينكم * متنصحا فهو السمام المنقع
تسعى عقارب به ليوقع بينكم * حربا كما بعث العروق الأخدع

فمن أوجب الاشياء على العاقل الحازم أن يحترس من النمام جهده ويجتنب مخاطبته ويعاف مجالسته ويزهد فى صحبته ويرغب عن ممازجته ولا يثق به فى حال من أحواله ولا يأتمنه فى شىء من أقواله وأفعاله فان صحبته غرر ومخاطبته خطر فقد عما اهلك وأهلك وأراق الدماء وسفك وما احد أبه سلك والحمد لله على ما أخذ وترك ووهب وأمسك لارب غيره *(فصل فى الرياء)* الرياء عصمك الله من أعظم الكبائر وأخبث السرائر وأجل المناكر ومازال صاحبه ممقوتا مخزيا مبغوضا مقليا مبعدا عن كل خير منفيا قد شهدت بمقته الآيات والآثار وتواترت بذمه

القصص والاخبار ومازال الرياء مبطلا للاعمال مفسدا لجميع الاحوال وحسبك من خلة عصبت بالشك وقرنت بالشرك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قيل وما الشرك الاصغر قال الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا هل تجدون عندهم الجزاء ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى معاذ بن جبل وهو يبكى فقال له ما يبكيك يا معاذ قال حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول ان أدنى الرياء شرك وقال مجاهد فى قول الله عز وجل والذين يمكرون السيآت لهم عذاب شديد هم أهل الرياء وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله فيم النجاة قال أن لا يعمل العبد بطاعة الله وهو يريد بها الناس وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه للمرائى أربع علامات يكسل اذا كان وحده وينشط اذا كان بين الناس و يزيد فى العمل اذا أثنى عليه وينقص منه اذا ذم به وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لا يقبل عملا يكون فيه مقدار ذرة من رياء وقال ابن مسعود الرياء استهانة يستهين بها المرائى ربه لان صاحب الرياء انما يطلب به المنزلة عند الناس ويبتغى المكانة والاثرة من المخلوقين فهو كمن أشرك فى عمله غير الله تعالى ولذلك قرنه النبى صلى الله عليه وسلم بالشرك

(فصل) والرياء يفترق على معان كثيرة لا تحصى ويقترن بوجوه لا يمكن فيها الاستقصا وله درجات مختلفة ومنازل متباينة بعضها فوق بعض لا سبيل الى أوصافها لكثرة أصنافها لانها بحور لو اقتحمناها لبعدت سواحلها وأفكار لو سلكناها لصعبت منازلها وكلها مذموم وصاحبها بالكفر موسوم وسنذكر منها ما تيسر مما فيه دلالة على الاكثر ونقتصر منها على لمع يقع للناظر فيها الاكتفاء واشارات ليس على ما تدل عليه خفاء فاكثر أحوال الرياء عند الله وأعظمها اجرأة على الله الذى يظهر الاسلام وباطنه مشحون بالكفر و يبدى التصديق وقلبه مملوء بالتكذيب كما قال الله تبارك وتعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ فهذه الطائفة هى المخلدة فى النار المخصوصة بغضب الجبار وطائفة أخرى ترائى بأعمال الطاعة فى الملا وتخلى عنه فى الخلا وتؤثر الانزواء والعزلة لتتوسم بالخير وتتحلى بالعبادة وباطنها مقصر عن ظاهرها وطائفة تبدى أحوال الطاعة وتظهر منها غاية الاستطاعة لتؤتمن على الودائع ويلقى اليها النظر فى الصنائع فتجعل ذلك ذريعة لاكل أموال الناس بالباطل وطائفة تأتى ما تأتى من التعبد وطلب العلم ابتغاء للمنزلة وحرصا على الجاه وعز الجانب والاستكثار من الدنيا وهذه الدرجة هى الغالبة على أكثر الناس والموجودة الظاهرة فى معظم الخلق لانها تتعلق بها طوائف من أهل الثروة ومن أهل الاقلال فاما أهل الثروة فلنيل العزة وطلب المنزلة والتمكن من الرفعة وامتثال حدها ورأيها والوقوف عند أمرها ونهيها لتعضد القوة بالقوة وتصل الى أرفع درجات العزة والحظوة وأما أهل الاقلال فيطلبون العلم و يتوسمون بالخير والصلاح ليجعلوه بضاعة تفيدهم العيش وصناعة يستعينون بها على مؤنة الزمان فمنهم متمسك بحبل الطاعة فى بعض أحواله ومنهم من أخلصها لطلب الدنيا وقصد بها نيل درجاتها العليا ولم يتمسك بعروة من عرى الشرع ولا انطوت اضلاعه على شئ من التورع ونعوذ بالله من اتباع الهوى وسلوك سبل الردى بمنه وفضله

وفضله ولطافته يكاد أمرها يخفى على كثير من الناس ويحتجب عن النبلاء والأكياس مثل الذى يتوخى الدخول فى المساجد الخالية والمواضع المقصودة بعمل الطاعة فان دخل عليه أحد ترك العمل وتركه من أعظم أبواب الرياء وكالذى يوفر المشى ويقصر الخطى ويخفض الصوت ويظهر السكون ويؤثر الخمول فاذا جلس فى الملأ أكثر السكوت وأبدى غلبة النعاس الدالة على قيام الليل الى أشياء لا تحصر ولا تحد ولا تدرك ولا تعد لا حاجة لنا باقتحام أبوابها وسلوك شعابها الصعبة الخروج منها وتعذر الانفصال عنها ولو تعرضت الى التورك والتوصل فى تتبع معانيها لحططت قبل الوصول ونكبت عن مقتضى الترتيب والفصول وفى هذه الاشارات كفاية عن استيفاء النهاية ان شاء الله تعالى *(فصل)* وقد ورد فى صحيح الخبران عمل السر يفضل عمل الجهر بسبعين ضعفا وقد قال عيسى عليه السلام لاصحابه اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه وللاسرار بالعمل والاظهار فوائد ففائدة الاسرار الاخلاص والسلامة من الرياء ومازال المخلصون دينهم لله خائفين من خفى الرياء مجتهدين فى التخلص منه مجدين فى الفرار عنه وكيف بالسلامة وأدنى مراتب الرياء أن يكون العبد يعمل العمل لا يريد به غير الله ولا يقصد به سوى وجه الله وهو فى ذلك كله يكره الرياء ولا يحبه ويذم صاحبه ويسبه فاذا اطلع عليه أحد لم يكره اطلاعه عليه ولا ساءه نظره اليه وهذا أخفى من مكنون النار فى الزند وأدق من دبيب النمل فى الحجر الصلد فكيف بالسلامة منه أم كيف يوجد من لا يحب أن يجل ويكرم ولا يستعذب أن يمدح ولا يذم هيهات بل يقضى عليه بالعدم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له رجل يارسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرنى قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تكلم الناس على هذا الحديث وصرفت فيه أوجه التفسير فقيل انه صلى الله عليه وسلم انما أراد بالسرور سرور الاقتداء لا سرور المحمدة عليه ولا خلاف ان السرور بالمحمدة لا يوجب أجرا وليته متخلص بالعفو عنه فكيف يجوز أن يكون للعامل المخلص أجر ولمن خالطه الرياء أجران وقد قيل ان الحديث موضوع والله أعلم ولا محالة أن الاطلاع على العمل بعد عقده على أتم وجوهه من الاخلاص وأكمل أحواله من صلاح النية وصحة العقيدة أن ذلك لا يفسده لانه أمر طرأ عليه وقد عقد على أتم وجوهه وكمل على أحسن أحواله فصار ذلك خاطرا فى القلب لا يخرجه عن حكم عقده ولا يميل به عن حده ان شاء الله تعالى وروى أيضا ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله انى أصوم الدهر كله فقال له ما صمت ولا أفطرت فقال بعض المتكلمين انه كره صلى الله عليه وسلم صيام الدهر كله وقال آخر انما كره عليه السلام اظهاره لما أتاه من العبادة ولم يخفه وكلا الوجهين محتمل والله أعلم *(فصل)* واعلم ان الرياء شهوة من الشهوات العظام يجد لها صاحبها لذة كلذة الشراب والطعام فهو الداء الدوى والعرض الخفى الذى لا يسلم منه الاصديق أوولى ولذلك قال بعض العلماء آخر ما يخرج من قلب المؤمن حب الثناء وعند ذلك يترك التزين ويؤثر الخمول ويكره الشهرة كما قال ابراهيم بن أدهم ما صدق الله من أحب الشهرة وقال بشر لا يجد حلاوة الآخرة رجل أحب أن يعرفه الناس وكان أبو العالية اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام مخافة الشهرة

وروى عن الفضيل أنه قال ان الله عز وجل يقول لعبده يوم القيامة في بعض ما من به عليه ألم أستر عليك ألم أخمل ذكرك ومن كلام الفضيل أيضا ان قدرت أن تعرف ولا تعرف فافعل والمذموم من الشهرة التعرض اليها واستعمال أسبابها وأما اذا من الله تعالى بها من غير تكلف ولا تعرض فليست بمذمومة وأي خمول أعظم من خمول عيسى بن مريم عليه السلام روى عنه انه كان يأكل ما وجد ويبيت حيث أدرك وما كان معه سوى اناء يشرب به الماء ومشط يخلل به لحيته فأتى بعض الانهار فعدم الاناء فشرب بيده فتركه ولم يلتمسه بعد ثم عدم المشط فخلل لحيته باصابعه فتركه ولم يلتمسه وكم قد استحبه الخلفاء الراشدون واستعمله أئمة العلم المتبعون وقصده أولياء الله الخاملون فشهروا ولم تفتهم فضيلة ولا تخطتهم كرامة قال الله عز ذكره تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين

(فصل في العجب) العجب وقاك الله سبب محذور وجالبه ممقوت عند الله محقور يضعه الله كلما ارتفع ويخفضه كلما طلع وهو أخبث سرائر القلوب وأعظم كبائر الذنوب وهو دليل الجهل وأصل الغي يورث التكبر وينشر الطغيان والتجبر فلا يرى صاحبه أبدا الا غليظا فظا لا يرى لاحد سواه في الفضل حظا وكفى به شيمة مشؤمة وخليقة مذمومة أهلكت القرون حديثا وقديما وغادرت الكريم من الرجال ذميما مليما وقد نهى الله عز وجل عنه وحذر منه فقال عز من قائل فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى وقال تعالى ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الذنوب فقال عليه السلام لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب العجب وقال صلى الله عليه وسلم لابي ثعلبة اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيأ قالت اذا ظن انه محسن وقال بعض الحكماء النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع والبلاء الذي لا يرحم منه صاحبه العجب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عليه السلام لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله عز وجل محتجب عنهما وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يغنكم الله وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه اذا مدح قال اللهم انك أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن سلك في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من الشره نال الغنى ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال عبد الله بن شداد أربع من كن فيه فقد برئ من الكبر من اعتقل البعير وركب الحمار ولبس الصوف وأجاب دعوة الرجل الدون وقال من الحكم التواضع مع الشرف رفعة والكبر مع الضعة

(فصل) وصاحب العجب قد عمي عن مساويه واستعذب الملق والكذب من مادحيه لان المدح أقوى أسباب الاعجاب وأشد دواعي الكبرياء فاذا ضعف عقله عن معرفة عيوبه وقل حياؤه للملق وكل لذنوبه واستفزه عند ذلك

الشيطان

الشيطان وتملكه التجبر والطغيان فجهل مقدار نفسه وعمي عن نقصه ونكسه فرأى
قبيحه حسنا وخطأه صوابا فيوجب لنفسه ما لم تستوجبه ويرى بها فضلا لم تستأهله فهو
منفرد برأيه متردد في غيه قد امتنع عن المشورة فركب في جميع أحواله غروره واستجنب
سؤال من هو أعلم منه وأبصر واستنكف عن معونة من هو أقوى منه وأقدر ينظر من نفسه بعين
الاعظام والاكبار وينظر من غيره بعين الاحتقار والاستصغار ألا ترى الى ابليس كيف
قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ونعوذ بالله ممن يشارك ابليس في ذنبه ونافسه
في عصيان ربه وقد كان أهل العقل والدين وأرباب التقى واليقين يستنقصون أنفسهم
وعندهم الكمال ويتهمون آراءهم وهي المنزهة عن الاختلال ويستعينون بالمشورة
ويستضيئون بأنوار الهداية وكانوا يرون التواضع رفعة والتكبر ضعة روى عن عمر بن
الخطاب رضي الله عنه أنه نادى يوما الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر وحمد الله وأثنى
عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من
بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير
المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال له ويحك يا ابن عوف خلوت بنفسي فحدثتني وقالت
أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها قدرها وكل من عظم في الدنيا قدره
وجل فيها خطره ينبغي أن يكون للاعجاب مطرحا وعن الكبر متبعدا ومتزحزحا فان همة الرجل
العاقل تستقل من الدنيا الكثير وتستصغر الكبير وقد قال الفضل بن سهل من كانت ولايته
فوق قدرته تكبر ومن كانت ولايته دون قدرته تواضع وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال
طوبى لمن علمه الله تعالى كتابه ثم لم يمت جبارا وقال بعض الحكماء التواضع مع البخل والسخافة
خير من الكبر مع السخاء والادب وناهيك من حسنة عفت عن سيئتين ومن سيئة أفسدت
حسنتين وكان ابن مسعود رضي الله عنه اذا مشى خلفه أحد قال أخروا عني نعالكم فانها مذلة
للتابع وفتنة للمتبوع وما جمع بعجب أفرط حتى ورط وتملك حتى أهلك أعظم من عجب معبد بن
زرارة وعبيد الله بن زياد التميمي وأبي شمال الاسدي الذي ضرب المثل بعجبه فأما معبد بن
زرارة فقيل انه مرت به امرأة فقالت يا عبد الله كيف الطريق الى كذا وكذا فقال لها يا هناه
أمثلي يكون من عبيد الله وأما عبيد الله بن زياد فقيل انه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز
وبرز وأنجز فنودي في نواحي المسجد كثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا وأما أبو
شمال فانه أضل راحلته فالتمست فلم توجد فقال والله لئن لم يرد على راحلتي لا صليت له أبدا
فوجدت قد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر فقيل له قد رد الله عليك راحلتك فصل فقال
اني حلفت يمين قصد فانظر الى هذا العجب كيف ذهب بهم كل مذهب من الكبر حتى أفضى بهم
الى الكفر فصاروا حديثا مستبشعا ومثلا مستنكرا ونعوذ بالله من الخذلان المؤدي الى
النيران * حكى عن الحجاج بن يوسف أنه قيل له كيف وجدت منزلك في العراق قال خير منزل لو أن
الله أظفرني بأناس فبلغني فيهم الامل وأعانني على الانتقام منهم فكنت أتقرب الى الله بدمائهم
فقيل له ومن هم فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من حسنات الحجاج وان قلت
في جنب سيآته فلقد حكى عنه أنه خاطب عبد الملك بن مروان حين بلغه أنه عطس فشمته

أصحابه فردعليهم وقال في خطابه بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين وتشميت أصحابه له ورده عليهم فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما وقيل انه خاطبه أيضا وقد فضل الخلافة على الرسالة فقال ان خليفة الرجل في أهله أكرم عنده من رسوله اليهم وكفى بها شناعة وجرأة

* (فصل) * ومن أعظم هذه الطائفة مصيبة وأخسرهم صفقة من ساقه العجب الى مدح نفسه ورأى بنشر خصاله اخراجه عن جنسه يظن أن الناس قد غفلوا عن فضائله وسبقه وجهلوا أمره وقصروا به عن حقه فيقول فعلت كذا وصنعت كذا وقلت كذا يستعذب ما يصف به نفسه من كرم الخلال والطباع كالذي يستلذ صوته اذا عدم السماع وفي مثل ذلك يقول الشاعر

لعمرك ما مدح الجواد لنفسه * دليل على احسانه وكماله
ولكنها الأعمال تلقى صوالحا * فتخبر عن فضل الفتى وجلاله
اذا شئت عرفان امرئ لحقيقة * فلا تنظرن الا لحسن فعاله

وقال غيره في المعنى

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تذم وتمدح

وقيل في بعض الحكم من مدح نفسه فقد حطها وأدناها ومن أظهر عيوبها فقد عظمها وزكاها وفي منثور الحكم من ترك التكبر استوجب الشكر ومن استعذب المدح استحق القدح ومن أمثال الفرس ما أقبح التكبر عند الاستغناء وما أفضح الخضوع عند الحاجة وقال بعض العلماء العجب شيمة الأشقياء والتواضع شعار الأتقياء ومن الحكم المرفوعة ثمرة العجب المقت ومن كلام بعض الحكماء التكبر على الملوك مخافة وعلى الأكفاء جهالة وعلى الأسقاط خساسة وقال الشاعر في مثل ذلك

جمعت أمرين ضل الحزم بينهما * تيه الملوك وأخلاق المماليك

جعلنا الله ممن استقبح العجب وصبر على الخطب وأظهر التواضع للرب برحمته وكرمه

﴿الباب الثالث عشر يشتمل على فنون من الآداب وضروب من النظم والنثر من كل باب﴾

الآداب بحمد الله كثيرة وأنواعها جمة وفنونها لا تحصى وأصنافها لا تحصر ولا طاقة لمخلوق بسلوك شعابها فكيف باستيفائها واستيعابها وانما على المرء ان يبذل جهده في ذكر ما حضره ويستنفد وسعه في نشر ما مر به ونظره فيثبت من ذلك ما يسره الله اليه ويورد منه ما وفقه الله له وأظهره عليه مستمدا بعون الله جلت قدرته فيه وفي جميع أحواله ومستنجد المشيئة في جميع أقواله وأفعاله بعد أن يتحرى الصدق فيما يورده ويتوخى البر فيما يقصده وينوي الخير فيما يعتمده عسى أن يسلم من عيب التقصير ويتخلص من نقص التقدير ويأمن بالتحرز من السقطات والزلل والاعتصام بالله من مواقعة الخطا والخطل فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل يا معاذ أنت سالم ما سكت فاذا تكلمت فلك أو عليك وأنا أسأل الله جل ذكره الارشاد والتوفيق وأتضرع اليه في التسديد والتحقيق فهو الهادي الى سواء الطريق فنقول والله الموفق للصواب ان آداب الشرائع لازمة راتبة وآداب الطبائع متعينة واجبة يتعين جميعها على كل مخلوق وتلزم لزوم الفروض من الحقوق وقد قدمنا في أبواب هذا الكتاب من ذلك جملا كافية ولمعا شافية مما اقتضاه شرط التأليف وتضمنه ضبط التصنيف وانتهى اليها الوسع واحتوى عليها الجمع ونستدرك الآن مما شذ عن نظم التبويب وخرج عن حكم

الترتيب

الترتيب ما يكون زيادة في الاستصلاح وافادة لمن يرغب في الاستكمال والاستنجاح فكلاهما باعث على الاحسان جامع لشمل منافع الانسان يجب على كل مسلم أن يأخذ نفسه باستعمالها و يروض طباعه على القيام بامتثالها حتى تصير له كالعادة وتكون نفسه لمتابعتها منقادة لما له في أدب النفس من تحسين دنياه وفي أدب الشرع من تحصين عقباه ومنها ما اشتركت فيه الديانة والدنيا فجمع شرف الممات والمحيا وارتبط بعضها ببعض وتعلق مسنونها بالفرض وهي الاكثر والاعم وللصلاح أكمل وأتم فانها اذا اتفق فيها الاشتراك كانت أعم نفعا وأجل صنعا لان الدنيا هي باب الآخرة وبها تدرك خيراتها الوافرة وهي السبب المعين عليها والمعبر المؤدي اليها فانما وضعها الله للعباد ليتزودوا منها للمعاد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه والتفصيل لما تشترك فيه الديانة والدنيا من الآداب أبواب واسعة لا قدرة على استيفائها بل العجز متمكن عن ادائها وكلها نعم من الله تعالى على عباده وفضل جعل الخير في استعماله وارتياده لاشتمالها على المكارم والمآثر واحتوائها على المحاسن والمفاخر فمن قاربها كثرت فضائله وحسناته ومن فارقها عظمت مصائبه وحسراته روى عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال نعم الله أكثر من أن تشكر الا ما أعان الله عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفا عنه ومن كلام بعض الصالحين أصبحنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فما ندري أيهما نشكر أجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر وجميع آداب الشرائع والطبائع راجعة الى التقى والطاعة مرتبطة الى حكم السنة وموافقة الجماعة ونحن ذاكرون من ذلك ما تنتهي اليه القدرة وتبلغها الاستطاعة ان شاء الله تعالى ﴿فصل﴾ فمن الاحوال التي تجمع خيري الدنيا والآخرة وتعين على منافعهما الباطنة والظاهرة الخلافة التي بها قوام الدين وبها تجتمع شمل صلاح المسلمين وتتم الطاعة لرب العالمين ولها شروط وآداب ربطتها السنة والكتاب فمنها أن يكون الخليفة قرشيا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش وقال عليه السلام قدموا قريشا ولا تقدموها وائتموا بها ولا تؤموها وقال صلى الله عليه وسلم الخلافة لقريش والحكم للانصار وقال صلوات الله عليه يا معشر قريش أنتم الولاة بعدي لهذا الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فهذا الزمام يؤالف ولا يخالف وأن يكون سالم العقل صحيح الجوارح سالم الحواس من السمع والبصر والنطق التي لا يصح ادراك الامور الا بها كما ان صحة الجوارح تعين على استيفاء الحركة واسراع النهضة وكمال التصرف عند ما يحتاج اليه وان يكون عالما عادلا فان العلم يحمل على الاجتهاد والعدل يبعث على رفع المظالم عن العباد وأن يكون شهما جريا شجاعا كميا لما يحتاج اليه من الحماية وجهاد العدو وسد الثغور فاذا كان كذلك علم العدو مكانه وخاف صولته ورهب شأنه وان يكون بأسه ظاهرا وسلطانه قاهرا فان ذلك يجمع النفوس المفترقة ويؤلف الاهواء المختلفة ويكف الاكف العادية ويرد العزائم الفاسدة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن وان يكون حسن الرأي جيد الفكر بعيد سديد النظر لما في ذلك من صحة الاختبار وحسن الاختيار والى غير ذلك من المعاني التي تتشعب من هذه

الاصول وتتعلق بهذه الفصول فاذا جددها وقام بها نهض بما حمل واستقل بما قلد ونفذ ماله أهل فوجبت طاعته وتعينت مطاوعته ولم يقم عذر لمسلم في التأخر عن القيام بنصره والانقياد لحكمه وأمره وان يكون كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عباس وقد أهمه من يلي الخلافة من بعده فذكر له ابن عباس عثمان وعليا وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف واحدا واحدا فما سمى منهم رجلا الا ذكر عمر رضي الله عنه فضائله وأبان خصاله ودلائله ولم تتم به خلال الخلافة ثم قال يا ابن عباس والله لا يصلح لهذا الامر الا القوي في غير عنف اللين في غير ضعف الممسك في غير بخل الجواد في غير اسراف فلما يئس من الجبابرة رضوان الله عليه جعلها شورى في الستة فيكان من الامر ما علم *(فصل)* والقضاء له شروط وآداب وأحكام تنتهج بها سبل الصواب وترتبط بحكم السنة والكتاب وهي أن يكون حرا كامل الحرية فانه من لم تجز شهادته لم تجز ولايته فاذا عتق وجبت ولايته واذا استقت فيه شروطها وهي الاسلام والبلوغ والعقل والعلم والعدالة وسلامة الحواس وان لم يكن سالم الجوارح فان مع سلامة الحواس تتبين الحقائق وتتعرف وتضمحل البواطل وتتزيف ويتميز طالب الحق من منكره ويعلم جاحد الصدق من منتظره فاذا تكمل ذلك فيه مع الخصال التي يحتاج اليها ولا غنى به عنها وضعت الخطة موضعها ووقعت موقعها وهي أن يكون تقيا ورعا عالما بالسنة والكتاب عاملا بهما في كل باب صادق اللهجة عفيف الطعمة حسن الصمت كثير الوقار عظيم الاناة جامد اليد عزيز النفس حسن الخلق قليل الحرج كريم الطباع رقيق الجانب واسع الصدر صليبا في الحق متواضعا لله مستعملا لاهل الصلاح والعلم والثقة قويا في ذات الله متشددا في اقامة الحدود مساويا بين الخصوم متثبتا في سماع الحجاج مبينا لايراد الجواب مازجا شدة الثقاف بلين العفاف فلا يهاب ذو الحق صولته ولا يطمع ذو الباطل في لينه فاذا علم بهذا الحال استوفى شرطه وصلحت به الخطة وكان قوله فصلا وحكمه عدلا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اختبر معاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن واليا فقال له بم تحكم يا معاذ قال بكتاب الله عز وجل قال فان لم تجد قال أجتهد رأيي فقال عليه السلام الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما رضي به رسوله *(فصل)* وأما الوزارة فخطة محمولة على الكمال والتمام لا يستغنى عن تقديم من يقوم بحدودها لانها قد أجازها الله تعالى لنبيه موسى في أخيه هرون عليهما السلام فاذا كانت الوزارة في النبوة المؤيدة جائزة فهي في الامارة أجوز فانه لا يستغنى الملك عن وزير يستعين به في تدبير ملكه ويفوض اليه ماشاء من حكمه ويصونه عن الامتهان ويرفعه عن التبذل في كل مكان اذا اصدقه منه الاختبار والامتحان وأنس منه من كمال عقل وحسن نظر وجميل رأي ونفوذ فيما اقلده وسياسة لما أصدره وأورده مع تقى وعفاف وكرم سجية وانصاف وقوام سنن وعلم وعمل بالكتاب والسنة ورأفة بالمؤمنين ونصيحة لجماعة المسلمين وقد قال بعض العلماء شروط الوزارة أعم من شروط الامارة فاذا استكملت هذه الخلال واستتمت عنده هذه الخصال كانت وزارته زينا للامامة وجمالا للخلافة وقوة على صلاح الدين والدنيا وسببا للاستدامة والبقاء كما انه اذا انتقص منها شيء كان الاختلاف في الدولة بحسب ذلك النقص والامارة مفتقرة للوزارة لا غنى بها عنها

ولا

ولابدّ لها منها وفي ذلك يقول ابن العميد

هيهات لم تصدقك فكرتك التي * هي أوهمتك غنى عن الوزراء
لم تغن عن أحد سماء لم تجد * أرضا ولا أرض بغير سماء

والوزارة على ضربين وزارة تفويض وهي التي قد تقدم ذكرها ونشرنا ذكرها ووزارة تنفيذ وليست في حكم كمالها ولا تقوى قوتها في حال من أحوالها لانها مقصورة على رأى المستوزر وتقديره غير خارجة عن حكم نظره وتدبيره فصاحب هذه الوزارة المتأخرة ينفذ ما جعل اليه الملك تنفيذه من أوامره و يؤدى ما أتى اليه من أحكام موارده ومصادره فهو كالواسطة بين الملك ورعيته وهو مع هذا مفتقر أن يجتمع فيه أكثر هذه الخصال و يحتوى على معظم تلك الخلال لانه مؤتمن على ما ينتهى اليه موثوق بامانة ما يتحمل عنه فلها أولاه بالصدق وأخلقه بالتزام الحق فيما ينقل عنه واليه فانه شاهد له وعليه ويجوز للملك أن يقدم لهذه الوزارة اثنين فصاعدا وأن يفرد من شاء منهم بأمر يعلقه به و يخلصه له أو أكثر من ذلك لان كل واحد منهم ينفذ فيما يجعل اليه و يستقل بما جعل عليه ولا يجوز في وزارة التفويض الا الواحد لاختلاف الاهواء وافتراق المذاهب والآراء والوزير المفوض هو عين الملك ولسانه وعنوانه وترجمانه وفيه تظهر اساءته واحسانه وقد قال بعض الحكماء وزير السلطان نفسه الباطنة وسريرته الكامنة وفي تقديمه تظهر قريحته وحسنته أو قبيحته ومن أمثالهم الوزارة أمارة الامارة وقالوا الوزير سيف الملك فاذا ارتضاه انتضاه وقال بعضهم من حق الملك أن لا يقع اختياره الا على من تقدم اختباره وهذه الاحوال بها يجتمع شمل التدبير و ينتظم سلك التقديم والتأخير و يسقط الملك من ولاته على الخبير فيصبه الجد و يساعده الجد ان شاء الله تعالى

(فصل) والكتابة أيضا لها آداب وشروط ومعنى مخصوص بها مربوط لمنها أن يكون جيد المعرفة حسن الخط مهذب الطباع نبيل الادوات مشاركا في العلوم عالما بالكتاب والسنة عارفا بالسير واقفا على الاثر مع سلامة الحواس وفطنة الاكياس وذكاء الذهن وأمانة الغيب وكتم السر وصدق اللسان و ينبغي أن يكون حسن الهيئة مقوم الخلقة نظيف الملبس طيب الرائحة فربما أدناه الملك لامر يسر به اليه وقرب مجلسه لمعنى يطلعه عليه فلا يرى منه شيأ يكرهه أو يشم منه رائحة يكرهها والكاتب أبدا يشترك مع جميع الوزراء والعمال وضروب أهل الخدمة وأنواع المتصرفين فان عنده تنتظم سلوكهم ومن لفظه تنسرد صكوكهم ولو تتبعنا أحوالهم وأحوال من قدمنا ذكره وتقصينا خصالهم لوقعنا في الاطالة ولم نبلغ النهاية وفيما أوردناه من مراتب أحوالهم كفاية ان شاء الله تعالى *(فصل)* ونحن الآن من آداب المرء في ذاته وما يلزمه استعماله من مكارم الاخلاق وحسن الشيم في نفسه وأدواته ما يبلغ الوسع ويهذب الطبع و يستجلب النفع وبالله التوفيق فأولها التواضع لله تعالى وأوليائه والتدافع على عصاته وأعدائه قال الله عز وجل واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقال تعالى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومازال التواضع يوجب الرفعة في الدنيا و يورث علو المراتب في الاخرى وهو شعار عباد الله الصالحين وعلامة أولياء الله المتقين * روى عن عيسى عليه السلام أنه كان كلما حدثت عليه نعمة الله تعالى زاد لها تواضعا

وقال أبو سليمان الدارانى ان الله عزوجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه منه بالكلام وقال مجاهد ان الله عزوجل لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه الله على الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لاصحابه رضى الله عنهم أرأيتم سليمان عليه السلام وما أعطاه الله من الملك فانه لم يرفع رأسه الى السماء تخشعا لله تعالى حتى قبضه الله تعالى (وحكى) الواقدى قال لما بلغ النجاشى مقتل قريش ببدر وما أظهر الله عزوجل نبيه عليه السلام خرج فى ثوبين أبيضين ثم جلس على الارض دون حجاب ودعا جعفر بن أبى طالب وأصحابه وقال أيكم يعرف بدرا فأخبروه بها فقال النجاشى أنا عارف بها وقد رعيت الغنم فى جوانبها من الساحل ولكن أردت ان أتثبت منكم قد نصر الله عزوجل رسوله صلى الله عليه وسلم ببدر فاحمدوا الله على ذلك فقالت له بطارقته أصلح الله الملك ان هذا الشئ لم تكن تصنعه حتى لبست ثوبين أبيضين وجلست على الارض دون حجاب قال انى من قوم اذا أحدث الله عليهم نعمة ازدادوا لها تواضعا

(فصل) وعليه أن يسلك سبيل الطاعة ويوالى لزوم الشرع ويقدم الاعتصام بأسباب التقوى ومجانبة دواعى الهوى وان يلتزم المفروض ويستعمل المسنون حتى تنقاد له نفسه وتذل له طباعه فلا يفارقه مقربه من ربه وعليه أن ينظر فى أخبار الصالحين ويتصفح أفعال المتقين ويتدبر أحوال المتقدمين فما وجده محمود المثلة وما وجده مذموما اعتزله فاستدرك ما فاته من الصواب واستطلع على ما احتجب عنه من الصالح وغاب وقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الامور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان ضره فاجتنبه وأمر أشكل فرده الى الله تعالى وقيل فى منثور الحكم من نظر الى السير سلم من الغير وقال بعض الحكماء من كثر اعتباره قل عثاره وقالوا السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم السعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه أخذه بعض الشعراء فقال

ان السعيد له من غيره عظة * وفى التجارب تحكيم ومعتبر

(فصل) ويجب عليه أن يقدم الاستخارة فى جميع الامور فان ذلك أبعد لوقوع المحذور وقال بعض العلماء استخيروا ولا تتخيروا فكم من رجل تخير لنفسه أمرا كان فيه هلاكه وفى ذلك يقول بعض الشعراء وكم من طالب يسعى لشئ * وفيه هلاكه لو كان يدرى

وقال غيره كرهت وكان الخير فيما كرهته * وأحببت أمرا كان فيه شبا القتل

(فصل) وأن يستعين بالمشورة لاهل العقول وان يستمد بآراء ذوى الحنكة والتجارب من الشباب والكهول فذلك أحمد للرأى وأنجح للسعى وقد قال سبحانه لنبيه المؤيد بوحيه صلى الله عليه وسلم وشاورهم فى الامر قال الحسن البصرى فى تأويل هذه الآية أمره بمشاورتهم وهو غنى عنها ليستن بذلك المؤمنون ويتبعه فيها المسلمون فالمشورة واجبة على كل ذى حزم متعينة على كل ذى لب وفهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه وقال بعض

الحكماء

الحكماء المشورة مع السداد والمخافة مع الاستبداد وقال بشار بن برد

اذا بلغ الراى النصيحة فاستعن * برأى نصيح أو حزامة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة * مكان الخوافى نافع للقوادم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن * نؤما فان الحزم ليس بنائم

وفى الحكم المرفوعة المستبد على طرف الجناح والمستبد تلعب به الرياح وكما يجلى البيان المتشابه كذلك تجلى المشورة العمى والحيرة ومن أقوالهم المشاور على احدى الحسنيين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فى مكروهه ويتعين على المرء أن ينتخب لها أهل الدين وأرباب العقل المرضيين وفى ذلك يقول بعض الحكماء من استشار أهل العقول أدرك المأمول وفى بعض الحكم المشاورة لقاح العقول ورائد الصواب ومن شاور عاقلا أخذ نصف عقله وقال بعضهم فى ذلك

اصف ضمير المرء من تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء فى مودته * بما يؤدى اليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحدا * تصح منه له سرائره

فلا عذر لاحد فى ترك المشورة وان كان من أهل العقل والرشاد وذوى الرأى والسداد فان المشاور قد يكون له فى بعض الامر هوى ولبعض الوجوه ميل فربما جنح الى هواه ومال الى ميله والمستشار انما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره وقيل فى بعض الحكم اذا اقتدحت زناد المشورة أضاءت لك الآراء المغيبة وقال بعض العلماء حق على العاقل الحازم أن يضيف الى رأيه آراء العقلاء فاذا فعل أمن من عثاره ووصل الى اختياره قيل لرجل من بنى عبس ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا رجل حازم فنحن نطيعه فكأنا ألف حازم ﴿فصل﴾ وعليه أن يرتب أحواله ويهذب أفعاله فينظر فى مطعمه ومشربه وملبسه بحسب طاقته ومبلغ استطاعته فانه لا تقوم الحياة الا بها ولا تصلح الاجسام الا باستعمالها ولا تكمل الشرائع الا باسبابها فان الضرورة الى ذلك داعية والحاجة اليها ماسة والشهوة عليها باعثة والقوة على صلاح الدين والدنيا بها متمكنة فاذا اقتصر الانسان منها على ما لا بد له منه ولا غنى به عنه واطرح الفضول التى تدعو الى الاشر وتبعث على البطر فقد حسن لنفسه النظر وأخذ بموجب العقل وتصديق الأثر فان استيلاء الضعف يميت النفس ويوهن القوى ويقعد عن القيام بالفروض * وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن القوى أحب الى من المؤمن الضعيف وفى كل خير فاحرص على ما ينفعك ولا تعجز فان غلبك أمر فقل قدر الله أو ما شاء الله واياكم ولو فان لو يفتح عمل الشيطان وليس لمانع نفسه قدر حاجتها من هذه الاسباب حظ فى معنى من معانى البر ولا نصيب فى حال من أحوال التشرع والخير ولا له فى ذلك ثواب بل هو المسؤل عن نفسه والمناب كما أنه ان أرسلها على المباح من شهواتها ومكنها من حلال لذاتها فحمله على الاستكثار فيوقعها فى الاضرار وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه وقال عليه السلام اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال بعض العلماء لا يسكن العلم معدة ملئت طعاما وقال شاعر طئ

فانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك نلت الذم والداء أجمعا

وقال أبو الفتح يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته * وتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لا بالجسم انسان

﴿فصل﴾ وللنفس أيضا حاجة ماسة فى الاستراحة عند الفراغ فى الاوقات التى يضر بها العنف ويؤذيها الاين فيجب على الانسان أن يجعل لها حظا من ذلك ترجع اليه فتستريح فيه عند الكلال وتسكن اليه عند الكسل وتدرع به اذا غلب عليها الفشل وكذلك النوم عند الحاجة اليه وفى الاوقات المختصة به فان ذلك من اللذات التى لا يحاسب بها او الشهوات التى لا يؤاخذ بها اذ لم يخل ذلك به فى معنى من معانى دينه روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال نوم الصبح خرق ونوم القيلولة خلق ونوم العشاء حمق ودخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ابنه عبد الله فوجده نائما فقال له يا أبت تنام والناس بالباب فقال له يا بنى ان نفسى مطيتى وانا أكره أن أتعبها فاذا أخذت النفس حظها من الدعة من غير سرف وفى سبيل منفعة قويت على ما كلفت ونشطت لما حملت فاستكملت صلاح دينها ودنياها واستجادت أحوال عاجلها وعقباها * (فصل) * وعليه أن يدبر مبانى أحواله ويقدر مجارى أفعاله فلا يضيع منها شيأ أصغر أم عظم فيبدأ منها بالاهم فالاهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التدبير نصف العيش وقال بعض الحكماء من شغل نفسه بغير المهم أضر بالمهم وقال غيره فى بعض وصاياه يا بنى لا تتكلف ما كفيت فتضيع ما وليت وفى بعض الحكم من نظر فى أحواله وحزم فى أفعاله وقسط فى أحكامه واقتصد فى وفوره وأعدامه فقد أعطى الخير بتمامه *(فصل)* ولكل وقت من أوقات العمر أدب لازم ولكل زمن من أزمان الدهر عمل راتب حازم فيجب على الانسان أن يجتنب فى تكهله ما كان يأتيه فى صغره وتبذله من المزاح والضحك والاسترسال واللعب فان ذلك مع الشيب عيب ظاهر ونقص حاضر وهو مع الشباب أخف وكذلك اذا استعمل فى صبوته ما لا يشاكل أحوالها ولا يليق به أن يؤثر استعمالها كلبس المسوح وخصف النعل وتوكئ العصا كان ذلك أيضا خللا مستبينا وشكلا مستكرها مستحيلا فان تلك الهيئة لا ترفع له عند الله منزلة ولا تثبت له فى الفضائل رتبة بل هى شواهد زور وعلامات مين وغرور تقتضى النقد بل تعد فى الاكثر من الضد وانما على المرء أن يدفع عن نفسه جهده بوسها ويلبس لكل حالة لبوسها فليس تغيير الشكل من دلائل العقل ولا من شواهد الفضل ولا من علامات النبل كما قال بعض الشعراء

يا لابسا ما لا يليق لقد عدلت عن الطريق * ان المفارق زينه
بالمقت فى الدنيا خليق * لاسيما ان كان فى * أمواج صبوته غريق
كيف التشبه بالعفا * ف وأنت معلوم الفسوق

حكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا ضاق لبس أحسنها فقيل له فى ذلك فقال اذا استغنيت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة وقد أتى ابن الرومى بابلغ من هذا المعنى فقال وما الحلى الا زينة لنقيصة * تتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا * كحسنك لم يحتج الى أن يزورا

فمن دلائل الكمال مقابلة الاحوال بما يصلح بها واستعمال ما يليق بالازمان ويشاكلها فان ذلك

ذلك مما تستحسنه العيون وتجمل فيه الظنون فلا يعير من يحقر هيئته ولا ينظر اليه من ينكر طلعته وما أحسن قول بعض الشعراء في ذلك

ان العيون رمتك اذفاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فهب لنفسك ما اشتهت * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

ومما سبق لي من القول في هذا المعنى

قل للذي يخرج عن شكله * ليرتقي أسباب أوعار * كيف ترجى أن تنال العلى
ولم تبال الدهر من عار * من فارق المعهود من زيه * فذاك لا كاس ولا عار

(فصل) ويستحب له أن يعتدل في جميع أحواله مع تصرف الدهر في ادباره واقباله فلا يبدى السرف عند جدته ولا يظهر اللوم عند اقلاله قيل في بعض الحكم التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الاسراف ومكابدة الغنى خير من مضض الفقر فان كان ممن عهد البذل وضاقت به الحال عن اصطناع المعروف بذل حسن المألوف والقى الناس بالبشر والبشر وأظهر لهم البشاشة والبر * روى ان في التوراة يا موسى ليكن وجهك بشا وكلمتك لينة تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة وقال بعض الحكماء الكلام الطيب من القسيب الطيب وقال بعضهم في بذل التحية أنس وفي البداربها تسلية للنفس وقال رجل لابي الدرداء فلان يقرئك السلام فقال هدية حسنة ومحمل خفيف وقيل لبعض الحكماء فيم التجمل قال في لطف الكلام واظهار البشر والابتسام فمن لقي الناس بالاحسان وعاملهم بالاخلاق الحسان فهو الذي يخف عليهم جانبه وتحمد انحاؤه ومذاهبه ولن يعدم منهم حسن الثناء ومن الله عزوجل جزيل العطاء كما قال بعض الشعراء

اذا حويت خصال الخير أجمعها * فضلا وعاملت كل الناس بالحسن
لم تعدم الخير من ذي العرش تحرزه * والشكر من خلقه في السر والعلن

وسئل بعض الحكماء عن مقدار الخير فقال كيف يعرف مقدار شئ لم ير كماله في بشر وقيل لبعضهم لقد جمع فلان خصالا محمودة قال ما نقصه أكثر مما جمعه ومن حرمه أكثر ممن اصطنعه وقال بعض الادباء ما تخلص أحد من نقص أوخلل ولا سلم من زهو أو زلل وقال بعض الرجاز

متى تصيب الصاحب المهذبا * هيهات ما أعسر ذاك مطلبا * وشر ما طلبته ما استصعبا

فيجب على المرء أن يأخذ نفسه ما استطاع بمتابعة أهل الفضل اقتداء بأهل العقل والنبل واجتناب مقاصد أهل النقص والجهل فيتحلى بحسن الشمائل ويستبق في مضمار الفواضل وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينكم وبينه فحسب الرجل منكم أن يتصل الى الله بخلق منها وقال بعض الحكماء من أخذ نفسه بمكارم الاخلاق جرى من الفضل في ميدان السباق فاستوجب حسن الثناء بالاستحقاق وقال طاهر بن الحسين

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

﴿فصل﴾ وعليه أن يأخذ نفسه بحسن الصحبة لجميع اخوانه فيتم بذلك فضل مبرته واحسانه فيلاقي كل واحد منهم بما يليق و يترضاه بما هو له أهل و به خليق وفي هذا الفصل لمن أمعن النظر اليه وصحح الفكرة فيه معنى غريب وسر من أسرار التعبد عجيب وذلك أن الله تعالى هو الشاهد القائم الصاحب الملازم الذي لا يخلو منه جانب ولا يحتجب عنه غائب وهو القائل تبارك اسمه وعز سلطانه ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا وقال تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله عز وجل أنا جليس من ذكرني فهو الشاهد الذي لا يؤوب والحاضر الذي لا يغيب فما أحق العبد أن يأخذ نفسه بادب هذه الصحبة و يشغل قلبه برعي هذه القربة و يختار شرف هذه المنزلة ولا يقصر عن حق هذه الفضيلة التي لا تنقطع مع انقطاع الاعمار ولا تنفك مع تعاقب الليل والنهار بل هي المتصلة ما اتصلت الحياة والمقيمة على المشاهدة بعد الوفاة فيستشعر المراقبة والخضوع و يستعمل التواضع والخشوع وتلتطه الهيبة والاعظام و يستقبل الاجلال والاكرام فلا يراه حيث نهاه ولا يفقده من حيث أمره فهو مالك الارواح والقلوب كاشف الاسرار والغيوب الذي لا يستتر عنه محجوب ولا يغيب عنه بعيد ولا قريب وقد يفارق الصاحب ويجفو و يتغير ولا يصفو والله جل ثناؤه أحق من تقرب اليه وأجل من يراقب اطلاعه عليه فاذا عرف العبد قدر هذه الصحبة وجعلها نصب عينيه فقد أخذ الادب الكامل بطرفيه واحتوى جميع الخير واستولى عليه ثم بعد هذا يصحب الناس بجميل المعاشرة والانصاف وحسن المودة والائتلاف و يعاملهم بالصدق والمصافاة و يتقدم اليهم بالملاطفة والمداراة والناس في ذلك على ثلاث طبقات من فوقك ومن ساواك ومن دونك فدارة من فوقك ارضاء واستنزال ومداراة من ساواك استصلاح واستدلال ومداراة من دونك تعديل واستخلال وقال الشاعر

مادمت حيا فدارا الناس كلهم * فانما أنت في دار المداراة

قيل لبعض الحكماء بم تستجلب المودة وتستنمى البواطن قال باظهار حسن المؤاخاة وابداء جميل الاخلاص والمصافاة وبذل كريم الملاطفة والمداراة واهداء البشر عند اللقاء والمعاملة بالصدق والوفاء وقيل في بعض الحكم من حسنت نيته استقامت طريقته ومن لانت كلمته استحقت محبته ومن حسن خلقه استحكمت ألفته ومن رحب ذرعه وجبت محمدته ومن بذل عرفه تعين شكره ومن كثر بشره رغب في صحبته وقيل خير الاخوان من أعطاك صفو نفسه وأرضاك في يومه وأمسه وحقيق على من سلك معه هذا السبيل أن يجري على سنن المقارضة والتعديل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل الذي ترى له أخذه جرير فقال

واني لاستحيي أخي ان أرى له * علي من الحق الذي لا يرى ليا

وقال معن بن أوس اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران ان كان يعقل

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم لتستقيم الالفة وتقوى الحماية

ويكثر

و يكثر التضافر وتستحكم الموازرة ويتأيد التناصر وقال عليه السلام عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الغريب ليس له حبيب ومن كلام الحكماء أعجز الناس من فرط في كسب الاخوان وأعجز منه من فرط فيما ظفر به منهم ومن وصايا أكثم بن صيفي لا تفرقوا في القبائل فان الغريب بكل مكان مظلوم وعاقدوا أهل الثروة ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالماء وقال ارسطاطاليس زهدك فيمن يرغب فيك قصر همة ورغبتك فيمن يزهد فيك ضعف نفس ومن الحكم المنثورة لقاء الخليل شفاء العليل *(فصل)* ومازال انتظام الصحبة والتزام الالفة يؤثر في أخلاق المرء تأثيرا يشارك الطبيعة وترجع النفس له مطيعة فيصلحها مصاحبة أهل الخير ويفسدها مخالطة أهل الشر وفي ذلك يقول عدي بن الرقاع

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن مقتدي

وقال عدي بن زيد الخوارزمي

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

ذهب عليه انتقاء الصاحب واختياره من أطيب العناصر وأرفع المراتب على أن الصفي الودود الوفي المحمود غريب الوقوع عزيز الوجود تسمع به الاذن ولا يسمح به الزمن كما قال أبو بكر الخالدي

ما في زمانك من تعز وجوده * ان رمته الا صديق مخلص

والمودة الصحيحة المحضة الصرفة لا تكون الا عن نفوس مؤتلفة وأهواء متفقة غير مختلفة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلوب اجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ومتى كانت عن أسباب باعثة وأمور حادثة تخرج من حال الارادة والاختيار الى حال الاحتمال والاضطرار فقلما تستحكم قواها وتنتظم عراها لانها منعقدة على غير مقابلة مؤتلفة على غير مشاكلة فبوارقها أبدا خلوب وحديثها كذوب كما قال الكميت

ألا ان خير الود ود تطوعت * به النفس لا ود أتى وهو متعب

وما الحذار الا من الاغترار بالتصنع ولا الفرار الا من التكلف والتطبع فتلك مودة لا تدوم ولا تقف على ساق ولا تقوم كما قال علي بن أبي طالب في شعره

أخوك الذي ان أحزنتك ملمة * من الدهر لم يبرح لبثك واجما
وليس أخوك بالذي ان تشعبت * عليك أمور ظل يلحاك لائما

وكما قال حماد

كم من أخ لك ليس تنكره * مادمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو دول * دهر عليك عدا مع الدهر

وكما قال ابراهيم بن العباس

صفيك ان دهر حباك بنعمة * وان خان دهر كان أول واثب

وكما قال أبو العتاهية

أنت ما استغنيت عن صاحبك الدهر أخوه

فاذا احتجت اليه * ساعة مجلنفوة

وقال بعض الحكماء من هجر أخاه بغير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده قبل أوانه وقال أبو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا * ويبريك في السر بري القلم

وقال بعض الشعراء وكل أخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد

واذا كانت المودة من النفس المطبعة تمكن اتفاق الاهواء والطبيعة وهي أصح من مودة التناسب وأصدق عند الامتحان والتجارب وقد قيل في بعض الحكم المرفوعة رب صديق أود من شقيق وحبيب أرق من نسيب ومن كلام قس بن ساعدة تقاربوا بالمودة ولا تتكلوا على القرابة وقال اسمعيل بن صبيح الود أعطف من الرحم وفي الحكم المنثورة المودة قرابة مستفادة وقال بعض الحكماء أقرب الانساب المودة فانها اذا استحكمت لا تحتاج الى القرابة والقرابة تحتاج الى المودة وقال البحتري

يخونك ذو القربى مرارا وربما * وفى لك عند العهد من لا تناسبه
وحسب الفتى من نصحه ووفائه * تمنيه أن يؤذى ويسلم صاحبه

ووصف اعرابي رجلا فقال كان والله يحسى مرارة الاخوان ويسقيهم عذبه ومن صافى من يصاحبه قبل الامتحان واطمأن له دون التجربة وأعطاه صفقة يمينه قبل الاختبار فقد حاد في استرساله عن السنن وانخدع في امتثاله بلا زمن وقد قيل في بعض الحكم من قدم الاختبار أمن من العثار وقال بعض الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقة أثمرت مودته ندما ومن أمنا اهم الاختبار قبل الاختيار وقال بعض الشعراء

لا تمدحن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ * وذمه بعد حمد عين تكذيب

*(فصل) والمذاهب مختلفة في الاستكثار من الاخوان والاستقلال فمنهم من يرى الاستكثار للتأيد والقوة والتضافر والمنعة كما ذكر ناروي ان داود قال لابنه سليمان عليهما السلام يا بني لا تستبدلن بأخ لك قديم أخا لك مستفادا ما استقام لك ولا تستكثر أن يكون لك ألف صديق ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد وقيل لبعض الحكماء ما لذة العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان ومن كلام المغيرة التارك للاخوان متروك وقال بعض العلماء من كثرت أصحابه همت سحابه وصفا شرابه وقل طلابه وقال العتبي كثرة الاخوان نزهة القلوب ولقاؤهم يفرج الكروب وقال الشاعر

ولن تنفك تحسد أو تعادى * فأكثر ما استطعت من الصديق

ومن رأى الاستقلال من الاخوان فانما بنى أمره على عدم المنتقى منهم والمستجاد وانهم يتزيفون عند الانتقاد وفي مثل ذلك قال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير خبر كالمستكثر من الحجارة والمنتقى لهم المستخير فيهم كالمنتخب لنفيس الجوهر فهو لا يجده الا قليلا وفي تزك الاستكثار منهم يقول ابن الرومي

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب

فان

فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

ومن كلام لقمان عليه السلام كما يحول العدو بالصلة صديقا كذلك يتحول الصديق بالجفوة عدوا ودعا بعض الحكماء فقال اللهم احفظني من الصديق وقال آخر اللهم اكفني بوائق النفاق فاذا أمكن الاستكثار من أهل العقل والديانة وأرباب العفاف والصيانة وذوي الفضل والجلالة كان ذلك أحسن وأفضل لا محالة كما قال الشاعر

ابل الرجال اذا أردت اخاءهم * وتوسمن أمورهم وتفقد
فاذا ظفرت بذي الامانة والتقى * فبه اليدين قرير عين فاشدد

غير أن وجود هذا الصنف أغرب من العنقا ومن ظفر به فكأنما تمسك بالعروة الوثقى فانه لا يقاس ولا يعدل ولا يتعاوض منه ولا يبدل وقال بعض الحكماء من فقد خلصان الاخوان أسرعت اليه نوب الزمان ولم يجد مقيلا في ظل الامان وقال بعضهم المال قد يكتسب بعد التلف وليس لفقدان الصاحب الصفي من خلف وفي ذلك يقول الفرزدق

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة * ولكن اخوان الثقات الذخائر

وقال غيره يمضي أخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال يكتسب

وقال غيره هموم رجال في أمور كثيرة * وهمي من الدنيا صديق مساعد
يكون كروح بين جسمين قسما * فجسماهما جسمان والروح واحد

وقال الطائي ذو الود مني وذو القربى بمنزلة * واخوتي أسوة عندي واخواني
عصابة جاورت آدابهم أدبي * فهم وان فرقوا في الارض جيراني
أرواحنا في مكان واحد وغدت * أبداننا بشآم أو خراسان

(فصل) ومن تمام المروءة وكمال الاخوة حسن الظن بالصاحب واخلاص المعتقد للحاضر منهم والغائب وتأول الخير فيما يظهر من التقصير ان ظهر والتماس العذر لذي الهفوة قبل ان يعتذر فقد يغلب المرء على طباعه و يخرجه الاضطرار عن باعه لاسيما لمن قد حمدت سيرته وظهرت سريرته وعرفت جبلته ورضيت خلته فمثل هذا لا تضيرهفوته ولا توحش نبوته ولا تصرعه العثرة ولا تخل بمودته الفترة والله يقول عز من قائل فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين والصفح والعفو انما يكونان مع الذنب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حسن الظن من حسن العبادة وقال صلوات الله وسلامه عليه ان الله يحب الرفق في الامر كله وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا وقال ابن عباس رضي الله عنه نهى المؤمن أن يظن بالمؤمن شرا وقال الحسن رضي الله عنه يجوز أن يظن السوء بمن علم السوء منه وبدت عليه أدلته وليس ينبغي أن يطلق القول فيه هكذا فان الظن يكذب كثيرا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ومن قول بعض الحكماء من حسن الظن بأخيه وأجمل له التأويل فيما يدعه و يأتيه فقد بالغ في مبرته وتحفيه ومن عد سقطه وأحصى غلطه فقد سامه شططه وقال أبو منصور الثعالبي من حق الصديق أن تجعل حسناته محسوبة وسيآته الى جور الزمان منسوبة كما قال

لا توحشنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم

فاذا هفا فاستبقه وتأنه * حتى يفىء به الطباع الاكرم

وقال الربيع دار الصديق اذا استشاط تغيظا * فالغيظ يخرج كامن الاحقاد
ولربما كان التغيظ باعثا * لمثالب الآباء والاجداد

وقال كثير ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهدا كل عثرة * يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

حكى عن خالد بن صفوان أنه مر به يوما صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال نعم عرج هذا بفضله وطوانا ذلك لثقته وقال محمد بن داود

لقد زعم الواشون أنى فاسد * عليك وانى لست فيما عهدتنى
وما فسدت لى يشهد الله نية * عليك ولكن خنتنى فاتهمتنى
غدرت بعهدى عامدا واخفتنى * نخفت ولو أمنتنى لأمنتنى

وقال بعض الحكماء لا تقطع أخاك الا بعد عجز الحيلة فى استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق أن يحتمل له ثلاث ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة روى الزبير بن بكار عن عمه قال كان الحرث بن عبد الله يجلس وعمرو بن صفوان ما يكادان يقومان وكان عمرو يبعث الى الحرث فى كل يوم بقربة من ألبان ابله فاختلف ما بينهما فأتى عمرو أهله وقال لا تبعثوا باللبن قالوا لا نأمن أن يرده علينا وانقلب الحرث الى أهله فقال هل أتاكم اللبن فقالوا لا فلما خرج الحرث مر بعمرو بن صفوان فقال يا هذا لا تجمعن علينا الهجرة وحبس اللبن قال أما اذا قلت هذا فوالله لا يحملها اليك غيرى فحملها من ردم بنى جمح الى أجياد وقال بعض الشعراء

أغمض للصديق على المساوى * مخافة ان أعيش بلا صديق

وقال ابن فارس لم أؤاخذك اذ جنيت لأنى * واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

وقال غيره اذا شئت أن تدعى كريما معظما * حليما ظريفا ماجدا فطناحرا
فمهما بدت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقال بشار بن برد اذا كنت فى كل الامور معاتبا * صديقك لم تلف الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أوصل أخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومما قلت فى المغنى لله فى عنقى أجل ألية * مبرورة يشجى بها الشيطان
أن لا أعاتب صاحبى عن هفوة * مع اللسان بها وصر جنان
حملت الى مع الوشاة فما انثنت * عطفى الى ما يكره الخلان
وتأولت نفسى الجميل صيانة * للود والود الكريم يصان
وتنسمت منها نسيم عاطرا * كالند يهدى الطيب وهو دخان

وقلت أيضا فى المغنى عذرت صديقى فيما جنى * فزاد الى الود أضعافه
وأيقن انى له مخلص * وانى أوثر انصافه

(فصل) ومن تمام حسن الادب ترك التعريض للصاحب بما يكره عند المخاطبة ومقابلته

بما

عما يثقل عند المكاتبة وان قال حقا وقصد صدقا فان ذلك أبقى للوداد وادعى لمداومة الاصطحاب والاعتقاد وربما أحدث التعريض فى النفس تأثيرا لا يعفو أثره وأورث تغييرا لا يصفو كدره (حكى) ابرهيم بن المهدى قال كنت عند الرشيد فاذا برسول من عند عبد الله بن صالح وعلى يده شئ قد علاه منديل ومعه كتاب فجعل الرشيد يقرأ الكتاب و يقول أبره الله ووصله الله وفعل به كذا فقلت يا أمير المؤمنين من هذا الذى بالغت فى شكره والمبالغة فى ذكره قال عبد الله بن صالح ثم رفع المنديل فاذا باطباق بعضها فوق بعض فيها فستق وبندق وغير ذلك من الفواكه فقلت والله يا أمير المؤمنين ما أرى من الامر ما يستحق به ذلك الشكر الا أن يكون فى الكتاب ما خفى علينا فدفع الكتاب الى فاذا فيه قد دخلت يا أمير المؤمنين بستانا لى قد عمرته بنعمتك وقد أينعت فواكهه فاخذت من كل ذلك شيأ وصيرته فى أطباق قضبان ووجهت به الى أمير المؤمنين ليصل الى من بركة دعائه كما وصل الى من نوافل بره قلت ولا فى الكتاب أيضا ما يستحق به هذا الثناء قال جهلت والله يا ابراهيم وقصر بك الصبا أما تراه كيف وصف الاطباق بالقضبان ولم يذكر الخيزران اذ هو اسم أمى وكانت تدعى به فانظر الى حسن أدبه وبره وتحفظه من ذلك وستره ومن كلام الحكماء من لزم الادب أمن من العطب وفى بعض الحكم من تبرج بره تأرج ذكره وتعين شكره وقال بعضهم من وصل المبرة لم تصل اليه مضره وواجبات الاخاء كثيرة وحقوقه جمة ودواعيه غزيرة لا تحصى بعد ولا تستوفى بجهد ولا جد لكن صاحب الاخوان بنفس صحيحة و بذل اهم الاخلاص والنصيحة وعاملهم بالمودة الصادقة والرعى لليد السابقة واظهار البر وكتمان السر والوفاء بالعهد والانجاز للوعد وأداء الامانة وحفظ المكانة والعون على تصاريف الدهور والانتصار فى المغيب والحضور كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير أصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوء والمراعاة مدة الحياة والمحافظة بعد الوفاة وقيل فى بعض الحكم عند نزول الحوادث تعرف الودود من اخوانك وقال محمد بن ادريس الشافعى رحمه الله وقيل ان الابيات لابى العتاهية

أحب من الاخوان كل مواتى * وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فياليت هذا الخل انى أصبته * وقاسمته فى المال والحسنات

فاذا امتثل المرء اخاه فى جميع هذه الخصال المحمودة وأخذ نفسه باستعمال هذه الشيم المحدودة واستقل بكل ما ذكرناه وانتحل ما قدمناه منها وما أخرناه مما يدخل تحت الاحسان و يعد من حسنات الانسان وليس يخاف على ذى جنان نقدو فى الصاحب شرطه وأعطى الاخاء شرطه وبالغ فى الانصاف من نفسه وأحسن فى يومه وأمسه جعلنا الله ممن وفى حقائقه ووفى بوائقه بمنه وكرمه وفضله وامتنانه لا رب غيره ولا اله سواه *(فصول)* جامعة لحكم منظومة ومنثورة وأخبار مرفوعة ونوادر مأثورة صدرت عمن تقدم من الانبياء ودرج من العلماء والخطباء وسلف من البلغاء والحكماء أشرقت بأسمائهم صفحات الازمان وطلعت منها أقمار فى سماء الاحسان فاخذت بمجامع الافكار وعمرت بها مشاهد التذكار

وقطعت بها مراحل السرى فى الاقطار فصارت أنس السمار ونزهة للاسماع والابصار وقد أثبت منها فى هذا الكتاب ما يبين شرف البلاغة والبيان ويظهر فضل النظم والنثر من ذوى الابداع والاحسان والشعر لا ينكر فضله الاجاهله ولا يعرف حقه الاعالمه وحامله روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة وقال بعض السلف الشعر لا ينكره الا أحد رجلين مراء بكراهيته يظهر بذلك نسكه أو جاهل به لا يصلح لروايته وكان سعيد بن المسيب يقول أبو بكر شاعر وعمر شاعر وعثمان شاعر وعلى أشعر الثلاثة وقيل له ان فلانا لا ينشد الشعر فقال نسك نسكا عجميا * عوتب عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى فى قول الشعر فقال لا بد للمصدور أن ينفث وقال أنس ابن مالك كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بالمدينة بيت الا يقول الشعر قيل وأنت يا أبا حمزة قال وانا وكان النبى صلوات الله عليه وسلامه ينشد عليه الشعر ويأمر به وينشده اذا وافق صاحبه الحق وأحرز فائدة الصدق وعن الشريد بن سويد قال أردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت فقلت نعم يا رسول الله فقال فانشدنى فانشدته فاستزادنى فما زلت أنشده وهو يقول هيه حتى أنشدته زهاء مائة بيت والشعر هو ديوان العرب والى احكامه واحكامه كانت ترجع فى جميع أحوالها وبه كانت تأخذ فى جميع أفعالها وأقوالها وبه كانت تقيد مفاخرها وتخلد محاسنها مآثرها وكانوا يرون خطابه فصلا وحكمه عدلا ويقولون هو الشاهد العدل يوم افتخار الكرام والحجة القاطعة يوم التنازع والخصام فمن لم يقم على شرفه وما يدعى لسلفه شاهدا من الشعر بطلت حجته وردت دعواه ومن قيد شرفه بقوافى الشعر واستوثق باوزانه وعضده البيت النادر والمثل السائر ثبتت حجاجه واستوضح منهاجه وفى مثل ذلك يقول ابن الرومى

أرى الشعر يحيى المجد والناس بالذى * تبقيه أرواح لهم عطرات
وما المجد لولا الشعر الا معاهد * وما الناس الا أعظم نخرات

وما أحسن قول أبى تمام

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم
وما هو الا الشعر يسرى فيغتدى * له غرر فى أوجه ومباسم
ترى حكمة ما فيه وهى فكاهة * ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى * بغاة العلى من أين تؤتى المكارم

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول أفضل صنعات الرجل الابيات من الشعر يقدمها فى صدر حاجته فيستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها قلب اللئيم وكان رضى الله عنه متى عرضه أمر أنشد فيه شعرا قال الاصمعى لما أنشد أشجع بن عمرو السلمى الرشيد قصيدته الميمية برز فيها فلما انتهى الى قوله

وعلى عدوك يا ابن عم محمد * رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبه رعته واذا هدا * سلت عليه سيوفك الاحلام

فلما سمع هذين البيتين استوى جالسا طربا وقال هكذا والله تمدح الملوك وكان عمر وقبل

اذينة الفقيه المحدث الذى روى عنه مالك وغيره رحمة الله عليهم شاعرا مجيدا مقدما فى الشعر وكان من أجل علماء المدينة وكان مع علمه وثقته وثبوته دقيق الشعر مليح الغزل روى عنه أنه وقفت عليه امرأة فقالت له أنت الذى يقال عنه الرجل الصالح العالم وأنت القائل

اذا وجدت أوار الحب فى كبدى * أقبلت نحو سقاة القوم أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره * فمن لحر على الاحشاء يتقد

لا والله ماخرج هذا من قلب سليم وروى عن أبى مليكة أنه قال قالت عائشة رضى الله عنها رحم الله لبيدا حيث يقول

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

فكيف لو أدرك زماننا هذا ثم قالت انى لأروى له ألف بيت وانه أقل ما أروى لغيره وفى هذه المقدمات اشارات تقنع الفطن اللبيب يستدل على البعيد منها بالقريب وأما شرف البيان والبلاغة وفضل الخطب والخطابة فاعدل شاهد على اجتماع شمل الفضل وأقوى دليل على الاستيلاء على الذكاء والنبل ولم يزل يشيد لاهله فى ربوع المجد فخرا و يرفع اهم فى مراتب العلم ذكرا ومازالت الفصاحة تزيد فى نباهة الرجال وتسمو بهم الى درجات الكمال وربما سودت غير مسود ورفعته من الحضيض الاوهد الى محل النسر والفرقد وقد قيل فى بعض الحكم علامة فضل المرء فى ثلاث الفصاحة والسماحة والرياش وتعرف علو همة الرجل فى ثلاث اذا رأيته يمشى مكبا وسمعته يعرب كلامه وشممت منه رائحة طيبة وقال بعض العلماء مارأيت على رجل أزين من فصاحة ولا على امرأة أزين من شحم وقال يحيى بن خالد مارأيت رجلا قط الاهبته حتى يتكلم فان كان فصيحا عظم شأنه فى صدرى وان كان مقصرا سقط من عينى وهو مقتضى قول المتقدمين المرء مخبوء تحت لسانه وسئل الخليل عن البلاغة فقال كلمة تكشف عن البغية وقال المفضل قلت لبعض الاعراب ما البلاغة قال الايجاز فى غير عجز والاكثار فى غير خطل وهذا كلام حسن وهو معنى قول جعفر بن يحيى اذا كان الاكثار أبلغ كان الايجاز تقصيرا واذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا ﴿فصل﴾ وتقدم من الحكم فى هذا الباب ماتعلق باسباب الطاعة ودخل فى أنموذج الديانة وانتظم فى سلك الايمان على حسب الاستطاعة ومبلغ القدرة مع القصد الى ترك الاطالة لاختلاف أفنانه وتشعب أغصانه والموفق الله * قال الشعبى مثل الذنب والاستغفار والتوبة كمثل الداء والدواء والشفاء وقال بعض السلف من رزق التوبة لم يحرم القبول وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه العجب لمن يهلك والنجاة معه قيل وماهى قال الاستغفار وقالت عائشة رضى الله عنها طوبى لمن وجد فى صحيفته الاستغفار كثيرا وخطب عمر بن عبد العزيز فقال أيها الناس لاتستصغروا الذنوب والتمسوا تمحيصها بالتوبة ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين وقال الله عزوجل والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين وقال بعض الصالحين من يسر للتوبة لم يمنع المغفرة ومن وفق للدعاء لم يحرم الاجابة وجاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين انى

قتلت نفسا فهل لى من توبة فتلا عليه حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ثم قال له اعمل ولا تأيس وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا عمل العبد الذنب ثم ندم عليه غفر الله له قبل أن يستغفر وسئل صلى الله عليه وسلم أى شئ أفضل ما يعطى الله العبد اذا أحبه قال يلهمه الاستغفار عند التقصير والشكر عند النعمة وقال عبد الله بن عمر ماذكر العبد خطيئة عملها فوجل قلبه منها فاستغفر الله الا محاها عنه ومن كلام بعض السلف الذنوب داء والاستغفار دواء وقال محمد بن على رضوان الله عليهما لابنه يابنى اذا أنعم الله عليك فقل الحمد لله واذا أحزنك أمر فقل لا حول ولا قوة الا بالله واذا أبطأ عليك رزق فقل أستغفر الله وقال أبو عمران السلمى

وانى لآتى الذنب أعرف ذنبه * واعلم أن الله يعفو و يغفر
لئن عظم الناس الذنوب فانها * وان عظمت فى رحمة الله تصغر

وقال بعض السلف الصالح عاملوا الله بتقواه واسترضوه بطاعته ولا تملوا من ذكره ففيه النجاة من النار ولا تستصغروا الذنوب وتستحقروها فانه من استصغر الذنب وقع فيه ومن ركب المعصية أهلك نفسه فان الله عز وجل لم يترك صغير الذنوب للانبياء فكيف للاشقياء روى فى بعض الآثار أن الله تعالى أوحى الى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك و بين ولدك قال لا يارب قال لقولك لاخوته أخاف أن يأكله الذئب لم خفت الذئب ولم ترجنى ونظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر حفظى له وكذلك قيل فى قصة يوسف عليه السلام انه لما قال اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين والاشقياء هم الذين يمهلون ليعاقبوا فى الآخرة والهذا نظر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن مرزأ والكافر موقى وروى عنه عليه السلام أنه قال ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال الفضيل لبعض اخوانه ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فيما أورثتك ذنوبك وقال أبو سليمان الدارانى لا تفوت أحدا صلاة الجماعة الا بذنب بذنبه فطوبى لمن عوقب بذنبه فى دنياه ولم يؤخر الى عقاب الآخرة

﴿فصل﴾ وقال لقمان عليه السلام اثنان أعيت الحيلة فيهما اقبال الامر اذا أدبر وادباره اذا أقبل وقال بعض الشعراء

جرى القضاء بأمر لا مرد له * والامر فيما قضى الرحمن مقدور
والله ما الذنب الا فى مقدمة * وما لما قدم الرحمن تأخير

وقال بعض الحكماء اذا لم يكن فى القدر حيلة فالبرم فيه نقصان والرضا به أمان وقال الحسن البصرى ليس التسليم أن تبتلى فتصبر انما هو أن تبتلى فترضى وقيل انه سئل عمر بن عبد العزيز فى مرضه فقيل له ماتشتهى قال ما يقضى به الله * ومن أمثال الحكماء من سلم للقدر سلم من الغير ومن الحكم المنثورة من رضى بالقضاء لم تنله الرمضاء وقيل لبعض الصالحين ما علامة الرضا قال ترك التمنى والقنوع بالمقسوم واطراح الحرص والتبرى من الحول والقوة وقال أبو سعيد الخدرى رحمه الله التوكل سكون بلا حركة وحركة بلا سكون فقيل فى قوله سكون بلا حركة وحركة بلا سكون انما أراد سكون القلب الى التوكل فهو مطمئن بالثقة وأراد بقوله حركة بلا سكون الابتهال والتضرع الى الله سبحانه والفزع لله فى كل الاحوال فلا يكون له شغل الا بالله ومافيه

تأويل

تأو بل سواه والله أعلم *(وحكى)* ان عابدا من الواثقين بالله تعالى المتوكلين على الله اعتكف
فى مسجد ولم يبد اليه معروف فقال له امام المسجد لو تصرفت فى بعض المكاسب لكان لك فيه
خير ولم يزل يعيد ذلك عليه فلما أكثر قال له العابد يهودى فى جوار المسجد وعدنى برغيفين فى كل
يوم فقال له الامام ان كان اليهودى صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد حسن فقال له ياهذ
لو لم تكن اماما تؤم بين يدى الله بعباد الله مع هذا النقصان الظاهر فيك لكان خيرا لك وللمؤمنين
لك اذ قد فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى للرزق والذى هو المتكفل به والمسبب له
وليس لمخلوق فى الزيادة فيه ولا للنقص فيه حيلة وهذا من التوكل الصادق *(وحكى)* أنه
سأل بعض الملوك أحد الحكماء عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع ان يدل
على نفسه لانه لو رزق العاقل وحرم الاحمق لظن أن العقل هو الذى يرزق صاحبه والحمق
هو الذى يحرم صاحبه فسبحان المدبر لخلقه القاسم لرزقه الذى لا يشاركه فى التدبير
ولا ينازع فى التقدير لا رب غيره وقال بعض الحكماء أمران يستصلح بهما المرء دنياه
أدب يقوم به نفسه واجتهاد يحسن به عيشه وأمران يستصلح بهما أخراه عقل يعرف به
خطأه من صوابه ورشده من غيه ونزاهة يقهر بها امرؤ ه ويصرف بها شهوته والقصد
فى الامور يجمع خير الدارين وقال بعض العلماء اذا رضى الله عن العبد حمله ما يطيق ودون ذلك
ورزقه من حيث لا يحتسب ووفقه لفعل الخير ولم يكله الى نفسه واستنقذه من الشدائد واذا
سخط الله على العبد حمله ما لا يطيق وأبلاه بدين لا يجد قضاه وأغراه بعداوة من هو أقوى منه
على دنياه وأولعه بمطامع كاذبة ووكله الى نفسه وأسلمه فى الشدائد نعوذ بالله من شر ما خلق
ونسأله التوفيق فيمن وفق بعزته *(فصل)* وصلاح حال المرء انما هو بصلاح دنياه فاذا
صلحت حاله فى ذاته فدنياه صالحة واذا فسدت فدنياه فاسدة لانها لا تخلو من الصلاح لاقوام
والفساد لآخرين فى وقت واحد واوان غير متباعد والى هذا نظر قول المتنبى

يقولون الزمان به فساد * وهم فسدوا وما فسد الزمان

فجميع أحوال دنيا المرء مصروفة الى ما يخصه موقوفة على ما يسوءه ويسره فانها ليست
بمساعدة لجميع أهلها ولا بمعاندة لكافة خلقها وانما هى متلونة تسىء وتحسن وتسر
وتحزن وتلين وتخشن وتقبل وتعرض وتشيب وتمحض قال الله سبحانه ولا يزالون مختلفين
الا من رحم ربك ولذلك خلقهم قال بعض المفسرين مختلفين فى الرزق يريد اختلافهم فى الغنى
والفقر وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب
وما أعرف الايام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وقال محمد الوراق

الدهر لا يبقى على حالة * لكنه يقبل أو يدبر
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لا يصبر

فمن الحق الواجب على من ساعدته دنياه وأقبلت عليه وحشدت مسرتها اليه أن يتلقى ذلك
بشكر الخالق ويقابله بحسن المحسن الرازق فيمثل فى عباده جميل صنعه اليه وينشر
فيهم جزيل العناية عليه فيحسن العشرة ويجمل الصحبة ويقيل العثرة ويجبر الكسير

ويمنح الفقير ويعين الضعيف وينصف الشغيف ويأخذ بالعفو ويعرض عن المهر الى مايشبه ذلك ويتعلق به من أفعال البر التي مواهبها منه أن يتلقى صنيعها بالصبر الجميل والشكر الجزيل والرضا بالمقسوم والتسليم للمحتوم لماله في ذلك من الاجر المدخور والثواب الموفور فما زال الدين مصلحا لفساد الدنيا مهونا على المؤمن فيها جميع الاشياء وهو المنفرد بصلاح الآخرة المؤدى الى نيل خيراتها الوافرة فما للعاقل عذر في التأخر عما يجمع له صلاح الدارين ويفوز منه بعلو المنزلتين * وقال بعض الحكماء خير الدارين التقى والغنى وشر الدارين الفقر والعجز فأجمل في الطلب فلن يعدوك ماقدر لك * (فصل) * وقد قدمنا أن الادب أدبان أدب شريعة وأدب طبيعة فادب الشريعة يحمل على أداء الفرض وأدب الطبيعة يحمل على عمارة الارض وكلاهما داع الى مافيه اجتماع شمل الخيرات ان شاء الله تعالى * وقال بعض الحكماء من استحالة الدنيا وكثرة عيوبها أنها لاتعطى لأحد باستحقاقه امازيده وامانقصه وقال الحسن البصري ماأعطى أحد من الدنيا شيأ الاقيل له خذه ومثله معه من الحرص وقال قتادة يعطى الله العبد الطالب للآخرة ماشاء من الدنيا والآخرة ولايعطى طالب الدنيا الا الدنيا * وقال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى تقتله وروى عنه عليه السلام أنه مثلت له الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت من الخلق قالت لاأحصيهم عددا قال أفكلهم مات عنك أم كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلت فقال عيسى عليه السلام بؤسا للازواجك الباقين كيف لايعتبروا بالماضين حتى تهلكيهم واحدا واحدا ولايكونون منك على حذر * ومن كلامه عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها وقال صلى الله عليه وسلم أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها ماخشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ماعلموا أنه سيتركهم وقال عليه السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير العمل ولاتعملون للآخرة وأنتم لاترزقون فيها الا بالعمل * (وحكى) * أن اعرابيا نزل بقوم فقدموا اليه طعاما فأكل ثم نام في ظل خيمتهم فاقتلعوا الخيمة فأصابه حر الشمس فانتبه فارتحل وهو يقول هذين البيتين

ألا انما الدنيا كظل بنيته * ولابد يوما أن ظلك زائل

وقال أيضا

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا

وأنشد الحسن البصري يصف الدنيا

أحلام نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لايخدع

* (فصل) * واعلم ان ما على الانسان شئ أثقل ولا أصعب من معالجة اطراح حب الدنيا عن قلبه وأنى له بذلك ونحن قد خلقنا من تربها وجبلنا على حبها ودواعي حب الدنيا أكثر من أن تحصر وأسباب الميل اليها والحرص عليها أظهر من أن تستتر وانما تميزت عند أولي الالباب وتبينت لاهل النظر فعاملوها بالرفض لها والاستبعاد لما يأملون منها فوجدوها لاتوفي العاقل حقه ولاتبخس الجاهل حظه فنعيمها غير مقيم وبؤسها الا يدوم وقال المتنبي

نحن بنو الدنيا فما بالنا * نعاف مالابد من شربه * تبخل أيدينا بأرواحنا

على زمان هي من كسبه * فهذه الارواح من جوده * وهذه الاجسام من تربه
يموت راعي الضان في جهله * ميتة جالينوس في طبه
ور بما زاد على عمره * وزاد في الامن على سربه

وقال أبو حازم ان الدنيا غرت أقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم الموت فتركوا أموالهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من ليس يعذرهم فينبغي لنا أن نجتنب الذي كرهناه منهم ونستعمل الذي غبطناهم به * ودخل الحسن البصري على رجل يجود بنفسه فقال ان أمرا يكون هذا أوله لينبغي أن يتقى آخره وان أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله وقال بعض الحكماء لصاحب له قد أسمعك الداعي وأعذر اليك الطالب ولا أحد أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأه العمل وما أحسن قول أبي العتاهية

اسمع فقد أسمعك الصوت * ان لم تبادر فهو الفوت
نل كل ما شئت وعش ناعما * آخره ذا كله الموت

وقال أيضا

يا موثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الدنيا فان الموت آخره

وقال أيضا

هي الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطر

وقال بعض الحكماء المجرب أحكم من الطبيب وفي تصرف الدنيا موعظة لكل أريب نخ صح له يقينه وسلم له دينه فلا شئ يضيره ولا يشينه ومن لم يعتبر بتصرف الايام غرق في بحر الآثام وما أحسن قول الشاعر

تقنع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه وآمر

اذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر * فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة
ولا وزن زف من جناح لطائر * فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضي الدنيا عقابا لكافر

وقال محمود الباهلي

ألا انما الدنيا على المرء فتنة * على كل حال أقبلت أو تولت
فان أقبلت فاستقبل الشكر دائما * ومهما تولت فاصطبر وتثبت

وقال بعض الحكماء من يصحب الزمان يرى غرائب الحدثان وفي مرور الليالي والايام معتبر لذوي الالباب والافهام وفي ذلك يقول عدي بن زيد

كفى زاجر المرء أيام دهره * تروح له بالموعظات وتغتدي

ومن كلام بعض الحكماء مواعظ الايام أبلغ من مواعظ الانام وان أعربت من غير كلام وأفصحت عن استعجام بمجازات توضح للناظر ما التبس وتنطق للسامع عن خرس ومما قلت في هذا المعنى من كلمة

نطق الزمان فكان أبلغ ناطق * بمواعظ عنها القلوب تترجم * أهدى لنا عبرا بغير عبارة
ان الزمان هو الفصيح الاعجم * ما للقلوب تقاعست عن رشدها * أفست عن الارشاد أم لا تفهم
ما للعيون ترى العجائب جمة * وكأنها عما تشاهد نوم

تبا لالباب نبت أعمالها * عن علمها فكأنم الانعـام

ووعظ رجل من الصالحين بعض أصحابه فقال له هل رأيت الخير كله الا من الله قال نعم قال فلم تكره لقاء من لم تر الخير الا من عنده والله من مات مؤمنا ولقى الله مؤمنا موقنا لقد تخلص من الادناس وخرج من الوحشة الى الائناس لاسيما ان لحقته نار المحاذير ورضى بتصرف المقادير لقد خلصته تخليص التبر من الخبث ونقلته نقيا من الدار الى الجدث وقال الشاعر

جزى الله عنا الموت خيرا فانه * أبر بنا من كل أم وأرأف * يعجل تخليص النفوس من الاذى
ويدنى من الدار التى هى أشرف * اذا المرء لم يعدد يدا الكريمة * ولا ذهبت أيامه وهو مسرف

وقال بعض الحكماء وقد أشفى انى فقدت كثيرا من الخير لقد استرحت من كثير من الشر وقال بعض الصالحين لصاحب له يا أخى تنح عن الدنيا لم تخلق فيها للبقاء وأنت فيها الطالب مطلوب تطلب ما قد كفيته و يطلبك ما لا تفوته كأنك لم ترحر يصا محروما ولا ذا رهبة مرزوقا وكأن الذى حجب عنك قد كشف لك والذى تفر منه قد لحق بك وما أحسن قول عبد الله بن المعتز

نسير الى الآجال فى كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل * ولم نر مثل الموت حقا كأنه
اذا ما تخطته الأمانى باطل * ترحل من الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

(فصل) * حكى الاصمعى قال كنا فى حلقة يونس النحوى فجاء أعرابى فوقف علينا فسلم ثم قال ان الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء فخذوا من ممركم لقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم وتصدقوا علينا ان الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين فأعجب القوم كلامه فأخرج رجل منهم درهما فدفعه اليه فأخذه وجعل يقلبه ظهر البطن ثم أنشأ يقول

نفسى وما جمعت من نشب * وحويت من سبد ومن لبد * نعم تقادمت العهود بها
فرحان من بلد الى بلد * من لم يكن لله متهما * لم يلك محتاجا الى أحد

ثم رمى بالدرهم ومضى فتبعناه وجعلنا له شيأ فأبى أخذه * ووقفت اعرابية بقوم فقالت وقاكم الله هول المطلع وصرف عنكم سوء المضطجع وأحسن اليكم فى المرتجع ولاساءكم فيما صنع فعجبوا من كلامها وأحسنوا اليها * ووقف اعرابى على حلقة الحسن بن أبى الحسن البصرى فقال رحم الله من تصدق من سعة وواسى من كفاف وآثر من فاقة فقال الحسن ما ترك منكم أحدا الا سأله فرميت اليه عدة خواتم فأخذها ومضى شاكرا * ووقف اعرابى بقوم فقال أيها الوجوه الصباح والالسن الفصاح والانساب الصراح والمكارم الرباح والصدور الفساح والنفوس السماح هل فيكم من يسمع كلامى فيعيذنى من مقامى فعجبوا منه وأحسنوا اليه * ووقف اعرابى بمسجد المدينة وقد أصابته خصاصة فقال للحاضرين بعد كلام حسن فى وصف حاله ومكابدة اقلاله هل من رحيم يرحم الغداة نضو سفر وقل سباة فانه لا قليل من الاجر ولا غنى عن الله تعالى ولا عمل بعد الموت والله يقول عز من قائل من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فوعزته ما استقرض من عدم ولكن ليبلوكم فيما آتاكم * ووقف اعرابى بقوم فقال أخ فى كتاب الله وجار فى بلاد الله وطالب خير ما عند الله فهل من أخ مواس فى الله موقن بثواب الله يبتغى الشكر منى والاجر من الله فأعجبهم كلامه وأجلوا معه ووقف اعرابى بقوم فقال رحم الله امرأ لم تمج اذنه كلامى وقدم لنفسه معاذا من مقامى واغتنم أجرى واستدعى شكرى وقبل عذرى

ان

ان الحياء معاشر الابرار مازال يزجرني عن كلامكم والفقر يدعوني الى كلامكم والاضطرار يبعثني على اخباركم والدعاء أحد الصدقتين فرحم الله امرأ أمر بمير أودعا لي بخير فقال له بعض القوم ممن الرجل قال ممن لا تنفعك معرفته ولا يضرك جهلك به أوما علمت أيها الرجل أن سوء الاكتساب يمنع من الانتساب فعجب القوم من تصاونه وأحسنوا اليه * ووقف اعرابي برجل يسأله فأجزل عطاءه فقال له الاعرابي جعل الله لك الخير شاهدا وجعل المعروف عليك دليلا ولا جعل حظ السائل منك خلاف رجائه فيك وأظهرك في كل خير وأظفرك في كل حرب وفرج عنك كل كرب وغفر لك كل ذنب وكفاك كل هم وأغاث بك كل معدم ولا جعلك ممن خاف من رآه وآخاف من رجاه * وكتب بعض الصالحين الى بنيه يا بني لا تضلوا على عباد الله برزق الله تفوزوا بالشكر وتحصلوا على الأجر ويوسع عليكم في الرزق فان لم تجدوا فكلمة طيبة فانها صدقة وان مر بكم ذو فاقة فلا تحوجوه الى السؤال فانه مقام الاذلال فان لم تقدروا فتحية مباركة فان فيها أنسا * وقال بعض العلماء من أعطى للدنيا عظم في أعين الناس وصغر عند الله ولم يك آمنا ومن أعطى لوجه الله عظم عند الله ولم يصغر في أعين الناس وكان آمنا ووقف أعرابي ببعض الكرام فقال له اني امتطيت اليك الرجاء وركبت نحوك ظهر الامل ووفدت اليك بجزيل الشكر وتوسلت اليك بحسن الظن وتيقنت عندك جزيل المن فحقق الامنية وأحسن المثوبة وأكرم القصد وأقم الود وعجل السراح وأرح من ذل المقام فأمر له بعطاء جزيل * (فصل) * قال الحسن رضي الله عنه سمعت الحجاج يقول في بعض خطبه ان امرأ أذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخليق أن تطول عليه حسرته وحكي عنه أنه قال عند موت أخيه محمد بن يوسف

حسبي ثواب الله من كل ميت * وحسبي بقاء الله من كل هالك
اذا ما لقيت الله عني راضيا * فان شفاء النفس فيما هنالك

ومن الغريب والعجب العجيب مواعظ الحجاج في خطبه وحسن أغراضه في كثير من أقواله حتى يتوهم السامع أنه لم يبخس حظا من البر ولا منع نصيبا من الخير وأفعاله على ما كانت عليه والله غالب على أمره * قيل لبعض الحكماء من شر الناس قال من لم يبال أن يراه الناس مسيئا وقال عبد الله بن صالح أكرم نفسك عن كل دنية وان ساقتك الى ما ترغب فلن تجد من نفسك عوضا ولا من دينك بديلا * وقال بعض الصالحين ان كل يوم يمر بكم يحمل ما ثبت فيه من خير أو شر ثم يمضي فلا يعود أبدا فان قدرتم أن تحظوا كل يوم بمكرمة وتثبتوا فيه حسنة فلا تؤخروا فان الايام صحائف تخلدوا فيها الجميل فقدر أيتم حفظها لما استودعت من المحامد والمكارم في قديم الدهر وحديثه * وقال عامر العدواني الايام ثلاثة يوم مضى عنك لا ترجوه ويوم أنت فيه لابد منه ويوم يأتيك لا تأمنه فأمس واعظ واليوم غنيمة وغد لا تدري ما حكمه فأما أمس الماضي فشاهد مقبول وأمين مزود أودعته زادا خيرا أو شرا وترك لك عوضا منه لتحسن صحبته واليوم الذي أنت فيه ضيف سريع الظعن فأحسن له الصحبة بلقنك الجنة ويحبولك الشهادة وغد المقبل حاكم تنتظر قدومه فاما حبيب لا يظلم واما عدو لا يرحم وقال ابراهيم بن أدهم نهارك ضيفك فأحسن اليه فانك ان أحسنت اليه مضى عنك وهو يحمدك وان أسأت

اليه مضى عنك وهو يذملك وكذلك ليالك * وقال بعض العلماء ثلاث هن فى ذهاب العمل أسرع من النار فى نفيس العرف اهمال الفكرة وطول التمنى والاستغراق فى الضحك فاذا أنت أطلت الفكرة وأكثرت من ذكر الموت ولم تعتبر بما ترى لم تعتبر بالاثرى * وقال الحسن البصرى لقد رأينا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم من سيآتكم أن تعذبوا بها وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها * ونظر الى الناس يوم الفطر ملابسهم فقال ان الله جعل رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته فسبق أقوام ففازوا وتخلف آخرون فخابوا فالعجب كل العجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون أما والله لو كشف الغطاء لشغل المحسن باحسانه والمسىء باساءته عن تجديد ثوبه وترجيل شعره * وقيل ليزيد الرقاشى ماتتمنى قال ليتنا لم نخلق وليت اذ خلقنا لم نمت وليت اذ متنا لم نبعث وليت اذ بعثنا لم نحاسب وليت اذ حوسبنا لم نعذب وليت اذ عذبنا لم نخلد * وقال أبو حازم نحن نريد أن لا نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت * وقال بعضهم أشد من الذنب المطل بالتوبة وأعظم من الذنب اليأس من الرحمة * ومن كلام الحكماء شر الموت ماتمنى الموت من أجله وخير من الحياة ما اذا فقد كرهت الحياة لفقده وقال بعضهم لقد فاز قوم أدبتهم الحكمة وحنكتهم التجارب فلم تغررهم السلامة المنطوية على الهلكة ورحل عنهم التسويف الذى قطع الناس به مسافة آجالهم فشفعوا احسن المقال بجميل الفعال ونبذوا النعيم الفانى رغبة فى النعيم الباقى ولم يؤثروا العاجل الخسيس على الآجل النفيس فلا تراهم الا فى موطن خير وعلى سبيل نفع وقال المستوغر السعدى فى بعض خطبه أيها الملأ من أبصر مر ومن جهل أقصر الاوان لكل غيلة حيلة ولكل ساقطة لاقطة ولكل عوراء راع افعلوا الخير وتولوه ودعوا الشر واهجروه وانبذوا الخبيث وأنصفوا المظلوم المستغيث ومن استنصركم فانصروه ومن بغى عليكم فأنذروه ومن اعتذر اليكم فاعذروه * روى أنه لما أراد موسى ابن عمران فراق الخضر عليهما السلام قال له أوصنى قال أوصيك بتقوى الله وأن تجتنب اللجاجة وأن تمشى فى غير حاجة وأن تضحك من غير عجب وان تعين خاطئا على خطيئته وابك على خطيئتك * وقيل لبعض الزهاد وقد رؤى يبكى ما يبكيك أيها الرجل قال حق عرفته لم أجد فى طلبه ويوم مضى من أجلى لم أقصر فيه من أملى * ومن الحكم المنثورة الرجوع عن الصمت أيسر من الرجوع عن الكلام والعطاء بعد المنع أفضل من المنع بعد العطاء والاقدام على العمل بعد التأنى أحسن من الامساك عنه بعد الاقدام والصبر على مانزل خير من الجزع على مايتوقع ولعله لا ينزل * وقيل لسقراط ما أقرب الاشياء قال الاجل قيل فما أبعدها قال الامل قيل فما آنسها قال الصاحب الموافق قيل فما أوحشها قيل الموت قيل فما أحمدها عاقبة قال الصبر قيل فما أذمها عاقبة قال المعاصى * ومن الحكم المأثورة حل الاجل وسقط العمل ومضى الأمل وبقى الوجل وخلت السبل وانقضت الملل وبقى الخطب الجلل فاما الى سرابيل القطران واما الى الروح والريحان * وقال أفلاطون ينبغى للرجل العاقل أن لا يشغل قلبه فيما ذهب منه ولا يتعب ذهنه فيما سلف من عمره وانما ينبغى له أن يعنى بحفظ مابقى عليه وينظر فيما يستأنفه فان النظر فى العواقب من الحزم والفكرة فيما مضى شغل لا يجدى

وقال

وقال ارسطاطاليس لذة الطالب المدرك لبغيته حصول الادراك ولذة المحروم راحة اليأس ومر برجل قطعت يده فقال أخذ مالم يكن له فأخذ منه ما كان له فله الخسران من الوجهين وقيل لبعض الحكماء لم قيل لخساس الناس ذبان قال لانهم يتبعون مساوى الناس ويتركون محاسنهم وكذلك الذباب انما يقع على المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح منه * وقالت الحكماء خير الاخوان من تلقاك باليمين واذا حدثك لا يمين وشرهم من كان لسانه موافقا وقلبه منافقا * ومن أمثال الحكماء لا شئ أكره من الاسراف ولا شئ أعدل من الانصاف * ومن الحكم المنثورة من حكم فعدل وصبر واحتمل وأعطى وبذل فقد أجتنى بثوب الفضل واشتمل وقال بعضهم من عمل بما علم وعدل اذا حكم وصبر اذا ظلم وصدق اذا تكلم وجاد بما رزق وأنعم فقد قدم وتقدم * ومن كلام الحكماء بالتأنى تسهل المطالب وبالتروى تضوء البصائر وبالتثبت يدرك الرأى العازب وقالوا من تعجل تورط واقتحم ومن تفكر سلم ولم يندم ومن سأل سلم وغنم * وقال لقمان عليه السلام من لم يملك لسانه يندم ومن لم يتق الشتم يشتم ومن صاحب قرين السوء لم يسلم * ومن أمثالهم من ركب العجلة لم يامن الكبوة ومن أقوالهم سام أهل الفضل بهمتك وزاحم أهل العلم بركبتك تفز بخير دنياك وآخرتك وتقصر مراتب السودد عن منزلتك * وقال بعض الحكماء لكل شئ حياة وموت فحياة القلوب مجالسة الالباء وموت القلوب مرافقة الاذلاء وقال كسرى لبعض حكماء الفرس وقد أمر بقتله أجنتك شجرة العلم ثمرة القتل فقال أما ما كان معى الجد فكنت أنتفع بثمرة العلم وأما وقد زال الجد فانى أنتفع بثمرة الصبر مع أنى ان فقدت كثيرا من الخير فقد استرحت من كثير من الشر (وحكى) عبد الله بن المقفع قال أمر كسرى بضرب عنق بزرجمهر فوجد فى منطقته رقعة فيها مكتوب اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كانت الدنيا فانية فالفرح بالحياة حمق واذا كان الغدر فى الناس طباعا فالثقة بواحد منهم عجز * ومع بعض الحكماء رجلا يكثر الكلام ولا يصغى الى المتكلمين فقال له يا هذا أنصف من نفسك فانما جعل الله لك لسانا واحدا وجعل لك أذنين لتسمع ضعف ما تتكلم * وقيل انه لما مات الاسكندر ودفن فى تابوت من ذهب وقف عليه بعض أصحابه وقال قد كنت تكتنز الذهب فصرت اليوم يكتنزك الذهب وقال آخر من رهب مقام هذا الجسد لم يرغب فى التابوت ومن رغب فى التابوت لم يرهب مقام هذا الجسد * وقال ابن أبى سنان حق لمن كان الموت مورده والترب ملحده والساعة موعده والوقوف بين يدى الله تعالى مشهده أن يطول فى الدنيا كمده وقال حاتم الاصم المؤمن مشغول بالفكرة والاعتبار والمنافق مشغول بالحرص والامل والمؤمن يأيس من كل أحد الا من الله والمنافق خائف من كل أحد الا من الله والمؤمن يبذل ماله دون دينه والمنافق يبذل دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويبكى والمنافق يسيء ويضحك * ورأى اياس بن قتادة شيبة فى لحيته فقال أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته اللهم انى أعوذ بك من فجاة الامور وبغتات الحوادث يا بنى سعد قد وهبت لكم شبابى فهبوا لى شيبى ولزم بيته صائما قائما فقال له أهل بيته تموت هزالا فقال لان أموت مؤمنا مهزولا أحب الى من أموت منافقا سمينا وقال محمد الوراق

بكيت لقرب الاجل * وبعد فوات الامل * ووافد شيب طرا * بعقب شباب رحل

شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل * لطوالك بشير البقا * وحل بشير الاجل

(فصل) قيل لما احتضر الحرث بن كلدة وكان طبيب العرب اجتمع اليه الناس فقالوا له مرنا بأمر نأخذ به بعدك قال لا تزوجوا من النساء الا شابة ولا تأكلوا من الضان الا الثنى ولا تأكلوا الفاكهة الا فى أوان نضجها ولا يتداوى أحد منكم ما احتمل بدنه داءه واذا تغدى أحدكم فلينم على أثر غدائه ساعة واذا تعشى فليخط ولو أربعين خطوة وقال بعض الحكماء الرخاء لا يعرف مقداره الا من أصابه قحط والنعيم لا يعرف مقداره الا من أصابه بؤس والصحة لا يعرف مقدارها الا من أصابه مرض والامن لا يعرف مقداره الا من أصابه خوف والغنى لا يعرف مقداره الا من أصابه فقر وفى مثل ذلك يقول أبو تمام الطائى

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذى أنباك كيف نعيمها

وقال عبد الملك الجزيرى من لم يذق طعم بؤساه وشدتها * لم يدر لذة نعماه ولا وجدا

ورضى الله عن الرضى حيث يقول

لحسن العلا بعد حال الخضوع * وطيب الغنى بعد حال العدم

وقال بعض العلماء العلم آفته النسيان والحلم آفته الغضب والغنى آفته السرف والكرم آفته المن والحديث آفته الكذب والعقل آفته الشهوة والرأى آفته الهوى والحسب آفته الفقر والدين آفته العجب والزهد آفته الامل وما أعدل هذا الكلام وأحسن ترتيبه فى هذا النظام * وقالت الحكماء عشر خصال تقبح فى عشرة أصناف من الناس الضيق فى الملوك والغدر فى الاشراف والكذب فى القضاة والخديعة فى العلماء والغضب فى الابرار والحرص فى الاغنياء والسفه فى الشيوخ والمرض فى الاطباء والتهزى فى الفقراء * وكتب بعض الحكماء الى ملك هجره وقد سأله أن يكتب له بوصايا ينتفع بها فكتب له ان أوفق الامور ترك الفضول ولزوم الصواب والتحفظ من السقوط وأصل المعيشة استصلاح المال وترك التبذير فان التبذير مفتاح الفقر ومن العجز والتوانى تنبعث الهلكة وأحوج الناس الى الغنى من لم يفسده الغنى وفى المشورة صلاح الامور والبرجيعه فى حسن الخلق ورضا الناس غاية لا تدرك والنجح مع الصبر والنجاة مع الايمان والحلم قائد القلوب والعفو يوجب المحبة والرفق بالرعية يوجب الطاعة والفتنة تثيرها الضغائن والنعمة تستدام بلزوم الشكر مع اطراح الهوى والمعاصى * وقال بعضهم مفاتح الرزق فى ثمان فى حسن الخلق وحسن الجوار ولين الجانب وكف الأذى وصدق الحديث وأداء الامانة وحسن المعونة وقبول المعذرة وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه للاحنف بن قيس من كثر ضحكه قلت هيبته ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر مزاحه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل ورعه ومن قل ورعه ذهب حياؤه ومن ذهب حياؤه مات قلبه وروى ان داود عليه السلام قال ينبغى للعاقل أن يكون مالكا للسانه مقبلا على شانه عارفا بأهل زمانه وقال بعض الحكماء الغنى وطن والفقر غربة والطمع رق واليأس حرية والايمان عز والصبر جنة ومن قنع شبع ومن طمع صرع وقال بعض العلماء من صحب الدنيا برفض البدع وابعاد الخدع وترك الطمع فذلك آخذ بحظه من الورع ولعمرك انها الخلال تفسد الدنيا والدين وتجمع أعمال المفسدين فان البدع من النفاق والخدع من الشقاق والطمع من دنى الاخلاق وما أسرع صرعة الطمع لصاحبه

وما

وما أجابها اسوء عواقبه وكفى به اشيمة مشؤم وصحبة مذموم وخليقة سفاهة ولوم (حكى) الاصمعي عن أشعب الذي ينسب اليه الطمع أنه قال أنا أشأم الشؤم ولدت يوم قتل عثمان رضي الله عنه وختنت يوم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما وعاش الى خلافة المهدي * وأشعب هذا مولى لعبد الله بن الزبير وكان يقول نشأت أنا وأبو الزناد في حجر عائشة بنت عثمان بن عفان فما زال أبو الزناد يعلو وأنا أسفل حتى صار حيث رأيتم وصرت حيث ترون * وحكى مصعب بن الزبير قال خرج سالم بن عبد الله متنزها الى ناحية من نواحي المدينة مع حرمه وجواريه فبلغ ذلك أشعب فأتى الموضع الذي كان فيه يريد التطفل عليه فوجد الباب مغلقا فتسور الحائط فلما رآه سالم قال له ويلك يا أشعب أتفعل مثل هذا وأنا مع حرمي وبناتي فقال له أشعب لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد فضحك سالم وتعجب من كلامه ووجه اليه من الطعام ما أكل وحمل * وقيل لاشعب ما بلغ من طمعك قال ما تناجى قط اثنان الا ظننت انهما قد أمرا لي بشيء قيل له فهل رأيت أطمع منك قال نعم كلبة بني فلان رأت قوما يمضغون كندرا فحسبتهم يأكلون فتبعتهم فرسخين (فصل) حكى أنه لما حضرت الوفاة أوس بن حارثة اجتمع اليه قومه من غسان فقالوا له يا أبا مالك انه قد حضر من أمر الله تعالى ما ترى وكنا نأمرك بالتزويج في شبابك فتأبى ذلك وهذا أخوك لم يخص من البنين وليس لك غير مالك فقال لهم انه لم يهلك هالك ترك مثل مالك ان الذي يخرج العذق من الجريمة والنار من الوثيمة قادر على أن يجعل لمالك نسلا ورجالا بسلا وكل يقطع الى الموت أجلا ثم أقبل على مالك وقال يا بني المنية ولا الدنية العقاب ولا العتاب التجلد ولا التبلد القبر خير من الفقر من قل ذل ومن امر أقل ومن كرم الكريم الدفع عن الحريم والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك فاذا كان لك فلا تبطر واذا كان عليك فاصبر فكلاهما سينحسر لا ترهب الملك المتوج ولا تعبأ باللئيم المفلج ولا تسخر بالضعيف المهرج سلم ليومك حياك ربك وسالم مخطبك ثم أنشأ يقول هذه الابيات

شهدت السبايا يوم آل محرق * وأدرك عمري صيحة الله في الحجر
ولم أر ذا ملك من الناس واحدا * ولا سوقة الا الى الموت والقبر
فعل الذي أردى ثمودا وجرهما * سيعقب لي نسلا الى آخر الدهر
تقربهم من آل عمرو بن عامر * عيون لدى الداعي الى طلب الوتر
فان تكن الايام أبلين أعظمي * وشبن رأسي والمشيب مع العمر
فان لنا ربا علا فوق عرشه * عليما بما يأتي من الخير والشر
ألم يأت قومي أن لله دعوة * يفوز بها أهل السعادة والبر
اذا بعث المبعوث من آل غالب * بمكة فيما بين زمزم والحجر
هنالك ابشروا الحرث ابنصر بلادكم * بني عامر ان السعادة في النصر

ثم قضى أوس بن ساعته وقيل انه لما أرادت أمامة بنت الحرث التغلبية زفاف ابنتها أم اياس بنت عوف الى زوجها قالت لها يا بنية ان الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو لتقدم حسب لزويت ذلك عنك ولا بعدته منك ولكنها تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل أي بنية لو استغنت امرأة عن زوج بفضل مال أبيها لكنت أغنى الناس عن ذلك ولكن للرجال خلقنا كما

خلقوا لنا يابنية انك قد فارقت الجى الذى منه خرجت والعش الذى منه درجت الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه أصبح بملكه عليك مليكا فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا واحفظى منه خلالا عشرا يكن لك ذكرا وذخرا أما الأولى والثانية فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة فان فى القناعة راحة القلب وفى حسن المعاشرة مرضاة الرب وأما الثالثة والرابعة فالتعاهد لموضع عينيه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك الا أطيب ريح واعلى يابنية أن الكحل أحسن الحسن الموجود والماء أطيب الطيب المفقود والخامسة والسادسة التعاهد لوقت طعامه والتفقد لحين منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم حالة مكربة وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ ببيته وماله والرعاية لحشمه وعياله فان أصل حفظ المال حسن التقدير والرعاية للحشم والعيال من حسن التدبير وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشين له سرا ولا تعصين له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره واتقى مع ذلك كله الفرح اذا كان ترحا والاكتئاب اذا كان فرحا فان الخصلة الاولى من التقصير والثانيه من التكدير وأشد ما تكونين له اعظاما أشد ما يكون لك اكراما وأشد ما تكونين له موافقة أطول ما يكون لك مرافقة واعلى يابنية أنك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثرى رضاه على رضاك وتقدمى هواه على هواك فيما أحببت أو كرهت والله يصنع لك الخير واستودعتك الله * وهذه من أكمل الوصايا وأعمها وأبلغها وأتمها (وحكى) أنه مر فتى غر من عرب الحاضرة بجارية من عرب البادية تبهت الناظر جمالا وتكبت الذاكر مقالا وتشغل النفوس براعة وجمالا فافتتن بها فسأل عنها هل هى بكر أم ثيب فقيل له هى بكر لها عم وليس لها أب حى فقصد رجلا من كبار قومها واستنهضه لخطبتها فأتيا عمها فى جماعة فعرضوا عليه الامر فقال والله ما لنا فى أنفسنا معها رأى فكيف فى نفسها لكنى أعرض عليها الأمر فدخل اليها ثم خرج اليهم وقد جلست خلف سجف فقال هاهى ثم قالت اللهم حى العصابة بالسلام وأجزل لهم ثواب ما قصدوه فى دار المقام قل ياعم فقال أى بنية هذا عمك ونظير أبيك يخطبك على ابن عمك ونظيرك ويبذل لك من الصداق ما يرضيك فقالت له ياعم أضرت بك الحاجة حتى طمعت طمعا أخل بمروءتك أتزوجنى غلاما غرا احضر يا يغلبنى بفطنته ويصول على بمقدرته ويمن على بتفضله ويطول لى بذات يده ويقول ياهناه يابنت الهناه ثم أعيش بعدها كلا ان الله واسع كريم سميع عليم غفور رحيم والله لا تزوجت الا رجلا كاملا فيه ثلاث خصال العقل والجمال واللسان فانه اذا كان عاقلا دارانى وان كان جميلا ألهانى واذا كان لسنا أرضانى وأزددت به عبا الى علمى وفهما الى فهمى انصرفوا يغفر الله لكم ثم دخلت (وحكى) الاصمعى قال قال لى رجل من بنى ضبة أضللت ابلالى فأنا فى طلبها حتى أتيت بلاد بنى سليم فبينما أنا فى صحرائها اذا أنا بجارية أغشى والله بصرى اشراق وجهها فقالت لى ياعبد الله ما بغيتك قلت أضللت ابلالى فأنا فى طلبها قالت أتحب ان أرشدك الى من عنده علمها قلت أجل ومن هو قالت الذى أعطاكها هو أخذها وان شاء ردها فسله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار فأعجبنى ما سمعت من

بديع مقالها وراعني ما رأيت من بارع جمالها فقلت لها هل لك بعل قالت كان فدعى الى ما خلق له ونعم البعل كان قلت فهل لك في بعل لا تذم خلائقه ولا تخشى بوائقه فاطرقت طويلا ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعا وأنشدت

كنا كغصنين في أصل غذاؤهما * ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه * دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدني ان خانني زمن * أن لا يضاجع أنثى بعد مثواتي
وكنت عاهدته أيضا فعاجله * ريب المنون قريبا منذ سنيات
فاصرف عنانك عمن ليس يصرفها * عن الوفاء خلاف في التحيات

قال الصبي فانصرفت متعجبا مما رأيت وقال بعض الاعراب مررت بالمقابر يوما فاذا انا بجارية جالسة بين قبرين قد وضعت يديها عليهما وهي تقول اللهم انك لم تزل قبل كل موجود* ولا تزال بعد كل مفقود وقد خلقت والدي قبلي وخلقتني بعدهما منهما وآنستني بقربهما ماشئت ثم أوحشتني منهما اذشئت اللهم فكن لهما برحمتك مؤانسا ولي بعدهما حافظا كالذا واجمعنا في جنتك اذا كنت لهما انا الباولا تجعل قلبي من ذكرك خاليا فقلت لها ياهذه أعيدي على كلامك فنظرت الى نظرة كاره وقالت ما أنالك بحرمة فتأنس بحادثني وأعادته أهلك أولى بك وأقرب لتقوى ربك قال فاستحييت والله من أهل القبور تعجبا وحياء مما جاءت به

(فصل) وعزى ميمون بن مهران عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في ابنه عبد الملك عند وفاته فقال عمر هذا أمر لم أزل أنتظره فلما وقع لم أنكره وكان قد دخل على ابنه في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف تجدك يابني قال أجدني في الموت فاحتسبني فثواب الله خير لك مني فقال له والله يابني لأن تكون في ميزاني أحب الي من أن أكون في ميزانك قال وانا والله ياأبت لأن يكون ما تحب أحب الي من أن يكون ما أحب ثم مات رحمة الله عليه فلما دفن وقف على قبره وقال الحمد لله ورحمك الله يابني فلقد كنت برا بابيك ومازلت مذ وهبك الله لي بك مسرورا واني اليوم لأشد بك سرورا وأرجى لحظي من الله فيك فغفر الله ذنبك وجازاك باحسن عملك وتجاوز عن سيئتك ورحم كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب رضينا بقضاء الله وسلمنا لامر الله والحمد لله رب العالمين* وعزى رجل بعض اخوانه في ولد أصيب به فقال له ان حرمان الاجر على المصيبة أعظم من المصيبة وان فاتك مارزئت فلا يفوتنك ماعوضت* وسئل بعض الصالحين وقد انصرف من دفن ابنه فقال أسلمناه لمن تولى صنعه وخلقه وقدر عمره ورزقه ووعده رحمته وعفوه* وعزى بعضهم أخاله في ابنه فقال له هل رأيت معطيا الا يأخذ ومقرضا لا يتقاضى ومعيرا الا يسترجع عاريته* ومستودعا الا يسترد وديعته* وذكر أن عزيرا عليه السلام قال الهي ماعلامة من صافيته مودتك قال أرضيه باليسير وأثيبه العظيم الخطير وأصبره على المصاب الكبير* ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد أصيب بولده وولد له آخر فقال له سرك الله ياأمير المؤمنين فيما ساءك ولاساءك فيما سرك وجعل هذه لهذه مثوبة على الصبر وجزاء على الشكر* ووقف بعض الصالحين على ابنه وهو يقبر وقال اللهم اني غفرت له ماوجب لي عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك أجود وأكرم لارب سواك* وقال غيره وقدمات له ابن

اللهم انى قد غفرت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك * وكتب بعض الحكماء تعزية أيها الولى الحميم والصفى الكريم ماذا يجدى عليك الجزع والفرق والموت حكم فى جميع البرية وابنك هذا الموت وله وللفناء خلق فارج الله وارج ثوابه انفسك تسكن بين نعمتين والزم الصبر لئلا تحبط عملك وربما اشغلك الجزع عن الاستغفار له وأذهلك فان الصبر عند حلول النوائب من أجزل العطايا والمواهب فاحتسب الرزية واقبل العطية ولا يفارقك تذكار ما نزل به فكأن قد نزل بك والسلام * وكتب أحد الادباء يعزى صاحباله أما بعد فان الموت طريق معمور وجسر معبور لم يعصم منه كبير ولا صغير ولا يفوته غنى ولا فقير والصبر على مالا بدمنه حزم ونظر والجزع على مالا يطاق دفعه عجز وخور فمن صبر على مصابه قوى على أوصابه وكان أسرع لذهابه وأجزل لثوابه ومن جزع لاختلاله ضعف عن احتماله وأحبط صالح أعماله وأفسد عاقبة مآله فانظر بعين البصيرة الى هاتين المنزلتين واختر لنفسك أحسن الحالتين فالعاقل من نظر لنفسه وقدم لغده فى أمسه واذكر حلول الممات فكل منتظر آت وجميعنا معدود فى الاموات لاحق بمن قد فات والسلام * (فصل) * قال بعض الحكماء اذا نابتك نائبة فتحمل واذا نابك منزل فتحول ولا تفارق جميل الصبر فيما دق وفيما جل تفز من السودد بالحظ الاكمل وتحز من الاجر النصيب الاجزل وقال على بن الجهم

هى النفس ما حملتها تتحمل * وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأفضل أخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن المرء نعمة * ولكن عارا أن يزول التجمل

وقال بطليموس لله فى السراء نعمة الفضل وفى الضراء نعمة الثواب والتطهير * ومن كلامه الاعمال فى الدنيا تجارة الآخرة فمن أحسن واستجاد ربح ومن أساء وفرط خسر وقال الحكمة لا تحل قلب المنافق وان نطق بها لسانه فانما هو انتحالها الا اعتقادها * وقيل لبعض الحكماء أى شئ أفدت من العلم هو أحب الاشياء اليك قال فعل ما يجب على مختارا وترك ما تنكره الشر بعة مختارا وقال بعضهم لا ينبغى لمن يعلم أنه يموت ان يتوقع عرضا من اعراض الدنيا لانه لا شئ أصعب من الموت وهو أمر لا بد منه ولا صارف له عنه وما دونه أهون وقد لا يقع ومن الحكم المنثورة من كثرت فكرته كثر اعتباره ومنها اعتبر بما ترى تستدل به على ما لا ترى فكم شاهد لك لا ينطق وقال بعض الحكماء القلب يبصر ما يعمى عنه البصر ولا خير فى فكرة لا تورث اعتبارا ولا فى تجربة لا تفيد معرفة وقال جالينوس لا ينفع العلم من لا يعمل به ولا العقل من لا يستعمله وقيل لبعض الحكماء أى الاشياء أشد للمرء تأييدا وأحمد عاقبة قال مشاورة العلماء وتجربة الامور وحسن التثبت قيل فأيها أشد ضررا وأذم عاقبة قال العجلة والاستبداد بالرأى والتهاون بالامور وقال الخضر بن على رأيت بعدن حجرا عليه مكتوب بالحميرية يا أيها الشديد احذر الحيلة ويا أيها العجول خف التأنى ويا أيها الرائد ما يؤخر لا نقطع أملك عن بلوغه ويا أيها المحارب لا تأنس بالتفكر فى العاقبة وقال بعض الغزاة فتحنا حصنا من بلاد الروم فوجدنا فيه صورة أسد من حجر عليه مكتوب الحيلة خير من الشدة والتأنى أفضل من العجلة والجهل فى الحرب أحزم من العقل والتفكر فى العاقبة أمارة الجزع * وذكر أنه أهدى

ملك الروم الى الرشيد سيفا عليه مكتوب أيها المقاتل احمل تغنم ولا تفكر فى العاقبة فتهزم وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال من فكر فى العاقبة لم يشجع وقال بعض العلماء العجلة تورث الندامة والتأنى يعقب السلامة والفكرة تصلح الرأى قبل التحام الحرب وتفسده بعده * وقال لقمان عليه السلام التوكل على الله أروح وترك الاسترسال مع الناس أحزم وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لا يزال الدين والدنيا قائمين ما دام العلماء يستعملون ما علموا والجهال لا يستكبرون من السؤال عما لم يعلموا والاغنياء لا يبخلون بما خولوا والفقراء لا يبيعون آخرتهم بدنياهم وقال بعض الحكماء اذا رأيتم النعم مستقبلة فبادروها بالشكر قبل الزوال وقال بعض الصالحين من عير أخاه بذنب قد تاب منه ابتلاه الله به واذا أراد الله أن يتحف العبد قيض له من يظلمه وقال أبو الدرداء ان أبغض الاشياء الى أن أظلم من لم يستعن على الا بالله تعالى وفى بعض الحكم العفو مع المقدرة على الانتصار من علامات الابرار يدنى من الجبار ويبعد من النار وقيل أفضل ما يتقرب به المتقربون طلب العافية وبذل المعروف وكف الاذى وجماع العز فى القناعة والاستغناء عن الناس وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمؤمن على المؤمن ست خصال يعوده اذا مرض ويشهده اذا مات ويجيبه اذا دعاه ويسلم عليه اذا لقيه ويشمته اذا عطس وينصح له اذا غاب وشهد وقال ابن المقفع ابذل لصديقك مالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك ولعامة الناس تحيتك وبشرك ولعدوك عدلك وانصافك وكن ضنينا بدينك وعرضك وقالوا أعظم مكاسب الدنيا مسرة مودة أهل الدين والمروءة وقيل عدم مع حزم خير من غنم مع عجز * ومن وصاياهم سالم عدوك ما استطعت وان كنت ذا قوة وفهم وقال بعضهم الادب والعلم أصل السعادة والخير والحلم والتواضع جماع البر وسبب درك حسن المنزلة وفى منثور الحكم أفضل الزاد ما تزود ليوم المعاد وعند الغاية يعرف السابق ومن أقوال الحكماء المال يستر القبائح والفقر يحجب المحاسن الالمن رفض الدنيا اختيارا وتركها تهاونا بها واستصغارا وقال بعضهم من طلب الغنى عدم الغنى ومن ترك الغنى نال الغنى وفى مثل ذلك يقول الناشئ

وجود الغنى أن لا تكثر فى الغنى * ونيل الغنى أن لا تفكر فى الغنى

وقال غيره

ومن كان فى الدنيا يصون مكانه * تجده على الدنيا أشد تهاونا

وقال على بن أبى الجهم

يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

وقال

أرى الناس من داناهم هان عندهم * ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى * ولا كل من فى الارض أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقال بعض الحكماء العزلة عن الناس تصون العرض وتستر الفاقة وتبعث على السلامة وترفع المؤنة وتورث الراحة وتبقى حسن الذكر وتقصر الامل وتؤمن من الملل وتدفع الزلل وتولد الفكرة فى الآخرة وأسلم الناس من زال عنه الالتباس وصار فى ذمة السلامة من الادناس وقالوا سبع خصال لا توجد معهن غربة حسن الادب واجتناب الريب وكف الاذى وسعة الخلق واحتمال

الصبر وجميل المعاشرة وصحبة الناس على اخلاقهم وفى منثور الحكم احفظ اخاك وان لمته واصدقه وان سؤته وقالت الحكماء الصديق كالدواء يحتاج اليه فى كثير من الاوقات والصديق المخلص كالغذاء لا يستغنى عنه والعدو كالداء يضر متى حل ويوهن اذا نزل وقالوا قد يكون طلب الحياة سببا لقرب الوفاة وطلب الوفاة سببا لنيل الحياة وقال بعضهم موت الرجل الصالح راحة لنفسه فجعة لغيره وموت الرجل الفاجر فجعة لنفسه راحة لغيره ومن كلام الحكماء آفة العمل الكسل وآفة الامل الاجل وآفة الحرية الطمع وآفة الدين البدع وقال حكيم ليس العالم من علم الخير من الشر فقد يبدو ذلك لغير العالم وانما العالم من علم خير الشرين وفى الشر خيار وقال بعضهم لا تجعل شفيعك أحدا فيه طمع فانه لن يؤثرك على طمعه ولا من لا مروءة له فانه لا يبالى بما يصل اليك ولا يرى العار واستشفع بأهل العلم فان العالم يؤثره العاقل ويحبه الدين ويكرمه السلطان ويجله الكبير ويهابه الصغير ويعرف مقدار الشفاعة وقد قال بعض الحكماء من أحب العلم والعلماء صار فى الفضل عاما وقال الاحنف بن قيس يجب على ذى الامر أن يلتزم ثلاثا حب العلم والعلماء ورحمة الضعفاء والاجتهاد فى مصالح العامة وقال بعض الحكماء اذا اجتمع للملك كبر الهمة مع جزالة الطبع ولين الجانب مع تواضع الديانة فقد أدى فى عباد الله الامانة فان عظم الهمة تحفظ الرياسة والجزالة تورث الهيبة ولين الجانب يورث المحبة والتواضع فى الدين يوجب حسن الاستطاعة وجميل العاقبة ويجب عليه أن يتخذ الناس أهلا واخوانا ولا يتخذ أموالهم قنية ولا يستعمل عليهم شرارهم اعوانا فاذا الزم ذلك فقد استحق الرياسة وفاز بصواب التدبير والسياسة واستطاب المحيا وأخذ بحظه من الدين والدنيا * وقال عبد الملك بن مروان أفضل الرجال من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وأنصف عن قوة ومن كلام الاسكندر لا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطراب الامور عليه فان البحر لا يكاد يسلم راكبه فى وقت سكونه فكيف مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه وقال بعض العلماء لا يزال الزمان زمانا ما وقر العالم وعظم الشريف وأطيع الآمر وكبر الشيخ المسن ووفى كل ذى حق حقه وخطب زياد الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه أيها الناس انى قد نبذت اليكم خلالا ثلاثا فيهن النصيحة تبجيل العلماء واعظام ذوى الاقدار واجلال أهل الشرف وتوقير ذوى الاسنان وانى أعاهد الله عز وجل ان لا يأتينى شريف بوضيع لم يعرف له فضل شرفه الا عاقبته ولا يأتينى عالم بجاهل قد لاحاه فى علمه ليهجنه بذلك الا عاقبته ولا يأتينى شيخ بحديث السن قد استخف به ولم يراع سنه الا أوجعته ضربا فانما الناس بأعلامهم وعلمائهم وذوى الاسنان فيهم وقال الافوه الاودى

تهدى الامور باهل الرأى ما صلحوا * وان تولوا فبالاشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وما زال أهل الجلال والرفعة وأرباب الفضل والمروءة يكرمون ويجلون وان جار عليهم الزمان وعضتهم النوائب كالاسد يهاب وهو موثق وما زال أهل الضعة والخساسة تصغر أقدارهم عند الناس وان ساعدهم الزمان وسالمهم الحدثان كالكلب يهون قدره ويصغر أمره ولو كان مطوقا بالذهب * وقال رجل من الحكماء ست خصال من كن فيه فهو انسان فان عدم منها واحدة

فقد

قد عدم تدبير الانسانية وان فقد جميعهن فليس بانسان وانما هو في صورة انسان وهي الادب والحياء والالفة والانفة والشكر والرجاء وهذه الخصال مجموعة كلها في الكلب أما أدبه فكثرة مطاوعته وتصرفه مع الاشارة وأما حياؤه ففي قبوله الزجر وانصرافه عند الانتهار وأما ألفته فجما ماته عن ربه وماله من ماشية وغيرها وأما شكره فصبره على فقر صاحبه ولا يزال يلوذ بفنائه ولا يلتمس غيره وأما رجاؤه فبصبصته لصاحبه وتمسحه به وتلويحه له بذنبه فلقد ينبغي للانسان الحيواني الناطق العاقل أن يستحي أن يكون في الكلب خصال لا تكون فيه

﴿فصل﴾ حكى الاصمعي قال بينا أنا في طريق الحج في يوم شديد الحر في حمارة القيظ اذا بشيخ قد أقبل من الحاضرة يقود أمة سوداء ونحن قد ضربنا خباءنا وقدمنا غداءنا فوقف بباب الخباء فسلم فرددنا عليه وقلت له ادخل أيها الشيخ وأصب معنا من طعامنا فقال اني صائم فقلت في مثل هذا اليوم وشدة حره فقال يا ابن أخي انما هي أيام قلائل فلا أدعها تذهب تفانيا ثم قال هل فيكم من يكتب فقلت نعم فقال اكتب ولا تعد ما أملي عليك هذا كتاب من عبد الله بن عقيل لامته لؤلؤة اني قد أعتقتك لوجه الله الكريم ولاقتحام العقبة فلا سبيل لي عليك ولا لاحد الا سبيل الولاء المنقعي وعليك من الله واحدة ونحن في الحق سواء قال الاصمعي فلما انصرفت أخبرت الرشيد بذلك فقال أحسن والله ثم قال لي أقسمت عليك الا ما ابتعت لي ألف عبد وأعتقهم بهذا الاحرف ولا تزيد عليها شيأ (وحكى) الاصمعي أيضا مثلها قال رأيت أعرابيا أعتق عبداله وكان تغلبيا فأخذ بيد عبده وخرج الى الناس فقال أمعكم داوة وقرطاس ورجل يكتب قالوا نعم قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتب عن محمد التغلبي لغلامه ميمون انك كنت عبدالله فوهبتك لي وقد وهبتك لواهبك وللجواز على الصراط وكنت أمس لي فأنت اليوم مثلي لا سبيل لي عليك الا سبيل الولاء * وفي بعض ما حكى عن الحجاج بن يوسف أنه قدم اليه غداؤه يوما فقال اطلبوا من يتغدى معي فخرجوا فاذا باعرابي في شملة فاتي به اليه فقال الاعرابي السلام عليكم فرد عليه السلام الحجاج وقال هلم يا اعرابي فأصب معنا من غدائنا فقال قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته قال ومن هو قال دعاني الله الى الصوم واني لصائم قال وصوم في مثل هذا اليوم الحار قال صمت ليوم هو أحر منه قال له الحجاج فأفطر اليوم وصم غدا قال أو يضمن لي الامير أني أعيش الى غد قال ليس ذلك اليه قال فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تملكه قال انه طعام طيب قال ما طيبه خبازك ولا طباخك قال فمن طيبه قال العافية فبهت الحجاج وقال ما رأيت كاليوم وهذا مأخوذ من قول ارسطاطاليس بالعافية يوجد طيب الطعام والشراب وبالمكروه يتنغص لذيذ العيش * ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن العزيز في مرضه الذي توفي منه فقال له يا أمير المؤمنين انك فطمت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة ولا بد لهم من شئ يصلحهم فلو أوصيت بهم من أهل بيتك من يكفيك مؤنتهم فقال عمر أجلسوني فأجلسوه فقال يا مسلمة أما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي من هذا المال وتركتهم عالة فاني لم أمنعهم حقا هو لهم ولم أعطهم حقا هو لغيرهم وأما ما سألت من الوصاة بهم فان وصيي بهم الى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين انما بنو عمر أحد رجلين رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسرا ورزقه من حيث لا يحتسب أو رجل عنده فجور فلا يكون عمر أول من أعانه

على العصبة ثم دعا بنيه وهم يومئذ اثنا عشر غلاما فجعل يصعد فيهم بصره ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدموع ثم قال بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم يا بني اني تركتكم من الله بخير انكم لا تمرون بمسلم ولا معاهد الا ولكم عليه حق واجب ان شاء الله يا بني اني نظرت بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا خيرا من دخول أبيكم النار يا بني عصمكم الله رزقكم الله قالوا فما احتاج أحد منهم ولا افتقروا الى آخر الدهر * وأوصى اعرابي بنيه فقال يا بني عاشروا الناس معاشرة ان غبتم عنهم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم * وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي القصة يعني يزيد بن الحصين الحرثي فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال فقامت امرأة من صف النساء طويلة وقالت لم تمنعنا يا أمير المؤمنين حقا جعله الله لنا والله يقول وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا فقال عمر امرأة أصابت ورجل أخطأ ودخل القاضي بن أبي ليلى على أبي جعفر المنصور فقال له أبو جعفر ان القضاة يرد عليهم من طرائف أخبار الناس ونوادر أمورهم غرائب وعجائب فان كنت طرأ عليك شيء من ذلك فحدثنا فقال له نعم طرأ عليّ منذ ثلاث أمر لم أر أعجب منه اتتني عجوز تكاد تنال الارض بوجهها فقالت أنا بالله ثم بالقاضي أن يأخذ لي بحقي ويعينني على خصمي قلت ومن خصمك قالت بنت أخي فدعوتها فجاءت امرأة فخمة فجلست منبهرة فقالت العجوز هذه ابنة أخي أوصى بها الى أبوها فأحسنت التربية وأجملت الولاية وأدبت ثم زوجتها ابن عمها وأفسدت عليّ بعد ذلك زوجي قال فقلت لها ما تقولين قالت يأذن لي القاضي فأسفر عن وجهي وأدلي بحجتي فقالت لها يا عدوة الله تريدين أن تفتني القاضي بجمالك فأطرقت والله خوفا من مقالتها ثم قلت لها تكلمي قالت صدقت أصلح الله القاضي هي عمتي أوصى بي اليها أبي فربت وأحسنت التربية ووليت فأجملت الولاية وأدبت فلما بلغت زوجتني ابن عمي فعطف الله بعضنا على بعض واغتبط كل واحد منا بصاحبه فلما أدركت ابنتها واحتاجت الى الزوج حسدتني فيما رأت بيني وبين ابن عمي من جميل الالفة وحسن العشرة وأرادته لابنتها فسعت بيني وبينه وحسنت ابنتها عنده حتى علقها وخطبها اليها فقالت لا أنكحك حتى تجعل أمر زوجتك بيدي ففعل فطلقتني عليه ثلاثا فقلت صبرا لامر الله تعالى وتسليما لقضاء الله فلما لبثت أن انقضت عدتي فبعث الي زوجها اني قد علمت ظلم عمتك لك وافسادها عليك فهل لك في زوج قلت ومن هو قال أنا فقلت نعم ان جعلت أمر عمتي الي قال قد فعلت فطلقتها عليه ثلاثا ودخل بي فتألفنا جميعا ما شاء الله حتى توفي رحمه الله ثم لم ألبث بعد انقضاء عدتي منه أن عطف الله قلب ابن عمي علي وتذكر ما كان من موافقتي له وجرى معه فبعث الي هل لك في المراجعة قلت قد أمكنتك ان جعلت أمر بنت عمتي الي قال قد فعلت فطلقتها عليه ثلاثا فوثبت العجوز وقالت أصلح الله القاضي فعلت أنا هذا مرة وفعلته هي مرة بعد أخرى فقالت ان الله عز وجل لم يوقت في هذا شيئا وقال وقوله الحق ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله فعجب أبو جعفر المنصور ومن حضر مما ذكر * وذكر في حديث مرفوع أن امرأة أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت يا أمير المؤمنين ان زوجي يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره ان

أشكوه وهو يعمل بطاعة الله تعالى فقال نعم الزوج زوجك فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب فقال له كعب بن سور الاسدي يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته اياها عن فراشه فقال له عمر كما فهمت كلامها فاقض بينهما فدعا كعب زوجها فاتى به فقال له ان امرأتك هذه تشكوك قال أفي طعام أو شراب أو لباس فقالت المرأة

يا أيها القاضي الحكيم رشده * ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهده في مضجعي تعبده * نهاره وليله ما يرقده
فلست في أمر النساء أحمده * أمض القضا يا كعب لا تردده

فقال زوجها زهدني فراشها وفي الحجل * أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول * وفي كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب

ان لها حقا عليك يا رجل * نصيبها في أربع لمن عقل * فوفها ذاك ودع عنك العلل * ثم قال أيها الرجل ان الله قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام ولياليهن فتعبد فيها ولها يوم وليلة والله تعالى قد أباح لك ذلك ولا حرج عليك فيه فقال عمر رضي الله عنه والله ما أدري أي أمريك أعجب أفهمك أمرهما أم حكمك بينهما اذهب فقد وليتك قضاء البصرة * وذكر أبو حفص بن شاهين في كتاب النزهة والاخبار بسنده أن امرأة تقدمت الى شريح القاضي فقالت له أيها القاضي اني جئتك مخاصمة قال لها وأين خصمك قالت أنت خصمي فاخلي المجلس وقال لها تكلمي فقالت اني امرأة لي احليل ولي فرج فقال لها قد كان لأمير المؤمنين فيها قضية من حيث يجيء البول قالت انه يجيء منهما جميعا قال لها من أين يسبق البول قالت ليس يسبق منهما شيء يجيآن في وقت واحد و ينقطعان في وقت واحد قال انك لتخبريني بالعجب قالت و بما هو أعجب من ذا تزوجني ابن عمي فأخدمني خادما فوطئتها فاولدتها وانما جئت حيث ولد لي لتفرق بيني و بين زوجي فقام من مجلس القضاء فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخبره بما قالت المرأة فأمر بها فادخلت عليه فسألها عما قال القاضي فقالت هو الذي قال فاحضر زوجها ابن عمها فقال له هذه امرأتك وابنة عمك قال نعم يا أمير المؤمنين قال أفعلمت بما كان قال نعم أخدمتها خادما فوطئتها فاولدتها قال ووطئتها بعد ذلك قال نعم قال لأنت أجسر من خاصي الاسد جيؤني بدنيبر الخادم وامرأتين فجيء بهم فقال لهم علي رضي الله عنه خذوا هذه المرأة فادخلوها الى بيت وجردوها من ثيابها وعدوا أضلاع جنبها ففعلوا ثم خرجوا اليه فقالوا عدة الجنب الايمن اثنا عشر ضلعا فقال علي رضي الله عنه الله أكبر جيؤني بالحجام فجيء به فأخذ من شعرها وأعطاها رداء وحذاء وألحقها بالرجال فقال الزوج يا أمير المؤمنين امرأتي وابنة عمي ألحقتها بالرجال عمن أخذت هذه القضية فقال علي رضي الله عنه ورثتها من أبي آدم عليه السلام ان حواء خلقت من ضلع آدم وعدد اضلاع الرجال أقل من أضلاع النساء بضلع وعدد أضلاعها أضلاع رجل فامر بهم فاخرجوا

وأسند أيضا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل له رأسان وفمان وأنفان وقبلان ودبران وله أربعة أعين في بدن واحد ومعه أخت له فقالوا له يا أمير المؤمنين

قل فى ميراث هؤلاء قال فجمع عمر رضى الله عنه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم الحسن ابن على رضى الله عنهما فقال لهم عمر قولوا فى ميراث هؤلاء فتكلموا فقال ما أراكم أصبتم أين على بن أبى طالب قالوا هو فى حائط له فمضى الحسن بن على رضى الله عنهما الى أبيه فأخبره فقال ان هذه لمعضلة وفيها غير قضية قال فجاء على ومعه الناس فقال له عمر قل يا أبا الحسن فى ميراث هؤلاء قال أقول ان فيه غير قضية فاول قضية أن ينوم فان أغمض الاعين جميعا وغض من الفمين جميعا فبدن واحد وان فتح بعض الاعين وغض من احد الفمين فبدنان هذه قضية وأما قضية أخرى فيطعم ويسقى حتى يمتلئ ثم يغوط ويبول فان بال من المبالين جميعا وتغوط من الدبرين جميعا فبدن واحد وان بال من أحدهما وتغوط من أحدهما فبدنان فكبر المسلمون تكبيرة ارتجت لها المدينة فقام عمر فقبل رأس على رضى الله عنهما وقال كم كربة كشفها أبو الحسن ثم حملا الى أدنى المدينة فجاء بعد ذلك يطلبان النكاح فارسل عمر الى على رضى الله عنهما فجلا به فقال له على يا أمير المؤمنين انهما استحا صمانك فقل لهما لا يجوز نكاحكما حتى أجيبك أنا فقالا يا أمير المؤمنين زوجنا فقال عمر لا يجوز نكاحكما فقالا أعطنا حظنا من كتاب الله عز وجل فقال على رضى الله عنه نعم لا يكون فرج فى فرج وعين تنظر اليه فكبر المسلمون تكبيرة ارتجت لها المدينة ثم حملا الى مكانهما فقال على يا أمير المؤمنين أما اذجرت فيهما الشهوة فقلما يعيشان وان أحدهما ليموت قبل الآخر بساعة قال فلما كان بعد ثلاث اذا رجل على ناقة يسأل عن منزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد دفنهما وقال ان أحدهما مات عند مغيب الشمس والآخر عند اشتباك النجوم كذا جاء الخبر ثم نظر هل كان ذلك الشخص واحدا أو اثنين الآن فى قول على رضى الله عنه لا يكون فرج فى فرج وعين تنظر اليه دليلا على أنهما اثنان (وحكى) هشام بن مرة قال بينما عمر بن الخطاب يطوف بالبيت اذا برجل يطوف وعلى عنقه مثل المهاة حسنا وجمالا وهو يقول

عدت لهذى جملا ذلولا * موطأ أتبع السهولا * أعدلها بالكف أن تميلا
أحذر أن تسقط أو تزولا * أرجو بذاك نائلا جزيلا * يبلغ المرجو والمأمولا

فقال عمر رضى الله عنه يا عبد الله من هذه التى وهبت لها حجك وجعلت لها أجرك فقال هى امرأتى يا أمير المؤمنين وانها لحمقاء مرغامة أكول قامة لا تبقى لها خامة قال فما لك لا تطلقها قال انها حسناء لا تفرك وأم صبيان لا تترك قال فشأنك بها * ومن أمثال الحكماء المرأة الوسيمة من المنن الجسيمة ومن كلام بعض الادباء اذا قيض الله للرجل امرأة كثيرة الحيا جميلة المحيا مساعدة فى جميع الاشيا معينة على أمور الدين والدنيا فقد استطاب المحيا وقال بعض الحكماء أسباب الفتن فى ثلاثة عين ناظرة وصورة ناضرة وشهوة قادرة وقال بعضهم مجالسة النساء تبعث على الفتنة وتذهل عن الادب وتحبب الدنيا وتنسى الآخرة وتضعف الرأى وتذلل النفس وتوهن القوى وما ولع أحد بالنساء الا ظهر الخلل فى جميع أحواله وأفعاله * وقيل انه لما أراد عبد الملك بن مروان الخروج الى حرب مصعب بن الزبير أقبلت اليه عاتكة بنت يزيد ابن معاوية وكانت أكرم نسائه عنده فى جملة من جواريها تختال فى الزينة من الحلى والحلل فقالت له يا أمير المؤمنين لو قعدت فى ظلال ملكك ووجهت كاتبا من كلابك لكفاك

أمره

أمره فقال لها أما سمعت قول الاول حيث يقولون

قوم اذا ما غزوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت بأطهار

فلما رأته قد عزم وأبى عليها بكت وبكى معها جواريها فقال لها عبد الملك قاتل الله ابن أبي جمعة كأنه والله نظر الينا حيث يقول

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه * بكت فبكى مما دهاها قطينها

ومن أمثالهم في ذلك طاعة النساء تردي العقلاء وتذل الاعزاء ونظر بعض الصالحين الى امرأة تتزين وتتعطر فلما فرغت ظهرت محاسنها وزاد جمالها فقال لمن حوله انما المرأة مثل النار اذا زيد في حطبها تأججت واشتد حرها وشأت للناس فهي حسنة المنظر تحرق من دنا منها ونظر سقراط الى امرأة كبيرة السن قد تزينت فقال نار قليلة الضوء الا أنها تحرق وقال أيضا الكيس من لم يصده النساء وقيل من كانت لذته في النساء فقد وقع في أعظم البلاء ومن الحكم المشهورة الآفات في اللذات وقسم بعض الحكماء اللذات على الزمن فقال لذة الساعة الجماع وقيل الاكل الشهي ولذة اليوم مجالسة صلحاء الاخوان ولذة الجمعة الثوب الجديد ولذة الشهر المركب الحسن ولذة العام العروس المحمودة والدار الجديدة ولذة العمر اخلاص العبادة وهذا التقسيم حسن وقال بعض الحكماء من باع نفسه في لذاته خسر في حياته وبعد مماته وقال ابن المعدل

أنافس بالنفس النفيسة ربها * فليس لها شيء وان جل من ثمن
اذا بعت نفسا الى بدنيا أصيبها * فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن
فبعها بما في دار خلد ونعمة * لدى حيث لا خوف عليها ولا حزن

﴿فصل﴾ وأحببت ان أختم هذا الباب بشيء من الدعاء لاتصاله بالباب الذي يختص بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم * قال صلوات الله عليه ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء وقال عليه السلام اذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم طهر لساني من الكذب وقلبي من النفاق وعملي من الرياء وبصري من الخيانة فانك تعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمان لامتي من الغرق أن يقولوا اذا ركبوا البحر وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون بسم الله مجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم وقال خالد بن صفوان احذروا أمنا حيق الضعفاء الدعاء فانه لا يستجاب الا لمخلص أو مظلوم وكان دعاء عبد الله بن عمر اللهم أغنني بالافتقار اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك اللهم أعني على الدنيا بالقناعة وعلى الدين بالعصمة ومن دعاء الخضر عليه السلام اللهم يا من لا يشغله سمع عن سمع ولا يغلطه ولا يبرمه الحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك يا أرحم الراحمين وكان من دعاء محمد بن علي رضي الله عنهما اللهم أعني على الدنيا بالقناعة وعلى الآخرة بالعفو ودعا رجل من الاعراب فقال اللهم اغفر لي ما دامت الصحف منشورة والتوبة مقبولة قبل أن

يحضر الاجل وينقطع الامل ولا أقدر على استغفارك وقال بعض الصالحين فى دعائه اللهم انى أسألك قلبا تواباأوابا لا كافرا ولا مرتابا ودعا بعضهم فقال اللهم اشغلنا بذكرك وأعذنا من سخطك وامنن علينا بعفوك وأجرنا من غضبك وأغننا بحلال رزقك عن جميع خلقك ولا تشغلنا بطلب ماعندهم عن طلب ماعندك وقنعنا بيسير الدنيا فان كثيرها يسخطك ولا خير فيما يسخطك ومن دعاء بعضهم اللهم لا تحرمنى وأنا أسألك ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ودعا رجل فقال اللهم انى أسألك العافية فى غير جهد وتمام النعمة فى غير كد * ودعا أعرابى فقال اللهم انى أعوذبك من الفقر الا اليك ومن الذل الا لك ومن الخوف الا منك ومن الرجاء الا فيك وقال بعضهم اللهم هب لى حقك وأرض عنى خلقك ودعا ابن هبيرة فقال اللهم انى أعوذبك من صديق يصدقنى وجليس يغرينى وعدو يسوءنى وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول فى دعائه اللهم اجعلنى من الاقلين فقال له ماهذا الدعاء ياهذا فقال سمعت الله عزوجل يقول وقليل من عبادى الشكور وقال عز من قائل وما آمن معه الا قليل وقال سبحانه وقليل ماهم فقال له عمر عليك من الدعاء بما يعرف تأويله ومن دعاء بعض الاعراب اللهم أقبل بوجهك الكريم الينا وكن معنا ولا تكن علينا ودعا بعض العلماء فقال اللهم سلمنا من غوائل البدع وخلصنا من حبائل الخدع واقطع عنا علائق الطمع وآمنا يوم الخوف والفزع وقال يحيى بن معاذ فى دعائه الهى كيف أفرح وقد عصيتك وكيف أحزن وقد عرفتك وكيف أدعوك وأنا عاص وكيف لا أدعوك وأنت كريم الهى اذا شهدلى الايمان بتوحيدك ونطق لسانى بتمجيدك ودلنى القرآن على فواضل جودك وشفع لى محمد خير عبادك كيف لا يبتهج رجائى بحسن موعدك ياكريم وقال بعض الشعراء

وانى لأدعو الله والامر ضيق * على فما ينفك أن يتفرجا
وكم من فتى سدت عليه وجوهه * أصاب لها فى دعوة الله مخرجا

وقال غيره

وانى لأرجو الله حتى كأننى * أرى بجميل الظن ماالله صانع

وقال غيره

لا تضرعن لمخلوق على طمع * فان ذاك مضر منك بالدين
واسترزق الله مما فى خزائنه * فانما الرزق بين الكاف والنون

ومن أحسن مادعا به بعض الصالحين اللهم اجعلنا من الذين استظلوا تحت رواق الحزن من شدة خوفهم ونشروا دواوين الذنوب بين أعينهم وقرؤا صحف الخطايا على قلوبهم فأورثهم الفكر الصالح فى المنقلب اللهم اجعلنا ممن صيرت هممهم فى الملكوت تخرقت الحجب حتى انتهت اليك فعلمت صدقها فرددتها الى صدورهم بفوائد الحكمة وطرائف المعرفة اللهم اجعلنا من الذين ركبوا سفن العظة ونشروا شراع التقى فازعجتهم ريح اليقين حتى حطوا بساحل الرضا فوصلوا الى الامن الاكبر والامل الاقصى يامن بيده أزمة القلوب ودعا بعضهم فقال اللهم اجعل خوفى كله منك ورجائى كله فيك وتقى كلها بك وتوكلى كله عليك وانقطاعى كله اليك وعملى كله عندك واحشرنى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ومن دعاء بعض الادباء اللهم أجرنى من جور الجائرين وسطوة الجبارين وكف عنى أكف الضائمين وأخرجنى من ظلمات الظالمين وأدخلنى برحمتك فى عبادك

الصالحين

الصالحين اللهم هب لي عافية غير عافية ورفاهية غير واهية واجعل اللهم أملي في عملي ورغبتي في رهبتي حتى أرى أماني في ايماني وأتحقق أن يقيني مما أخاف يقيني وأبلغ الامن وأشكر المن يامن سمت أسماؤه وعمت نعماؤه يابر يارحيم وقال بعض الصالحين في دعائه اللهم اجعلني ممن دعاك فأجبت دعاءه ورجاك فحققت رجاءه اللهم اجعلني ممن لاذ بك فأجرته وممن فر اليك فقبلته وممن خافك فأمنته وممن توكل عليك فكفيته وممن سألك فاعطيته يامن توحد بالحمد وانفرد بالمجد وقال بعض الشعراء

حسبي الله وعوني * من توكلت عليه * فحياتي ومماتي * ونشوري في يديه
واذا مسني الضر تضرعت اليه * فهو للملهوف أرجى * رحمة من والديه

وقال غيره الله ألطف بي من كل ذي ثقة * أب رحيم وأم ذات اشفاق

وقال ابراهيم بن الشافعي

أوثق الاشياء عندي * مع عصياني رجاه * فهو غفار رحيم * سامع ممن دعاه

﴿الباب الرابع عشر يختص بلمع من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره * وغرر من مآثره الحميدة وآثاره﴾

وهذا باب أخرته على استحقاقه التقديم وأرجأته وهو الجدير بالتكريم والتعظيم لأختم به مقالي * وأحسن به عاقبة آمالي ولأزين به ماترتب وتصنف وأتمم به الاحسان ان كان تسنى وتكيف والاذكار جوبه محو الاساءة والتقصير وسدل الستر على مافرط من التغرير فانه اذا احسنت من الاعمال الخواتم جبت ماقبلها من المآثم كما قال بعض الشعراء

وللناس أعمال لخير وضده * ولا يصلح الاعمال غير الخواتم

والله المستعان على قصد التصديق والتصحيح واسبال الستر على ماظهر من القبيح لارب غيره ولا خير الاخيره فنذكر بحول الله وقوته وحسن عونه وفضل رحمته جملا من فضائله الشريفة ومفاخره ولمعا من سوابقه المنيفة ومآثره وان كانت أكثر من أن تحصى وأعظم من أن تستقصى لورودها عن خير البشر المنتخب من أكرم بيت من مضر كما قال عليه السلام خلق الله الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقا فجعلني في خير فرقة وجعلهم بيوتا فجعلني في خير بيت أعطى جوامع الكلم وأذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم وقصرت عن مقاومته جميع الامم وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم فحكمه صلى الله عليه وسلم أكثر الحكم بيانا وأوضحها برهانا وأتمها ابداعا واحسانا جمعت المعاني المعجزة في الالفاظ الموجزة من نظر فيها اعتبر ومن رام شأوها قصر وتأخر عضدت بالقوة الالهية وتأيدت وقويت بوحي النبوة وتأكدت لها وعت المسامع ولا عقلت الافئدة ولا قبلت النفوس كلاما أحسن منه معنى ولا أحكم لفظا ولا أجمل مقصدا ولا أصدق حجة ولا أوضح بيانا ولا أصح وزنا ولا أعدل أقساما ولا أحلى موقعا ولا أسهل مأخذا ولا أقرب افهاما ولا أتم منفعة ولا أعم صلاحا لا يلحق السامع له ملل مع ترداده على الاسماع ولا يعرض للنفوس منه كسل على كثرة الاستطلاع فربوعه أبدا عامرة لا تقوى ونجومه زاهرة لا تخوى وأغصانه باذعة لا تذوى فانه صلوات الله وسلامه عليه استعمل الالفاظ السهلة واعتمد المقاصد العذبة وتجنب الوحشي والهجين وركب التوسط وهجر

التقعير وآثر الايجاز فبلغ الغاية ولم يطل التأليف وكشف المعاني ولم يظهر التكليف فقوله فصل وكلامه عدل * وقد أثنى الله سبحانه على الحكمة فقال عز من قائل ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ووصف بها لقمان عليه السلام فقال تبارك اسمه ولقد آتينا لقمان الحكمة وسمى بها نفسه فهو العليم الحكيم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ثم ابتغى ضالة أخرى وقال عليه السلام الحكمة ضالة كل حكيم وقال صلى الله عليه وسلم الايمان يمان والحكمة يمانية وقال عليه السلام من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال صلوات الله عليه وسلامه نعمت الهدية الكلمة من كلام الحكمة وقال صلى الله عليه وسلم خشية الله رأس كل حكمة والورع سيد العمل وقال لقمان عليه السلام ان القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة كما تحيا الارض الميتة بوابل المطر وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان فأهدوا اليها طرائف الحكمة وقال ابن أبان خير ما أوتي العبد في الدنيا الحكمة وخير ما أوتي في الآخرة الجنة وخير ما سئل الله العفو والعافية وقال أبو جعفر المنصور الحكمة نور الفكرة والصواب فرع الروية والتدبير قيم الهمة ومن كلام بعض الحكماء الحكمة حياة النفس وراحة البدن وزراعة الخير في القلوب ومثمرة الحظ وحاصدة الغبطة وجامعة السرور لا يخبو نورها ولا يكبو زنادها وقال غيره الحكمة حلية العقل وميزان العدل ولسان الايمان وعين البيان وروضة الارواح ومراح الهموم عن النفوس وأنس المستوحش وأمن الخائف ومتجر الرابح وحظ الدنيا والآخرة وسلامة العاجل والآجل وقال آخر الحكمة نور الابصار وروضة الافكار ومطية العلم وكفيل النجح وضمين الخير والرشد والداعية الى الصواب والسفير بين العقل والقلوب لا تندرس آثارها ولا تعفو ربوعها ولا يهلك امرؤ بعد علمه بها ومن أمثالهم من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار * فصل * فمن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم وقوله عليه السلام السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه وقوله عليه السلام صنائع المعروف تقي مصارع السوء وقوله عليه السلام الارواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقوله عليه السلام جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها وقوله عليه السلام قلة العيال أحد اليسارين وقوله عليه السلام التدبير نصف المعيشة وقوله عليه السلام المرء كثير بأخيه وقوله صلى الله عليه وسلم الدال على الخير كفاعله وقوله عليه السلام كل آت قريب وقوله عليه السلام المؤمن مرآة أخيه وقوله صلوات الله عليه وسلامه الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وقوله عليه السلام حبك الشيء يعمي ويصم وقوله عليه السلام من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله وقوله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقوله عليه السلام زر غبا تزدد حبا وقوله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال عليه السلام قل الحق وان كان مرا وقوله عليه السلام استعينوا على حوائجكم بالكتمان وقوله

صلى

صلى الله عليه وسلم ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد وقوله عليه السلام لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وقوله اياك وما يعتذر منه وقوله عليه السلام عش ما شئت فانك ميت وأحبب ما شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به وقوله صلى الله عليه وسلم أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام وقوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم مطل الغني ظلم وقوله عليه السلام البر حسن الخلق وقوله عليه السلام القناعة مال لا ينفد وقوله عليه السلام من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله وقوله صلى الله عليه وسلم من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وقوله عليه السلام طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط أهل الفقه والحكمة وجانب أهل الشر والمعصية وقال عليه السلام لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وقال عليه السلام اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس من أهله فان أصبت أهله فهو أهله وان لم تصب أهله فانت من أهله وقال عليه السلام لا ايمان لمن لا أمانة له وقال عليه السلام اياكم والدين فانه هم بالليل ومذلة بالنهار وقال عليه السلام الوحدة خير من الجليس السوء وقال صلى الله عليه وسلم لا يمنعن أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق اذا علمه وقال عليه السلام لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك وقال عليه السلام لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقوله صلى الله عليه وسلم رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا وقال عليه السلام ان الله عند لسان كل قائل وقال عليه السلام ان المعونة تأتي العبد من الله تعالى على قدر المؤنة وان الصبر يأتي العبد على قدر المصيبة وقال عليه السلام ما مثلي ومثل الدنيا الا كراكب قال تحت شجرة ثم راح وتركها وقال عليه السلام ان الله نهاكم عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال وقال صلوات الله عليه ليس لك من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وقال عليه السلام ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وقال عليه السلام خير دينكم أيسره وخير العبادة أخفها وقال عليه السلام ان الله يحب الرفق في الامر كله وقال صلى الله عليه وسلم أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل وقال عليه السلام كفى بالمرء سعادة أن يوثق به في أمر دينه ودنياه وقال عليه السلام لا تزال هذه الامة بخير ما اذا قالت صدقت واذا حكمت عدلت واذا استرحمت رحمت وقال صلى الله عليه وسلم الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه وقال عليه السلام المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله * ومن حكمه صلى الله عليه وسلم قوله الموت غنيمة والمعصية مصيبة والفقر راحة والغنى عقوبة والعقل هدية من الله والجهل ضلالة والظلم ندامة والطاعة قرة العين والبكاء من خشية الله منجاة من النار والضحك هلاك البدن والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال عليه السلام في بعض خطبه والذي بعثني بالحق لئن أصبحتم وضعاء لتشرفن ولئن أصبحتم أذلاء لتعزن حتى تصيروا نجوما يهتدى بالواحد منكم والذي بعثني بالحق لتنمون نمو السحاب برق فأرعد فأمطر فأخرجت الارض زهرتها الزمان بهجتها تزودوا التقوى ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال عقبة بن عامر خرجنا مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم الى تبوك فلما نزلناها وأصبح عليه السلام بها جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقوى وخير الملل ملة ابراهيم عليه السلام وخير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم وأشرف الحديث ذكر الله وخير الامور عزائمها وشر الامور محدثاتها وأحسن الهدى هدى الانبياء وأشرف الموت قتل الشهداء وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى وخير العمل ما نفع وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى وما قل وكفى خير مما كثر وألهى وشر الندامة ندامة يوم القيامة ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب وخير الغنى غنى النفس ورأس الحكمة مخافة الله تعالى وخير ما ألقي في القلب اليقين والارتياب من الكفر والنياحة من عمل الجاهلية والغلول من جمر جهنم والشك في النار والخمر جماع الاثم والنساء حبائل الشيطان وشر الكسب كسب الربا وشر المأكل مأكل مال اليتيم والسعيد من وعظ بغيره والشقي من شقي في بطن أمه وانما يصير أحدكم الى أربعة أذرع وملاك الامور خواتمها وشر الرواية رواية الكذب وكل ما هو آت قريب سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه من معصية الله تعالى وحرمته كحرمة دمه ومن يتأل على الله يكذبه ومن يغفر يغفر الله له ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ومن يقرض الله يضاعف له ومن يعص الله يعذبه اللهم اغفر لامتي اللهم اغفر لامتي وروى عن مالك الجهني مثله وهذا من كلامه صلى الله عليه وسلم قليل من كثير وثماد من بحور فانه كان عليه السلام لا ينطق بكلام الا وتحت اللفظة منه حكم تروق معانيها وتفوق مبانيها ويشتاق السامع لها الناظر فيها التأييد الالهي ظاهر عليها والنور النبوي ساطع منها وقد قال عليه السلام أنا أفصح العرب وقال صلوات الله عليه أعطيت جوامع الكلم فصلى الله عليه عدد أنفاس الخلائق وعدد ما خلق في السبع الطرائق وما هو خالق وعلى أهل بيته الغر السوابق ما تبسم بارق وتنسم شائق وسلم تسليما كثيرا

﴿مولده صلى الله عليه وسلم﴾ ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول عام الفيل وقيل لليلتين خلتا منه بعد الفيل بثلاثين يوما وقيل انه أقام بعد البعثة بمكة عشرا وبالمدينة عشرا وقيل بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرا وقال ابن عباس رضي الله عنهما أقام بمكة خمسة عشر ولم يختلفوا في مدة مقامه بالمدينة والله أعلم

﴿أسماؤه صلى الله عليه وسلم﴾ ذكر العتبي أنه قال عليه السلام ان لي عند ربي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا رسول الرحمة وأنا رسول التوبة ورسول الملاحم والمقفي قفوت النبيين جميعا وأنا قثم والقثم الكامل الجامع وقيل انه كني بالقاسم لانه يقسم الجنة بين الخلق يوم القيامة وقيل ان كنيته في التوراة أبو الارامل واسمه صاحب الملحمة وقيل في التوراة اذا جاءت الامة الآخرة أتباع راكب البعير فاتبعوه وسئل صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا يا رسول الله قال وآدم بين الروح والجسد وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كنت أول الانبياء في الخلق وآخرهم في البعث وفضائله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى أو تحصر وأظهر من أن تحجب أو تستر وكان عليه السلام يقول أنا ابن الذبيحين يريد اسمعيل بن ابراهيم

صلوات

صلوات الله عليهم أجمعين ووالده عبد الله بن عبد المطلب ولم يكن لعبد الله ولد غيره صلى الله عليه وسلم فأما اسمعيل عليه السلام فقد نص الله عز وجل خبره فى كتابه العزيز وأما أمر عبد الله بن عبد المطلب فان عبد المطلب كان قد نذر ان ولد له عشر من الولد أن يذبح العاشر منهم فكان العاشر عبد الله فهم بذبحه ليوفى بنذره فزجر فقال انى نذرت ذلك فقال أخوال عبد الله انا لا نرضى بذلك وكانت أمه غير أمهات سائر بنيه وقالوا ما بال ابن أختنا يقتل دون غيره فقال لهم عبد المطلب انى نذرت العاشر فتنازعوا فى ذلك ثم اجتمعت آراؤهم واتفقت مذاهبهم أن يخرجوا الى الشأم ليسألوا الكهنة وأهل المعرفة فى ذلك فأشار عليهم العلماء وأهل المعرفة والكهان أن يقدم عبد المطلب قربانا و يضرب بالقداح بينه و بين عبد الله وهى القرعة فقدم عبد المطلب عشرة من الابل وضرب بالقداح بينه وبين عبد الله فخرجت على ابنه فما زال يزيد عشرة عشرة وهى تخرج على ابنه حتى بلغت المائة فخرجت على الابل فكبروا واستبشروا فنحرها عبد المطلب عند الكعبة فصارت من ذلك أصلا فى الديات لا يزاد عليها ولا ينقص منها فسمى عبد الله الذبيح ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ابن الذبيحين

﴿الاخبار الواردة بتصديق نبوته قبل مولده وقبل مبعثه صلى الله عليه وسلم﴾

خبر سيف بن ذى يزن بالحبشة وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئه وتمدحه وأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب ابن هاشم وأمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد فى عدد من وجوه قريش وأهل مكة فأتوه بصنعاء وهو فى قصر له يقال له غمدان فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه وهو متضمخ بالعبير يبص وبيص المسك من مفارقه وعليه بردان أخضران قد اتزر باحدهما وارتدى بالآخر وسيفه بين يديه وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك فاستأذن عبد المطلب فى الكلام وكان أجل القوم قدرا وأعظمهم خطرا وأعلاهم نسبا وأكرمهم حسبا ولم يكن سيف يعرفه فقال له ان كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك فقال عبد المطلب أيها الملك ان الله عز وجل قد أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وأنبتك نباتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم معدن وأطيب موطن وأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذى به تخصب وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى اليه يلجأ العباد سلفك خير سلف وأنت منهم خير خلف وان يخمل ذكر من أنت سلفه أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا اليك الذى أبهجنا بك فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة فقال وأيهم أنت أيها المتكلم قال أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف قال ابن اختنا قال نعم قال ادن فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومناخا سهلا وملكا ونحلا يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم لكم الكرامة ما أقمتم والحباء اذا ظعنتم قال ثم نهضوا الى دار الضيافة فأقاموا بها شهرا لا يصلون اليه وعليهم الجرايات والصلات ثم أرسل الى عبد المطلب وأخلى مجلسه وقربه وقال له يا عبد المطلب انى مفض عليك من سر علمى أمرا لا أبوح به لغيرك ولكنى وجدتك معدنه فأطلعتك طلعه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه فان الله بالغ

فيه أمره انى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه وخبأناه وحجبناه دون غيرنا خبرا جسيما وخطرا عظيما فيه شرف الحياة وفضل الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة قال أيها الملك مثلك سر وبر فما هو فداك أهل المدر والوفود زمرا بعد زمر قال اذا ولد بتهامة غلام به علامة كانت له الامامة ولكم به الزعامة الى يوم القيامة قال عبد المطلب أبيت اللعن لقد أبت منك بخبر ما آب به وافد قوم ولولا هيبة الملك لسألته أن يخبرني بافصاح فقد أوضح لي بعض الايضاح قال هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد صلى الله عليه وسلم بين كتفيه شامة يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد ولدناه مرارا والله باعثه جهارا وجاعل له منا أنصارا يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه يستبيح كرائم الارض ويضرب بهم الناس عن عرض يعبد الرحمن ويدحض الشيطان ويكسر الاوثان ويخمد النيران قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله قال فخر عبد المطلب ساجدا فقال له ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا كعبك فهل أحسست من عله شيأ قال نعم أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجبا فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة فجاءت بغلام سميته محمدا مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه بين كتفيه شامة وفيه كل ما ذكرت من علامة قال له والبيت ذى الحجب والعلامات ذى النصب انك يا عبد المطلب لجده غير الكذب وان الذى قلت لك لكما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فانهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا واطو ماذكرت لك عن هؤلاء الرهط الذين معك فانى لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لهم الرياسة فيبغون لك الغوائل وينصبون لك الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم ولولا أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أجيء يثرب دار مملكته وانى لأجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق والخبر الصادق أن يثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ولولا انى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأوطات اسنان العرب كعبه ولأعليت على صغر سنه ذكره لكني صارف ذلك اليك عن غير تقصير بمن معك ثم أمر لكل واحد منهم بمائة من الابل وعشرة أعبد وعشر اماء وعشرة ارطال ذهبا وعشرة أرطال فضة وكرش عنبر وأمر لعبد المطلب بعشر أمثال ما أمر لهم وقال له ائتنى بخبره وما يكون من أمره عند رأس الحول فما حال الحول حتى مات ابن ذى يزن فكان عبد المطلب يقول لاصحابه لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فانه الى نفاد لكن الغبطة بما يبقى لى ولعقبى شرفه وذكره وفخره فاذا قيل له وما ذاك يقول سيعلم ولو بعد حين وكان عبد المطلب اذا نام لا يدخل عليه أحد غيره وكان يفرش له فى ظل الكعبة فراش فيأتى زعماء قريش فيجلسون حول ذلك الفرش ينتظرون خروج عبد المطلب ويأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يرقى على الفراش فيجلس وهو صبى فيقول له أعمامه مهلا يا محمد عن فراش أبيك فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك دعوا ابنى انه ليؤتين ملكا عظيما وان ابنى ليحدث نفسه بذلك وكان قد فرش له فى الحجر يوما وكبراء قريش حرب بن أمية فمن دونه يجلسون دون ذلك الفرش فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام فجلس على الفرش فجذبه أحدهم فبكى فقال عبد

المطلب

المطلب مالابني يبكي قالوا أراد أن يجلس على الفرش فمنع فقال دعوا ابني يجلس عليه فانه يحس من نفسه شيأ وأرجو أن يبلغ من الشرف والرفعة مالم يبلغه عربي قبله ولا يبلغه بعده ومات عبد المطلب والنبي صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين قال نافع بن جبير سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتذكر موت عبد المطلب قال نعم وأنا ابن ثمان سنين فلما توفي عبد المطلب ضم أبوطالب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى نفسه فكان معه وكان يؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله وولده وقيل انه كان أبوطالب وعبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم لام واحدة دون سائر بني عبد المطلب وكان أبوطالب لا مال له الا قطعة من ابل وكان عياله اذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا فاذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا فكان أبوطالب حين عرف ذلك اذا حضر غداؤهم وعشاؤهم يقول لهم مهلا كما أنتم حتى يحضر ابني فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أكل معهم فضل من طعامهم وان كان لبنا تناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ثم يتناوله الغير فيشربون فيروون عن آخرهم من القعب الواحد * وذكر عبد الله بن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم في حجر أبي طالب بعد جده فيصبح ولده غمصا و يصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا صقيلا

﴿فصل﴾ وروى أن كعب بن لوى بن غالب كان يستشعر الامر التي تكون فيهم فاهمه ذلك ويرى أنها رياسة في الدين لتمسكهم بالكعبة وكانت أمورها كلها تختص بالديانة وكان يوم الجمعة في الجاهلية يسمى عروبة وكانت العرب تجتمع فيه الى كعب فسمي يوم الجمعة لاجتماعهم فيه اليه وكان يخطبهم عند اجتماعهم فيقول في بعض ما يخطب به الدار أمامكم والظن غير ما تظنون زينوا حرمكم وعظموه وتمسكوا به وقدسوه فان له نبأ عظيما وسيخرج منه نبي كريم ثم يقول

نهار وليل كل أوب بحادث * سواء علينا ليلها ونهارها
يؤوبان بالاحداث حين تأوبا * وبالنعم الضافي علينا ستورها
صروف وأنباء تقلب أهلها * لها عقد ما يستحيل مريرها
على غفلة يأتي النبي محمد * فيخبر أخبارا صدوقا خبيرها

وقال أوس بن حارثة عند وصيته لابنه مالك في بعض شعره الذي ختم به وصيته وقد تقدم ذكرها في هذا الكتاب ألا بلغ قومي أن لله دعوة * يفوز بها أهل السعادة والبر

اذا بعث المبعوث من آل غالب * بمكة فيما بين زمزم والحجر
هنالك فابغوا نصره ببلادكم * بني عامر ان السعادة في النصر

وقال عامر العدواني في وصيته لبنيه يا بني أدركت كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وكان شيخا مسنا عظيم القدر محجوبا وكانت العرب تحج اليه لفضله وعلمه فقال انه قد آن خروج نبي بمكة يدعى أحمد يدعو الى الله والى البر والى الاحسان والى مكارم الاخلاق فاتبعوه تزدادوا شرفا الى شرفكم وعزا الى عزكم ولا تبعدوا ما جاء به فهو الحق وكفى بهذه المقدمات الهاما وبما سبق منها فطنة واعلاما حتى أظهرها الله كمالا وانما ما لقد تحار فيها الاوهام وتذهل فيها الاذهان والافهام وتقف عندها العقول والاحكام جاءت بها الانبياء واتفقت وأشأمت

بها الاخبار وأعرقت وتحملتها النفوس حتى تحققت وتصورتها العقول حتى تصدقت فتمكنت بها الآمال وتعلقت ثم ساقها القدر فانتظمت واتسقت وكانت قريش فيما ذكرنا قرب أمد الاسلام كثر عددهم وعظم شأنهم وزاد أيدهم حتى دانت العرب بسبقهم وأذعنت الامم افضالهم ثم صدقت تلك المخيلة وظهرت تلك السريرة وانجلت تلك الظلماء عن أنور من شمس الظهيرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين ﴿سبب بناء الكعبة﴾ حكى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على أنه كان سبب وضع البيت فى الارض والطواف به ان الله تعالى قال للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون فغضب عليهم فعاذوا بالعرش فطافوا حوله سبعة أشواط يدعون ربهم و يسترضونه فرضى عنهم وقال لهم ابنوا لى بيتا فى الارض يعوذ به من سخطت عليهم من بنى آدم و يطوفون حوله كما فعلتم فارضى عنهم كما رضيت عنكم فبنوا له هذا البيت وهو قول الله عز وجل ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * واختلف فى ذلك أهل العلم فذهبت طائفة الى أنه كان قبله بيوت كثيرة فى الارض وقال مجاهد وقتادة لم يكن قبله بيت فى الارض وأكثر أهل العلم على هذا وقال وهب بن منبه ان أول ما تكاثف من الزبد الذى خلق الله منه الارض عند تلاطم موج الماء كان موضع البيت الحرام وقال وهب ان طوفان نوح عليه السلام لم يأخذ البيت ووقف الماء محيطا به والهواء عليه فلما وصلت اليه السفينة طافت به سبعا فقال نوح لمن كان معه فى السفينة انكم فى حج فاعتزلوا النساء قال الله عز وجل فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا فالآية فى مقام ابراهيم عليه السلام أثر قدميه فى الحجر الصلد والآيات فى غير البيت ماخص الله عز وجل به البيت من التكريم والتعظيم وأمن الخائف وامتناع الطير من العلو عليه وهيبته عند مشاهدته وتعجيل العقوبة لمن عتا فيه وما أظهر الله تعالى من الآية فى أصحاب الفيل عنده وما أوقع الله عز وجل فى قلوب العرب من التبرك به والأمن من الجبابرة لمن دخله ولاذ به وهم غير أهل كتاب ولا يدينون بشرع حتى ان الرجل ليرى فيه قاتل أبيه وأخيه فلا يطلبه ولا يعترضه وهذا برهان عظيم وانقياد وضعه الله فى قلوب العباد وأما دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة حلالا فقال عليه السلام أحلت لى ساعة من النهار ولم تحل لاحد قبلى ولا تحل لاحد بعدى وقيل ان رسم البيت عفا بعد الطوفان فاول من تولى بناءه ابراهيم عليه السلام وهو قول الله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم فدل دعاؤهما على أنهما كانا مأمورين والله أعلم وتملكها بعد ابراهيم عليه السلام جرهم والعمالقة حتى انقرضوا وفى ذلك يقول عامر بن الحرث

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فازالنا * صروف الليالى والجدود العواثر

ثم خلفهم فيها قريش لما أراد الله تعالى أن يظهر فيهم من النبوة فكان أول من جدد بناءها قصى بن كلاب ثم بنته قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن خمس وعشرين سنة وشهد بناءها وبقيت الى أن تحصن فيها ابن الزبير حين حاربه الحصين بن نمير فى زمن يزيد بن معاوية فاخذ

رجل

رجل من أصحابه نارا على رأس رمح في لفة والريح عاصفة فتعلقت باستار الكعبة فتصدعت حيطانها واسودت وتناثرت أحجارها فلما مات يزيد وانقشعت تلك الحال شاور عبد الله ابن الزبير الصحابة في هدمها وبنائها فاختلفوا في ذلك فقال ابن الزبير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو كانت لنا سعة لبنيته على أس ابراهيم الخليل ثم سأل الاسود هل سمع من عائشة رضي الله عنها شيأ في ذلك قال نعم وساق الحديث الذي سمع منها فهدمها وبناها وبقيت الى أن بناها الحجاج بامر عبد الملك بن مروان * وذكر الزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير وجد في الحجر صفائح حجارة خضر مطبقة على قبر فقال عبد الله بن صفوان هذا قبر اسمعيل عليه السلام فكف عن تلك الحجارة ولم يحركها ﴿خبر زيد بن نفيل﴾ روى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان ينكر ما كانت عليه الجاهلية من الشرك بالله ويرى انهم على ضلال فخرج يلتمس الدين فاتى أحبار يثرب فوجدهم يعبدون الله ويشركون به فقال ما هذا بالذي أبتغي فقال له حبر من أحبار الشام انك لتسأل عن دين لا يدان به اليوم ما نعلم أحدا يعبد الله وحده الا شيخا بالجزيرة فخرج فقدم عليه وأخبره بالذي خرج اليه فقال له ان كل من رأيت في ضلال فمن أنت قال انا من أهل بيت الله الحرام قال فانه قد خرج في بلدك أو يخرج نبي كريم وقد طلع نجمه فارجع فصدقه واتبعه وآمن به فرجع * (فصل) * وعن أسماء بنت أبي بكر قالت رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسند ظهره الى الكعبة يقول يا معشر قريش ما منكم أحد اليوم على دين ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان يحيي الموؤدة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها ادفعها الي وأنا أكفلها وأ كفيك مؤنتها فاذا شبت قال له ان شئت فخذها وان شئت فدعها وسئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين ابن مريم عيسى عليه السلام * (فصل) * وروى عن عامر بن ربيعة قال قال لي زيد بن عمرو بن نفيل أنا أنتظر نبيا من ولد اسمعيل عليه السلام من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وانا أومن به وأصدقه وأشهد انه نبي فان طالت بك يا عامر مدة ورأيته فاقرئه مني السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت هلم قال هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولا بقليله لا تفارق عينيه حمرة بين كتفيه خاتم النبوة واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيها يظهر أمره واياك ان تخدع عنه فاني طفت البلاد كلها أطلب دين ابراهيم عليه السلام فكل من سألت من اليهود والنصارى والمجوس وجميع الطوائف يقولون لي هذا الدين وراءك وينعتونه لي مثل نعتي لك ويقولون لم يبق نبي غيره قال عامر فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول زيد بن عمرو بن نفيل واقرأته منه السلام فرد عليه صلى الله عليه وسلم السلام وترحم عليه وقال قد رأيته في الجنة يسحب أذياله (خبر سطيح) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال خلق الله سطيحا الغساني لحما على وضم وكان يحمل على وضمه فيؤتى به حيث شاء ولم يكن فيه عظم ولا عصب الا الجمجمة والعنق والكفين يطوى من رجليه كما يطوى الثوب ولم يكن فيه شئ يتحرك سوى لسانه فلما أتى به الى مكة تلقاه أربعة نفر من قريش عبد مناف وعبد شمس ابنا قصي والاحوص بن فهر وعقيل بن أبي وقاص فانتموا الى غير نسبهم وقالوا نحن أناس من جمح

اليمن لما بلغنا قد ومك ورأيناه حقا واحيا علينا وساق عقيل صفيحة هندية وصعدة
ردينية على سبيل الهدية فوضعتا على باب البيت الحرام لينظروا هل يعلم ذلك سطيح أم لا فقال
لعقيل ناولني يدك فناوله يده فقال يا عقيل وعالم الخفية وغافر الخطية والذمة الوفية والكعبة
المبنية انك الجائي بالهدية الصفيحة الهندية والصعدة الردينية قالوا صدقت يا سطيح ثم قال
والآتي بالفرح وقوس قزح والنخل والرطب والبلح ان الغراب الموشح أخبر ان القوم
ليسوا من جح وان نسبهم في قريش ذي البطح قالوا صدقت يا سطيح فاخبرنا بما يكون في زماننا
وما بعده ان يكن عندك بذلك علم قال الآن صدقتم خذوا مني ومن آلهام الله اياي أنتم يا معشر
العرب سواء بصائركم وبصائر العجم لا علم عندكم ولا فهم لينشأن من عقبكم قوم يطلبون
أنواع العلم يكسرون الاصنام ويبلغون الردم يقتلون العجم ويطلبون المغنم قالوا يا سطيح
فمن يكون أولئك قال والبيت والاركان والامن والسكان لينشأن من عقبكم ولدان
يكسرون الاوثان ويوحدون الرحمن ويتركون عبادة الشيطان ويتمون دين الديان يشرفون
البنيان ويشنفون الآذان قالوا فمن نسل من يكون أولئك قال وأشرف الاشراف ومحصي
الاصناف ومزعزع الاحقاف ومضعف الاضعاف لينشأن آلاف من عبد شمس وعبد
مناف نشوأ يكون فيه اختلاف قالوا يا سوأتاه فما تخبرنا به من أي بلد يخرج قال والباقي الابد
والبالغ الامد ليخرجن من هذا البلد نبي مهتد يهدي الى الرشد يرفض يعوق والفند يبرأ
من عبادة العدد ويعبد ربا انفرد ثم يتوفاه الله محمودا ومن الارض مفقودا وفي السماء مشهودا
ثم يلي أمره الصديق اذا قال صدق وفي الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلي أمره الحنيف مجرب
غطريف لا يترك قول الرجل الثقيف قد أضاف المضيف وأحكم التحنيف ثم يلي أمره داعيا
لامره مجربا فيجمع الناس جموعا وعصبا فيقتلونه نقمة عليه وغضبا ثم يلي بعده الناصر
يخلط الرأي بأمر ناكر يظهر في الارض العساكر ثم يلي من بعده ملوك لا شك ان الدم فيهم
مسفوك * (فصل) * وأخبر مخزوم بن هانئ المخزومي عن ابيه وأتت عليه مائة وخمسون سنة
قال لما كان ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتج ايوان كسرى وسقطت منه أربع
عشرة شرفة وخمدت نار فارس وكانت لم تخمد ألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان في
النوم ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فلما أصبح كسرى أفزعه
ما جرى وصبر عليه تشجعا ثم رأى ان لا يدخر ذلك عن وزرائه ومرازبته حين عيل صبره
فجمعهم ولبس تاجه وقعد على سريره وقال لهم أتدرون فيم جمعتكم قالوا لا الا أن يخبرنا به الملك
فبينما هم كذلك اذ ورد عليهم كتاب بخمود النار فازدادوا غما ثم أخبرهم بما عرض في ايوانه
فقال له الموبذان وأنا أصلح الله الملك رأيت في منامي الليلة رؤيا ثم قصها عليه فقال له أي شيء
يكون هذا يا موبذان وكان أعلم القوم قال حادث يكون في ناحية العرب فكتب كسرى الى
النعمان بن المنذر أما بعد فوجه الينا رجلا عالما بما أريد ان أسأله عنه قال فارسل اليه بعبد
المسيح بن عمرو بن حيان الغساني فلما قدم عليه قال ألك علم بما أريد ان أسألك عنه قال يخبرني
الملك فان كان عندي علم أخبرته والا دللته على من يعلمه فاخبره بما رأى فقال له علم ذلك عند خالي
رجل يقال له سطيح يسكن مشارف الشام قال فاذهب فاسأله وائتني بما عنده فذهب عبد

المسيح

المسيح حتى قدم على سطيح وقد أشفى على الضريح فسلم عليه وحياه فلم يجبه فانشأ عبد المسيح
يقول

أصم أم يسمع غطريف اليمن * يا فاصل الخطة أعيت من ومن
وكاشف الكربة عن وجه الغضن * أتاك شيخ الحي من آل سنن
أزرق ضخم الناب صرار الاذن * أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول عظيم العجم يسري للوسن * لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
يجوب في الارض علنداة شجن * ترفعني حينا وتهوي في وجن
حتى أتى عاري الجآجي والعطن * تلفه في الريح وعثاء الدمن

ففتح سطيح عينيه ثم قال عبد المسيح على جمل مشيح أتى الى سطيح وقد أوفى على الضريح بعثه ملك ساسان لارتجاج الايوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان يا عبد المسيح اذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة وفاض وادي سماوة وغاضت بحيرة ساوة فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه قال فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال سطيح فقال الى أن يملك منا أربعة عشر ملكا قد كانت أمور فملك منهم عشرة في أربع سنين وملك الباقون الى أيام عثمان بن عفان * (خبر ربيعة بن نصر) * روى ان ربيعة بن نصر اللخمي رأى رؤيا هالته وأفظع بها فبعث الى الحزاة من أهل مملكته ولم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا عرافا ولا منجما الا دعاه ثم قال رأيت رؤيا هالتني وأفظعتني فاخبروني بها وبتأويلها فقالوا له اقصصها علينا فقال انه لا يعرف تأويلها الا من يعرفها قبل ان أخبره بها فقال له رجل من القوم فليبعث الملك الى سطيح وشق فان عندهما علم ما سأل عنه فبعث اليهما فجاء سطيح قبل شق فقال له يا سطيح اني رأيت رؤيا هالتني فاخبرني بها فانك ان أصبتها أصبت تأويلها فقال رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بارض تهمه فأكلت منها كل ذات جمجمة فقال له ما أخطأت منها شيأ فما عندك في تأويلها قال أحلف بما بين الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش فيملكن ما بين أبين الى جرش فقال وأبيك يا سطيح ان هذا لنا لغائظ موجع فهل يكون ذلك في زماني قال لا بل بعده بحين أكثر من الستين والسبعين قال فيدوم ذلك أم ينقطع قال بل ينقطع بعد بضع من السنين يقتلون بها أجمعين أو يخرجون منها هاربين فقال ومن يلي ذلك منهم قال ارم ذي يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك منهم أحدا باليمن قال فيدوم ذلك أم ينقطع قال بل ينقطع قال ومن يقطعه قال نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي قال وممن هذا النبي قال من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك فيهم وفي قومهم الى آخر الدهر قال وهل للدهر من آخر يا سطيح قال نعم والشفق والغسق والفلق والقمر اذا اتسق ان ما أنبأتك به لحق قال فلما فرغ منه ورد عليه شق فدعاه ولم يعلمه بخبر سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان ثم قال له مثل ما قال سطيح فقال له شق رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت في أرض تهمه فأكلت منها كل ذات نسمة فرآهما قد اتفقا قال له ما أخطأت منها شيأ يا شق فما عندك في تأويلها قال أحلف بما بين حرتيها من الشنان لينزلن بارضكم السودان وليغلبن كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين الى نجران قال له وأبيك يا شق ان هذا لنا لغائظ موجع ثم سأله سؤاله لسطيح فقال في جميع ذلك

ماقاله سطيح وان اختلفا فى اللفظ قليلا فلم يختلفا فى المعنى مثل ماقالا فى الجمجمة والقسمة قال فمن ينقطع ذلك ياشق قال نبى مرسل يأتى بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل يكون الملك فى قومه الى يوم الفصل قال ومايوم الفصل قال يوم يجزى فيه الولاة يدعى فيه من فى السموات دعوات تسمع الاحياء والاموات ويجمع الناس الى الميقات يكون فيه لمن اتقى الفوز بالخيرات قال أحق ماتقول ياشق قال اى ورب السموات والارض ومابينهما من رفع وخفض فى الطول والعرض ان ماأنبأتك به لحق كائن وما أنا فيه بذى ولا مائن

(نكاحه خديجة صلى الله عليه وسلم)

أخبرت نفيسة بنت منية قالت لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له اسم بمكة الا الامين لما تكامل فيه من خصال الخير وخلال البر قال له عمه أبو طالب يا ابن أخى قد اشتد الزمان علينا وألحت سنون منكرة ولا مال لى وليست لنا مادة ولا تجارة وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا يتجرون لها فى مالها و يصيبون منافع لو عرضت نفسك عليها لأسرعت اليك وفضلتك على غيرك لما قد علم من طهارتك وخيرك على أنى أكره ان تأتى الشام لانى أخاف عليك من اليهود ولكن لا نجد من ذلك بدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن ترسل الينا فى ذلك فقال أبو طالب أخاف ان تسبق الى ذلك فتطلب أمرا مدبرا و بلغت هذه المحاورة خديجة رضى الله عنها وقبل كان يبلغها من صدقه وأمانته فقالت ماعلمت أنه يريد هذا ثم أرسلت اليه تقول أنا أعطيه وأضعف له مالا أعطى رجلا من قومه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالب وذكر له الامر فقال له ان هذا الرزق ساقه الله اليك ففعلت وخرج مع غلامها ميسرة وجعل عمومته يوصون عليه أهل العير فلما قدم بصرى من الشام نزل فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا فاطلع الراهب الى ميسرة وكان يعرفه فقال ياميسرة من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة قال هو من قريش من أهل الحرم فقال الراهب مانزل أحد قط تحت هذه الشجرة فيما نعلم نحن وعندنا أنه لا ينزل تحتها الا نبى ثم سأله هل فى عينيه حمرة قال ميسرة نعم لا يفارقها قال الراهب هو هو وهو آخر الانبياء عليهم السلام فياليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج فانا أشهد أنه النبى الامى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وقال لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة الا النبى الامى الهاشمى صاحب قول لا اله الا الله وحده لا شريك له فوعى ميسرة ذلك كله ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع واشترى فوقع بينه و بين رجل اختلاف فى سلعة فقال له الرجل احلف باللات والعزى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماحلفت بهما قط فنظر اليه الرجل وكان عنده علم وقال له القول قولك ثم خلا الرجل بميسرة وقال له هذا والله نبى والذى نفسى بيده لتجده أحبارنا بصفته منعوتا فى الكتب فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير وكان ميسرة يرى اذا كانت الهاجرة واشتد الحر غمامة تظل النبى صلى الله عليه وسلم من حر الشمس ثم دخل عليه السلام مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى علية لها مع نساء فيهن نفيسة بنت منية وكانت كثيرة الاختصاص بها فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة راكبا على بعيره والغمامة تظله فأرته نساءها فعجبن لذلك فلما ان دخل

ميسرة أخبرته بما رأت فاخبرها بقول الراهب وبقول الرجل الذى خالفه فى البيع وانه كان يرى الغمامة تظله منذ خرج الى الشام وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارته فتضاعف فيها الربح ببركته فضعفت له ما كانت سمت له * وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى الجاهلية فى المسجد الحرام فاجتمعوا فيه ذلك العيد فجاء يهودى وقال يامعشر نساء قريش انه يبعث فيكن نبى فايتكن استطاعت أن تكون له أرضا يطؤها فلتفعل قال فحصبنه وطردنه ووقر ذلك القول فى نفس خديجة فلما استقر عندها ذلك كله وكانت حازمة شريفة وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا مع ما أراد الله بها من الخير والكرامة قالت نفيسة فارسلتنى اليه دسيسا لاعرف ما عنده فقلت له يامحمد ما يمنعك أن تتزوج قال ما بيدى ما أتزوج به قالت أبعد أن دعيت الى الجلال والشرف والمال لا تجيب قال بلى فمن هى قالت خديجة بنت خويلد قال وكيف لى بذلك قالت على ذلك قال فافعلى فذهبت فاخبرت خديجة فارسلت اليه أن ائت فى وقت كذا ثم أرسلت الى عمها عمرو بن هند تعلمه بالامر ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقت المحدود فى عمومته وحضر عمها عمرو بن هند وهنالك خطب أبو طالب خطبة قريبة المأخذ حسنة المقصد مليحة الايجاز فقال الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسمعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلى فتزوجها وتم النكاح بينهما فقال عمرو عند ذلك هذا الفحل لا يقدع أنفه ثم دخل بها فولدت له القاسم والطاهر والطيب وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهم ولم يتزوج عليها حتى ماتت صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها * ثم تزوج سودة بنت زمعة قبل عائشة ولم يتزوج بكرا غير عائشة رضى الله عن جميعهن وجميع ولده من خديجة الا ابراهيم فانه كان من مارية القبطية

(نبوته صلى الله عليه وسلم) عن ابن عباس قال أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة وعن أنس بن مالك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة وهو قول الله عز وجل حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال بعث النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وقال أنس بن مالك استنبئ صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه ويوم أنزل على فيه النبوة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم صلى الله عليه وسلم أول ليلة من رمضان وأنزل الانجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان وأنزل القرآن لاربع وعشرين ليلة خلون من شهر رمضان وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت أول مابدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة الصحيحة فكان عليه السلام لا يرى رؤيا الاجاءت كفلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه أى يتعبد وكان يتزود لليلة ثم يرجع الى خديجة ثم يتزود لمثلها ثم جاءه الملك

فى غار حراء ثم فتر عنه فترة ثم بينما هو يمشى اذ سمع صوتا من قبل السماء قال فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والارض فجثيت فرقا منه فجئت أهلى فقلت زملونى زملونى فانزل الله عز وجل عليه يا أيها المدثر قم فانذر قال ثم حمى الوحى وتتابع وكان صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة لا يمر بحجر ولا شجر الا يسلم عليه فيلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا الحجر والشجر وكانت تقول السلام عليك يارسول الله وفى ذلك يقول ورقة بن نوفل وكان ابن عم خديجة حين سألته فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بدء نبوته فقال لها ورقة لئن كنت صدقتينى ياخديجة انه لنبى هذه الامة وان الذى يأتيه هو الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام وأنشد

يالرجال بصرف الدهر والقدر * وما الشئ قضاه الله من غير
حتى خديجة تدعونى لاخبرها * ومالها بخفى الامر من خبر
جاءت تسائلنى عنه لاخبرها * أمرا عظيما سيأتى الناس من أخر
فخبرتنى بأمر قد سمعت به * فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بأن أحمد يأتيه فيخبره * جبريل أنك مبعوث الى البشر
فقلت علّ الذى ترجين ينجزه * لك الاله فرجى الخير وانتظرى
وأرسليه الينا كى نسائله * عن أمره ما يرى فى النوم والسهر
فقال حين أتانا معلنا عجبا * تقف منه أعالى الجلد والشعر
انى رأيت أمين الله واجهنى * فى صورة أكملت من أحسن الصور
ثم استمر فكاد الخوف يذعرنى * مما يسلم من حولى من الشجر
فقلت ظنى وما أدرى أيصدقنى * أن سوف تبعث تتلو منزل السور
وسوف أبليك ان أعلنت دعوته * نصرا عزيزا بلا منّ ولا كدر

وقال أيضا ورقة بن نوفل فى سؤال خديجة رضى الله عنها وأرضاها

فان يك حقا ياخديجة فاعلمى * حديثك ايانا فاحمد مرسل
وجبريل يأتيه من الله معلما * يقارنه وحى من الله منزل
فسبحان من تهوى الرياح بامره * ومن هو فى الاشياء ماشاء يفعل
ومن عرشه فوق السموات كلها * وأحكامه فى الخلق لا تتبدل

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ الامر به وأظهر الله كرامته يخبر خديجة بما يسمع ومايرى وترى عليه الرعب والعرق والاستكانة فتقول أبشر فوالله لا يفعل الله بك الا خيرا فانك تصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل وتؤدى الامانة وتعين على نوائب الحق ﴿فصل﴾ وروى أن خديجة لقيت غلاما نصرانيا كان لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى اسمه عداس فقالت له ياعداس ماتقول أذكرك الله ونصرانيتك هل عندك من علم بجبريل صلى الله عليه وسلم فلما سمع عداس بذكر جبريل قال قدوس قدوس وماشأن جبريل يذكر بهذه الارض قالت أحب أن تخبرنى بعلمك فيه قال هو أمين الله ووسيلته بينه وبين نبيه موسى عليه السلام وهو صاحب عيسى صلوات الله عليه فخرجت من عنده وأتت

ورقة

ورقة بن نوفل وكان قد كره عبادة الاوثان هو وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قدمنا ذكره وكانا يلتمسان العلم والدين حتى وصلا الى الشام فسألا اليهود فعرضوا عليهما دين النصرانية فكرهاه ثم سألا رهبان النصرانية فقبله ورقة وكرهه زيد فقال له قائم من الرهبان انك تلتمس دينا ليس يوجد اليوم في الارض وهو دين ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم قال لما كان دينه قال كان حنيفا مسلما فقال زيد حين نعته له الراهب أنا على دين ابراهيم وأنا أسجد تلقاء هذه الكعبة التي بناها ابراهيم وقيل انه توفي زيد وبقي ورقة بعده سنين والله أعلم وفيه يقول

رشدت وأنعمت ابن عمرو وانما * تجنبت تنورا من النار حاميا
عبدت الها ليس رب كمثله * وخليت جنان الجبال كما هيا

وقال عروة بن الزبير لما وصفت خديجة لورقة بن نوفل شأن محمد صلى الله عليه وسلم قال لها والله يا ابنة أخي ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل والله لئن كان وأدركته وأنا حي لأبلين في نصرته وحسن موازرته فذر الممات ورقة قبل ذلك والله أعلم وروى هشام بن عروة عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا ورقة فاني رأيت له جنة أو قال جنتين وفي رواية أخرى رأيته يخضخض في أنهار الجنة ﴿فصل﴾ وروى أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن عم أتقدر اذا جاءك هذا الذي يأتيك أن تخبرني به قال نعم فأتاه ذات يوم جبريل عليه السلام وهو عندها فقال يا خديجة هذا صاحبي قد جاء قالت له قم فاجلس على فخذي فجلس فقالت له هل تراه قال نعم قالت له اجلس على فخذي فجلس فقالت له هل تراه قال قال نعم وقيل أدخلته بينها وبين درعها وقالت له هل تراه قال نعم فحسرت رأسها وطرحت عنه خمارها ثم قالت له هل تراه قال لا فقالت هذا والله ملك كريم والله ما هذا بشيطان فأبشر يا محمد واقبل كرامة الله عز وجل * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت حراء ثم نزلت فلما استبطنت الوادي نوديت فالتفت فلم أر أحدا فرفعت طرفي الى السماء فاذا جبريل على عرش في الهواء أو على كرسي بين السماء والارض أو قال صلى الله عليه وسلم رأيت جبريل عليه السلام واقفا على السدرة له ستمائة جناح ما بين المشرق والمغرب وقالت عائشة رضي الله عنها لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاحزاب دخل علي فجلس وجبة ثم وثب وخرج فخرجت وراءه فرأيت أعرابيا يكلمه فلما دخل قلت يا رسول الله من الاعرابي الذي كنت تكلمه قال أورأيته يا عائشة قلت نعم قال ذلك جبريل صلى الله عليه وسلم أمرني بالخروج الى قريظة ومما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما جبريل عليه السلام جالس عندي اذ انقض ملك من السماء فقلت من هذا يا جبريل قال هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف يا محمد * وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود البشر وكان أجود ما يكون في رمضان عند قرب عهده بجبريل عليه السلام فانه كان يدارسه القرآن في رمضان في كل عام مرة فلما كان العام الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضه بالقرآن مرتين وعن عائشة رضي الله عنها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه فقال لفاطمة ان جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة وانه عارضني به العام مرتين ولا

أرى أجلى الا قد حضر ﴿فصل﴾ وروى عن أبي هريرة قال لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح كل صنم منكبا فأتت الشياطين ابليس فقالت له ما على وجه الارض من صنم الا وقد أصبح منكبا قال هذا نبي قد بعث فالتمسوه في قرى الارياف فالتمسوه فقالوا لم نجده قال ابليس أنا صاحبه فخرج يلتمس فنودي عليك بجنبة القلب يعني مكة فالتمسه بها فوجده عند قرن الثعالب فخرج الى الشياطين فقال قد وجدته ومعه جبريل صلى الله عليه وسلم * وروى لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما منكم أحد الا وكل به قرينه من الجن والانس قيل له واياك يارسول الله قال واياى الا أن الله تعالى قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمر الا بخير قيل معنى أسلم أي آمن فيكون صلى الله عليه وسلم مخصوصا بهذه الفضيلة وقيل معنى قوله أسلم أي استسلم وانقاد فلم يأمر بشيء وقيل أسلم برفع الميم أي أسلم أنا من شره والله أعلم قال نافع بن جبير كانت الشياطين في الفترة تستمع فلا ترمى فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رميت بالشهب فرأت قريش أمرا لم تكن تعرفه فظنت أنها الفناء فجعلوا يسيبون أنعامهم و يعتقون أرقاءهم فبلغ ذلك أهل الطائف ففعلوا مثل ذلك الى أن بلغ ذلك عبد ياليل بن عمرو وقال وما فعلتم قالوا رمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء فقال ان افادة المال بعد ذهابه لشديد فلا تعجلوا وانظروا فان كانت نجوما تعرف فهو عند فناء من الناس وان كانت لا تعرف فهو حدث فأخبروه أنها لا تعرف فقال الامر فيه مهلة وهذا انما هو عند ظهور نبي فما مكثوا الا يسيرا حتى قدم أبو سفيان فذاكره عبد ياليل أمر النجوم فقال أبو سفيان ظهر محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي مرسل * وعن ابن عباس أن الشياطين كانوا يصعدون الى السماء فيستمعون الكلمة من الوحي فيهبطون بها الى الارض فيزيدون معها تسعا فيحدثون بها أهل الارض الكلمة الواحدة حق والتسع باطل فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فمنعوا تلك المقاعد وهو قول الله عز وجل وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا

﴿ذكر هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أرض الحبشة﴾

قال محمد بن عمر الواقدي خرج المهاجرون الاولون الى أرض الحبشة سنة خمس من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن لقوا من المشركين شدة وأذى كثيرا وكان أول من خرج مهاجرا في الاسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يكن بين لوط النبي عليه السلام و بين عثمان بن عفان رضي الله عنه مهاجر ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه من البلاء والجهد وما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى وما أتاح له من حماية عمه أبي طالب قال لاصحابه لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا فخرج أصحابه رضي الله عنهم مخافة الفتنة وفرارا الى الله عز وجل بدينهم فكانت أول هجرة في الاسلام وكانوا أحد عشر رجلا وامرأتين كانت احداهما رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج عثمان بن عفان والثانية سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فلما وصل القوم الى أرض الحبشة واطمأنوا بها وعلم ذلك كفار قريش بعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة الى النجاشي

ملك

ملك الحبشة وبعثوا معهما هدايا كثيرة اليه والى بطارقته فخرجا حتى قدما عليه فلم يبق بطريق
من بطارقته الا قدما اليه هدية وسألوه أن يكلم الملك فيسلم اليهم أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم قبل أن يكلمهم و يسمع منهم ثم قربوا اليه هداياهم فقبلها ثم قالوا له أيها الملك
ان قومنا بعثونا اليك في فتيان منهم خرجوا الى بلادك فارقوا أديان قومهم ولم يدخلوا في دينك
وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم أشرافهم وكبار قومهم وعظماء
عشائرهم لتردهم اليهم فهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم فقال بطارقته صدقوا أيها
الملك قومهم أعلى بهم عينا قال فغضب النجاشي ثم قال لاها الله لا أسلم قوما جاؤني ونزلوا بلادي
واختاروني على من سواي حتى أدعوهم وأسائلهم فان كانوا كما قالا أسلمتهم اليهما وان كانوا
على غير ذلك منعت عنهم وأحسنت جوارهم ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعاهم فاجتمعوا وقال بعضهم لبعض ما تقولون لهذا الرجل قالوا نقول والله ما نعلم وما قال لنا
نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما كان فأتوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم
حوله وقال لهم ماذا الذي فارقتم قومكم عليه ولم تدخلوا في ديني ولا في شيء من هذه الملل فكان
الذي كلمه منهم جعفر بن أبي طالب فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل
الحرام ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على
ذلك حتى بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى توحيد الله ونعبده
ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من الاوثان والحجارة وأمرنا بصدق الحديث وصلة الرحم وأداء الامانة
وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش والزور وأكل مال اليتيم وقذف
المحصنات وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وأن نعبد الله ولا نشرك به شيئا فصدقناه وآمنا به
واتبعنا ما جاء به فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا وظلمونا وشقوا علينا فخرجنا الى
بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك فقال له
النجاشي هل عندك مما جاء به عن الله من شيء فقال جعفر نعم فقرأ عليه صدرا من سورة
كهيعص فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ثم قال ان هذا
والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا والله لا أسلمهم اليكما فلما
خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم فقال له عبد
الله بن أبي ربيعة وما هو قال والله لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عليه السلام عبد قال ثم
عاد عليه في الغد فقال له أيها الملك انهم يقولون في عيسى قولا عظيما فأرسل اليهم فسألهم عما
يقولون فيه فقال بعضهم لبعض ما تقولون في عيسى اذا سألكم عنه قالوا نقول والله فيه ما قاله
الله عز وجل وما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا في ذلك ما يكون ثم دخلوا عليه فقال لهم
ما تقولون في عيسى بن مريم فقال له جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا صلى الله
عليه وسلم هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول قال فضرب
النجاشي يده الى الارض وأخذ منها عودا وقال وما عدا عيسى بن مريم قولك هذا العود
فتناخرت بطارقته فقال وان نخرتم ثم قال لجعفر وأصحابه اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي أي آمنون
ردوا عليهما هداياهما ما أحب أن لي دبر ذهب واني آذيت واحدا منهم والدبر هو الجبل بلغة

الحبشة فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فاطيعهم فيه فخرجا من عنده خاسئين خاسرين ﴿فصل﴾ أما قوله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ولا أطاع الناس فى فاطيعهم فيه وذلك لان أباه كان ملك الحبشة ولم يكن له ولد الا النجاشى وكان لوالد النجاشى أخ من صلبه اثنا عشر رجلا وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة فقالت الحبشة لو أنا قتلنا والد النجاشى اذ ليس له غير هذا الغلام وملكنا أخاه فان له من البنين ما يتوارثون ملكه بقى ملك الحبشة دهرا فعملوا ذلك وملكوا أخاه وبقى النجاشى مع عمه وكان لبيبا حازما فغلب على أمر عمه فلما رأى الحبشة مكانه قالت انا نخاف أن يملكه علينا فيقتلنا أجمعين بأبيه فمشوا الى عمه وقالوا اما أن تقتل هذا الغلام واما أن تخرجه عنا فانا قد خفناه على أنفسنا بما فعلنا فى أبيه قال ويلكم قد قتلتم أباه بالامس وأقتله أنا اليوم لا كان ذلك بل أخرجوه فخرجوا به الى السوق فباعوه لبعض التجار بستمائة درهم وخرج به التاجر فلما كان عشى ذلك اليوم هاجت سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فاصابته صاعقة فقتلته فقامت الحبشة ببنيه فلم يجدوا فى واحد منهم خيرا فلما رأوا ذلك قالوا والله ما لكم الا الذى أخرجتموه فما ملك الحبشة الا هؤلاء القوم وان كان فى غيرهم لم يؤمن عليه الفساد وان كان لكم به حاجة فادركوه فخرجوا فى طلب التاجر الذى اشتراه حتى أدركوه فى بعض الطريق فاخذوه منه وجاؤا به وأقعدوه على سريره وعقدوا التاج على رأسه وملكوه أمرهم ثم أقبل التاجر وقال لهم ردوا على مالى والا كلمته فابوا عليه فاتاه التاجر وقال له أيها الملك ابتعت غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم وأسلمتها لهم وأسلموا الى غلامى ثم أدركونى ببعض الطريق وأخذوه منى ومنعونى دراهمى فقال لهم النجاشى لتعطنه دراهمه أو ليسلمن اليه غلامه يذهب به حيث شاء فاعطوه ماله فذلك قوله ما أخذ منى الرشوة حين رد على ملكى ﴿فصل﴾ ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن أميه الضمرى الى النجاشى فى شأن جعفر وأصحابه وكتب معه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى أصحمة ملك الحبشة سلام الله فانى أحمد الله اليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصان فحملت به كما خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وان تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت اليك ابن عمى أوصى بمن معه من المسلمين فاذا جاؤك فأقرهم فانى أدعوك وجنودك الى الله وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى فراجعه النجاشى رضى الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النجاشى أصحمة بن أبجر سلام يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذى لا اله الا هو هدانى الى الاسلام أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله وما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والارض انه لكما قلت وقد عرفنا قدر ما بعثت به الينا وقربنا ابن عمك وأصحابه وأنا أشهد انك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعناك بما بايعنا ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ثم قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اثنى عشر رجلا فكان يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه نكفيك يا رسول الله قال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين ثم تلا عليهم القرآن فبكوا وكانوا قسيسين ورهبانا فانزل الله

عزوجل فيهم واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق وروى عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم نعى لهم النجاشي في اليوم الذي مات فيه وهو بارضه وقال استغفروا الاخيكم وان النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه هو وأصحابه وصفهم في المصلى وكبر عليه أربعا وروى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت مازال يرى على قبر النجاشي نور

(خبر قس بن ساعدة الايادي)

وجدت أخبار قس بن ساعدة على روايات فيها نقص وزيادات فاثبت منها ما وجدته أتم وصفا وأحسن رصفا وبالله التوفيق * روى الحسن بن أبي الحسن البصري باسناده قال كان الجارود ابن المعلى بن حنش بن يعلى العبدي رجلا نصرانيا حسن المعرفة بما جاء في الكتب وتأويلها عالما بسير العرب وأقاويلها بصيرا بالطب كامل الادب بارع الجمال ذا ثروة ومال كثير النوال قال فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدا في رجال من عبد القيس ذوي ألباب ولسانة فلما وصل اليه وتمثل بين يديه أشار بيده اليه وجعل يقول

يانبي الهدى أتاك رجال * قطعوا فدفدا وآلا فآلا * وطووا نحوك الضحاضح طرا لا تعد الكلال فيك كلالا * كل دهماء قصر الطرف عنها * أرقلتها قلاصنا ارقالا وطوتها العتاق تجمح فيها * بكماة كأنجم تتلالا * تبتغي دفع بأس يوم عصيب هائل أوجع القلوب وهالا * ومزادا لمحشر وفراقا * واجتنابا لمن تمادى ضلالا نحو نور من الاله برهان * وبر ونعمة لن تنالا * خصك الله يا ابن آمنة الخير بخير أتى سجالا سجالا * فاجعل الحظ منك ياحجة الله جزيلا لاحظ حلف أحالا

قال فادناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب مجلسه وقال له يا جارود لقد تأخرت لوعدك ولقومك قال فداك أبي وأمي يارسول الله أما من تأخر عنك فقد فاته حظه منك وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة وما كنت ممن سمعك فعداك واتبع سواك وكنت على دين علمت به قبل جيئتك ها أنا أتركه لدينك أفذلك مما يمحص الذنوب والاثم والحوب ويرضي الرب عن المربوب قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ضامن ذلك أخلص الآن بالوحدانية ودع عنك دين النصرانية فقال الجارود مد يدك يارسول الله أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله قال فاسلم لوقته وأسلم من كان معه من قومه فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وأظهر من كرامته ماسروا به وابتهجوا ثم أقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم أفيكم من يعرف قس ابن ساعدة الايادي فقال الجارود كلنا نعرفه واني من بينهم لعالم بخبره وواقف على أثره كان قس بن ساعدة يارسول الله سبطا من أسباط العرب عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البوادي والقفار يضج بالتسبيح على منهاج المسيح لا يقره قرار ولا يكنه دار ولا يستمتع به جار يلبس الامساح ويفري السباح لا يفتر من رهبانية يتحسى بيض النعام ويأنس بالهوام ويستمتع بالظلام يبصر فيعتبر ويفكر فيختبر فصار لذلك واحدا تضرب بحكمته الامثال وتكشف بموعظته الاحوال أدرك رأس الحواريين سمعان وقس أول من تأله من العرب ووحد وأقر وتعبد وأيقن بالبعث والحساب وحذر من سوء المآب وخوف الدهر وجدد الله وروعظم الامر وجانب الكفر وشوق الى الحنيفية ودعا الى الالوهية وهو القائل شرق وغرب وسلم وحرب

ويابس ورطب وأجاج وعذب وشموس وقمار ورياح وأمطار وليل ونهار وأيام وشهور وبر وبحور وإناث وذكور وحب ونبات وآباء وأمهات وجميع وأشتات وآيات في أثرها آيات ونور وظلام وكثير واعدام ورب وأصنام لقد ضل الأنام ونشوء مولود ورزء مفقود ونبات محضود وفقير وغني ومحسن ومسي تبا لارباب الغفلة ليصحن غامل عمله أوليفقدن أمله كلا بل هو الله واحد ليس بمولود ولا بوالد أعاد ما أبدى وأمات وأحيي وخلق الذكر والأنثى رب الآخرة والأولى أما بعد يا معشر اياد فأين ثمود وعاد أين الآباء والاجداد وأين العليل والعواد كل له ميعاد أقسم قس برب العباد وساطح المهاد لتحشرن على انفراد ليوم الميعاد اذا نفخ في الصور ونقر في الناقور وأشرقت الأرض بالنور وقد وعظ الواعظ وانتبه اليقظ وأبصر اللاحظ فويل لمن صدف عن الحق الأشهر وكذب بالحشر والنور الأزهر والعرض الأكبر يوم الفصل وميزان العدل اذا حكم القدير وشهد النذير وظهر التقصير ففريق في الجنة وفريق في السعير ثم أنشأ يقول

عاود القلب من هواه ادكار * وليال خلالهن نهار * وسجال هواطل من غمام جرى ماء وفي ذراهن نار * وقصور مشيدة حوت الخير وأخرى خوت فهن قفار ونجوم تلوح في ظلمة الليل نراها في كل يوم تدار * ثم شمس وتحتها قمر الليل وكل متابع مرار * وجبال رواسي شامخات * وبحار مياها هن غزار وصغير وأشمط ورضيع * كلهم في الصعيد يوما يزار * وكثير مما يقصر عنه خاطر حدسه الذي لا يحار * فالذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما نسيت من شئ فلا أنساه بسوق عكاظ على جمل أحمر يخطب الناس وهو يقول أيها الناس اجتمعوا واسمعوا فاذا سمعتم فعوا واذا وعيتم فانتفعوا فاذا انتفعتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت مطر ونبات وأحياء وأموات ان في السماء لخبرا وان في الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تفور ومنايا دوان ودهر خوان كحز النطاس ووزن القسطاس أقسم قس قسما حقا لا كذب فيه ولا اثم لئن كان في هذا الامر رضا ليكونن فيه سخط ثم قال أيها الناس ان لله دينا أحب الي من دينكم الذي أنتم عليه وهذا زمانه واوانه ثم قال مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ثم التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أيكم يروين شعره فقال أبو بكر رضي الله عنه أنا يا رسول الله شاهدله في ذلك اليوم حيث يقول

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر * لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * يمضي الاكابر والاصاغر * لا يرجع الماضي الي * ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا * لة حيث صار القوم صائر

(فصل) قيل انه لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا وفد عبد القيس أفيكم من يزيدنا في ايمان قس بن ساعدة الايادي شيأ فقام رجل منهم طويل القامة كبير الهامة قد كبر حتى سقط حاجباه على عينيه وقال يا رسول الله اني رأيت من قس عجبا

عجبا قال وما الذى رأيت يا اخا العرب قال خرجت فى جاهليتى أرب بعيرا شرد منى فبينا أنا أجوب السباسب وأقطع الفدافد وقد مضى من الليل الثلث فغلبتنى عيناى فاذا بهاتف يقول

يا راقدا فى هضبة الاراك * اخدر سبيل الغى والاشراك * وارحل الى يثرب بالضناك
وخل عنك سملق الركاك * اتت رسول الملك الفكاك * محمدا يجلو عمى الشكاك
ويكسر الاصنام بالدراك * تنجو من الهفوة والهلاك

فاستيقظت والهام رعو يا فقلت واللات والعزى ان هذا الامر عجيب قد حدث أبعث نبى بتهامه فى ساعة القيامة ثم غلبتنى عيناى ثانية فاذا به يهتف ويقول مسمعا

وسنان أم تسمع ما ينبيكا * ارحل هديت مبتعدا ميكا * تفرى قتام الآل والدكوكا
حتى تهل مهلا سلوكا * يثرب تحظى به نسوكا * اتت رسولا عبد المليكا
يدنى اليه الحر والمملوكا * ويقبل السوقة والملوكا * نبى صدق يفرج الشكوكا

فاستيقظت والهام رعو با وأجبته

يا أيها الهاتف والليل سجم * ماذا الذى تدعو اليه وتلم * بين لنا عن صدق ما أنت زعم
هل بعث الله نبيا مغتنم * يجلو عمايات الضلال والبهم * من بعد عيسى فى غيابات الظلم
ينجى من الزيغ ويهدى من عزم

فسمعت قائلا يقول ألا انه قد ظهر نور وبطل زور وابتعث نبى بالسرور ثم لم أسمع بذكر فبينما أنا أفكر فى صوته وما سمعت من قوله اذ طلع على عمود الصبح فالتمست بعيرى فاذا به فى أصل دوحة يهش من ورقها ويهشم من أغصانها فدنوت منه وزممته وجعلت أتقحم به واديا بعد واد حتى أتيت واديا يقال له سمعان فاذا بعين خوارة وروضة مدهامة فيها شجرة عظيمة واذا بقس بن ساعدة الايادى تحت الشجرة وبيده قضيب ينكت به فى الارض وهو يقول

يا ناعى الموت والملحود فى جدث * أما تراهم بقايا بزهم خرق
ذرهم فان لهم يوما يصاح بهم * حتى اذا انتبهوا من نومهم فرقوا
منهم عراة وموتى فى ثيابهم * قوم حيارى من الاجداث قد صعقوا

قال فذعرت منه ووقفت متعجبا مفكرا فى حسن كلامه وأنسه بوحشة ذلك الموضع واذا بسباع كثيرة قد تبادرت الماء وفيهم سبع عظيم يريد سبقها على ورد الماء فوثب اليه قس بالقضيب وقال تنح حتى يشرب الذى ورد قبلك فاشتد ذعرى فالتفت الى كأنه قد علم حالى ثم قال ادن يا أخا العرب لا رعب عليك قال فدنوت منه وجعلت أكلمه ويكلمنى وأناشده ويناشدنى اذا التفت عن يمينى فاذا بقبرين بينهما مسجد فقلت له ما هذان القبران قال هما قبرا اخوين لى كانا يعبدان الله فى هذا الموضع فها أنا مقيم بينهما أعبد الله حتى الحق بهما فقلت له ألا تلحق بقومك فتكون معهم فى خيرهم وتباينهم فى شرهم فقال ثكلتك أمك الا تعلم أن ولدا سمعيل تركت دين أبيها واتبعت الاضداد وعظمت الانداد ثم أقبل على القبرين يبكى ويقول

خليلى هبا طالما قد رقدتما * أجدكما لا تقضيان كراكما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما * كأن الذى يسقى العقار سقاكما

فان كنتما لا تسمعان فما الذى * خليلى عن سمع الدعاء عداكما
أجيبا فلا أنفك أبكى عليكما * وأرثيكما حتى يجيب نداكما
ألم تسمعا أنى بسمعان مفرد * ومالى به لى من خليل سواكما
مقيم على قبر يكما لست بارحا * طوال الليالى أو يجيب صداكما
فلو جعلت نفس لنفس فداءها * لجدت بنفسى أن تكون فداكما

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله قيسا ان الله يبعثه أمة وحده كما عبد الله وحده

(خبر أكثم بن صيفى)

كان أكثم بن صيفى من حكماء العرب وخطبائها وفصحائها وعلمائها وعاش ثلاثمائة سنة وستين سنة وكانت العرب تقف عند حكمه وحكمه ولا تعدل به أحدا فلما سمع برسول الله صلى الله عليه وسلم كتب اليه باسمك اللهم من العبد الى العبد أما بعد فأبلغنا ما بلغك فقد أتانا عنك خبر لا ندرى ما أصله فان كنت أريت فأرنا وان كنت علمت فعلمنا وأشركنا فى خبرك والسلام فقيل انه بعث الكتاب مع ابنه وقيل انه أراد أن يأتيه فمنعه قومه وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد تجاوزت فى السن ونخشى عليك فى الطريق قال فمن يبلغه عنى فبعث اليه رجلين من قومه فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله الى أكثم بن صيفى سلام الله أحمد الله اليك ان الله يأمرنى أن أقول لا اله الا الله وحده لا شريك له وآمر الناس بقولها والخلق خلق الله والامر أمر الله وكله الى الله والله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم واليه المصير آدبتكم باداب المرسلين لتسئلن عن النبإ العظيم ولتعلمن نبأه بعد حين ثم تلا على رسله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون فقالوا اردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه وانصرفوا الى أكثم بن صيفى فقال ما رأيتم منه قالوا رأيناه يأمر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها وانا سألناه عن نسبه فأبى أن يرفع نسبه فسألنا عنه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر وقد رمى الينا كلاما حفظناه ونصوه على أكثم فلما سمعه جمع بنى تميم وقال لهم ان رسلى قد وردوا من عند هذا الرجل وقد شافهوه فوجدوه يأمر بمكارم الاخلاق وينهى عن ملائمها يدعو الى أن يعبد الله وحده لا شريك له وقد تلا كتابه عوالى الحق والى طريق مستقيم وقد علم ذو الرأى والفصل ان الخير والفضل فيما يدعو اليه فكونوا معشر تميم فى أمره أولا ولا تكونوا فيه آخرا واتبعوه تشرفوا وتكونوا اسنام العرب واتوه طائعين قبل أن تأتوه كارهين فانى أرى والله أمرا ليس بالهوينا ولا يترك مصعدا الاصعده ولا مضربا الاضربه ولينفرن بالمقيم ان الذى يدعو اليه لو لم يكن دينا لكان فى العقل حسنا فكيف وهو الحق وانى والله أرى أمرا لا يتبعه ذليل الا عز ولا يتركه عزيز الا ذل اتبعوه معشر تميم تزدادوا العز كم عزا ثم لم يلبث أن حضرته الوفاة

(فصل) قال أبو هريرة اجتمع قوم من خثعم عند صنم لهم وكانوا يتحاكمون الى أصنامهم فقيل لابى هريرة أكنت تفعل ذلك يا أباهريرة قال قد كان والله فعلته وأكثرت منه والحمد لله الذى أنقذنى بمحمد صلى الله عليه وسلم قال أبو هريرة فالقوم مجتمعون عند صنمهم يختصمون اليه اذ سمعوا هاتفا يقول

يا أيها

يا أيها الناس ذووا الاحلام * ومسندوا الحكم الى الاصنام
وكلكم أراه كالهمام * ألا ترون ما أرى أمامى
من ساطع يجلو دجى الظلام * قد لاح للناظر من تهامى
حتى بدا للناظر الشآمى * ذاك نبى سيد الانام
من هاشم فى ذروة السنام * مستعلن بالبلد الحرام
جاء يهد الكفر بالاسلام * أكرمه الرحمن من امام

قال أبو هريرة فامسكوا ساعة حتى حفظوا ما سمعوا ثم تفرقوا فلم تمض بهم ثالثة حتى جاءهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة * (فصل) * وروى عن رجل من جهينة أنه قال خرجت حاجا فى الجاهلية فى جماعة من قومى فنمت فرأيت نورا ساطع فى الكعبة حتى أضاء الى نخل يثرب وأشعر جبل جهينة فانتهت فسمعت صوتا يقول انقشعت الظلماء وسطع الضياء و بعث خاتم الانبياء ثم نمت مرة ثانية فأضاء اضاءة أخرى حتى نظرت الى قصر الحيرة والى أبيض المدائن وسمعت صوتا يقول أقبل حق فسطع ودمغ باطل فانقمع فانتبهت فزعا مرعوبا وقلت لقومى والله ليحدثن بمكة حدث فى هذا الحى من قريش وأخبرتهم بما رأيت وسمعت فلما انصرفنا الى بلادنا جاءنا من أخبرنا أن رجلا من قريش اسمه أحمد بعث نبيا فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلمت على يديه وأنشأت أقول

شهدت بان الله حق وانني * لآلهة الا حجار أول تارك
وشمرت عن ساقى الازار مهاجرا * اليك أجوب الوعث بعد الدكادك
لانك خير الناس نفسا ومولدا * رسول مليك الناس فوق الحبائك

* (فصل) * وروى أبو الاشعث أحمد بن المقدام باسناده ان قريشا سمعت فى الليل هاتفا يقول على جبل أبى قبيس

فان يسلم السعدان يصبح محمد * بمكة لا يخشى خلاف مخالف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان من السعدان سعد بكر أم سعد تميم أم سعد ذهل فلما كان فى الليلة الثانية سمعوه يقول

فيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا * و يا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا الى داعى الهدى وتمنيا * على الله بالفردوس منية عارف
فان ثواب الله للطالب الهدى * جنان من الفردوس ذات رفارف

فقال أبو سفيان هما والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة * (فصل) وروى أن العباس بن مرداس كان فى لقاح له نصف النهار اذ طلعت نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بيض فقال له ياعباس بن مرداس ألم تر أن السماء كفت أحراسها وان الحرب جرعت أنفاسها وأن الخيل وضعت أحلاسها وان الذى نزل بالبر يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة قال فراعنى ما رأيت وسمعت وخرجت مرعوبا حتى جئت وثنا لنا يسمى الضمار كنا نعبده ونكلم من جوفه فكنست ما حوله ثم تمسحت وقبلته فاذا صائح يصيح من جوفه ويقول

قل للقبائل من سليم كلها * هلك الضمار وفاز أهل المسجد

هلك الفجار وكان بعبد مرة * قبل الصلاة على النبي محمد
ان الذي ورث النبوة والهدى * بعد ابن مريم من قريش مهتدي

قال فخرجت مرعوبا حتى جئت قومي فقصصت عليهم القصة وأخبرتهم بما رأيت وما سمعت ثم خرجت في ثلاثمائة من قومي حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلت عليه المسجد فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم ثم قال لي أي عباس كيف كان اسلامك قال فقصصت عليه الخبر من أوله الى آخره قال صدقت يا عباس وسر به وأبهجه

﴿خبر أويس القرني﴾

روى أنه سال رجل عبد الله بن عباس عن أويس القرني فقال وبحك له شأن عظيم وهو سيد التابعين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاصحابه يكون في أمتي رجل يقال له أويس القرني يدخل في شفاعته عدد ربيعة ومضر لو أقسم على الله لأبر قسمه فمن لقيه بعدي فليقرئه مني السلام قال فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله أفينا من يلقاه قال نعم تلقاه أنت وعمر بن الخطاب فاذا لقيتماه فاقرئاه مني السلام وسلاه أن يستغفر لكما فقال على يا رسول الله وما علامته قال هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين وقد كان به بياض فدعا الله عز وجل فاذهبه عنه الا مقدار الدينار أو الدرهم لا يؤبه به متزر بازار صوف مرتد برداء صوف مجهول في الارض معروف في السماء قال ابن عباس فلما كان زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم علينا أهل الكوفة فقال لهم هل تعرفون رجلا من اليمن يقال له أويس القرني فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين غير أنه رجل نسخر منه وأهل الكوفة يهزؤن به فتنفس عمر الصعداء وقال وبحك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا خبره وقص عليهم ما قال عليه السلام ثم قال عمر واشوقاه الى النظر اليه قال فسكت الكوفيون وأخفوا ذلك في نفوسهم فلما رجعوا الى الكوفة نظروا الى أويس بغير العين التي كانوا ينظرون بها اليه وجعلوا يسألونه أن يستغفر الله لهم فقال لهم يا قوم قد كنتم قبل اليوم تسخرون مني وتهزؤن بي فما الذي بدا لكم فاخبروه بما أخبرهم به عمر رضي الله عنه فقال لهم أستغفر لكم وأنشدكم الله أن لا تسخروا بي ولا تذكروا ما قال لكم عمر رضي الله عنه لاحد قالوا لك ذلك ثم غاب ولم ير بالكوفة وجعل عمر يسأل عنه الناس عشر سنين فلم يسمع له خبر حتى كان آخر حجة حجها عمر فسال عنه كما كان يسأل عنه فوثب اليه رجل وقال يا أمير المؤمنين انك قد أكثرت السؤال عن أويس وما فينا أحد اسمه أويس الا ابن أخ لي وأنا عمه غير أنه أخمل ذكرا قال فسكت عمر رضي الله عنه وظن أنه ليس الذي يريده ثم قال له يا شيخ وأين ابن أخيك قال هذا هو معنا بالحرم غير أنه في أراك مكة يرعى ابلا لنا قال فاستوى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما على حمارين لهما وسارا الى أراك مكة وجعلا يتخللان الشجر فاذا هما بأويس في طمرين من صوف أبيض قد صف قدميه قائما يصلي وقد رمى ببصره الى موضع سجوده وألقى يديه على صدره فقال عمر لعلي رضي الله عنهما ان كان فهذا هو وهذه صفته ثم نزلا وشدا حماريهما الى أراكة فلما سمع أويس حسهما أوجز في صلاته فتقدما اليه وسلما عليه فقال وعليكما السلام ورحمة الله تعالى وبركاته فقال له عمر من أنت يرحمك الله قال راعي ابل وأجير قوم قالا

لا

لا نسألك عن الرعاية ولا عن الاجارة فما أسمك قال عبد الله قالوا قد عرفنا أن أهل السموات والارض كلهم عبيد الله فما أسمك الذى سمتك به أمك قال ياهذان ماتريدان قالا وصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفناك بصفتك فبكى أويس بكاء شديدا وقال لهم عسى ان يكون ذلك غيرى فقالا له أخبرنا عليه السلام ان تحت منكبك الايسر لمعة بيضاء فاوضحها لنا فأوضح منكبه فاذا اللمعة تحته فابتدرا اليه وجعلا يقبلانه وسألاه أن يستغفر لهما فقال ماأخص باستغفارى نفسي ولا أحدا من ولد آدم ولكنه فى البر والبحر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ياهذان من أنتما قال على هذا عمر أمير المؤمنين وأنا على بن أبى طالب فقال جزاكما الله عن هذه الامة خيرا وبدا منه الفرح والاستبشار فقالا له وأنت جزاك الله عن نفسك خيرا ثم قال له عمر مكانك رحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة وفضل كسوة من ثيابى قال يا أمير المؤمنين لا ميعاد بينى وبينك ولا أعرفك ولا تعرفنى بعد اليوم وما أصنع بالنفقة والكسوة أماترى على ازارا من صوف ورداء من صوف متى ترانى أخرقهما أماترى نعلى مخصوفين متى ترانى أبليهما وقد أخرت من رعايتى أربعة دراهم فمتى ترانى أنفقهما يا أمير المؤمنين ان بين يدى عقبة لا يقطعها الا كل مخف فاخف يرحمك الله فلما سمع عمر كلامه ضرب بيديه الى الارض ونادى باعلى صوته ألا ليت عمر لم تلده أمه ليتها عاقر لم تعالج حمله وولى عمر وعلى رضى الله عنهما نحو مكة وساق أويس الابل لاصحابها وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل ﴿فصل﴾ وفيما ذكر ان الربيع بن خيثم كان يطلبه فاصابه على شاطىء الفرات قائما يصلى قال فقلت فى نفسي ينصرف من صلاته فاقوم اليه وأكلمه فلما صلى بسط كفيه داعيا الى الله عز وجل فلم يقبضهما الى وقت العصر ثم قام فصلى وبسطهما فلم يقبضهما الى وقت المغرب ثم قام فصلى ووصل صلاته فلم يزل راكعا وساجدا الى الصبح فاذن وأقام وصلى ثم بسط يديه الى أن طلعت الشمس قال الربيع فدنوت منه وقلت يرحمك الله لقد أتعبت نفسك قال انى أريد راحتها غدا فقلت يا أخى من أين لك المطعم والمشرب قال ان ربى تكفل لى بذلك فلا تعد الى مثل هذا الكلام ثم غاب عنى فلم أره بعد ﴿فصل﴾ وقيل انه لقيه هرم بن حيان وكان يطلبه فقيل له ان مأواه على شاطىء الفرات قال فسرت اليه فاذا به يغسل ثوبه قال فعرفته بالصفة والنعت الذى نعت لى فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام فقلت له حياك الله يا أويس قال وأنت فحياك الله ياهرم بن حيان من دلك على موضعى هذا فقلت الذى دلك على اسمى واسم أبى ولم أرك ولا رأيتنى فقال أويس سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا اذا أخبرك ياهرم بن حيان عرف روحى روحك حين كلمت نفسي نفسك فان المؤمنين يتعارفون بنور الله تعالى وان لم يلتقوا قال هرم فسألته أن يحدثنى حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظه عنه فقال انى لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لى صحبة فاحدث عنه ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب ولى عن ذلك شغل يا ابن حيان قال قلت فاتل على من كتاب الله عز وجل أسمعه منك قال نعم يقول الله وهو أصدق القائلين وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين الى قوله تعالى انه هو العزيز الرحيم قال هرم ثم أقبل يوصينى ويذكرنى ثم رفع طرفه الى السماء وقال اللهم ان هذا يزعم أنه يحبنى فيك وقد زارنى من أجلك فاجمع بينى وبينه فى دارك واجعلنا

في جوارك وأرضه من هذه الدنيا الفانية باليسير واجعله لا نعمك من الشاكرين ولآلائك من الحامدين ثم قال استودعتك الله يا هرم وأقرأ عليك السلام وإياك ان تطلبني بعد هذا اليوم ولكن يا أخي اذكرني بقلبك وادع لي فاني أذكرك بقلبي وأدعو لك أن شاء الله تعالى

﴿فصل﴾ في بعض مآثر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرهانه * روى عن أنس بن مالك انه قال جاءت الاعراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا والله يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يغط ولا صبي يصرخ وقام اليه بعضهم فانشأ يقول

أتيناك والعذراء تدمى لثاتها * وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الكبير استكانة * من الجوع ضعفا ما يمر وما يحلى
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامي والعاهر الفسل
وليس لنا الا اليك فرارنا * وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم رفع يديه الى السماء فقال اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا سحا سجالا غدقا طبقا عاجلا غير آجل نافعا غير ضار تملأ به الضرع وتنبت به الزرع وتحيي به الأرض بعد موتها قال فوالله ما رد يديه الى نحره حتى ألقت السماء بأرواقها وأقبل أهل البطاح يصيحون الغرق الغرق فرفع يديه الى السماء وقال اللهم حوالينا ولا علينا فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالاكليل فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال لله در أبي طالب لو كان حيا قرت عيناه من ينشدنا قوله فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يا رسول الله عساك تريد قوله

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتم وبيت الله نسلم أحمدا * ولما نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا علي ثم قام رجل من بني كنانة فقال

لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبي المطر
دعا الله خالقه دعوة * وأرجى وأشخص منه البصر
فما كان الا أن القى الردا * وأسرع حتى رأينا الدرر
دهاق العزالى كثير الفهاق * أغاث به الله عليا مضر
وكان كما قاله عمه * أبو طالب أبيضا ذاغرر
بذاك سقى الله صوب الغمام * فهذا العيان لذاك الخبر
فمن يشكر الله يلق المزيد * ومن يكفر الله يلق الغير

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكن شاعر يحسن فقد أحسنت ﴿فصل﴾ وروى أيضا عن أنس بن مالك أنه قال مرض أبو طالب فعاده النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخي ادع ربك الذي تعبده أن يعافيني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشف عمي فقام كأنما أنشط من عقال فقال أبو طالب يا ابن أخي ان ربك الذي تعبده ليطيعك قال وأنت يا عماه لئن

لئن أطعت الله ليطيعنك ومما قال فيه أبو طالب

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر * فعبد مناف سرها وصميمها
وان حصلت أشراف عبد منافها * ففي هاشم أشرافها وقديمها
ولئن فخرت يوما فان محمدا * هو المصطفى من سرها وكريمها

ومما قيل فيه .

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

وقال أبو طالب أيضا في قصيدته التي برز فيها بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وعاهد ذلك بحرم مكة ومشاعرها ومعاهدها ومواطنها أن لا يسلمه ولا يخذله وهذه القصيدة زهاء تسعين بيتا أثبت منها ما فيه ذكره وقد تقدم بعضها حيث يقول

أشم من الشم البهاليل ينتمي * الى حسب في حومة المجد فاضل
لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد * وعترته ذات الحيا المواصل
فلا زال في الدنيا جمالا لاهلها * وزينا لمن ولاه رب الشمائل
فمن مثله في الناس يا ابن مؤمل * اذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش * يوالي الها ليس عنه بغافل
فأيده رب السماء بنصره * وأظهر دينا حقه غير باطل

ولما حضرت الوفاة أبا طالب جمع وجوه قريش ليوصيهم فلما اجتمعوا اليه قال لهم يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب وأنتم حزب الله في أرضه وأهل حرمه منكم السيد المطاع الطويل الذراع وفيكم المقدم الشجاع الواسع الباع لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا الا أحرزتموه ولا شرفا الا أدركتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم الب واني أوصيكم بوصايا فاحفظوها وأقول لكم قولا فعوه عني أوصيكم بتعظيم هذا البيت فان فيه مرضاة للرب وقواما للمعاش وثباتا للوطأة صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فان في صلة الرحم منسأة للاجل وزيادة في العدد واتركوا العقوق والبغي ففيهما هلكت القرون من قبلكم أجيبوا الداعي وأعطوا السائل فان فيهما شرف الحياة والممات عليكم بصدق الحديث واداء الامانة فان فيهما نفيا للتهمة وجلالة في الاعين أقلوا الخلاف على الناس وتفضلوا عليهم بالمعروف فان في ذلك محبة في الخاص ومكرمة في العام واني أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين في قريش والصديق في العرب وهو جامع لكل ما وصيتكم به وقد جاءكم بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وايم الله لكأني أنظر الى صعاليك العرب وأهل البر في الاطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤس قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده قد أمحضته العرب ودادها وأصفت له بلادها وأعطته قيادها فدونكم يا معشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة أقسم بالله لا يسلك أحد سبيله الا رشد ولا يأخذ بهديه الا سعد ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيته الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي وهذه وصيتي اليكم والله المستعان وقال فيه عليه السلام عثمان بن مظعون هذه الابيات

ولا أرب يا ابن المغيرة في الذي * تقول ولكني باحمد واثق
رسول عظيم الشأن يتلو كتابه * له كل من يبغي التلاوة وامق
محب عليه كل يوم طلاوة * فان قال قولا فالذي قال صادق
فيا رب اني مؤمن بمحمد * وجبريل اذ جبريل بالوحي طارق
ومانزل الرحمن من كل آية * لها كل قلب حين تذكر خافق
من الخوف فيما ينظر الله خلقه * اذا صد عن آيات ذي العرش مائق
يرى الناس ضلالا وقد ضل سعيه * وبالخير مغبون وبالشر سابق

ولله قول أبي أنس الدوسي وهو أصدق بيت قالته العرب

وماحملت من ناقة فوق رحلها * أبر وأوفى ذمة من محمد

﴿ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم﴾ قال محمد بن قيس اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة احدى عشرة من الهجرة في بيت زينب بنت جحش واجتمع اليه نساؤه كلهن رضي الله عنهن ثلاثة عشر يوما وتوفي رسول الله يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة وكان يقول في مرضه صلى الله عليه وسلم أين انا غدا أين أنا غدا احرصا على بيت عائشة رضي الله عنها وقيل انه بعث اسماء بنت عميس الى نسائه أن يحللنه ان يكون في بيت عائشة فاذن له فكان عندها الى أن مات صلى الله عليه وسلم * وعن أنس بن مالك قال آخر وصية أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال الصلاة الصلاة مرتين وماملكت أيمانكم وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل مرضه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما حضرته الوفاة تراءى له ذلك وكان رأسه على فخذي فغشي عليه ثم أفاق وشخص ببصره الى السماء ثم قال اللهم الرفيق الاعلى قالت فقلت اذا لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذي كان يحدثنا به وكانت آخر كلمة تكلم بها وكانت عائشة رضي الله عنها تقول قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري وفي مقالة أخرى بين حاقنتي وذاقنتي وفيما روي أنه توفي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين عند الزوال غرة ربيع الاول ودفن يوم الاربعاء في موضع فراشه في بيت عائشة رضي الله عنها وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية لم يكن فيها قميص ولا عمامة وغسل في قميصه غسله علي بن أبي طالب ثلاثا بماء وسدر وكان يقول أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يغسله أحد غيري وقال انه لا يرى أحد عورتي الا طمست عيناه فكان العباس وأسامة يتناولان الماء وراء الستر قال علي رضي الله عنه فما تناولت منه عضوا وأردت قلبه الا انقلب كأنما يقلبه معي الرجال فلما فرغت من غسله وكفنته وضع حيث توفي فصلى الناس عليه يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الاربعاء وكانت صلاة الناس عليه صلى الله عليه وسلم من غير امام وصلى عليه النساء والصبيان وخرج مالك في موطئه أنه دفن يوم الثلاثاء صلى الله عليه وسلم * وعن ابن مسعود قال دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا الفراق وهو في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها فلما نظر الينا دمعت عيناه ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله أوصيكم بتقوى الله العظيم وأوصي بكم الله اني لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل

والمنقلب

والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة المأوى فاقرؤا أنفسكم مني ومن دخل في دينكم بعدي من اخواننا السلام وفيما روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت بينما رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبي اذ مال برأسه نحو رأسي وخرجت من فيه نطيفة باردة وقعت على نحري فاقشعر لها جلدي وظننت أنه غشي عليه فسجيته ثوبا واستأذن عمر بن الخطاب والمغيرة بن شعبة فجذبت الحجاب وأذنت لهما فنظر اليه عمر وقال واغشياه ما أشد ماغشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرجنا فقال المغيرة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر كذبت مامات ولا يموت حتى يفني الله عز وجل به المنافقين وأخذ بقائم سيفه وقال لا أسمع أحدا يقول مات رسول الله الا ضربته بسيفي هذا ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه فاتاه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال وانبياه ثم رفع رأسه ثم حدره فقبل جبهته ثم قال واصفياه ثم رفع رأسه ثم حدره فقبل جبهته ثم قال واخليلاه ثم خرج الى المسجد وعمر رضي الله عنهما يكلم الناس فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه ثم قال أيها الناس ان الله عز وجل يقول وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل الى آخر الآية ثم قال قال تعالى انك ميت وانهم ميتون أيها الناس من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات قال عمر رضي الله عنه فكأني والله لم أقرأ هذه الآيات * وعن عكرمة عن ابن عباس أن عمر قال له يا ابن عباس أتدري ما حملني على مقالتي قلت لا قال حملني على ذلك اني كنت أقرأ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا فوالله ان كنت لأظن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى في أمته حتى يشهد علينا بآخر أعمالنا فهو الذي دعاني الى ماقلت ثم قال الناس ياصاحب رسول الله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مات قالوا ياصاحب رسول الله من يغسله قال رجال بيته الادنى فالادنى قالوا فأين تدفنونه قال في البقعة التي قبضه الله فيها فلم يقبضه الا في أحب البقاع اليه ثم قال للناس ان الله عز وجل أعز محمدا صلى الله عليه وسلم حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله وبلغ رسالة الله وجاهد في سبيل الله وقد تركتم على الطريقة الواضحة والمنهاج القيوم فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وان الله ناصر من نصر دينه وان كتاب الله بين أظهركم وهو الشفاء والنور وبه هدى الله نبينا صلى الله عليه وسلم ان سيوف الله لمسلولة ماوضعناها بعد وانا مجاهدون من خالفنا كما جاهدهم نبينا صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا وانصرف معه المهاجرون الى مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل النساء وجعلت أم أسامة بنت زيد تبكي فقال لها أبو بكر ما يبكيك ياأم أيمن وكانت كنيتها اقد أكرم الله رسول الله صلى الله عليه وسلم واراحه من نصب الدنيا فقالت ابكي على خبر السماء الذي كان يأتينا كل يوم وكأنه وقد رفع ذلك عنا فعجب الناس من حسن كلامها وقيل انه لما وضع على السرير للصلاة عليه دخل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومعهما نفر من المهاجرين والانصار قدر مايسع البيت فقال أبو بكر وعمر وهما حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته فقال الحاضرون مثل ماقالا ثم قالا نشهد أن قد بلغ ما أنزل الله ونصح لامته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته وآمن به وحده لا شريك له اللهم اجعلنا من الذين يتبعون النور الذي أنزل معه واجمع بيننا وبينه حتى

تعرفنا به وتعرفه بنا فانه كان بالمؤمنين رحيما لا يبغي بالايمان بدلا ولا يشتري به ثمنا قليلا فيقول الناس مثل ما قالوا ثم تدخل طائفة أخرى فيقولون مثل ما قالوا حتى صلى الرجال والنساء والصبيان ونزل معه في قبره صلى الله عليه وسلم العباس بن مرداس وعلي وقثم بن العباس وشقران وذكر أنه لما أخذوا في دفنه صاحت الانصار فقالوا اجعلوا لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته نصيبا كما منه بمنزلة في حياته فدخل معهم أوس بن خولي من الانصار فكان ممن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فصل) وفي بعض ما روي ان جبريل عليه السلام هبط عند موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبط معه ملك الموت وملك يقال له اسمعيل في سبعين ألف ملك فسبقهم جبريل عليه السلام حتى جلس عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء ملك الموت فوقف بالباب فقال السلام عليكم أهل البيت ومنتهى الرحمة ومبلغ الرسالة فقالت فاطمة رضي الله عنها وهي تظنه غيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عنك مشغول ثم نادى الثانية ثم نادى الثالثة فقال جبريل يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائذن له يا جبريل فاذن له وأقبل ملك الموت حتى وقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أحمد ان الله تعالى أرسلني اليك وأمرني ان أطيعك في كل ما أمرتني به فان رضيت قبضت نفسك الطيبة وان كرهت تركتك فقال يا ملك الموت امض لما أمرت به فقال جبريل عليه السلام هذا آخر وطئي الى الارض انما كنت حاجتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعند شدتي تتركني فقال يا أحمد لا أستطيع أن انظر اليك وأنت تعالج غصص الموت فعرج جبريل وأقبل ملك الموت يعالج روح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه فسطعت رائحة طيبة لم يجدوا مثلها قط وسمعوا حفيف أجنحة الملائكة * وعن أنس بن مالك قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه رضي الله عنهم يبكون حوله اذ دخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في ازار ورداء يتخطى الناس وهم لا يعرفونه حتى أخذ بعضادتي باب البيت وبكى مع الناس ثم أقبل على أصحابه رضي الله عنهم وقال ان في الله عز وجل عزاء عن كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله فأنيبوا وبنظره اليكم فانظروا فانما المصاب من حرم الثواب ثم ذهب فقال أبو بكر رضي الله عنه هذا الخضر صاحب نبينا جاء يعزينا وفيما روي أنه ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ونبئ يوم الاثنين وخرج مهاجرا الى المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين

* (فصل) * وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال شهدت أبا بكر الصديق رضي الله عنه عند وفاته وقد دعاني وقال لي يا حبيبي يا أبا الحسن قد دنا الاجل وحضرت الوفاة فاذا أنا مت فاغسلني وكفني واحملني الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وليتقدم رجل يقول يا رسول الله أبو بكر الصديق بالباب فان فتح الباب بغير مفتاح فادخلوني والا فادفنوني في بين قبور المسلمين فقال علي رضي الله عنه فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه غسلته بيدي وكفنته وصليت عليه وحملناه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت أول من طرق الباب ثم ناديت يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب فوالله ثم والله لقد تفتحت الاقفال دون مفتاح وسمعت مناديا يقول أدخلوا الحبيب الى الحبيب فان الحبيب الى الحبيب مشتاق * ومن طريق مالك ان أسماء بنت

بجميس زوج أبي بكر الصديق هي التي غسلته

(فصل) ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنه عبد الله يا عبد الله ائت عائشة رضي الله عنها وقل لها ان عمر يقرئك السلام ويقول لك انا قد نهينا أن ندخل بيوتكن الا باذن أفتأذنين لي أن ادفن في بيتك قال عبد الله فأتيتها وقلت لها ذلك فبكت حتى علا بكاؤها ثم قالت نعم فأتيتهم وأخبرته فقال يا بني اني أرى المرأة قد اذنت لي قبل وهي تظن اني ابقى فاذا أنا مت فاغسلني وكفني فاذا احملتني فقدم السرير ثم قل لها هذا عبد الله يستأذن على الباب فان أذنت فادفني مع صاحبي وان أبت فاحملني الى البقيع ففعل فأذنت له قالت عائشة رضي الله عنها كنت ادخل البيت الذي فيه القبر فأقول انما هو زوجي وأبي فأضع خماري فلما دفن عمر رضي الله عنه معهما فوالله مادخلت البيت بعد الامشدودة على ثيابي حياء من عمر رضي الله عنه ووجدت في بعض الروايات عن الشعبي أنه قال مات كل واحد منهم وهو ابن ثلاث وستين سنة والله اعلم (ومما جاء في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم) روى عن كعب الاحبار انه قال مامن فجر يطلع الانزل فيه سبعون ألف ملك حتى يحفوا بالقبر فيضربون باجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان المساء عرجوا وهبط مثلهم وصنعوا مثل ذلك حتى اذا انشقت الارض عنه خرج في سبعين ألف ملك يوقرونه وروى في بعض الآثار انه من وقف عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ثم قال صلى الله عليك يا محمد سبعين مرة ناداه ملك يا فلان لم تسقط لك حاجة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من صلى على عند قبري سمعته ومن صلى على نائيا بلغته وقال عليه السلام مامن مسلم يصلي على صلاة الاصلت عليه الملائكة ماصلى على فليقلل العبد من ذلك أو يكثر وقال صلى الله عليه وسلم اكثروا الصلاة على في الليلة الغراء يعني ليلة الجمعة فان صلاتكم تعرض على وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من صلى على في يوم جمعة مائة مرة غفر له ذنوب ثمانين سنة وقال صلى الله عليه وسلم ان أقربكم مني أكثركم صلاة على وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقد عرف البشر في وجهه فقال له أبو طلحة بأبي انت وامي يارسول الله اني لأرى في وجهك البشر فقال أتاني جبريل عليه السلام آنفا وقال يارسول الله مامن أحد من أمتك صلى عليك مرة الاصلى الله عليه عشرا امثالها *وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكرت عنده فليصل على فانه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على *وعن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من زار قبري محتسبا كنت له شفيعا يوم القيامة وروى عن علي رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من اتى المدينة زائرا الي وجبت له شفاعتي يوم القيامة ومن مات في احد الحرمين بعث آمنا *وحكى العتبي أن اعرابيا قدم المدينة على قعود له فاناخ بباب المسجد ودخل فوقف حذاء قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته السلام عليك يارسول الله السلام عليك يا محمد بن عبد الله جزاك الله عن أمتك أفضل ماجزى نبيا عن امته اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد انك

يا رسول الله قد بلغت رسالة ربك ونصحت لامتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله على روحك في الارواح وجسدك في الاجساد ثم اقبل على ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال السلام عليك يا أبابكر الصديق السلام عليك يا عمر الفاروق السلام عليكما يا صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وضجيعيه بعد مماته جزاكما الله عن نبينا خيرا وعن الاسلام ثم اقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بابي انت وامي يارسول الله جئتك مثقلا بالذنوب والخطايا استشفع الى ربي فيشفعك فيّ فان الله تعالى يقول في كتابه الكريم وقوله الحق ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما وانا قد ظلمت نفسي وجئتك استشفع بك الى ربي واستغفر الله واتوب اليه ثم استقبل القبلة ورفع يديه وتلا الآية ودعا وقال الهي جئت محمدا صلى الله عليه وسلم ومحمد قدمات وان كان قدمات فانت حي لا تموت اتوسل اليك بصاحب هذا القبر اللهم شفعه فيّ الهي اذا مات لنا ميت وله عندنا اجلال وحرمة اعتقنا عند قبره عبيدا او اماء وانك قد أخبرتنا باجلال محمد عبدك ورسولك عندك فاسألك بحرمته أن تعتق اليوم عبدك الخاطئ على رأس قبره اجلالا له ثم ولى وهو يقول

يا خير من دفنت في القاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي فأخذتني عيني فاغفيت اغفاءة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي يا عتبي الحق الاعرابي وأخبره ان الله عز وجل قد غفر له برحمته

(ذكر الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم)

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كنا نقول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم يعني في الخلافة * وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضي الله عنه أن يقسم شيأ فكنا نقول له يا خليفة رسول الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي * وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت اذا جاء نصر الله والفتح جاء العباس الى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال له سل رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كان الامر فينا فلن نتشاح عليه وان كان في غيرنا سألناه الوصاة بنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى جعل أبابكر رضي الله عنه خليفتي على دين الله ووحيه فاسمعوا له تفلحوا وأطيعوه ترشدوا قال ابن عباس رضي الله عنهما فأطاعوه والله ورشدوا * وعن عائشة رضي الله عنها قالت أول من وضع صخرة في مسجد قباء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم فقلت يارسول الله انظر اليهم كيف يتبعونك فيما فعلت قال انهم أمراء الخلافة وروى عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل عليه السلام ولاة الامر بعدي أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم * وعن عبد الله بن أنيس قال كنت متحنثا في جبل جهينة فاذا ركب من أهل المدينة فنعوا الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عقلي وأظلمت علي الارض ثم استرجعت نفسي وثاب الي عقلي واحتسبت وقلت اهم هل استخلف على أمته من بعده قالوا الا قال فقلت اهم هل اجتمع الناس على رجل قالوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبابكر الصديق رضي الله عنه

أن

أن يصلي بالناس فقلت هو والله الامام وأى شئ أعظم من الصلاة عند الله عز وجل وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وعن النعمان بن بشير قال لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم الناس فيمن يقوم بالامر فقال قوم أبو بكر وقال قوم أبي بن كعب فأتيت أبيا فأخبرته فقال عندي من رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا شئ لا أذكره حتى يقبضه الله فلما قبض تنازع الناس فأتيت أبيا فقلت أراك قاعدا في بيتك وقومك في سقيفة بني ساعدة يتنازعون مع المهاجرين فقال والله ما أنتم من هذا الامر في شئ وانه لهم يليه من المهاجرين رجلان ثم يقتل الثالث ويكون الامر ههنا وأشار الى الشام وان هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أنه سئل ابن عباس عن أبي بكر رضي الله عنه فقال كان خيرا كله مع الحدة وشدة الغضب وسئل عن عمر فقال كان كالطائر الحذر يظن أنه قد نصب له حبالة في كل وجه وكان يعمل لكل يوم بما فيه وسئل عن عثمان رضي الله عنه وعنهم أجمعين فقال كان والله علوا أعلما وحلما غرته سابقة قرابته فكان لا يرى شيأ يطلبه الا قدر عليه * ومما رثي به صلى الله عليه وسلم

أجدك ما لعينك لا تنام * كأن جفونها فيها كلام
لوقع مصيبة عظمت وجلت * فدمع العين أهونه انسجام
فجعنا في النبي وكان فينا * امام كرامة نعم الامام
وكان قوامنا والرأس فينا * فنحن اليوم ليس لنا قوام
نموج ونشتكي ما قد لقينا * ويشكو فقده البلد الحرام
كأن أنوفنا لاقين جدعا * لفقد محمد فيها اصطلام
لفقد أغر أبيض هاشمي * امام نبوة وبه الختام
أمين مصطفى للخير يدعو * كضوء البدر زايله الظلام
سأتبع هديه ما دمت حيا * طوال الدهر ما سجع الحمام
أدين بدينه ولكل قوم * قديم من ذوابتهم نظام
فلا بعد فكل كريم قوم * سيدركه وان كره الحمام
كأن الارض بعدك طار فيها * فأشعلها لساكنها ضرام
فقدنا الوحي اذ وليت عنا * وودعنا من الله الكلام
سوى أن قد تركت لنا سراجا * توارثه القراطيس الكرام
لقد أورثتنا ميراث صدق * عليك به التحية والسلام
من الرحمن في أعلى جنان * من الفردوس طاب به المقام
رفيق أبيك ابراهيم فيه * وما في مثل صحبته نذام
واسحق واسمعيل فيه * بما صلوا لربهم وصاموا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه * وثوى مريضا خائفا أتوقع
شفقا عليه أن يزول مكانه * عنا فنبقى بعده نتفجع
نفسي فداؤك من لنا في أمرنا * أم من نشاوره اذا نتوجع

واذا تحل بنا الحوادث من لنا * بالوحي من رب رحيم يسمع
ليت السماء تفطرت أكنافها * وتناثرت منها النجوم الطلع
لما رأيت الناس هدّ جميعهم * صوت ينادي بالنعي فيسمع
وسمعت صوتا قبل ذلك هدني * عباس ينعاه بصوت يقطع
فليبكه أهل المدائن كلها * والمسلمون بكل أرض تجزع

وقال علي رضي الله عنه

ألا طرق الناعي بليل فراعني * وأرقني لما استقل مناديا
فقلت له لما رأيت الذي أتى * أغير رسول الله ان كنت ناعيا
فحقق ما أشفقت منه ولم يبل * وكان خليلي عزة وجماليا
فوالله ما أنساك أحمد ما مشت * بي العيس في أرض وجاوزت واديا
وكنت متى أهبط من الارض تلعة * أرى أثرا منه جديدا وعافيا
من الاسد قد أخفى العرين مهابة * تفادي سباع الطير منه تفاديا
شديد جرئ الصدر سهم مسدد * هو الموت معدوا عليه وعاديا

وقال عبد الله بن أنيس رضي الله عنه

تطاول ليلي واعترتني القوارع * وخطب جليل للخلائق جامع
غداة نعى الناعي الينا محمدا * وتلك التي تستك منها المسامع
وقد قبض الله النبيين قبله * وعاد أصيبت قبله والتوابع
فآليت لا أسى على هلك هالك * مدى الدهر ما رسا ثبير وفارع
فبال قريش قلدوا الامر بعضكم * فان نصير القوم للقوم نافع

وقال حسان بن ثابت

ان الرزية لا رزية مثلها * ميت بطيبة مثله لم يفقد
ولقد أصيب جميع أمته به * من كان مولودا ومن لم يولد
والناس كلهم بما قد عالهم * يرجو شفاعته بذاك المشهد
حتى الخليل أبوه في أشياعه * ونجيه موسى النبي المهتدي
متواضعين لربهم برقابهم * تلك الفضيلة واجتماع السودد
ياخير من شد المطية نحوه * وفد لحاجته يروح ويغتدي
أنت الذي استنقذتنا من حفرة * من يهو فيها من هواه يبعد
فهديتنا بعد الضلالة والردى * بهدى الاله الى السبيل الارشد
فجزاك عنا الله خير جزائه * بمقام محمود المقام مسدد

وقال أيضا حسان بن ثابت

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت * مثل النبي رسول الامة الهادي
ولا برى الله خلقا من بريته * أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به * مبارك الامر ذا عدل وارشاد

امسني

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما * يضربن فوق قفا ستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المسوح وقد * أنسن بالبؤس بعد النعمة البادى
يا أفضل الناس انى كنت فى نهر * أصبحت منه كمثل المفرد الصادى

وقال ابو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب

أرقت فبات ليلى لا يزول * وليل أخى المصيبة فيه طول
وقد عظمت مصيبات وجلت * عشية قيل قد قبض الرسول
كأن الناس اذ فقدوه عمى * أضر بلب حاز مهم غليل
نبى كان يجلو الشك عنا * بما يوحى اليه وما يقول
و يهدينا فلا نخشى ضلالا * علينا والرسول هو الدليل
يخبرنا بظهر الغيب عما * يكون ولا يجور ولا يحول
فلم نر مثله فى الناس حيا * وليس له من الموتى عديل
أفاطم ان جزعت فذا العذر * وان لم تجزعى فهو السبيل
فعودى بالعزاء فان فيه * ثواب الله والفضل الجزيل

وقال كعب بن مالك

وباكية حراء تحزن بالبكا * وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعد النبى محمد * ولو علمت لم تبك الا محمدا
فجعنا بخير الناس حيا وميتا * وادناه من رب البرية مقعدا
وأفظعهم فقدا على كل مسلم * وأعظمهم فى الناس كلهم يدا
لقد أورثت اخلاقه المجد والتقى * فلم تلقه الا رشيدا ومرشدا.

وانشد بعض الانصار عند موته صلى الله عليه وسلم

الصبر يحسن فى المواطن كلها * الا عليك فانه مذموم

وقال بعضهم

دعنى أكابد حسرة لا تنقضى * وأكن حزنا فى الحشا وهموما
وأربق دمعا لا يكفكف غربه * فتراه مخد رابسيل سجوما
أسفا على فقد النبى محمد * أن لم يكن طول الزمان مقيما
فيرى على كل البرية شاهدا * يرديهم نهج الصراط قويما
و يقيم فيهم دينه وحدوده * حكما ويحيى للصلاة رسوما
ويذل أهل الشرك ارغامالهم * و يعز أرباب التقى تعظيما
حتى يعم بلاده وعباده * عدلا ويترك ذا العناد ذميما
يا أيها القبر الذى حاز السنى * أصبحت منقطع القريب كريما
ضمنت أشتات المكارم والعلى * وحويت مجد الاكرام صميما
أودعت أشلاء النبى محمد * أعلى الورى قدرا وأكرم خيما
صلى الاله عليك ماجرت الصبا * وذرت نباتا فى التراب هشيما
يا أيها الملأ المصدق قوله * صلوا عليه وسلموا تسليما

وقالت صفية بنت عبد المطلب

مالعيني لاتجودان ريا * اذفقدنا خير البرية حيا
يوم نادى الى الصلاة بلال * فبكينا عند النداء مليا
لم أجد قبلها ولست بلاق * بعدها غصة أمر عليا
جل يوم أصبحت فيه عليلا * لا يرد الجواب منك اليا
ليت يومى يكون قبلك يوما * أنضج القلب للحرارة كيا
خلقا عاليا ودينا كريما * وصراطا يهدى اليه سويا
وسراجا يجلو الظلام منيرا * ونبيا مسددا عربيا
حازما عازما حليما كريما * عائد ابالنوال برا تقيا
ان يوما أتى عليك اليوم * كورت شمسه وكانت جليا
فعليك السلام منا ومن ربك * بالروح بكرة وعشيا

وقالت أيضا

ألا يارسول الله كنت رجاءنا * وكنت بنابرا ولم تك جافيا
لعمرك ماأبكي النبي لموته * ولكن أمرا بعده كان آتيا
أفاطم صلى الله رب محمد * على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدا الرسول الله أمي وأسرتي * وعمي ونفسي والجدود وخاليا

وقالت أيضا

وكنت لنا حرزا وصينا نبينا * ليبك عليك اليوم من كان باكيا
كأن على قلبي لذكر محمد * وماخفت من بعد النبي المكاويا
أباحسن أيتمته وتركته * يبكى ويدعو جده اليوم نائيا
صبرت وبلغت الرسالة صادقا * وقمت صليب الدين أبلج صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالما * سعدنا ولكن امره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية * وأدخلت جنات من العدن راضيا

وقالت هند بنت عبد المطلب

أفاطم فاصبرى فلقد اصابت * مصيبتك التهائم والنجودا
واهل البر والابحار طرا * فلم تخطئ مصيبته وحيدا
ألم يك خيرمن ركب المطايا * وأكرمهم اذا نسبوا جدودا
وكان المجد يصبح فى ذراه * سعيد الجد قد ولد السعودا
لخوفي ان قدرت بأن تموتي * فقدت الطيب الرجل المجيدا
رسول الله خير الناس حقا * فلست أرى له أبدا نديدا

وقال حسان بن ثابت فى اجتماع القبور الثلاثة

ثلاثة برزوا بسبقهم * بصرهم ربهم بما نشروا
عاشوا بلا فرقة حياتهم * واجتمعوا فى الممات اذ قبروا

فليس من مسلم له بصر * شكر من فضلهم اذا ذكروا

﴿فصل﴾ وذهبت أذهب الله عن جميعنا السيآت بوفور الحسنات أن اصل حكم البيان بقوافي الاوزان وان اتبع شواردالفوائد بنضائر القصائد وان اختم نوادر الأخبار بصار بيع الاشعار مما سمح به الخاطر على كلاله وجادبه الذهن على بخله واعتلاله في وصف مآثر هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله أكمل الصلاة وسلم أعم التسليم فلعلى ان أبلغ درجة الاحسان اذلا أنال بصدق النية درجة الحرمان اذ الاعمال بالنيات والاخلاص في حصول الطويات جعلنا الله واياك ممن أخلص لوجهه عمله وجعل في القيام بطاعته رغبته وأمله بمنه وفضله لحن ذلك .

سقى الله وابل صوب المطر * ثرى ضم أشلاء خير البشر
وضم ضجيعيه من بعده * أبا بكر المرتضى وعمر
لقد قدس الله ذاك الثرى * وطهره من جميع الغير
فاصبح يزرى بمسك الختام * ورضراضه بنفيس الدرر
تضمن خير الورى كلهم * وأحسنهم في المعالى أثر
وأبعدهم عن دواعى الهوى * وأرفضهم لساعى الضرر
وأوقفهم عند حكم الكتاب * وما ضمنت محكمات السور
وأحماهم لحمى المسلمين * اذا ما أباح الحمى من كفر
وأوفاهم لكريم العهود * اذا نقض العهد خب غدر
وأكرم بصحبهم الطاهرين * مصابيح ذاك الدجى المعتكر
ومن بايع المصطفى مخلصا * وآوى وهاجر حتى نصر
صلاة الاله وتسليمه * على جمعهم ما استنار القمر
ونسأل من عرشه في السما * وفي حكمه كل بحر وبر
يقينا يبلغ أقصى المنى * وفعلا يؤدى لنيل الوطر
وعونا على عمل صالح * بطاعته ما تراخى العمر
فنحشر في زمرة المصطفى * محمد المنتقى من مضر
ونسقى لدى الحشر من حوضه * بكأس روى لذيذ خصر
ونتعم في حضرات الجنان * ونعصم من شر ذمات الشرر
لقد خصه الله رب العلى * بفضل الشفاعة يوم الحضر
وأكرم مثواه طول الحياة * وأعلى منازله في البشر
يبلغ عن ربه وحيه * خبيرا وياصدق ذاك الخبر
وقام بدين الهدى صادعا * وحج الى بيته واعتمر
رسول كريم رؤف رحيم * صفوح حليم اذا ما قدر
رفيع المكان سخى البنان * جرىء الجنان جميل النظر
وفي العهود صحيح العقود * كريم الجدود اذا ما افتخر

حباه الإله الرضا واجتباه * وشيد علياه حتى ظهر
فصلى عليه العليم القدير * صلاة الأغر الأسد الابر
عدد الدرارى ورمل الصحارى * وقطر البحار ورش المطر
تروح وتغدو ولاء عليه * تعاقب آصالها والبكر
الى أن يجاز به بالجنان * غداة يجازى بها من شكر

وقلت أيضا

محمد النبى بلا ارتياب * أجل فتى مشى فوق التراب
وأكرم ماجد ركضت اليه * وحطت عنده قلص الركاب
وأنجد باسل ركب المطايا * وقادسوابق الخيل العراب
وأشجع من تدرع فى نزال * وأروع من تلفع فى ثياب
ألذ من الكرى بين الجفون * وأشهى للنفوس من الشباب
وأعطر من فتيت المسك عرفا * وأندى فى القلوب من الحباب
نبى بدء كل الخلق طرا * وأصبح من قريش فى اللباب
أتم الناس ميثاقا وعهدا * وأصدقهم مقالا فى الخطاب
وأرفعهم نصابا فى المعالى * وأشرفهم قديما فى انتساب
وأسرعهم الى التحقيق جريا * وأوقفهم الى حكم الكتاب
وأعدلهم قضاء وهو راض * وحاشى أن يعد من الغضاب
وأرأفهم وأرحمهم وأندى * يدا فى المكرمات من السحاب
وألين جانبا وأعم برا * وأوصل للقرابة والصحاب
لقد جمع الإله له خصالا * مطهرة تجل عن الحساب
وأظهر من دلائله لديه * شواهد واضحات كالشهاب
فمنهن انشقاق البدر لما * رآه السائلون من الصحاب
وحسبك منه معجزة تبدت * فلم يعلق بها ريب ارتياب
وفى القرآن نور مستبين * تجلى للعيون بلا حجاب
كتاب معجز كل البرايا * تنزل بالهداية والصواب
وكم قد رامه البلغاء قدما * وأرباب الفصاحة والخطاب
فما استطاعوا الأيسره دنوا * وقد حرموا الهدى من كل باب
ومازالت تحييه ابتدارا * وتعظيما جلاميد الهضاب
تناجيه الحدائق مفصحات * فتهديه التحية فى الجناب
دعا بالدوحتين فجاءتاه * تخد عروقها خد التراب
فلما أن قضى الارب المسمى * تبادرتا جميعا بالاياب
وحن الجذع من شوق اليه * وأشفق من مفارقة الجناب
ومازال الحنين به الى أن * تكنفه بضم واقتراب
وكلمه الذراع بلا لسان * يعين على الكلام ولا اهاب
وأنبأه بأن السم فيه * فلم يحمله ذاك على اجتناب

دعا الجم الغفير الى يسير * تيسر من طعام مستطاب
فعمهم وزاد ولم يكونوا * تعمهم جفان كالجوابي
وزود من قليل التمر خلقا * كثيرا أصبحوا صفر العياب
فرحوا امالئين لكل ظرف * أعدوا من وعاء أو جراب
وكم عدموا الشراب فاغدقتهم * أنامله الكريمة بالشراب
وأروى الكل ثم أفاض حتى * تحمل في السقاء وفي الوطاب
تعاهدهم بذا الثود امرارا * تقرر في المقام وفي الذهاب
دعا بالخير والبركات فيها * وحسبك من دعاء مستجاب
وكم من دعوة يوما دعاها * تقبلها المجيب من الحجاب
وقال لها رضا كونى فجاءت * باسرع للكلام من الجواب
براهين وآيات عظام * جليات تبكت كل آبي
ويزداد المطيع بها يقينا * بصيره الى حسن المآب
فسعى المؤمنين الى نجاح * وكيد الكافرين الى تباب
فصلى الله خالقنا عليه * عداد الرمل أو قطر السحاب
وأوسعنا شفاعته مبينا * لفضل مكانه يوم الحساب
وأوردنا جنى الحوض المحلى * وأسقانا باكوسه العذاب
ويارب العباد نداء عبد * كثير الذنب يدعو للمتاب
ويضرع في الاقالة من خطايا * عظام أوجبت ألم العقاب
فان تغفر له أو تعف عنه * فانعام المثيب على المثاب
وان تأخذ بما كسبت يداه * تعذبه وأهل للعذاب
ويا مستصفعا قولى أعنى * بدعوة مشفق يرثى لما بى
فرب أخ بظهر الغيب داع * لصاحبه نحا صافى الثواب

وقد انتهينا بفضل الله عز وجل وحسن عونه وله الحمد على جزيل طوله ومنه الى الحد الذى بلغنا اليه الاجتهاد ووصلتنا اليه الاستطاعة ونهض بنا اليه الوسع وانتهت بنا اليه المقدرة ووفينا بحمد الله عز ذكره بما شرطناه وتحرينا الصدق والصواب فيما سطرناه وبسطناه من تأليف الحكم المأثورة وتصنيف الغرر المنظومة والمنثورة ولا عون الا بالله ولا توفيق الا من الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فان كنا أصبنا فبفضل الله تعالى وتأييده وحسن معونته وتسديده وهو الذى أملنا وأردنا واليه فزعنا وقصدنا وان كنا قصرنا وحرمنا فذلك الذى قسم لنا وقضى علينا ونسأل الله الذى بيده ملكوت كل شئ واليه مرجع كل حى أن لا يحرمنا اجر النية فى قصد الخيرية وجميل الثواب على حسن المذهب فيه فانما الاعمال بالنيات والخلوص فى اخلاص الطويات وبرحمة الله الوصول الى الخيرات فذلك بيده لا رب غيره اللهم يا من هو الاول قبل كون كل موجود ويا من هو الآخر بعد عدم كل مفقود ويا من كان ولم تكن فى السموات قطرة ولا فى البحار قطرة ولا فى الارضين صخرة ولا للارياح هبوب

ولا نفح ولا للسحاب سكوب ولا سفح ولا للمشارق والمغارب جوانب ولا سفح فرفع السماء على عمد القوة وعلم مافوقها ودحا الارض على مهاد القدرة وعلم ماتحتها وأجرى البحار فى أخاديد العظمة وعلم ماوراءها وأرسل الرياح فى آفاق الهواء وعلم قرارهبوبها وأنشأ السحاب فى جو السماء وعلم مكان صيبها وخلق الليل والنهار وجعل الظلمات والانوار وفجر العيون والانهار وأنبت الاشجار والثمار وأرسى الجبال على متن الارض للقرار وأحصى الاعداد وقدر الآماد وجمع الاضداد وزوج الافراد وقضى على جميع المخلوقات بالفناء فسبحانه من قادر أبدع المصورات وأتقن المصنوعات من غير محاولة ولا آلات انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون اللهم انى أسألك يامن استنارت بنور بهائه الاحلاك واستدارت بمقدور قضائه الافلاك وخضعت لعزة سلطانه رقاب الجبابرة والاملاك وبجميع ماأحاط به علمك ووسعه حلمك وبأسمائك الحسنى وصفاتك العليا وبآلائك التى لاتحصى وبعلمك الذى استوى فيه الحاضر والغائب وبكلماتك التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر وبنور وجهك الكريم وبما أقل من جلالك واستقل به عرشك العظيم وأسألك اللهم بك حتما ليس وراءك مرمى ولابعدك منتهى أن تصلى على سيدنا محمد عبدك الامين ورسولك المبين وخاتم أنبيائك والمرسلين وعلى أزواجه وعترته الاكرمين وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى أهل طاعتك أجمعين وأن تقينا شر ماخلقت وبرأت وذرأت وشر ماأنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم اللهم ارزقنا من العلم أنفعه ومن العمل أرفعه ومن القول أصدقه ومن اليقين أوثقه ومن الخير أكمله ومن الصبر أجمله ومن الحكم أعدله ومن التقى أدومه ومن الهدى أعممه ومن العيش أنعمه ومن النظر أحزمه ومن الرجاء أعظمه ومن الخلق أكرمه ومن الرحمة أكملها ومن النعمة أشملها ومن العافية أجملها ومن العبادة أفضلها اللهم قنا سوء المضطجع ولقنا حسن المرتجع وآمنا يوم الفزع وثبتنا عند معاينة المطلع ولا تفضحنا على رؤس الاشهاد فى ذلك المجتمع اللهم فانا قد سبقتنا اليك الذنوب وماقدمنا وأخرنا منها فى اللوح مكتوب فهى تنتظرنا ونحن ننتظر الرحمة التى وسعت كل شئ وعمت كل حى * اللهم حقق رجاءنا لما ننتظره وآمنا مما نحذره ولا تؤاخذنا بما قدمناه واغفر لنا ما اجترمناه اللهم هب لنا من حسن اليقين ماتسهل به علينا انتظار المنية * وارزقنا من جميل الظن بك ماننتيقن به بلوغ الامنية واقسم لنا من جميل الصبر ماتهون به علينا كل رزية اللهم انا نعوذ بك من نزغات الشياطين وسطوات السلاطين وبغى المعادين وشماتة الحاسدين وجور الجائرين وظلم الظالمين وحقد الضاغنين اللهم أعطنا ثواب الاوابين واجزنا جزاء المحسنين واحشرنا مع المتقين وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين اللهم لاتنزل بنا فى حال من أحوالنا تغييرا ولا تسلط علينا جائرا مغيرا ولا تلحق بنا فيما نؤمله من صلاح ديننا ودنيانا تعذيرا ولا فيما يرضيك منا وترضى به عنا تقصيرا واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا انك كنت بنا بصيرا اللهم احفظ علينا

تمام النعمة وصل لنا دوام العصمة وقنا حلول الوصمة ولا تخلنا من شمول الرحمة انك ذو وفاء وذمة اللهم ما آتيتنا من فضلك فاجعله في زيادة واجعل اشتغالنا فيما بقي من أعمارنا بالعبادة وارزقنا في مساعي الخير وابر الاعادة حتى نبلغ من جزيل ثوابك الارادة واختم لنا في جميع الاحوال بالسعادة اللهم اجعلنا في كنفك من الطوارق وقنا برحمتك من جميع العوائق واقطع عنا فيما يقصر بنا عنك كل العلائق انك أنت الخالق الرازق اللهم رضنا بما قضيت وقدرت حتى لا نحب تأخير ما عجلت ولا تعجيل ما أخرت اللهم اليك اقتصادنا وبك اعتدادنا وعليك اعتمادنا وبك اعتضادنا ولك استنادنا وفيك مرادنا فاجعل التقوى زادنا والطاعة اعتقادنا وفي رضاك اجتهادنا وفي عداك جهادنا وآمن اللهم بلادنا وأصلح أولادنا وكثر أعدادنا اللهم هب لنا من فضلك العفو والعافية واجعلها باقية غير عافية وأعذنا من نفوس ساهية وقلوب لاهية وعقول واهية واعصمنا من كل داهية ومن البطر والرفاهية واجعل لنا طاعتك عن معاصيك ناهية اللهم انا نعوذ بك من قلب لا يخشع وجسم لا يخضع ونفس لا تقنع وعين لا تدمع وأذن لا تسمع ودعاء لا يرفع وعذاب لا يدفع اللهم نور قلوبنا بذكرك وأطلق ألسنتنا بشكرك وامنن علينا بعواقب برك ولا تخلنا من جميل نظرك ولا تكلنا الى كلاءة غيرك ولا تحرمنا جزيل خيرك اللهم أذقنا برد عفوك وغفرانك وحلاوة رحمتك ورضوانك ولذة انعامك واحسانك وشهي تطولك وامتنانك واجعلنا في جوارك وأمانك يوم يجمع الناس ليوم الفصل وتوضع الاعمال في ميزان العدل فلا تظلم نفس شيئا يامن اليه المرجع وفي رحمته المطمع منك نسأل واليك نضرع فامنن علينا ولا تمنع وصل عوارفك ولا تقطع انك أنت الاكرم الانفع الاعز الارفع لا رب غيرك ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى أهل طاعته أجمعين من أهل السموات والأرضين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم * وقد تم الكتاب بحمد الله

وعونه وحسن توفيقه وفرغ منه يوم الخميس

رابع عشر ذي القعدة عام تسعة

وثلاثين وثمانمائة

من الهجرة

(يقول المتوسل بافضل من وطئ البساط * طه بن محمود المنسوب الى دمياط)

حمدا لمن أوطأ أهل الادب هام المعالى وجعل أهل العلم هم السادة وغيرهم الموالى اذ أضحت بغيتهم أجل بغية وحليتهم فى الناس أجل حليه فهم الناس الاكياس وان صفرت منهم الوطاب والاكياس وهم أرباب المجد والعزة على رثاثة الاسمال وشعث البزة وصلاة وسلاما على من أدبه ربه فاحسن تأديبه وبعثه ليتمم مكارم الاخلاق وأجزل له من حسن الخلق والخلق نصيبه وعلى آله آل القرآن وأصحابه أصحاب العرفان *(أما بعد)* فكم لله جل ذكره من نعمة سابغة وعارفة أشرقت فى الاكوان شموسها البازغه ومن جلائل نعمه وعظائم بره وكرمه طبع الكتاب الجليل الغنى بوضوح فضله عن الاجمال فى اطرائه والتفصيل المسمى بالذخائر والاعلاق فى آداب النفوس ومكارم الاخلاق تأليف قدوة الادباء من أصبح لسان حاله يناديهم أن هذه سبيلى الامام أبى الحسن سلام بن عبد الله الاشبيلى فهو لعمرى جدير بان تتزاحم على مناهل تحصيله أقدام الاعلام وتتنافس فى اقتنائه بنفائس النفوس همم ذوى الافهام فلو لم يسفر من مطالع المطابع الاشمس هذا الكتاب لاغنى عن الصباح ضوءها الساطع على شعاب الالباب فكيف وقد أينعت بالمطابع ثمرات العقول وجادت شحاح الآمال من مخبآت الكتب بما لم يكن اليه لولا الطبع وصول ومما كان مطويا عن الظهور ضميرا لا يبرز من زوايا الضمور بعيدا عن يد التحصيل مرماه لا يعرف اسمه فضلا عن مسماه هذا الكتاب المستطاب المملوء الوطاب من فنون الحكم والآداب فاتاح الله له من كلف بطبعه وشغف بنشر أرجه وبث ضوءه بالمطبعة الوهبية ذات المحاسن الكسبية والوهبية وفرغ منه فى النصف من ربيع الثانى ١٢٩٨ من هجرة من أعطى السبع المثانى صلى الله عليه وعلى آله وكل ناسج على منواله آمين

تم

1880